

مكتبة
494
رواية
جائزة Robert-Gernhardt 2013
آخر الأيام الدافئة
ريكاردا يونجة
ترجمة: د. علا عادل
المحروسة

آخر الأيام الدافئة

عنوان الكتاب: آخر الأيام الدافئة

Die Letzten Warmen Tage

المؤلفة: ريكاردا يونجه Ricarda Junge

ترجمة: د. علا عادل



قطعة رقم 7399 ش28 من ش 9 - المقطم - القاهرة

ت، ف: -28432157 02 002

www.mahrousaeg.com

e.mail : info@mahrousaeg.com

e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران

مدير النشر: عبدالله صقر



The translation of this work was supported by the Goethe-Institut, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs, within its programme Litrix.de

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٠٨١٥

الترقيم الدولي: 978-977-313-713-7

رواية

مكتبة | 494

آخر الأيام الدافئة

ريكاردا يونجه

ترجمة: د. علا عادل

الطبعة الأولى 2018



فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

يونجه، ريكاردا

آخر الأيام الدافئة/ ريكاردا يونجه؛ ترجمة علا عادل.ط1_

القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية، 2018.

452 ص؛ 14.5 × 21.5

تدمك 978-977-313-713-7

1 - القصص الألمانية

أ- عادل، علا (مترجم)

ب- العنوان

833

رقم الإيداع: ١٠٨١٥ / ٢٠١٨

إلى هايدي وتوماس؛ لأنهما وقفا إلى جانبي بكل ثبات.

إلى فيكتوريا وفريدريكه؛ أنتما تجعلان حياتي ثرية.

"عندئذ ارتعشت المرآة بشدة

لدرجة أنها سقطت على الأرض

وتهشمت إلى قطع صغيرة.

كان بعض القطع يضاهي حجمها

حبات الرمال. وإذا أصابت إحداها

عين أحد كانت تستقر بها فيرى الناس

كل شيء معكوسًا، ولم يكن بإمكانهم إلا

رؤية الأمور مقلوبة رأسًا على عقب."

هانز كريستيان أنرسن

ملكة الجليد.

(1)

كان ذاك يومًا حارًا ضمن سلسلة أيام حارة تسببت في جفاف الأرض وحرق الحشائش. لم تكن الريح تعصف، ورغم ذلك تصاعد تراب أصفر من طرقات الحديقة واستقر على بشرة الأطفال مثل ورق النشاف. كانت رائحة المياه تشبه رائحة الأنهار الجوفية، وكانت المياه باردة ونقية وتسبب شعورًا بالوخز عند الأقدام. بمجرد حركة يدٍ استطاع الطفلان أن يحملا المياه من الأعماق إلى الأعلى. كان بمقدورهما مقاطعة تدفق المياه وإجبار الكرة على التوقف عن الدوران. عَلِمَا ذلك وشَعَرَا بقوتهما وسلطانهما. في هذه اللحظة تنحنح الصبي وقال: "أنتِ أختي الحبيبة"

مرّرتِ الفتاة لسانها على شفتيها وكانت تفكر كيف أن ادعاءَ ذلك ليس بالأمر العسير، حيث لم يكن هناك سواهما ولم تكن له أختٌ سواها. ولكنها أدركت لاحقًا، بالطبع، أهمية هذه اللحظة وأومأت برأسها. في أثناء شعورها بالخجل مررت الفتاة إصبعها عبر الغشاء المائي، فتطايرت المياه وتلألأت حتى تبلل الاثنان معًا.

أنا وأخي:

تلك هي اللحظة التي أفكر فيها وأعود إليها بذاكرتي مرة أخرى حين أشعر بالتعاسة.

(2)

وقفت عند الباب مجددًا لوهلة أستطلع الأمور. أيجب أن أغلق النوافذ قبل أن أذهب؟ لا أريد سوى شراء السجائر من أحد تلك المحال التي تفتح حتى وقت متأخر على بعد ثلاثة شوارع فقط. لن يستغرق الأمر سوى خمس دقائق، أو عشر على أقصى تقدير. ثم أعود مرة أخرى.

ولكنني سأغلق الباب بالمفتاح، وألقي به في حقيبة يدي. معي نقودي وهاتفي الجوال، هل سأحتاج شيئًا آخر؟ لا.

فاحت على الدرج رائحةٌ مثل رائحة الكرنب الأبيض وأحد منتجات التنظيف القوية التي تحتوي على الخل. كما كانت تشبه إلى حد ما رائحة دورات المياه، أو مواسير الصرف العتيقة. كيف يُمكن أن تبدو تلك المواسير من الداخل؟ لطالما تخيلت هذا الأمر حينما كنت في لايبزيج سابقًا. لم يكن لدينا حمّام في غرفة سكن الطلاب. كان الحمّام على بسطة الدرج، تفوح منه نفس الرائحة التي أشمها هنا.

عنـد تجديـد المنـازل كانـوا يقتلعـون المواسـير القديمـة ويلقـون بهـا مـن النوافـذ في الحاويـات الكائنـة بالشـارع. كانـت المواسـير حينئـذ، تنفجـر وتتناثـر منهـا الشـظايا، وتصـدر صوتًـا مدويًـا، ولكنهـا نـادرًا مـا انكـسرت، حيـث كانـت صلبـة مـن الداخـل، وبعضهـا مُغطـى بقـشرة خارجيـة ذات لـون بنـي محمـر، والبعـض الآخـر يُشـبه صواعـد الكهـوف السـوداء السـميكة، حيـث كانـت تحمـل مـا يقـرب مـن بـراز قـرن كامـل، يـكاد يكـون قـد تحـول بالفعـل إلى حفريـات. لم أسـتطع أبـدًا أن أمـر بتلـك الحاويـات، دون أن ألقـي النظـر بداخلهـا.

حملـت الحقيبـة عـلى كتفـي ونزلـت الـدرج. كان الدرابزيـن خشـبيًا متزعزعًـا، والـدرج مغطـى باللينوليـوم، والجـدران مدهونـة بلـون أخـضر فاتـح. كان هنـاك مصبـاح فـوق كل بسـطة درج، ولكـن المصبـاح المعلق بين الدوريـن الأول والأرضي لم يكـن يعمـل. مـن يراقبنـي؟ مـن يقـف بالأعـلى ويتفقـد أمـري؟ يـا للهـراء! ومـع ذلـك شـعرت بتنميـل في مؤخـرة عنقـي. نظـرت إلى الخلـف، لم يكـن هنـاك أحـد، بالطبـع لا يوجـد أحـد.

أجـد دائمًـا سـببًا لمغـادرة مكتبـي. فلـم يعـد هنـاك مـن يسـتوقفني ويسـألني: إلى أيـن توديـن الذهـاب الآن؟

لست معتادة بعدُ على العيش وحيدةً.

لا يحـدث الكثـير في المنطقـة خـلال النهـار. والآن مـع حلـول المسـاء تهـدأ الشـوارع تمامًـا وتشـبه هـدوء الموتى. كان حـي برنتسـلاور بـيرغ عـلى مقربـة مـن المنطقـة. ثـلاث محطـات بالـترام أو ربـع سـاعة سـيرًا عـلى الأقـدام. هنـاك تصطـف المحـال والمقاهـي جنبًـا إلى جنـب بحيـث لا يجـد الزائـر أبـدًا مكانًـا لصـف السـيارة، وكانـت جميـع المنـازل مجـددة منـذ وقـت طويـل. تفـوح رائحـة الفحـم البنـي هنـا دائمًـا في الأيـام البـاردة. هنـاك العديـد مـن المحـال الخاويـة. بـدلًا مـن المقاهـي هنـاك حاويـة لبيـع المأكـولات الآسـيوية السريعـة متوقفـة أحـد أراضي البنـاء. منـذ

وقت ليس ببعيد افتتح صالون حلاقة يواكب الموضة يُسمى "شنيت شتيله" وأصبح ينافس المحال القديمة مثل "كوافير شرودر" و "مانديز لقصات شعر الرجال والسيدات والأطفال". على ناصية شارعي ريخارد زورغه وإريش موزام وُضعت لوحة تُعلن عن بناء شقق فارهة عالية الجودة، كتب أحدهم فوقها بواسطة رذاذ أحمر اللون "اذهبوا إلى الجحيم" و"رأسماليون أوغاد".

أتوجه إلى أحد تلك المحال التي تفتح حتى وقت متأخر في ميدان فرانكفورتر تور. وهو المحل الوحيد في المنطقة الذي يبيع ماركة السجائر التي أشتريها ضمن تشكيلة السلع. لم أكن أواجه تلك المشكلة في حي برنتسلاور بيرغ.

اشتريت علبتين صغيرتين. أصبح سعرها في الآونة الأخيرة عشرة يوروهات وأربعين سنتًا. أعدّ النقود على النضد وأضع السجائر في حقيبتي. كان ثمن العلبة خمس ماركات حين بدأت بالتدخين. كنت في الثالثة عشر حينها. كانت أمي تسألني حينذاك: "لماذا لم تأخذي عني سوى هذا الأمر؟" كانت تدخن باسترخاء وأناقة، وتميل برأسها جانبًا، وتحني يدها قليلًا، وتنفث الدخان ببطء، وتنظر إليه بأعين نصف مفتوحة تكاد تكون متلهفة إليه. نادرًا ما كانت تدخن أكثر من ثلاث أو أربع سجائر في اليوم؛ واحدة صباحًا واثنتين ظهرًا، ودائمًا ما كانت تدخن واحدة في المساء أمام مرآة الحمام. كنت أحب مشاهدتها وهي تمد شفتيها لتنفخ الدخان أمام انعكاس صورتها في المرآة. كان لها شعر طويل داكن ووجه نحيل وفم عريض وأنف كبير إلى حد ما. كانت تقول عادة: "أخذته عن أبي" وكانت تسميه منخارًا. حينما كنت أخدش بأظافري طرف الباب بهدوء شديد كانت أمي ترتعد وتنظر إلي في اندهاش، بل في حيرة. كنت أشعر دائمًا وكأنها قد عادت للتو من عالم آخر. عادت إلي، ثم كانت تبتسم وتلوح لي

بيدها لتخرجني وتقول: " هيا هيا إلى السرير، وسآتي للاطمئنان عليكِ حالًا"

إلى جانب وظيفتي - فأنا كاتبة نصوص إعلانية لشركة شحن أونلاين- أكتب أيضًا رواية هي الثانية لي، وأحاول أن أحكي فيها قصة أمي وهروبها من ألمانيا الشرقية، ولكنني لا أتقدم فيها جيدًا.

أجلس على مقعد حجري مثبت بحائط المنزل، وأشعل سيجارة. يجوب المتزلجون أنحاء الميدان، وتصدر عجلات ألواح التزلج صليلًا عند ارتطامها بالأرض الإسمنتية غير المستوية.

إنها بداية شهر سبتمبر؛ حيث ستصبح الأيام أقصر وسيسود قريبًا البرد والظلام مجددًاالأشْهرٍ عدة. ففي الشتاء الماضي كسا الثلج برلين منذ شهر ديسمبر حتى بداية مارس.

أسير بخطى سريعة بامتداد الحي بين أشجار الحور. حيث تواتيني فكرة للرواية، فأرغب في الذهاب إلى المنزل. يجب أن أعود إلى مكتبي في الحال. أستطيع للحظة عابرة أن أتخيل شكل القصة أمامي، وإن لم أسرع بما فيه الكفاية ستمر هذه اللحظة. أسرع في السير أكثر بينما يصدر الحصى تحت حذائي صريرًا. ربما من الأفضل أن أركض. تمر الرياح عبر قمم أشجار الحور، وفجأة يظهر هذا الرجل. اصطدمنا ببعضنا بعضًا.

تراجعت إلى الوراء.

تعثرت.

فأمسك بذراعي.

(3)

إنـه يرتـدي بدلـة رماديـة وقميصًـا أبيـض، بينـما علـق معطفـه الطويـل عـلى كتفـه.

يقـول: "الجـو أكـثر دفئًـا مـما تخيلـت" ثـم يسـير إلى جـواري. فأشـعر وكأن يـده قـد خلفـت بصمـة عـلى ذراعـي. سـتترك قبضتـه بالتأكيـد بقعـة زرقاء.

للوهلـة الأولى بـدا أكـبر حجـمًا مـما هـو عليـه. إنـه ممشـوق القـوام، لا، بـل نحيـل، ولا يتعـد طولـه بالتأكيـد مـترًا وثمانـين سـنتيمترًا. لديـه تلـك الهالـة التـي توحـي بأنـه شـخص صعـب المـراس يسـعى وراء أهدافـه. شـعره الأصهـب ممشـط بدقـة للخلـف. فبـدا وكأن أحدهـم قـد مـد أسـلاكًا نحاسـية طويلـة فـوق رأسـه، كـما أن بشرتـه فاتحـة للغايـة.

يسـألني: "أيمكـن أن أجـد هنـا مكانًـا لتنـاول الطعـام وشرب بعـض نبيـذ الروزيـه الرائـع؟"

هنـاك بعـض المطاعـم بالحـي، مثـل مطعـم براغـر هوبفينشـتوبه واليونـاني، كـما يوجـد مطعـم يقـدم شرائـح اللحـم ويعلـن أنـه لا يوجـد مـكان آخـر سـواه يقـدم الأكل بسـعر أرخـص.

يقـول: "لم أتحمـس للأمـر" ويضـع معطفـه الـذي كان قـد تزحـزح قليـلًا عـلى كتفـه مـرة أخـرى، ثـم ينظـر إلي. حواجبـه فاتحـة للغايـة لدرجـة أنها يصعـب التعـرف عليهـا، يبتسـم ثـم يقـول: "مـن المفـترض أن تكـون هنـاك حانـة جيـدة بالجـوار، الحانـة التشـيكية أو شيء مـن هـذا القبيـل."

يواصل التحديق فيَّ، فأتفادى نظرته.

"ولكـن هـذا المـكان لا يقـدم الطعـام، بـل يقـدم مشروبـات معقولـة فقـط"

"معقولـة؟ رائـع جـدًا" يضحـك ويبـدأ بالسـعال، فيضـع قبضـة يـده أمـام فمـه، ويهـز رأسـه وكأنـه متـبرمٌ أو غاضـبٌ حسـب مـا بـدا لي. تدمـع عينـاه. يقـول بصـوت متحـشرج: "فلنذهـب إلى هنـاك"، ثـم يتنحنـح وينظـر إليَّ مبتسـمًا ويقـول: "لا ترفـضي مـن فضلـك"

كان ينبغي أن أغلق النوافذ.

هـل سـمع فقـط عـن هـذه الحانـة؟ لا. فعنـد دخولنـا وجَّـه إليـه النـادل التحيـة وجـاء صـوت امـرأة مـن ركـن خـاص بالحانـة: "نحـن هنـا كونسـتي، لمـاذا أتيـت متأخـرًا مـرة أخـرى؟"

"لقـد تعرفـت عـلى أحدهـم" قالهـا وكأنـه شـعر أننـي أرغـب في المغـادرة. فأمسـكني مـن كتفـي ودفـع بي أمامـه. تلـك القبضـة المحكمـة مجـددًا، ثـم وضـع خـده البـارد الأملـس عـلى أذني وهمـس: "مـا اسـمك؟"

"آنّا"

فقـال: "اسـمحوا لي أن أقـدم لكـم آنّـا". ثـم همـس إليَّ مجـددًا: "إنهـم مملـون للغايـة. لا تتخـلي عنـي رجـاءً"

ترتـدي السـيدة قرطًـا كبـيرًا ذا لـون مرجـاني، وبنطـال جينـز ضيقًـا لأحـد مشـاهير مصممـي الأزيـاء، وبلـوزة رماديـة مرتخيـة مـن الحريـر. يزيـن صدرهـا المسـطح سلسـلة حمـراء سـميكة تلائـِم القـرط. أمـا الآخرون فكانـوا رجـالًا، ومـن الواضـح أنهـم يكبرونـني. وكانـوا يرتـدون إمـا البـدل وإمـا سـترة وبنطـال جينـز.

يفصـل الركـن الخـاص الـذي نجلـس فيـه عـن باقـي الحانـة حائـطٌ زجاجـي وبـاب ينزلـق جانبًـا دون صـوت.

كان هنـاك موسـيقى خافتـة مـن معزوفـات جـاك بريـل الـذي يجـب أن تُسـمع موسـيقاه بصـوت عـالٍ.

جلسـنا عـلى مقعـد منخفـض أصغـر مـن أن يتسـع لكلينـا. رشـح لنـا النـادل مـشروب دايكويـري الطبيعـي، وهـذا مـا طلبتـه. أمـا كونسـتي -لم يعجبنـي هـذا الاسـم- فطلـب زجاجـة روزيـه. أعجبنـي مصبـاح الطاولـة، حيـث كان لـه مظلـة بلـون قـشر البيـض، وقاعـدة فضيـة ثقيلـة عـلى هيئـة كـوز الصنوبـر. بـين المقاعـد وضعـت طـاولات منخفضـة مكعبـة الشـكل عليهـا منفضـات سـجائر. أشـعلت سـيجارة، بـدأ كونسـتي بالسـعال، وبـدا صـوت سـعاله جافًـا وخشـنًا. رمقتنـي السـيدة ذات القـرط المرجـاني -التـي كانـت تخـوض للتـو حـوارًا شـيقًا- بنظـرة ممتعضـة. استنشـقت الدخـان بعمـق وأخرجتـه مـن أنفـي ثـم سـألت: "أيزعجـك ذلـك كونسـتانتين؟"

ضحـك ثـم قـال: "لا تناديـني هكـذا! أنـا كونسـتي فقـط، وإلا سأشـعر بأننـي كبـير في السـن."

"أنا لا أحب الرجال الذين يحملون أسماء شباب صغار."

نظر إلي وقال: " فلتواصلي التدخين فحسب."

يعمـل كونسـتانتين في مجـال الإنترنـت. والآخـرون كذلـك. كنـت أتخيـل هـذا النـوع مـن النـاس بشـكل أو بآخـر أكـثر اسـترخاءً. تحـدث أحـد الرجـال، -ربمـا في بدايـة الأربعينيـات، أصلـع الـرأس، لـه ذقـن حـاد ويرتـدي نظـارة سـوداء مـن العـاج- عـن أحـد صناديـق رأس المـال الـذي كان يسـتثمر في شركات ناشـئة في برلـين. فقـال "إننـي أحتكـم الآن عـلى خمسـين مليـون يـورو".

تحدثـوا عـن مصطلحـات لا علـم لي بهـا مثـل التجـارة الإلكترونيـة، وتبـادل الأعـمال التجاريـة، ورأس المـال المخاطـر. كان كونسـتانتين قـد بـاع للتـو تطبيقًـا يلفـت الانتبـاه للعـروض الخاصـة، سـواء عـروض ورق الحمام، أو غـرف الفنـادق، أو السـيارات الفارهـة. بواسـطة هـذا التطبيـق - هكـذا راح يـشرح لي الأمـر- يمكنـك دائمًـا التعـرف عـلى أقـرب أماكـن الحصـول عـلى العـروض الرخيصـة. وهنـاك تطبيقـات أخـرى خاصـة بالمطاعـم وأهـم الأحـداث وطـرق الاسـتجمام.

قـال الرجـل ذو النظـارة العاجيـة بابتسـامة خبيثـة: "وهنـاك تطبيـق أيضًـا لمضيفـات الطـيران". تجاهله كونسـتانتين ووجـه كلامه إليَّ مـرة أخرى: "تلـك التطبيقـات تعتـبر بديـلًا شـاملًا عـن البنيـة التحتيـة الاجتماعيـة، فهـي تجعلـك عـلى علـم بـكل شيء دائمًـا، وبغـض النظـر عـن مـكان تواجـدك ستشـعرين دومًـا وفي كل مـكان بأنـك في المنـزل."

تدخلـت المـرأة ذات القـرط المرجـاني في الحـوار قائلـة: "ولكـن هـذا ليـس سـبب وجـودك في برلـين، فلِـمَ لا تفصـح لي عـن مخططاتـك يـا كونسـتي؟"

سـاد الصمـت عـلى الطاولـة، ونظـر الجميـع إليـه. سـحب سـيجارة مـن علبتـي وأشـعلها ثـم قـال: "عندمـا يتحقـق الأمـر سـتكونين أول مـن يعـرف، ولكنـه ليـس مؤكـدًا بعـدُ يـا عزيـزتي."

إنه ينفث الدخان فقط، يلف الدخان وجهه. ترفع السيدة حاجبيها المنمقتين التي بدتا في تلك اللحظة كالبوابات الرفيعة وتقول: "أتمنى ذلك حقًا."

ينتصب جسده، ويصدر عنه سعال بصوت أجش. إلا أنه يواصل تدخين السيجارة على الرغم من ذلك، ولكنه ينفث الدخان على الفور ثم يطفئ السيجارة في منفضة السجائر.

أردت المغادرة بعد تناول مشروبي الثاني؛ فودعتهم. قبّلني كونستانتين على وجنتي وجلس مجددًا. بينما كنت أفتح الباب الزجاجي وأغادر هذا الركن الخاص من الحانة أومأ لي برأسه. توجهت إلى البار كي أدفع حسابي. هل معي ما يكفي من النقود؟ قبل أن أنظر قال لي النادل وهو يملأ إناء مزج المشروبات بالثلج المجروش: "لست بحاجة لذلك؛ دُفِعَ الحسابُ."

فكرت بيني وبين نفسي: متى فعلتَ ذلك يا كونستانتين؟ أردت البحث عنك، فإذا بك فجأة تقف إلى جواري.

تقول لي وأنتَ تضع معطفك على كتفك: "سوف أرافقك."

"لست مضطرًا لذلك."

"دون اعتراض! أظننتِ أني سوف أتركك ترحلين وحدك؟" وضعتَ بطاقتَك الائتمانية على النضد، مسحها النادل في الجهاز واقتطع الإيصال ثم أعطاك إياه مع قلم حبر. انحنيتُ تجاهك لأرى كيف توقع. كان جدي يقول دائمًا إن توقيع الشخص يكشف الكثير عنه. أما جدي نفسه فلم يكتب إلا على الآلة الكاتبة، كان يقول إنه بذلك "سيظل متخفيًا."

أخرجتَ قلم حبر سائل فضي اللون من جيب سترتِك الداخلي. نزعتَ الغطاء ووضعتَه بعناية في مؤخرة القلم. كان حبر القلم أسودَ، وكان له أنبوبٌ صلبٌ مدببٌ. بدت طريقة كتابتِكَ صلبة كذلك

وحادة بعض الشيء. كان خطكَ ممشوقًا انسيابيًا تتحرك فيه الحروف الكبيرة العالية بخفة كخفة قصب الرمال حين تمر الريح من خلاله.

حين خرجنا من الحانة كان الجو باردًا. ارتديت معطفكَ ثم سألتَني: "أم أنكِ ترغبين في ارتدائه؟"

هززت رأسي ثم سألتك: "هل كان هؤلاء زملاءك؟"

"إنهم بالأحرى أسماك قرش تسبح في نفس الحوض" أمسكتَ بيدي، طويتَ أصابعك حول أصابعي ثم قلتَ: "جميل أنك سمحتِ لي بمرافقتك."

"لم تترك لي خيارًا آخر" قلتُها وضحكت، أما أنت فصحتَ بي فجأة بشكل يكاد يكون عدوانيًا: "هل قاومتِ؟ لم ألاحظ ذلك. من لا يقاوم، لا ينبغي أن يشتكي بعد ذلك."

ماذا يحدث الآن؟ هل أفرطتَ بالشراب؟ وقفتُ مكاني وقبل أن أقول أي شيء، همستَ أنت: "اللعنة!". رفعتَ يدك بعدها ببطء وكأنك قد استيقظت للتو، وفردت إصبعيك السبابة والإبهام وفركت عينيك ثم قلت: "كان ذهني لا يزال عالقًا بأسماك القرش. أحيانًا لا أعود إلى الواقع مرة أخرى في الوقت المناسب. يسيطر حينئذٍ على تفكيري شيءٌ ما. معذرة" أرخيتَ يدك بعدها ورفعتَ رأسك: "أنا هنا الآن" نظرتَ إلى عيني وقلت: "سيري معي قليلًا بعد".

(4)

كنـت أبلـغ مـن العمـر سـتةَ عـشرَ عامًـا عندمـا ذهبـت إلى معـرض فرانكفـورت للكتـاب لأول مـرة. تنقلـت بـين أكشـاك دور النـشر أحـكي عـن روايتـي وأضـع مخطوطـة النـص فـورًا في يـد كل مـن يقبـل الحصـول عليها.

لقـد اسـتنفدتُ كلَّ مدخـراتي في إعـداد النسـخ، والقابـض اللولبـي لكل نسـخة، وغـلاف الكتـاب المقـوى الـذي رسـمته بنفـسي بالقلـم الرصـاص. كان عبـارة عـن خشـبة مـسرح، وكشـاف ضـوء، وسـيدة تجلـس متكـورة في بقعـة الضـوء تـداري وجههـا عـن الجمهـور. كانـت حـروف العنـوان تـذوب مثـل الشـمع أو الدمـوع وتقطـر عـلى حافـة خشـبة المسـرح. كان عنـوان الروايـة "وسـارت في طريـق موحـش"

"ربمـا كان العنـوان طويـلًا إلى حـد مـا" قالهـا ميشـائيل برايتلينـج الذي اصطحبنـي إلى المعـرض. كان يعمـل بائـع كتـب في محـل سـكني بمدينـة فيسـبادن، وهـو أيضًـا والـد صديقـي السـابق، وكان يرغـب أن أناديه باسـم ميـشي. ولكـن والـداي كانـا قـد رسّـخا في ذهنـي فكـرة التعامـل باسـتخدام

الألقاب حتى إنّ الاسم ميشي أبَى أن يخرج من بين شفتاي. سافرنا إلى فرانكفورت عبر الطريق السريع أ 66.

كنتُ أحدق عبر النافذة إلى الخارج.

أشاهد محطة وقود كبيرة، وحقولًا ذات زرع محصود، ومتجرَ إيكيا، وأبراجًا عالية ملونة تقع مباشرة على الطريق السريع، تبدو مثل سور حاجز للضوضاء به نوافذ، تقاطع الطريق السريع، خط أفق المدينة.

سألني السيد برايتلينج، ميشائيل أو ميكي: "أتستطيعين رؤية برج المعرض؟ أتعرفين كم يبلغ ارتفاعه؟"

أجبته: "يبدو مثل القلم."

"يبلغ ارتفاعه مائتين وخمسين مترًا، إنه أعلى مبنى بأوروبا."

قلت: "أعلى قلم أحمر بالعالم" ضحك السيد برايتلينج.

صفّ سيارته في موقف كبير للسيارات غير مرصوف. ثم ركبنا إحدى الحافلات التي أقلتنا إلى قاعات المعرض. حملتُ مخطوطات روايتي في حقيبة سفر على كتفي. كانت ثقيلة وضخمة وعلقت بالباب المتحرك عند مدخل المعرض. ساعدني السيد برايتلينج على حملها عبر المدخل، ثم قال لي وهو يشير إلى ممر طويل "قسم الأدب بهذا الاتجاه". للحظة بدا وكأنه يود أن يضيف شيئًا آخر ولكنه أومأ برأسه فقط. أومأت له بدوري وحملت حقيبتي على كتفي وانطلقت في طريقي.

في أثناء رحلة العودة ضممت الحقيبة الفارغة إلى صدري بقوة. احمرت وجنتاي وخفق قلبي بسرعة. شعرت وكأني قد تركت جزءًا مني في فرانكفورت تحت أعلى قلم أحمر بالعالم. كنت متوترة وكدت أبكي من فرط السعادة.

تركنا أفق المدينة خلفنا.

كانت السماء فوق فرانكفورت بنفسجية اللون، ولكنها تحولت بعد ذلك إلى لون أزرق داكن ظهرت وسطه الظلال السوداء لجبال طوروس. سافرنا عبر طريق بين الجبال باتجاه فيسبادن التي لمعت وسط الوادي كقطعة قماش ذات لون فضي متداخل. تعرجت فرادى الخيوط خفيفة اللمعان حول قمم الجبال. على الرغم من أنها جبال متوسطة الارتفاع وليست عالية للدرجة إلا أنها بدتْ لي ذاك المساء ضخمة ومهيبة. ومض ضوء إشارة ساطع على قمة جبل في الجنوب ليرشد الطائرات التي تحلق من مطار فرانكفورت فوق مدينة فيسبادن.

دسستُ حقيبتي الفارغة بين قدمي واتكأت برأسي إلى الوراء. تمكنت عبر سقف السيارة المنزلق من النظر عاليًا إلى السماء. كُنّا آخر ما رآه الركاب قبل أن تخترق الطائرة السحب. كانت تتردد في آذاننا يومًا بعد يوم أصوات الطيارين: إلى اليمين تقع فيسبادن وهي عاصمة هيسن. كنا نرى اسم مدينتنا يلمع على خارطة الخطوط الجوية على شاشة العرض. فهي المحطة الأولى في الطريق إلى لندن، وروما، وسنغافورة، أو نيويورك.

أوصلني السيد برايتلينج إلى المنزل، وترك محرك سيارته يعمل حتى فتحت الباب ودخلت.

بينما ردّت بعض دور النشر عليَّ بعد أيام قليلة من انتهاء المعرض، استغرقت دور نشر أخرى شهورًا قبل الرد. كانت هناك علبة كرتونية سوداء تحت سريري، وعليها بطاقة محددة باللون الفضي كتبت عليها "مراسلات دور النشر". شغلت نسخ روايتي الحيز الأكبر من العلبة. تلك النسخ التي كانت دور النشر تعيد إرسالها إليَّ مرة

أخرى. حينما كنت أرفع غطاء العلبة كنت أرى السيدة التي تقف على خشبة المسرح وسط ضوء الكشاف تشيح بوجهها عن الجمهور.

كنت أتسلل ليلًا إلى غرفة عمل أبي وأكتب على جهاز الكمبيوتر الأسود الكبير الخاص بطائفة الكنيسة. في أثناء النهار كان أبي يُدرج بيانات أعضاء الكنيسة عليه. تكدست السجلات المهترئة المصنوعة من الورق المقوى على جانبي المكتب وفاحت منها رائحة العفن. قبل اقتناء الكمبيوتر كان كشف الأسماء يتكون من آلاف البطاقات. كُتب بعضها بطريقة قديمة باستخدام خط الزوترلين. أما البعض الآخر فكُتب على الآلة الكاتبة، وكان يتم تصحيح ما به من أخطاء دائمًا باستخدام سائل المزيل من ماركة تيب إكس. كان هناك كميات كبيرة من البطاقات الصغيرة لأناس قد فارقوا الحياة منذ أمد طويل، ولكن لم يتم فرز بطاقاتهم. لم تكن بياناتهم تدرج في الكمبيوتر، بل كانت تتجول في سلة مهملات خاصة، تُفرغ في ماكينة تقطيع الورق عند امتلائها. من حين لآخر كنتُ أسحب بطاقة وأقرأ الاسم ثم أكتب قصيدة لشخص لم أعرفه. إيرنا بايلفوس، أو أيتل فريدريش، أو هانّا هونجرلاين، أو ديانا ماريا شتورم. كان أبي يتعجب حينما كنت أقرأ تلك الأسماء لنفسي. ذات مرة وجدت أمي إحدى القصائد. كانت مطبوعة على ورق مُتصل مُخرم. قمت بقطع الطرف المخرم بعناية. ثلاث صفحات كاملة من مشاعر الحنين والهروب واللقاء والفراق. كانت القصيدة على شكل سطور قصيرة تبدأ من حافة الورقة اليسرى، وتندفع نحو المنتصف، وتنتهي قبل المنتصف بقليل وكأنها قد انقطعت. كانت مهداة إلى أحد أعضاء الكنيسة الذي كانت بطاقته ستنتقل عمّا قريب إلى ماكينة تقطيع الورق. ما زلت أتذكر حتى يومنا هذا أن لقب الرجل كان كومر ويعني الأسى.

"ما رأيك بها؟" هكذا سألتْ أمي وقد أرادت أن تعرف رأي أبي بينما كانا يجلسان في حجرة المعيشة مساءً. بينما وقفت أنا على بسطة الدرج لأسترق السمع.

"إنها لم تكن تعرف السيد كومر هذا من الأساس"

ردّ أبي بسرعة شديدة توحي بأنه لم يتمكن بالتأكيد من قراءة القصيدة بأكملها. "إن هذا ما يحدث في مرحلتها العمرية تلك. يحاولون تجميع ما لا يفهمونه في شكل أبيات بسيطة مُقفاه تُمسك العالم الذي لولاها لتفكك وبلغ منتهاه" ضحك أبي، ربما على القافية التي استخدمها في أثناء حديثه.

قالت أمي في حنق: "وما الذي يتفكك في حياتها إذًا؟ أيمكنك أن تتفضل وتخبرني بذلك؟"

عندما كانت أمي تُمسك بي ليلًا وأنا أجلس على الكمبيوتر كانت ترسلني إلى سريري قائلة: "كنت أفضل أن تجدي لنفسك هواية تمارسينها نهارًا وتجعلك على اتصال بالناس".

لم يكن أبي بدوره معجبًا بحقيقة أنني أكتب، أو"أنظم الشعر" على حد قوله. كان يعرف تلك الإثارة وذلك الاعتقاد الخاطيء بالرغبة في كتابة شيء عن العالم وللعالم في الوقت ذاته. قبل أن يشتغل أبي بالوعظ الديني، كان قد حاول أن يصبح شاعرًا واعتقدَ أنه طريق لا يمكن أن ينتهي إلا بالفشل. لم يكن أبي يرغب في سماع أي شيء عن الطاقة التي أستمدها من الكمبيوتر، عن لوحة المفاتيح السوداء بمفاتيحها المربعة، عن صوت الطقطقة الخفيف، والجمل التي تظهر على الشاشة برقة تماثل رقة حركة أصابعي وهي تضغط على المفاتيح ثم ترتفع عنها.

كان بنيدِكت -جدي لأبي- هو الشخص الوحيد الذي استطعت أن أتحدث معه عن كل ذلك. كان يتصل بي كل بضعة أيام بعد انتهاء

المعـرض ليسـأل عـما إذا كنـت قـد تلقيـت ردًا مـن دور النـشر. عـاش جـدي وجـدتي في زيركسـدورف عـلى بحـر البلطيـق. كان لديهـما متجـر صغـير عـلى ممـشى الشـاطئ يسـمى "نجـم الشـاطئ". قديمًـا كانـا يديـران عـدة متاجـر تحمـل نفـس الاسـم في كل المصائـف عـلى خليـج لوبيـك، ولكـن بعـد أن أعلـن والـدي عـدم اهتمامـه بتـولي إدارة تلـك المتاجـر، قامـا بالتخـلي عـن واحـد تلـو الآخـر. كان متجـر "نجـم الشـاطئ" بزيركسـدورف أول متجـر لهـما، والآن هـو آخـر مـا تبقـى مـن أعـمال العائلـة الناجحـة، هـو معركتهـم الأخـيرة كـما قـال جـدي. في الواقـع أراد جـدي أيضًـا أن يمتهـن الكتابـة.

بينـما كان يتحـدث معـي عـلى الهاتـف قـال لي: "حينئـذٍ لم يكـن زماننـا يسـمح بذلـك. فبعـد الحـرب كان علينـا أن ننتهـز الفرصـة ونفكـر تفكـيرًا عقلانيًـا" بـدأ يضحـك ثـم قـال: "يمكنـك أيضًـا أن تقـولي إنـه عندمـا تعلـق الأمـر باختيـار مجـال العمـل لم يشـغل اهتمامـي حينئـذٍ سـوى المـال فقـط" تحولـت ضحكتـه إلى سـعالٍ مصحـوبٍ بصـوتِ غرغـرة، وكأن رئتيـه قـد امتلأتـا بالمـاء. ثـم أردف قائـلًا: "ولكنـكِ ستسـلكين طريقًـا آخـر يـا عزيـزتي. حيـث سـترثين يومًـا مـا وتسـتطيعين تحمـل نفقـات الكتابـة. وبذلـك سـيصبح لديـكِ في نهايـة حياتـكِ شيء لا يسـتطيع أحـد أن يسـلبك إيـاه وسـيصبح هـذا الـشيء هـو سر بقائـك."

تكدسـت في مكتـب جـدي صناديـق الصحـف المصفـرة مـن الخمسـينيات والسـتينيات والتـي نُـشرت بهـا قصصـه القصـيرة. أخـذ يتحـدث معـي الآن بانفعـال وقـد أطلـق العنـان لغضبـه، وأخـذ يلعـن المحرريـن المتغطرسـين، ويمتـدح شـجاعتي ويشـجعني عـلى مواصلـة الكتابـة دائمًـا: "واصـلي الكتابـة ولا تـتركي شـيئًا يجعلـكِ تحيديـن عـن هدفـك. إذا استسـلمتِ سـوف تندمـين عـلى ذلـك مـا بقـي مـن حياتـك"

لم أسـتطع أن أتخيـل أن قـرارًا أَتخـذه الآن قـد يجعلنـي أشـعر بالنـدم لبقيـة حيـاتي. ولكنـي كنـت معجبـة بالمشـاعر الجياشـة والشـغف اللذيـن

تحدث بهما جدي عن الكتابة وكأن شرارة كانت تسري بداخله. كنت أشعر أنا أيضًا بذلك داخلي، وبدا وكأن لا أحد سوانا يشاركنا هذا الشعور.

قال جدي: "لطالما انتابني شعورٌ بأنني يجب أن أكتب. كان هناك الكثير من الأمور التي تدور برأسي. أمور عن تلك الحياة التي تسلبنا كل شيء ولا تعطينا أبدًا أي شيء، لا تعطينا مخرجًا حتى ولا فرصة للارتقاء. فمنذ عامي الثاني عشر لم تقدم لي سوى العمل بالمصنع. ثم جاء النازيون وأرسلوني جنديًا إلى فلورنسا بإيطاليا. كانت المرة الأولى لي في العالم الخارجي. يا للذهول والجنون! منذ هذه اللحظة لم يستمع عقلي إليَّ مرة أخرى. لم أستطع النوم أو التحدث إلى أي أحد. كان عليَّ إرغامُ نفسي على الكتابة. أن أنتزع كل كلمة من داخلي بمشقة، ولكن هذا الأمر قد ساعدني، فهذا ما أنقذني حينذاك. أما أنتِ فلستِ بحاجة إلى الإنقاذ ولا تعذبي نفسك بهذه الطريقة. أنتِ تكتبين فقط بكل بساطة وهذا أمرٌ جيدٌ"

عندما كان جدي يتحدث لوقت طويل هكذا، كان جسده ينتفض من السعال المصحوب بالتشنجات. ثم كانت ليان -جدتي- تقتحم الغرفة ويُصدر كعبُ حذائها طقطقة في أثناء دخولها، ثم تنتزع سماعة الهاتف من يده. كنت أعتقد دومًا أنها تقف خلف الباب تسترق السمع، وتنتظر مقاطعة الحوار والبدء بالتحدث. كانت تتحدث كما تسير بسرعة وبحزم في نفس الوقت، صرخت في سماعة الهاتف وكأنها توجّه كلامها إليّ لا إليه: "ماذا أنت فاعل يا بنيدِكت؟ إنك تسعل وكأنك مصاب بالسل. اذهب إلى المطبخ واشرب كوبًا من الماء"

سمعت جدي وهو ينهض من مقعده مواصلًا السعال، ويجُرُّ ساقيه في أثناء الخروج من الغرفة. أغلقت جدتي الباب خلفه وقالت لي في الهاتف: "لا يُسمح لكِ بتعذيبه هكذا، وإلا سيواصل هوسه بقصصه مرة أخرى. لو أراد أن يكتب حقًا لتمكن بالفعل من تحقيق

ذلـك. مـا الـذي يريـده هـذا الرجـل مـن أمـور الكتابـة تلـك؟ إننـا في خـير حـال وحققنـا كل شيء."

كان متجـر جـدي وجـدتي يقـع مبـاشرة عـلى ممـشى الشـاطئ. مـن بعيـد، كان مـن الممكـن رؤيـة كـرات الشـاطئ الملونـة والمراتـب الهوائيـة المعلقـة عـلى خطـاف حائـط المنـزل، والتـي كانـت تتأرجـح هنـا وهنـاك عنـد مـرور الريـاح.

عندمـا كنـت أذهـب مـع أيكـه في العطلـة إلى متجـر "نجـم الشـاطئ" كانـت جـدتي تعطينـا سـلَّتيْ تسـوق فارغتـين وتقـول لنـا: "اذهبـا للتسـوق الآن واختـارا كل مـا يعجبكـما"

كانـت هنـاك مجـلات وكتـب الجيـب وخزانـات هوائيـة وبطاقـات بريديـة وألعـاب رمليـة وشـبكات صغـيرة تحتـوي عـلى الصـدف ونجـم البحـر.

كان أبي فقـط مـن يرافقنـا، أمّـا أمـي فكانـت في الغالـب تبقـى عـلى الشـاطئ وتنـادي علينـا قائلـة: "ولكـن لا تعـودوا إليَّ مجـددًا بالكثـير مـن الأشـياء عديمـة الجـدوى"

بينـما كنـا نجـري أنـا وأيكـه في المتجـر وننتـزع الأشـياء نزعًـا أكـثر مـما نختارهـا، كان أبي يسـاعد والديـه. كان يسـاعدهما في حمـل الطلبيـات عنـد ورودهـا ويرتـب الأرفـف ويمـلأ مـبرد المثلجـات ويخـدم الزبائـن وكأنـه لم يقـم بـأي عمـل آخـر سـوى هـذا مـن قبـل. كانـت جـدتي تقـول لـه أحيانًـا: "يمكنـك القيـام بهـذا الأمـر يـا بنـي؛ فبداخلـك تاجـر يبحـث عـن العـودة للحياة "

كانــت أظافــر جــدي صفــراء اللــون تتخللهــا الشــقوق. ذات مــرة قــال أخــي إن أظافــره تبــدو مثــل ظهــر حــشرة متماثــلات الأرجــل. أمســك جــدي ناقــل الحركــة بإحــكام باحــدى يديــه، أمــا اليــد الأخــرى فوضعهــا منبســطة عــلى عجلــة القيــادة المصنوعــة مــن الجلــد الأســود. كانــت ســيارته

مرسيدس بنز طراز 190 وكان يطلق عليها اسم بيبي-بنز. قادها ببطء شديد مستحوذًا على مساحة كبيرة من الشارع وكأنه يقود جرارًا. اضطرَّ دائمًا لتوصيلنا. كانت جدتي تقضي الكثير من الوقت معنا، ولكنها لم تمتلك رخصة قيادة. كان جدي يغضب لأنها تهمل العمل بنجم الشاطئ، بل ويصل الأمر أحيانًا لدرجة أنها تغلقه عندما نكون هناك.

لم أكن أتحدث كثيرًا مع جدي قبل أن أبدأ بالكتابة. حيث كان عجوزًا متجهمًا يعاني من الأرق وتنتابه عادة نوبات الغضب. بينما كانت جدتي تقف في واجهة المتجر، كان جدي يهتم بالحسابات أو استلام البضائع أو يعمل بالمخزن الخلفي. لم يكن يغتسل لعدة أيام في بعض الأحيان، وكان يرتدي نفس الملابس الملطخة بالزيت ويتجول بها في كل مكان، حتى في الخارج، مرتديًا نعله الممزق. كانت جدتي تقول لنا حينئذ: "ابتعدا عن طريق جدكما فقد عاودته نوبةُ المزاج السيّئ"

حينما كنا نلتقي كان يصرخ في وجوهنا أو يبدأ بالبكاء دون مقدمات، وأحيانًا الاثنين معًا. وبعد أن يعذبنا طوال اليوم بمزاجه السيء ومظهره المهمل، كان يطل علينا فجأة منتعشًا بعد أن أخذ حمّامًا، يرتدي بنطالًا ذا لون أزرق غامق، وقميصًا أبيضَ، ويترك كنزته مرتخية على كتفيه، ويضع سيجارة في فمه. كان شعره الرمادي الغامق يلمع كما الجرانيت اللامع، وعيناه الزرقاوتان تتلألأن وكأنه فرح برؤيتنا.

جلستُ ذات مرة في المخزن خلف المتجر وأخذت أكتب في روايتي. لم يكن جدي وجدتي يمتلكان الكمبيوتر، ولم يكن يُسمح لي أن ألمس آلة جدي الكاتبة. كنت أنجز في الكتابة ببطء شديد لاستخدامي الورقة والقلم. في المدرسة الابتدائية كنت عسراء، ولكن بعدما قالت معلمتي إن صفحتي تبدو غير منظمة بسبب ذلك، تدربت بمشقة

على الكتابة باليد اليمنى. نتيجة لذلك أصبح خطي غير مقروء. كنت أجتهد لأكتب بحروف كبيرة واضحة، كنت أمسك القلم بيدي بإحكام وأضغط به بشدة على الورق حتى أنه كان يخترق الورق أحيانًا. فجأة وقف جدي خلفي؛ كنت مستغرقة في العمل بدرجة كبيرة فلم أسمعه وهو قادم.

صاح بي: "ماذا تفعلين هنا بحق الجحيم؟"

"أكتب رواية."

سحب مقعدًا صغيرًا وجلس إلى جواري ثم قال: "لقد كتبتِ ذلك بشكل منظم بالفعل، أتسمحين لي بالاطلاع عليه؟"

كان يقرأ لي قصصه عبر الهاتف، قصصًا قصيرة حزينة غير عاطفية ولا تحمل في طياتها رسائل عظيمة. كانت أحداثها تدور غالبًا وقت الحرب أو قبيل ذلك. كانت تحمل عناوين مثل "حُمى النفاس"، و"الأب والابن"، و"موت في المصنع"، و"على دفة القيادة"، و"مطاردة الفدائيين"، و"الأطلال". أخذ يعدد لي الجوائز الأدبية التي تلقاها عن تلك الأعمال بعد الحرب، وحاول أن يصف لي فترة نشأتها. كان يسكن مع جدتي بالطابق العلوي من منزل ضيق كثير الزوايا في مدينة لوبيك القديمة. كنت أتخيله جالسًا في حجرة صغيرة مظلمة معرضة للتيارات الهوائية مُتدثرًا بالعديد من الأغطية والشيلان، يكتب على الآلة الكاتبة تحت ضوء أحد المصابيح، بينما تقود جدتي الدراجة وتوزع الكتب. لم يكن لديهما متجرٌ خاص حتى ذلك الحين، ولكن كانت لديهما فكرة عن كيفية كسب قوتهما. حصل جدي وجدتي إثر حركة الإصلاح النقدي عام 1948 على مبلغ من المال لهما ولأبي. لم يضيعا هذا المبلغ هباءً، كما قال جدي، ولكنهما استثمراه في الكتب، فأسّسا مكتبة إعارة. كانا يقومان أسبوعيًا بإعارة كافة الروايات التي مُنعت من النشر تحت حكم النازية. وضعا الكتب في شقتهما ولكن

العملاء لم يذهبوا إلى هناك، بل كانوا يختارون الكتب من كتالوج كان جدي قد عكف على تجميعه.

في العام الذي وزعت فيه أولى محاولاتي لكتابة الرواية في المعرض احتفلنا برأس السنة عند جدي وجدتي. أشعلَ جدي النيران في سلة من حديد الصب بالشرفة. في تلك النيران كان يجب أن يحترق كل ما هو سيئ في العام الماضي. كان الجو شديد البرودة لدرجة يصعب معها احتمال البقاء في الهواء الطلق لفترة طويلة. فدخلت العائلة واحدا تلو الآخر إلى المنزل، أمي، أبي، جدتي ثم أيكه. لم يقف سواي أنا وجدي أمام النار. كان جدي يقوم بوخز اللهب بعصاة كبيرة متفحمة.

سألني دون أن ينظر إلي: "أحقا تبلغين من العمر ستةَ عشرَ عامًا فقط؟"

أجبته: "إنني أشعر أيضًا وكأنني أكبر من ذلك."حينئذٍ رفع جدي رأسه وابتسم لي قائلًا: "أيتها المتحذلقة! ألا ينبغي أن تهتم الفتيات في مثل سنك بالفتيان أكثر؟"

"لدي حبيب."

"هذا أمر جيد على أي حال" واصل وخز النيران ثم استأنف حديثه: "لم أكتب سوى القصص القصيرة، لم أستطع أبدًا أن أنهي رواية. كان ذلك يتطلب صبرًا طويلًا" تطاير الشرر في الظلام بعد أن انزلقت قطعة من الحطب في النيران، "هل تلقيتِ ردًا آخر من دور النشر؟"

"لا، لم أتلق شيئًا آخر"

"أراد والدك أيضًا أن يُصبح كاتبًا" قالها ثم بدأ بالسعال، بصق البلغم في النيران وأشعل سيجارة، وقال: "لم يبدأ أيٌّ منّا مبكرًا مثلك."

"يبدأ بماذا؟ بالإخفاق؟"

ابتسـم مجـددًا. احمـرت وجنتـاي مـن الـبرد، شـيئًا فشـيئًا لم أعـد أشـعر بيـدي، اقتربـت مـن النـيران وشـعرت بالحـرارة تمـدني بالـدفء.

قال جدي: "إنهم لا يرغبون باقتناء كتابك."

أجبـت قائلـةً: "هنـاك اثنـان أو ثلاثـة مـن دور النـشر لم ترسـل ردًا بعـد."

" فلتنسي أمرهم. ماذا ستفعلين الآن؟"

رفعت كتفاي إلى الأعلى.

"يجـب أن تسـتمري بالكتابـة. ابـدأي روايـة جديـدة؛ كان باسـتطاعتي رؤيـة الآخريـن في حجـرة المعيشـة عـبر النافـذة الممتـدة مـن الأرض إلى السـقف. حينـما قـام جـدي وجـدتي ببنـاء منزلهـما في أواخـر السـتينيات أخبرهـما المهنـدس المعـماري أنـه قـد اختلـط عليهـما الأمـر فلـم يفرقـا بـين منزلهـما الخـاص ومتجرهـما، وتسـاءل إن كانـا يرغبـان حقًـا بالجلـوس في حجـرة المعيشـة وكأنهـما يجلسـان في نافـذة للعـرض. كانـت المكاتـب في واجهـة المنـزل، ورسـم جـدي مخطـط بنـاء المنـزل بنفسـه.

كان مـن الصعـب رؤيـة سـور المنـزل في الظـلام مـن هنـا؛ الشرفـة، لم أتمكـن إلا مـن رؤيـة نافـذة حجـرة المعيشـة الضخمـة المضيئـة، التـي كان يتحـرك الآخـرون مـن خلالهـا وكأنهـم في الكواليـس.

قـال لي جـدي: "اذهبـي إلى الداخـل لتتدفئـي." ثـم ألقـى بسـيجارته في سلة النـيران وأردف: "سـأظلُّ بالخـارج لعـدة دقائـق بعـد" سـألته: "هـل خـاب أملـك بي؟"

"لا"، أشـعلَ سـيجارة أخـرى ثـم قـال: "فقـط اكتبـي روايـة كبـيرة، لديـك المقومـات المطلوبـة؛ أعلـم أنـك لـن تخيبـي أمـلي."

حينـما وصلـت إلى بـاب الشرفـة التفـفـت مـرة أخـرى ونظـرت إلى جـدي. لم يبـدُ عليـه الكـبر في ضـوء النـيران، بـدا مثـل هيئتـه في صورتـه

المعلقـة في حجـرة المعيشـة باللونـين الأبيـض والأسـود: رجـل قصـير مفتـول العضـلات، ذو بـشرة زيتونيـة وشـعر غامـق، يضـع سـيجارة رفيعـة في ثغره. كان يرتـدي معطفًـا مفتوحًـا لونـه فاتـح، ويضـع يديـه في جيوبـه، ويرفـع كتفيـه قليـلًا إلى الأعـلى وكأنـه سـيتجمد مـن الـبرد.

(5)

تخيل تلك الحديقة التي كنت ألعب فيها في أثناء طفولتي. كان بها شجرة تفاح صغيرة ناتئة، وأرجوحة تَسَعُ اثنين معًا. وكان هناك منحدرٌ طينيٌ ينخفض بشدة خلف الشرفة وحوض الزهور لدرجة أن المطر كان يجرف تربته المردومة كلّ مرة ويقتلع النباتات الأرضية الصغيرة التي كانت أمي تزرعها بعناية ويتسبب في انزلاقها. في أثناء طفولتي اعتدت أن أُشكل من تلك التربة -التي لمعت باللون الأحمر المختلط بخطوط سوداء- كتلًا كبيرة وكريات صغيرة. كنت أبني منها الأسوار والأبراج والقلاع والتماثيل التي كانت تجف في الشمس وتتحول إلى منظر متحجر مترب.

كان فيسبادن زونينبيرج هو الحي الذي ترعرعت فيه أو ربما صَحَّ وصفه بالضاحية. فهو لا يعدو أن يكون جناح بعوضة إذا ما قورن بالحي الذي أسكن به اليوم في برلين ولا أشعر فيه بدفء المنزل. ولكن جناح البعوضة هذا كان يمثل العالم كله حينذاك بالنسبة لي، حيث المرآب المزدوج الأبيض، يعلوه نافذتان مطلتان على غرفتي

عمل والداي، والقائمان الحجريان تقف فوقهما المدخنتان الحمراوتان، والبوابة التي تصدر صريرًا، والسلم المؤدي إلى باب المنزل، بجواره شجرة الردندرة الكبيرة مستديمة الخضرة ذات الأوراق الغامقة التي تكاد تبدو سوداء. كنا نبني أنا وأخي تحت تلك الأوراق -التي بدت كالسقف- مغارات نراقب من خلالها كل شيء دون أن يرانا أحد: باب المنزل، السلم، البوابة، الشارع. متى خطر ببالي لأول مرة أن الشجرة قد لا تمثل مخبأ لي ولأخي فقط؟ متى ذهبت لأول مرة إلى باب المنزل وحدقت النظر وأنا أفكر: ماذا لو كان أحدهم يجلس تحت الشجرة ويترصدني؟ هل سيقفز أحدهم الآن ويمسك بي من رقبتي؟

تساءل كونستانتين: "ولم سيراقبكِ أحدهم؟" كنا نسير إلى جوار بعضنا بعضًا، ربما أطلت الحديث مرة أخرى. دائما ما أقترف هذا الخطأ عند تعاملي مع الرجال. وكأنني أود أن أفزعهم (الفزع) اعتادت أمي قول تلك الكلمة. فالرجل بالنسبة لها مثل الحيوان: ذكي، جميل، خجول. يلوذ بالفرار إذا ما اقتربت منه فجأة. ولذلك يجب التعامل معه بحذر.

ولكنني ببساطة، لا أستطيع أن أظل صامتة لذا أخذت أتحدث كثيرًا إلى كونستانتين. أيزعجه ذلك؟ لامست يده يدي، ربما من قبيل الصدفة ليس أكثر، ولكن دقات قلبي تسارعت على الرغم من ذلك.

كانت أمي حذرة، تكاد تكون كثيرة الارتياب، ولكن ذلك لا يُلاحظ عليها في الحال، فهي تبدو ودودة وصريحة، لديها العديد من الأصدقاء، لا تقف في أي حفل وحيدة بل دائمًا ما تكون محاطة بأسراب من البشر. تتحرك بخفة وتمسح شعرها برفقٍ لتزيحَه عن وجهها، تمد شفتيها وتنفث دخان السجائر ببطء، تحب أن تضحك بصوتٍ عالٍ، وتتسامر كثيرًا. كانت على علم بكل شيء: من يخون زوجته ومع مَنْ، من سيُطَلق قريبًا، من يمر بضائقةٍ ماليةٍ في الوقت الحالي، مَن مِن الأزواج لم يتمكنا من الإنجاب وهل يخططان للتبني،

حينئـذٍ كان بإمكانها أن تقـول عـلى الفـور إنّ التبنـي سيتسـبب في العديـد مـن المشـكلات، لأن الطفـل المُتبنَـى دائمًـا مـا يكـون صعـب المعـشر. فـأي أمٍّ تلـك التـي تتخـلى عـن طفلهـا في يومنـا هـذا؟ لا بُـدَّ أن تكـون مدمنـة مخـدرات أو مضطربـة بشـكل أو بآخـر، ومثـل تلـك الأمـور تنتقـل بالطبـع إلى الطفـل.

قبـل ولادتي "أنـا وأخـي" تطوعـتْ أُمِّـي للعمـل بـدار لرعايـة الأطفـال الذيـن تعرضـوا لسـوء المعاملـة، وكانـت تصطحبهـم معهـا إلى المنـزل في نهايـة الأسـبوع. "مـن الممكـن أن نهديهـم لحظـة قصـيرة مـن السـكينة، ولكـن مـن غـير الممكـن أن نساعدهم حقًّـا، فقـد فـات أوان ذلـك بالفعـل. مـا يتعـرض لـه الطفـل لا يمكـن محـوه ولا يمكـن إصلاحـه مـرة أخـرى أبدا"

عندمـا كانـت أمـي ترغـب في الاسـترخاء، كانـت تقـرأ مجـلات "بونتى" و"فـراو إم شـبيجل". كانـت تحـب عـلى وجـه التحديـد قصـص العائـلات الملكيـة الأوروبيـة، كانـت تتصـل أحيانًـا بأحـدٍ مـا وتسـأل في قلـق: "هـل رأيـت صـورة خطبـة الأمـيرة مادلـين؟ يبـدو هـذا الرجـل ماكـرًا بنظرتـه تلك ولغـة جسـده، هنـاك أمـر غـير صائـب بشـأنه. أخـشى أن هـذا الأمـر لـن ينتهـي بسـلام بالنسـبة لمادلـين."

كانـت تقديراتهـا تصيـب في معظـم الأحيـان، ليـس فقـط فيـما يتعلـق بأطفـال العائـلات الملكيـة. فهـي تراقـب بعنايـة، وهـي شـخصية يقظـة للغايـة، ليسـت يقظـة كالصيـاد، وإنمـا تشـبه يقظتهـا أكـثر الشـخص الـذي يقـف عـلى أحـد أبـراج المراقبـة ويطـل عـلى كل شيء. عـلى الرغـم مـن كونهـا حـذرة إلا أنهـا لم تكـن أبـدًا خائفـة. إذا سـألت عـن نصيحـة تتحـدث بصراحـة وتقـول مـا تفكـر فيـه.

أمـي طبيبـة، ولكنهـا لم تمتلـك عيادتهـا الخاصـة بسـبب أطفالهـا، فعملـت في مكتـب الصحـة. حينـما كانـت تطهـو الطعـام لي ولأيكـه في المنـزل وقـت الظهـيرة، كانـت تحـكي لنـا عـن مرضاهـا. عـن بائعـات

الهوى على سبيل المثال، معظمهن من الأفارقة السود، كن يحضرن كل جمعة في مواعيد العيادة المخصصة لمرضى الإيدز. كادت الفتيات تقعن مغشيًا عليهن من الخوف، وأحيانًا كن يبدأن بالصياح بشكل هستيري إذا رغبت أمي في سحب عينة دم إحداهن. لم تستطع أمي أن تشرح لهن ماهية ما تفعل أو ضرورته؛ فبائعات الهوى ملزمات بموجب القانون بالخضوع لفحص طبي بشكل منتظم، ولكنهن لم يفهمن ذلك؛ فمعظمهن بالكاد يستطعن تحدث الألمانية.

كان القوادون يُقلّوهن إلى العيادة، ولكنهم لم يصطحبوا أيًا منهن أبدًا إلى الداخل. في أثناء المواعيد المخصصة لفحص الإيدز كانت هناك دائمًا قافلة من السيارات الفارهة الضخمة تقف أمام الباب. كانت النساء تركبن تلك السيارات لاحقًا ليتم اصطحابهن مجددًا إلى بيت البغاء. معظمهن تقريبًا متزوجات من رجال ألمان، ولذا كانت أسماؤهن كايلهاو، زومر، ميكيلمان. لم تفهمن تلك الأسماء حينما كانت أمي تنادي عليهن، ولذا كان يجب عليها الذهاب إلى غرفة الانتظار ونطق الاسم ببطء ووضوح شديدين حتى تقف إحداهن مترددة ثم تتبعها إلى غرفة الفحص. كانت أمي تحاول أن تهدئ من روعهن بواسطة الإشارة أو الأغاني. لا تستطيع أمي الغناء، ولكنها أحيانًا كانت تتمكن بتلك الطريقة من إضحاكهن وكسب ثقتهن.

حينما كانت أمي تحكي لنا عن تلك الأمور، كنت أجلس أنا وأخي على مائدة المطبخ ونستمع إليها بانبهار.

كانت تقف أمام الموقد وظهرها تجاهنا. أخرجت قطعة كبيرة من السبانخ المجمدة من العبوة وهدأت شعلة الموقد حتى لا تُطهى البطاطس أكثر من اللازم.

قالت لنا أمي: "تلك النساء أتين من بلدان يجب عليهن فيها السير ما يقرب من كيلو متر للوصول إلى أقرب منهلٍ للمياه، وهُن

يحملـن الأثقـال عـلى رؤوسـهن، لم يلتحقـن أبـدًا بالمدرسـة ويعتقـدن في وجـود السـحرة والسـاحرات؛ فهـن كالأطفـال الصغـار. وفجـأة أظهـر أنـا أمامهـن، طبيبـة ترتـدي معطفًـا أبيـضَ، وتلمسـهن بقفاز مطاطي وتسـحب عينـات دمائهـن في أنابيـب بلاسـتيكية ثـم تلصـق عليهـا بطاقـات مبهمـة. لا عجـب أنهـن يشـعرن بالخـوف حينهـا. أيمكنكـما أن تتخيـلا أن هنـاك رجـالًا يذهبـون إلى بيـوت البغـاء تلـك إلى هـؤلاء الأطفـال ويفضلـون عـدم استخدام الواقـي الذكـري حـين يقومـون ب..... أخ! مـاذا أقـول؟ لا يفـترض أبـدًا أن أحـكي لكـما هـذا." كـسرت البيـض عـلى حافـة المقـلاة ووضعتـه عـلى السـمن المغـلي، ثـم رفعـت البطاطـس مـن فـوق الموقـد، وصفّتْهـا مـن الميـاه، وأدارتْ رأسـها إلينـا وسـألت: "مـن يرغـب أن يُقـشر اليـوم؟"

كانـت تقـول لي دائمًـا أننـي ينبغـي أن أسـأل أي رجـل أتعـرف عليـه، مـا إذا كان قـد ذهـب ذات مـرة إلى دار بغـاء: "إذا كانـت إجابتـه نعـم، أطلقـي النـار عليـه فـورًا."

"حسنا أترغبين أن تسأليني؟

"بالطبع لا، أنا لا أطلق النار على الناس."

ضحـك كونسـتانتين. تلامسـت يدانـا مجـددًا. هـل كان هـذا التلامـس الآن حقًّـا مجـرد صدفـة؟ بـدأ يسـعل، وضـع قبضـة يـده أمـام فمِّـه وتحـدث بصـوت أجـش قائـلًا: "لا تقلقـي، إن هـذا فقـط بسـبب هـذا المنـاخ السـيبيري هنـا في برلـين، تلـك الـبرودة اللعينـة."

الجـو ليـس بـاردًا لهـذه الدرجـة أبـدًا، ربمـا كان يقصـد الريـاح التـي كانـت تمـر دائمًـا وسـط هـذا الحـي. تمتـد إلى الأمـام لكيلـو مـتر، حيـث إنّ الطريـق خـالٍ أمامهـا ولا يوجـد مـا يوقفهـا. إلى أيـن نذهـب؟ لقـد وصلنـا بالفعـل إلى ميـدان شتراوسـبيرج. إلى أيـن يـودُّ هـذا الرجـل أن يذهـب؟ كان يمـشي مسرعًـا إلى حـدٍ مـا، ربمـا بـدأ فعـلًا بالفـرار منـي.

بـدا فنـدق "بـارك إن" شـامخًا أمامنا وسـط سـماء الليـل القرمزية، كان يبلـغ ارتفاعـه ثمانيـة وثلاثـين طابقًـا. أحيانًـا يمكـن رؤيـة الأشـخاص الذيـن يمارسـون القفـز بالحبـال وهـم يقفـزون مـن فـوق سـطح الفنـدق. لمـس كونسـتانتين كتفـي، كان يجـب أن أعـبر الطريـق معـه. أيسـكن في مـكان مـا هنـا؟ دفعنـي بـين السـيارات التـي اصطفـت عـلى خـط وسـط الطريـق. سـينما إنترناشـيونال، مقهـى موسـكو، أم يـودُّ الذهـاب إلى الفنـدق؟ أيفترض أن أذهـب معـه؟ وقفـت أمـام نافـذة عـرض أتطلـع إلى خيمـة مـن الممكـن أن تسـع عائلـة بأكملهـا، واثنـين مـن المانيـكان، رجـل وامـرأة، يرتديـان سـترات وبناطيـل ملائمـة للطقـس.

كانـا يرتديـان أحذيـة تجـول ثقيلـة ومناظـير ونظـارات شمسـية وزجاجـات ميـاه وحقائـب ظهـر عملاقـة معلـق بهـا منامـة وحصائـر تخييـم.

قـال كونسـتانتين: "شيء مـروع! أُفَضِّـلُ أن أقفـز مـن فـوق برجٍ شـاهقٍ قبـل أن أحمـل كل تلك الأشـياء."

ربمـا كان حـذر أمـي، وذلـك الارتيـاب الأزلي شيء معتـاد يشـعر بـه اللاجئـون عـادة؛ حيـث ولـدت أمـي في ألمانيـا الشرقيـة في روسـتوك. عندمـا كانـت في الحاديـة عـشرة مـن عمرهـا فـرّت مـع أبويهـا وأخيهـا إلى ألمانيـا الغربيـة. حـدث هـذا منـذ وقـت طويـل، كانـت أمـي تخبرنـا دائمًـا أنهـا كانـت مجـرد طفلـة حينئـذ، وعـلى الرغـم مـن هـذا كانـت تقـول: إذا خـسرت كل شيء مـرة فـإن هـذا يكفيـك، لا بـل إن هـذا يشـعرك بالنقـص حيـاة كاملـة، فتبـدأ حينئـذ تمعـن النظـر في كل شيء وتأخـذ حـذرك.

ربمـا كان هـذا الوضـع ينطبـق عـلى أمـي فقـط، بسـبب والدهـا، ولكنهـا لا تحـب أن تتحـدث عـن ذلـك.

قديمًـا حينـما كنـت أخـرج مسـاءً، كانـت أمـي تبقـى مسـتيقظة لوقتٍ طويـلٍ حتـى أعـود إلى المنـزل. لم يكـن بإمكانهـا النـوم حتـى وإن كانـت

مضطـرة للعمـل في الصبـاح، وكانـت تفعـل الـشيء نفسـه مـع أخـي. لم تقيدنـا أمـي أبـدًا، بـل عـلى العكـس أرادت أن نسـتمتع، نرقـص، نشـاهد كل أفـلام السـينما، نـزور الحانـات، نرتحـل مـع أصدقائنـا، نسـتمتع بـكل لـذات الحيـاة كـما كانـت تقـول دائمًـا. كـما أنهـا لم تكـن تشـعر بالخـوف علينـا، عـلى الأقـل ليـس بالشـكل نفسـه الـذي كان يشـعر بـه آبـاء معظـم صديقـاتي. لم تكـن تفكـر بـأن شـيئًا سـيئًا قـد يحـدث لنـا، وإنمـا كانـت تخـشى فقـط أن نضـل طريقنـا في أثنـاء العـودة.

كانت تقول لنا دائمًا قبل أن نخرج: "لا تنسيا فتات الخبز."

حينئـذٍ كان أخـي يـرد: "لسـنا هينـزل وجريتـل، لـن تقومـا بالتأكيـد بتركنـا في الغابـة."

كانـت أمـي تهـدده بإصبعهـا مازحـةً وتقـول لـه: "انتبـه! قـد يحـدث ذلـك أسرع مـما تتخيـل!"

لم تكـن تحـاول فـرض سـيطرتها علينـا، لم تتصـل أبـدًا بعـد خروجنـا. كانـت تجلـس فقـط في حجـرة المعيشـة، تقـرأ المجـلات أو تشـاهد التلفـاز، تدخـن وتـشرب قهـوة سـادة لمقاومـة الإعيـاء. حينـما كانـت تسـمع صـوت دخـول المفتـاح في قفـل البـاب لم تكـن تقفـز في الحـال وتجـري باتجاهنـا، بـل كانـت تبقـى جالسـةً وتنتظـر أن نذهـب نحـن إليهـا. ثـم تنظـر إلينـا مبتسـمةً وتقـول: "هـا قـد أتيتـم! هـل أرشـدكم أثـر فتـات الخبـز إلى المنـزل؟"

وكنـت أقـول دائمًـا: "لقـد ألقينـا حجـارة صغـيرة في الطريـق، فهـي تلمـع تحـت ضـوء القمـر، كـما أن الطيـور لا تلتقطهـا."

ربمـا ينبغـي أن أفعـل ذلـك الآن أيضًـا، أن ألقـي الحجـارة، حتـى أجـد طريـق العـودة. أصبـح ميـدان أليكسـاندر خلفنـا، مررنـا بجـسر عـلى سـوره تمثـال ضخـم مغطـى بالطحالـب لسـيدة سـمينة تقـدم الـشراب لرجـل قصـير يجثـو عـلى ركبتـه.

سألني كونستانتين: "ماذا حدث لوالدها؟" ثم أحاطني بذراعه فجأة، إنه ليس حيوان خَجِل إذًا؟ وضعت خدي على كتفه.

"لقد اختفى"

"ماذا تقصدين بذلك؟"

"بعد وصولهم إلى ألمانيا الغربيه بقليل نزلت العائلة ببيت بعض الأقارب في لوبيك. أراد جدي -كان يدعى كارل- مغادرة الشقة لبُرهة حتى يشتري السجائر. كانت أمي حينئذ تلعب في الشارع لعبة القفز التي تسمى السماء والجحيم؛ لطالما حكت لنا تلك القصة. رأته وهويضحك ويلوح بيده، لكنه لم يعد أبدًا؛ اختفى بغير أثر."

(6)

كان الظلام دامسًا، كنت أسمع حفيف الأقمشة وأصوات الأنفاس. من حين لآخر كان هناك صوت سعال يدوي عبر قبة الكنيسة التي بدت نهارًا كالسماء بلونها الأزرق الفاتح ورُسمت عليها نجوم لامعة لا يمكن رؤيتها ليلًا. بدا المكان كالزنزانة المظلمة، فجأة بدأ أحدهم بالغناء. تخيلت أنه فتى نحيل ذو شعر أشقر مجعد من جوقة الغلمان يغني: امكثوا هنا واسهروا معي، اسهرو وصلوا؛ بدا الحزن والاستعطاف في صوته. في الواقع كان يجب أن يكون هذا صوتًا رجاليًا، صوت يسوع في بستان جثسيماني. هناك حيث غلب النعاس أصدقاءه الذين سهروا معه واضطر يسوع للبقاء وحده طوال الليل. أحببت تلك القصة، تحديدا الجزء الذي كان يصلي فيه قائلا: يَا أَبَتَاهُ، أَجِزْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ[1].

(1) (إنجيل لوقا 22: 42)

ما زلت أتذكر كيف كان الأمرُ شاقًا عليَّ، أن أُبقي عيناي مفتوحتين في الظلام. ولكنني أردت ألا يغلبني النعاسُ، ألا أكون طفلة، وأن أحتفل بتلك الليلة مع الكبار. كانت تلك هي المرة الأولى التي استطعت أن أقنع أمي فيها باصطحابي أنا وأخي إلى قداس منتصف الليل. كنت أبلغ من العمر خمسة أو ستة أعوام، وكان أيكه يكبرني بعام كامل. وضع يده في يدي، استطعت سماع صوت أنفاسه. كانت أمي تمرر أصابعها على المعطف، وتخدش القماش بأظافرها. ربما أخذت تفكر بالصباح التالي، بإعداد مائدة الفطور، وإخفاء بيض عيد الفصح من أجلنا. بدت لي الكنيسة وقتئذ كغابة مظلمة؛ فصفوف المقاعد والأعمدة والأكتاف والرؤوس التي كانت تلمع أحيانًا في ضوء كشاف أحد الشمامسة كانت تمثل الشجيرات والجذوع. أخفت الظلمة المذبح والتماثيل الكبيرة، كانت تماثيل من المرمر الأبيض لأربعة رجال من الحواريين يقف في منتصفهم يسوع الناصري. لا بُدَّ وأنه قد شعر بالخوف، فقد علم ما سوف يحدث. امكثوا هنا واسهروا معي؛ ضغطت على أصابع أخي بقوة حتى إنه تأوه وسحب يده بعيدًا. اسهروا وصلوا، بدأ بالترتيل الآن صوت آخر، صوت رجل، ربما أبي. ولكن مكبر الصوت شوّهه فلم يعد باستطاعتي التعرف عليه بشكل مؤكد وهو يرتل: فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ.[1] كنت أعلم أن الكأس لن تجتاز يسوع، وأنه -في النهاية- سيتخلى عنه حتى أبيه. أين ذهبت يد أخي؟ واصلت أمي المسح على معطفها مصدرة صوت كشط هادئًا منتظمًا. أحيانا كنت أستيقظ في الصباح الباكر على الصوت نفسه، صوت تحت نافذتي لشخص ما يكنس الشارع. إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟[2] جلست أمي باستقامة شديدة. وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ

---

(1) (سفر التكوين 1: 1)

(2) (إنجيل متى 27 :46)

انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوق إِلَى أَسْفلِ، وَالأَرْضُ تَزَلْزَلَتْ.[1] بصوت مدوٍ بدأ عزف الأرغون. علمت حينئذٍ أن كل شيء قد انتهى، كل شيء عاد على ما يرام مرة أخرى. فتح يسوع عينيه وهو راقد في ضريح بارد مظلم. أشعل أبي شمعة عيد الفصح على المذبح. الآن أصبح بمقدوري رؤية وجهه، ثم ظهرت التماثيل المرمرية من وسط الظلام. ظهر يسوع بذراعيه الممددتين، وبدأ نور عيد الفصح يملأ الكنيسة. أعطتني أمي شمعة قد أشعلتها من أجلي، أما أيكه فقد اتكأ على ذراعها وقد غلبه النعاسُ. المسيح قام، حقًا قادم. هذه المرة تعرفت على صوت أبي في الحال، على الرغم من الصرير الذي أصدره مكبر الصوت. نجا يسوع من الموت، حدث ما لا يمكن تصوره؛ خرج من الضريح، لقد عاد حقًا. نظرت إلى أمي. كانت توجه نظرة متصلبة إلى المذبح.

في الصباح وقفت أمي بالشرفة تشاهدنا ونحن نبحث عن بيض عيد الفصح. كانت هناك ثلاث درجات تؤدي من الشرفة إلى الحديقة التي كانت عبارة عن مرجة عشب صغيرة محاطة بسياج من الشجيرات تقع خلف منزل القسيس. على درابزين الشرفة كانت هناك صناديق زرع بلاستيكية بها أزهار النرجس والياقوت. بعد الفطور مباشرة انطلق أبي إلى الكنيسة مجددًا كي يعقد قداس الساعة العاشرة. دقت الأجراس، كان باستطاعتي رؤية أبراج كنيسة السوق من فوق سطح منزلنا وهي شامخة في السماء. لم تدعنا أمي أنا وأيكه نغيب عن ناظريها للحظة. فإذا وقفت كانت تنادي في الحال: "لم تعثرا على كل شيء بعد، واصلا البحث كي لا تنسيا شيئًا"

زعم أخي أن أمي قد رسمت كل المخابئ على بطاقة حتى لا ننسى أيًا من البيض أو أرانب عيد الفصح المصنوعة من الشيكولاتة في الحديقة. لست أدري ما إذا كان هذا صحيحًا ولكنه يُشبه تصرفات

---

(1) (إنجيل متى 27: 51)

أمـي؛ فقـد كانـت تكتـب لنفسـها قصاصـات للتذكـير وقوائـم وكانـت تخطـط لصغائـر الأمـور مراعيـة أدق تفاصيلهـا.

مـا أن وجدنـا كل شيء ووضعنـاه في سـلال عيـد الفصـح، نزلـت أمـي إلينـا وتأكـدت أننـا لم نغفـل شـيئًا بالفعـل، ثـم جلسـت عـلى العشـب وصارحتنـا بأنهـا تحمـل هديـة أخـرى لنـا. نظـرت عـلى الفـور إلى بطنهـا وأملـت أن تكـون حبـلى، لم أكـن أود أن أبقـى الصغـرى دائمًـا.

قالـت لنـا: "لقـد اشـتريت وأبوكـما بيتًـا في زونينبـيرج، المـكان هنـاك جميـل وسـيعجبكما" عـبرت نظرتهـا الحديقـة وصـولًا إلى الشرفـة ونوافـذ الشـقة ثـم قالـت لنـا: "سـنبدأ بالانتقـال خـلال بضعـة أسـابيع. يمكنكـما توديـع المـكان عـلى مهـل" بـدا كلامهـا حاسـمًا حتـى إننـي ظننـت أننـا سـننتقل إلى مدينـة أخـرى، ولكننـي تفاجـأت بأننـي أسـتطيع رؤيـة أبـراج كنيسـة السـوق مـن المنـزل الجديـد أيضًـا.

كانـت أمـي تقـول دائمًـا إنـه من الأفضـل أن نرحـل في الوقت المناسـب بـدلًا مـن أن نكتشـف فيـما بعـد أننـا قـد أضعنـا اللحظـة المناسـبة للقفـز. كانـت إذا طـال بهـا الأمـد للوصـول إلى شيء مـا أو إذا شـعرت بالغضـب تمـرر يدهـا عـبر شـعرها وتقـول: "سـأقدم اسـتقالتي طواعيـة، افعلـوا مـا يحلـوا لكـم، أنـا راحلـة"

كان أخـي يسـد أذنيـه دائمًـا عندمـا كانـت تتحـدث بهـذا الشـكل. كان يخـشى أنهـا قـد تعنينـا بهـذا الحديـث، يخـشى أنهـا قـد تتركنـا، ولكـن مـا فـاق احتمالـه حقًـا كان دخولهـا إلى حجرتنـا ممسـكةً بلفافـة أكيـاس قمامـة وهـي تقـول لنـا: "يجـب أن نعيـد تنظيـم الأمـور هنـا. مـا يشـكل أهميـة بالنسـبة لكـما ينبغـي أن تتمكنـا مـن حملـه في أيديكـما، أمـا باقـي الأشـياء فيجـب أن تودعاهـا الآن. مـن يمـر بتجربـة الرحيـل مـن قبـل يشـعر بعدهـا أن الأمـر قـد أصبـح أسـهل."

لم تخيفني كلماتها ولم أدع أحدًا يقنعني بإلقاء أي شيء. لقد أوضح لي أبي ذات مرة أن كل هذه التصرفات تأتي من عالم آخر لا علاقة له بنا؛ وكنت أصدقه. دارت أحداث هذا العالم برأسها فقط، هناك حيث كانت تتجول بأفكارها بينما تقف أمام مرآة الحمام مغلقةً عينيها ولا تظهر أية ردة فعل إذا ما حدثها أحدنا.

لم تعلق أمي الستائر ولم تركب المصابيح كي تصبح مستعدة للقفز في أي وقت. بعد انتقالنا كانت تقوم يوميًا ولمدة أسبوعين باصطحابي أنا وأيكه من المدرسة بعد انتهاء عملها ثم تذهب بنا إلى أحد متاجر الأثاث. كنا نتناول غداءنا أولًا في الكافيتيريا ثم نجوب صالات العرض لانتقاء الأثاث. ولكنها في النهاية كانت تقول دائمًا إن الأشياء التي تعجبها باهظة الثمن مما سيصعب عليها فيما بعد أمر التخلي عنها مرة واحدة غير آسفة عليها. وعلى الجانب الآخر، فإن الأوقات السيئة تستحضر الكثير من الأشياء القبيحة التي ينبغي للمرء ألا يحيط نفسه بها في الأوقات الجيدة؛ لم نفهم أيًا من ذلك.

ذات مساء قلت لها: "إذا لم تشتري شيئًا في الصباح لن نذهب معك ثانية أبدًا"

في اليوم التالي اصطحبنا أبي من المدرسة إلى المنزل. كان يقود بارتباك وكان على عجلة من أمره حيث كان مضطرًا للذهاب إلى العمل مجددًا. انتظرت على الدرج أمام باب المنزل إحدى الفتيات التي كان قد منحها سر التثبيت، شكرها أبي لمجيئها بتلك السرعة كي تعتني بنا، وفتح باب المنزل.

سأل أيكه منتحبًا: "أين ماما؟"

"في ألمانيا الشرقية، تزور العمة هانّا."

كانت هانّا إحدى صديقات أمي من أيام الطفولة، كنا نسافر إليها دائمًا لمدة أسبوع في العطلة الصيفية.

سأل أيكه منتحبًا: "لماذا لم تخبرني شيئًا عن ذلك؟"

"لقد كنت في المدرسة"

على الرغم من أن أيكه هو الأكبر بيننا إلا أنه قد بدأ بالبكاء: "لماذا سمحت لها بالذهاب؟ بابا أحضر ماما رجاءً."

بدأ أيكه هذا المساء في حزم حقيبته. شاهدته دون أن أحرك ساكنًا وهو يضع نصف رطل من القهوة، وعبوة كوكا كولا، وثلاثة أصابع موز مع بيجامته في حقيبة الظهر. ثم خطر بباله أنه ليس لديه أدنى فكرة عن المكان الذي احتفظ به أمي وأبي ببطاقات هويتنا وغضب لأننا لم نهتم بالأمر حتى هذه اللحظة. زمجر قائلًا: "يجب أن نكون دائمًا على استعداد للقفز من القارب، ولكننا لا نعلم أين بطاقات الهوية" ولكنه أمل أن يتمكن من رشوة موظفي الحدود بالمواد الغذائية وبذلك يسمحون له بالعبور إلى ألمانيا الشرقية. اعتادت أمي أن تقوم بالتسوق لأجل العمة هانّا حينما كنا نسافرإليها في روستوك. كانت هانّا غالبًا تتصل بأمي قبلها وتعطيها قائمة بالأشياء التي تحتاج إليها من ألمانيا الغربية. كانت القائمة تتضمن دائمًا الموز والقهوة والكوكا كولا. أحيانًا كان الموظفون يأخذون منا نصف تلك البضائع على الحدود.

كم كنت أفضل أن أرافق أيكه!

"يؤسفني أنني لا أستطيع يا أُختي الصغيرة، فالمواد الغذائية لا تكفي لانتقال طفلين عبر الحدود." كنت أخشى أن يلقوا القبض عليه أو يطلقوا النيران، ولكنه أومأ برأسه ضاحكًا وقال: "إنهم يفعلون ذلك فقط إذا رغب أحدهم في العبور إلى ألمانيا الغربية" على الرغم من ذلك أخذ معه قميصًا أبيضَ على سبيل الاحتياط كي يلوح به كعلامة على نواياه السلمية. في النهاية تسللنا معًا إلى سريره، ووضعنا حقيبة الظهر تحت الغطاء، وانتظرنا أن يخلد أبي إلى النوم.

أيقظنـي ليـلًا صـوت جـرس الهاتـف. رد أبي بصـوت عـال: "ميتسـلر يتحـدث" ثـم واصـل حديثـه بعـد ذلـك بصـوت منخفـض. نـام أيكـه معانقًـا حقيبتـه بذراعيـه، ترجلـت مـن السريـر ببـطء وتسـللت إلى غرفـة النـوم. كان أبي في تلـك اللحظـة يرتـدي ملابسـه، همـس إلي: "مـاذا تفعلـين هنـا إذًا؟

"أترغب أنت أيضًا في الذهاب إلى ألمانيا الشرقية؟"

"بالطبـع لا" ارتـدى كنـزة فـوق قميصـه وأخـذ سـترة مـن الخزانـة، "يجـب أن أذهـب إلى المشـفى؛ هنـاك رجـل يحتـضر ويـود أن أحتفـل معـه بالعشـاء الأخـير." ارتـدى شـاله الكاروهـات الـذي كان يرتديـه حتـى في الأيـام الدافئـة لأنـه يشـعر بالـبرد سريعًـا. كانـت أمـي تقـول إن أبي طويـل ونحيـل للغايـة حتـى إن جسـده يعجـز عـن تخزيـن الـدفء. ربمـا لهـذا السـبب كان شـعره طويـلًا وأطلـق لحيتـه.

سألته: "أيمكنني أن آتي معك؟"

"لا يمكن يا صغيرتي" ارتدى حذاءه وربط الرباط.

"هل سيمانع المحتضر؟"

"نعم.... لا، لا أدري."

تطلع أبي حوله في غرفة النوم ليرى ما إذا كان قد نسي شيئًا.

سألته: "كيف يعرف أنه يحتضر؟"

"إنه مريض للغاية منذ فترة كبيرة."

"ولكن في هذه الليلة تحديدًا، كيف يعرف أنه سيموت حتمًا؟"

"نحـن لا نعـرف ذلـك، ولكننـا نشـعر بـه أحيانًـا، اذهبـي الآن إلى سريـرك، وانتبهـي حتـى لا توقظـي أيكـه."

نزلـت الـدرج إلى خزانـة الردهـة، تبعنـي أبي. بـين أحذيـة الشـتاء والأحذيـة المطاطيـة كان هنـاك حقيبتـان سـوداوتان، إحداهـما لمسـتلزمات المعموديـة والأخـرى لمسـتلزمات العشـاء الأخـير.

قـال أبي: "لا يمكـن التمييـز بينهـما" ثـم سـحب واحدة منهـما، ووضعها عـلى سـاعده وفتحهـا. وقفـت عـلى أطـراف أصابعـي، وسـط السريـر المخمـلي ذي اللـون الأزرق الغامـق بـدا جـرن المعموديـة كالقمـر الفـضي. وُضعـت إلى جانبـه زجاجـة فضيـة صغـيرة مزينـة بهـا مـاء المعموديـة. "الحقيبـة الخاطئـة للأسـف" وضعهـا مـرة أخـرى وأمسـك بالثانيـة. "عـادة يرقـد المـوت والحيـاة جنبًـا إلى جنـب."

"أتسمح لي بالنظر؟"

فتـح الحقيبـة. كان بهـا كأس فـضي وعلبـة مـن رقائـق بسـكويت الويفـر وصليـب صغـير وقنينـة مـن الكريسـتال تحتـوي عـلى النبيـذ الأحمـر. ارتـدى أبي معطفـه وزرّره حتـى الرقبـة، ثـم أخـذ الحقيبة. شـعرت بالخـوف فجـأة. "متـى سـتعود؟"

"لن يستغرق الأمر طويلًا"

فتـح بـاب المنـزل الـذي يكـون عـادة مغلقًـا بالليـل. تسـلل نسـيم بـارد إلى الداخـل؛ انتابتنـي القشـعريرة.

"سأعود حقًا عما قريب" قالها ثم أغلق الباب خلفه.

وقفـت لبرهـة أرتجـفُ في الردهـة، ثـم ذهبـت إلى حجـرة الأطفـال وسـحبت حقيبـة الظهـر مـن بـين ذراعـي أيكـه بحـذر وأخفيتُهـا.

لم يسـأل أيكـه عـن مـكان حقيبـة الظهـر؛ بـدا وكأنـه يشـعر بالارتيـاح كونـه غـير مضطـر للقيـام برحلتـه. وعندمـا عـادت أمـي بعـد أسـبوع مـن روسـتوك تعامـل وكأنهـا لم تسـافر مـن الأسـاس. اصطحبتنـا من المدرسـة إلى

متجر الأثاث حيث اشترت أخيراً منضدة زجاجية، واثنين من الكراسي المعدنية أسطوانية الشكل، ومصباحًا يشبه عيش الغراب الأبيض.

كانت حجرة معيشتنا واسعة للغاية ومضيئة بفضل النافذة الكبيرة التي تعرض المنظر الكلي بالخارج، وكان بالغرفة بابٌ يؤدي إلى الشرفة. فُرشت الأرض بخشب الباركيه الفاتح المتعرج، ودُهنت الجدران العالية باللون الأبيض. اشترت أمي قطعًا قليلة للغاية من الأثاث فبدت الغرفةُ غير مجهزة، بل بدت وكأننا سننتقل في الحال. على الرغم من ذلك شعرت أمي بالرضا، ولكن عندما عاد أبي إلى المنزل في المساء نشب شجارٌ بينهما.

كنت أرقد في سريري وأسمع أمي تقول: "ولكن هذا يكفي تمامًا، فأنا لست بحاجة إلى أشياء ثقيلة أو كبيرة؛ أنت تعرف أنني أكره ذلك. أنا لا أقيد نفسي بأعباء ثقيلة"، قاطعها أبي: "عيشي على أرض الواقع. نحن نود أن نبقى هنا، لا يمكنك أن تظلي دائمًا تلك الطفلة اللاجئة. المنزل ليس عبئًا ثقيلًا، لن تُرغمي على مغادرة هذا المكان، افهمي ذلك رجاءً، لا أحد سيرحل، سوف نبقى هنا طالما أردنا" ساد الصمت للحظة. ثم ردّت أمي بنبرة حادة: "كيف يمكنك أن تكون واثقًا لهذه الدرجة؟"

لم يجبها وإنما تركها وحدها. أغلق باب المنزل ثم ساد الصمت مرة أخرى، ساد صمت رهيب، هل غادرا هما الاثنان؟ قفزت من السرير ونزلت الدرج. جلست أمي متصلبة على أحد الكرسيين المعدنيين في وسط حجرة المعيشة وامتد ظلها الضخم على الأرضية والحائط المقابل لها. حينما دخلت الغرفة لم ترفع رأسها حتى، ذهبت إليها: "ماما؟"

"ماذا تفعلين هنا؟" دوى صوتها عبر الغرفة شبه الفارغة، وتمايل ظلها قليلًا ثم امتد كالرمل الأسود وصولًا إلى قدميها. انحنت أمي

تجاهـي ثـم ضمتنـي إليهـا: "هـل أيقظنـاكِ؟" مـررت إصبعهـا عـلى مفـرق شـعري، "هـل سـمعتِ شـجارنا؟" رددت: "لا" لم تكـن أمـي تحـب أن يتصنـت عليهـا أحـد. حينـما كانـت توقـع بي وأنـا أفعـل ذلـك كانـت تسـحبني مـن أذني حتـى تتوهـج.

"لماذا أنت مستيقظة إذن؟ هذا موعد النوم."

"لا أستطيع النوم."

"هل رأيتِ حلمًا سيئًا؟"

"نعـم" كذبـت حتـى تسـمح لي بالبقـاء معهـا قليـلًا ولا ترسـلني للنـوم في الحـال مـرة أخـرى. حينـما وضعـت مرفقهـا عـلى مسـند الكـرسي وأسـندت ذقنهـا عـلى يدهـا انكمـش ظلهـا فأصبـح يكـبرني بقليـل. حاولـت أن ألمسـه واسـتطعت أن أشـعر بملمـس ألـواح الباركيـه، ولكـن أمـي انحنـت إلى الأمـام فتحـرك الظـل. قالـت لي بهـدوء: "لا يجـب أن تقلقـي، أتحـدث بجديـة حقًـا. أتعرفـين مـا هـو أفضـل شيء بشـأن والـدك؟"

"ماذا؟"

ضحكـت وبـدا صـوت ضحكتهـا كالغرغـرة الهادئـة "أن والديـه لا يحباننـي"

سألتها: "لأنك لاجئة؟"

"هراء! بسبب هوسهم بلؤلؤة الشاطئ"

قلـت: "نجـم الشـاطئ"فرفعت كتفيهـا بغـير اكـتراث وأنزلتهـما مـرة ثانيـة. "لقـد افتتحـا متجـرًا تلـو الآخـر، فبدت تلـك المتاجـر الكثـيرة كاللآلئ المصطفـة في ربـاط. كانـا يقـولان إن بتجارتهـما كُتِـب لهـا الـدوام وأنهـا شيء يسـتطيعان أن يبنيـا عـلى أساسـه فيـما بعـد. حينـما أبـدى والـدك عـدم رغبتـه بالانضـمام إليهـما حمّلـوني ذنـب ذلـك. اعتقـدا أننـي أقنعتـه بالتخـلي عنهـما وتدمـير عملهـما والرحيـل، هكـذا اسـتقبلا الأمـر. حينئـذٍ

كان والـدك يرغـب فقـط في الدراسـة ولم يكـن يـود أن يصبـح تاجـرًا. قـال والـداه إنني سـوف أتركـه بمجـرد أن أتسـبب في تركـه لهما، وإنني محطمة وليـس لـدي المقـدرة عـلى بنـاء حيـاة معـه وإن علاقتنـا لـن تـدوم، ربمـا كانـا يحتفظـان بآخـر لؤلـؤة شـاطئ لأنهـما مـا زالا يعتقـدان أنـه سـيأتي زاحفًـا يومًـا مـا ليتـولى العمـل بالمتجـر."

قلت مجددا: "نجم الشاطئ"

طبعـت أمـي قبلـة عـلى شـعري وقالـت: "لا تقلقـي في غضـون سـاعة أو سـاعتين سـيعود والـدك بالتأكيـد مـرة أخـرى، فهـو لـن يسـمح أبـدًا أن يثبـت لوالديـه أنهـما كانـا عـلى حـق."

بـدا الظـل الصغـير وكأنـه يقرفـص عنـد قدمـي أمـي. اعتقـدت أنـه ظِـلُّ طفـلٍ والتففـت إلى أمـي، هـل تـراه أيضًـا؟ أغمضـت عينيهـا وجلسـنا صامتتـين لبرهـة، ثـم قالـت لي: "يمكنـكِ أن تذهبـي إلى النـوم الآن. سـأظلُّ مسـتيقظة قليـلًا بعد."حينـما تـرددت ابتسـمت لي وقالـت: "هـدئي مـن روعـك سـتهتم أمُّـك بـكل شيء. لا يمكـن أن يحـدث شيء، "امتـد الظـل حينئـذٍ مجـددًا عـبر الغرفـة وتسـلق الحائـط ليرتسـم عليـه كبـيرًا وضخـمًا.

(7)

قـال كونسـتانتين: "بالطبـع سـمعت مـن قبـل أن النـاس يختفـون ببسـاطة." سِرنـا متأبطـين أذرع بعضنـا بعضًـا، مقتربـين مـن بعضنـا بعضًـا حـد الالتصـاق. "يفزعنـي تصـور أن أذوب ببسـاطة هكـذا. كـما لـو أنننـي لم يكـن لي وجـود قـط. ومـع ذلـك أرى أن كل منـا يُخَلِّـف دومًـا وفي كل مـكان أثـرًا. غـير أننـي لا أسـتطيع أن اتواجـد هنـا في لحظـة مـا، ثـم أغيـب فجـأة، فـلا يمكـن العثـور عـليّ؛ أضيـع للأبـد."

"إنه لأمر مفزع لأولئك الذين يتخلّفون. إنهم ..."

"لا" هـزّ رأسـه بشـدة، "كيـف لـكِ أن تقـولي هـذا؟" إن حياتهـم تمـضي قدمًـا، بينـما تنقـضي حيـاتي ببسـاطة."

"كيف تعتقد ذلك؟"

انعطفنـا في درب ضيـق ذي إضـاءة خافتـة، يمـر بـين البيـوت السـامقة - تلـك العـمارات المكونـة مـن أجـزاء مركبـة مـن البـلاط الخرسـاني- مثـل

ممـر جبلـيّ ضيـق. تحمـل اللافتـة كلمـة "طريـق خـاص". تـردّد صـدى خطواتنـا مـن جـدران المنـازل أجوفًـا.

"كثـيرًا مـا أفكـر ..." هـزّ رأسـه مـن جديـد واضطـر إلى السـعال ولـوى وجهـه غاضبًـا واسـتأنف الحديـث بصـوتٍ متحـشرجٍ قائـلًا: "أتعرفـين، أظـل كثـيرًا جـدًا خـارج المنـزل وأنهمـك بصفـة دائمـة في العمـل ولا أتمتـع عـلى الإطـلاق بحيـاة خاصـة وإن لم أعـد ذات مـرة إلى المنـزل، فلـن يلحـظ أحـد ذلـك البتـة. مـن المحتمـل أنّ أحـدًا لـن يفتقـدني. قـد أسـتطيع أن أختفـي ببسـاطة حقًـا..." تنحنـح ورفـع يـده بعيـدًا، ضممـت وجنتـي إلى كتفـه؛ "يشـق عـلىّ أن أصـدق هـذا يـا كونسـتانتين."

جـذب شـحمة أذني وقـال: "لا تناديـني مـن فضلـك هكـذا، ناديـني باسـم كونسـتي وإلا سـأرى نفسـي طاعنًـا في السـن."

"أجـل أجـل! أنـت كونسـتي." قلتهـا مازحـة ولكزتـه في جانبـه فتفاداني لاهيًا.

"إننـي لا أبالـغ حقًـا" قالهـا ورفـع ذراعـه اليُسرى وهـزّه بخفـة، حتـى تزحـزح كُـمُّ معطفـه إلى الخلـف بعـض الشـئ. كان كونسـتانتين يرتـدي سـاعة مـن الذهـب الخالـص ذات سـوار عـلى هيئـة سلسـلة ويضـع مينـا السـاعة في الجهـة الداخليـة مـن المعصـم، عـلى شريـان يـده النابـض. "بالأمـس، في ذلـك الوقـت تقريبًـا، كنـت مـا زلـت جالسًـا في الطائـرة قادمًـا مـن نيويـورك. وفي العشـية كنـت في واشـنطن، ولـديّ في الأسـبوع المقبـل بعـض ارتباطـات العمـل في ميونيـخ وتولـوز ومدريـد. وإذا توفيـت ذات مـرة، فمـن المحتمـل أن أكـون حينهـا في غرفـة بأحـد الفنـادق. سـأكون عندئـذٍ راقـدًا في سريـر يخـص غـيري، ومعـي جهـاز الكمبيوتـر المحمـول الخـاص بي..."

"ستصاب عاملة تنظيف الغرفة بالفندق بانهيار عصبي، عندما تعثر على جثتك في الصباح." قلتها وما تمالكت أن ضحكت، انحني متأوهًا. "كم أنتِ غليظة القلب!!"

سألته وأنا لا أزال أضحك: "هل أنت وحيد لتلك الدرجة؟"

قال: "وحيدٌ جدًا"، وظل واقفًا أمام أحد البيوت السامقة. تنتشر بجوار المدخل شجيرات كثيفة، "هل ستصعدين معي إلى أعلى أيضًا؟"

تقع شقته في الطابق العاشر؛ عندما فتح الباب صفعنا هواء دافئ خانق. كما لو أن الشمس كانت ساطعة طيلة اليوم على النافذة فأهاجت كل شئ. كثيرًا ما تفتقر العمارات ذات البلاط الخرساني إلى شيش، تنبعث رائحة تراب وأحد المواد المطهرة. رائحة عفنة، بها قليل من رائحة البلاستيك، مثل الرائحة المنبعثة في أحد المكاتب الحكومية.

الممر ذو مساحة صغيرة؛ ضحك كونستانتين لي وبدا فجأة مرحًا وألقى بمعطفه فوق إحدى علاّقات مشجب حفظ المعاطف والقبعات. أرى نفسي في لوح عاكس بلا أُطُر وفي الأحذية الشتوية طويلة الرقبة وفي السراويل الجينز وفي كنزة سوداء. انسابت بعض الخصلات من شعري المربوط على هيئة ذيل حصان، وجمعت الخصلات المنسابة خلف أذنيّ.

"فلتدخلي، ادخلي! مرحبًا بكِ في منزلي المريح!" قالها كونستانتين صائحًا وأسرع إلى المطبخ، سِرْت خلفه. موقد طهي ذو قرصين، حوض مطبخ صغير، ثلاجة. جهاز ميكروويف، خزانتان علويتان لونهما أبيض. لا مكان يتسع لمنضدة، يمكن النظر إلى حجرة الجلوس عبر منفذ في حائط المطبخ يستخدم في نقل الطعام.

سألني كونستانتين: "هل تودين تناول أي مشروب؟". كانت الثلاجة تحتوي على زجاجة شمبانيا، لم يكن بالثلاجة شئ آخر.

سألته: "هل تسمح لي بمعاينة الشقة؟"

"بالطبع!" فتح الخزانتين العلويتين وصفع أبوابها وبحث عن الكؤوس.

في حجرة المعيشة شُرفة كبيرة منحوتة في حائط البيت، بدت مثل عُلْبَة. يوجد كرسي بلاستيكي في وضع مقلوب مستندًا إلى حاجز الشرفة. تهب الريح عاصفة بالكِنار المتموج للمظلة. فانسل الكنار بالفعل تمامًا. أرجو ألا يرسلني كونستانتين إلى الخارج عندما أدخن. كان المبنى الضخم يقع قريبًا لدرجة أنه يمكن الإمساك به. وكانت أغلب النوافذ معتمة، يومض خلف ثلاثة منها فقط ضوء مائل إلى الزرقة، منبعث من أجهزة تلفاز.

تقع حجرة النوم جهة الشرق؛ توقظ أشعة الشمس من ينام في الحجرة في الصباح الباكر. وفي حقيقة الأمر ليس في الحجرة شيش، وإنما ستائر رمادية شمعية فقط. رأيت خلف مبنى شاهق آخر ذي شرفات تشبه العلب برج التليفزيون. بدت كُرَتُه الفضية مثل قمرٍ ثانٍ، وإلى اليمين تضيء بأضواء النيون أحرف كلمة صحيفة "مورجن بوست" الواقعة على البناية الشامخة لمؤسسة أكسل شبرنجر.

يتدلى من سقف حجرة النوم مصباحٌ زجاجيٌ لونه برتقالي. ينبعث من الأثاث المصنوع من قشرة خشبية داكنة اللون شيءٌ عفنُ الرائحة، على الرغم من أن ذلك الخشب كان يقع في الخلف فقط. دولاب بعرض الحائط، مكتب به درج ضيق، كرسي يليق بالمكتب، سرير عريض لشخصين، تلتصق به طاولتا سرير جانبيتان مغطتان بمفارش.

وقف كونستانتين فجأة خلفي، ضم خصري بإحدى ذراعيه.

"ليس لديّ للأسف سوى كأس واحد من الشمبانيا." قالها وحمل الكأس لي أمام فمي، فرشفت منه، ثم احتساه عن آخره من فوق كتفي.

قلت له: "الشقة لا تليق بك."

ضحك كونستانتين؛ "إنها شقة مفروشة، استأجرتها لثلاث ليالٍ فقط." وضع الكأس على إحدى طاولتي السرير الجانبيتين. "أعرف أنها موحشة، غير أنه مثل تلك الأمور تحدث لا سيما عندما يضطر الإنسان إلى تجربة شيءٍ جديدٍ. أعتقد أنه لا يوجد فندق تقريبًا في برلين، لم أقم فيه. لا يحلو لي المبيت في المكان ذاته مرتين."

"ما سبب ذلك؟"

"إن الحياة أقصر من أن نكرر ما نفعله عدة مرات."

"او أقصر أيضًا من أن نطيق الأمور المقيتة حقًا." جذبت الستارة الشمعية.

ضحك كونستانتين مجددًا "ومع ذلك لا توجد هنا عاملة لطيفة تنظف الغرف وتصاب بإنهيارعصبي بسببي. آه، ولكن بالتأكيد توجد عاملة نظافة تركية، إنها لا تستحق بالطبع أيضًا أن تعثر على جثة أحد الموتى."

قلت له: "في شرق ألمانيا يؤدي الألمان أعمال النظافة بأنفسهم." وسألته: "ألم يسترع ذلك الأمر انتباهك أبدًا؟"

"حقًا؟" خلع سترته وتوجه صوب خزانة الملابس وأخرج منها شماعة ملابس مصنوعة من السلك "بسبب الطبيعة المزهرة." دس شماعة الملابس في السترة ومسح على السترة لتصبح مستوية وعلّقها على الجهة الخارجية من الخزانة، "ماذا تعملين بالضبط؟ لا يمكن بالتأكيد أن يتعيّش إنسان من تأليف الروايات."

"أعمـل في كتابـة النصـوص الإعلانيـة، لـدى شركـة تبيـع البضائـع بالمراسـلة عـبر شـبكة الإنترنـت."

"لدى أي شركة؟" حلّ أزرار قميصه.

"لدى يونيفرسال شوز؟ هل تسمح لي أن أدخن؟"

"فعلًا؟ كنـت قـد ارتبطـت لتـوي معهـم ببعـض المعامـلات التجاريـة. أجـل بالطبـع." تجـرّد مـن قميصـه ووقـف أمامـي عـاري الصـدر." سـأتوجه للاسـتحمام. سـتجدين في الشرفـة طفايـة سـجائر."

وضـع يـده عـلى بطنـي، شـعرت بملمـس سـاعة يـده الثقيلـة، التـي لم يخلعهـا. التصـق بجلـدي جـزء من سلسـلة سـوار السـاعة والقبـة الزجاجية، التـي تعلـو مينـا السـاعة. كان شـعر كونسـتانتين مبتـلًا بالعـرق ويلمـع بلـون نحـاسي. مـددت يـدي لأمسـك بداخلـه، ابتسـم ثـم نـزع يـده عـن بطنـي. فـرد كونسـتانتين الواقـي الذكـري. اسـتطعت أن أشـم رائحـة مـادة اللاتكـس مطاطيـة القـوام ورائحتنـا. تـرك كونسـتانتين الواقـي الذكـري يسـقط بجـوار السريـر وأغمـض عينيـه، ثـم تنهـد وتدحـرج مـن السريـر ورفـع الواقـي الذكـري وصعـد فـوق حقيبـة السـفر المفتوحـة والواقعـة عـلى أرض الحجـرة وذهـب إلى دورة المياه. هـل كانـت حقيبـة السـفر هنـا بالفعـل؟ انغلـق غطـاء صفيحـة القمامـة مطويًـا؛ غسـل كونسـتانتين يديـه.

"أكـره الواقيـات الذكريـة." قالهـا عنـد عودتـه إلى الحجـرة. "رائحتهـا مثـيرة للاشـمئزاز"، ثـم أغلـق حقيبـة السـفر وأزاحهـا إلى الحائـط، سـيطلب منـي حـالًا أن أنهـض، لـكي يسـتطيع ترتيـب السريـر. نظـر إلى سـاعته.

"هل ستبقين هنا؟"

"أنت تعلم بلا شك، أنني ابنة أحد اللاجئين."

وقـف عاريًـا أمـام السريـر، مرتديًـا السـاعة السـميكة في يـده، ناظـرًا إليّ بتعـالٍ، "اعتقـدت أن أمـك هـي اللاجئـة."

"هـي اللاجئـة وأنـا ابنتهـا. حتـى وإن لم أخـسر في حـد ذاتي شـيئًا، إلا أن هنـاك شـيئًا مـا يبقـي متوارثًـا."

"ما هذا الشئ إذًا؟"

"الإحساس بالخسارة"

"ما معنى هذا إذًا؟ هل يعني هذا أنكِ ستهربين مرة أخرى؟"

"هل تود أن أبقى هنا؟"

اسـتلقى إلى جـواري ولصـق الوسـادة في مؤخـرة رأسـه عـلى نحـو مسـتوٍ. سرعـان مـا سـينهض ثانيّـة ويخـرج قمصانـه مـن الخزانـة ويُحـضِر حقيبـة الزينـة مـن دورة الميـاه ويحـزم كل شئ في حقيبـة السـفر بنظـام وترتيـب ويمـضي. وجهـت نظـري إلى أعـلى باتجـاه المصبـاح الزجاجـي. السـقف المنخفـض مُغَطّـى بألـواح معدنيـة مسـاميّة، لم يكـن بوسـعي أن أشـعر بـالألم، أو أشـعر بالأسـف، وإنمـا شـعرت فقـط بقلـق خافـق، كـما لـو أن كونسـتانتين أوشـك بالفعـل عـلى الخـروج متجهًـا نحـو البـاب، كـما لـو أننـي مضطـرة إلى أن أنتفـض واثبـة وأعـدو خلفـه مسرعـةً، لأنـه تـرك هنـا شـيئًا مـا، يجـب عـليّ حتـمًا أن أعطيـه لـه، قبـل أن يمـضي.

كان فمـه مفتوحًـا فتحـة صغـيرة وعينـاه مغلقتـين. هـل هـو نائـم؟ يـا للـون الفاتـح بجفنيـه ولحيتـه الصغـيرة، كـما لـو أن أحـدًا نـثر ملحًـا عـلى وجنتيـه. أقـاوم رغبتـي المُلّحَـة في أن أمسـح بيـدي عليهـما. لا أريـد أن أوقظـك، نـام يـا كونسـتانتين. ولكـن عندمـا أعتـدل في جلسـتي بحـذر، لـكي أتمكـن مـن تأملـك عـلى نحـو أفضـل، تفتـح عينيـك عـلى الفـور. "لكـن هـل سـتمضي الآن؟" عـدت تنظـر مـرة أخـرى إلى السـاعة. "ليسـت سـوى الثانيـة والنصـف، فلتبـق هنـا!" تبسـط ذراعـك، ينبغـي أن أسـتلقي إلى جـوارك. أقـترب منـك حـد الالتصـاق. أضـم وجنتـي إلى صـدرك، تتنفـس بصـوت خفيـض، محدثًـا صـوت صفـير، كـما لـو أن هنـاك مقاومـة، كـما لـو أنـك تمتـص الهـواء عـبر فتحـة ضيقـة. لديـك سـعال، قفصـك الصـدري

يرتجف. أمسح بيدي عليه، تملأ صدرك بالهواء وتسترخي ثانيَّة. أمسك بيدك وأتأمل سوار الساعة ذا شكل السلسلة وأتحسس حلقاته على حدة. يمتد عبر الذهب خط متوهج مستوٍ - هل لونه فضي أم أنه بلون الذهب الأبيض؟ يبدو مثل شريط من البخار في السماء يصدر عن إحدى الطائرات. لا أعرف أحدًا، يرتدي مينا الساعة في الجهة الداخلية من المعصم. أعتدل في جلستي وأدير يدك وأمسح بإصبعي على امتداد شريان يدك النابض، الذي ينفر بلون داكن أسفل بشرتك فاتحة اللون، وأصنع دائرة حول مينا الساعة، الذي يقبع مثل شمس فوقه. أحاول أن أدفع مينا الساعة إلى أعلى، يستقر سوار الساعة المسلسل بإحكام بالغ. يدك تهتز؛ "ماذا تفعلين هناك يا أنّا؟".

أدفع ظفري أسفل السدّادة، أرفعها، تنفتح محدثة صوت خشخشة. تسحب يدك فيما يشبه الرجة. يتدلّى السوار متأرجحًا ويومض. تغلقه مرة أخرى. تدفع معصمك وراء رأسك. تقول لي: "لا أخلعها أبدًا." وتضيف: "استلقِ الآن إلى جواري؛ لا يزال لدينا قليلٌ من الوقت."

(8)

منـذ كنـت طفلـة تتملكنـي تلـك الرغبـة الشـديدة في سرد الحكايـات، لا سـيما مسـاءً عندمـا كانـت أمـي تضعنـي أنـا وأيكـه في الفـراش، وكنـت أود ألا تمـضي. كانـت دائمًـا مـا تسـألنا، عـمّا فعلنـاه طيلـة اليـوم. كانـت تُسَـمِّي ذلـك استعراضًا لـكل مـا حـدث مـرة أخـرى. لم يكـن أيكـه يستمرئ ذلـك وكان يريـد أن تتلوعلينـا أمُّنـا شـيئًا مـا، لكننـي كنـت أبـدأ عـلى الفـور في الحـكي.

كنـت قـد تنزهـت قليـلًا بالدراجـة عـبر الطـرق الزراعيـة الواقعـة خلـف منزلنـا واعـتراني في أثنـاء ذلـك الشـعور بأننـي أقـود سـيارة. سـيارة سـباق، إنسـيابية الشـكل، سـهلة الحركـة والتوجيـه، سريعـة للغايـة. أصـدرت الريـح المعاكسـة التـي تنشـأ مـن سرعـة السـيارة صـوت أزيـز وتخللـت شـعري، فانطلقـت مسرعـةً هربًـا منهـا. هـل طِـرت؟ إلى أعـلى، إلى السـماء، التـي تشـقها وتتخللهـا السـحب مثلـما تشـق السـفن الميـاه. ناقـلات بـترول ضخمـة، سـفن صغـيرة. قفـزت في قـارب سريـع منتصبًـا في وقفتـي ودون أن أتأرجـح. حلّقـت أعـلى منزلنـا...

قاطعتني أمي متسائلة: "طيران؟ في قارب؟"

"أجل! فوق المدينة، التي تقع أسفل المياه. بدا الأمر هكذا، فوق الجبال وبعيدًا بعيدًا بالإضافة إلى ذلك!"

وضعت أمي يدها على وجنتي، وسألتني: "ماذا فعلتِ حقًا؟"

أتيت إلى بلد بعيد، ليس به أنهار أو شوارع أو طرق. ليس به سوى بيوت تقف كالبنيان المرصوص، ينبت أحدها من الآخر. لا تنفتح معظم النوافذ والأبواب في اتجاه الخارج، بل تنفتح فقط في اتجاه الغرفة التالية. ومن يريد الخروج، يجب أن يتسلق عبر المدخنة، ثم يقفز من سقف إلى آخر أو يحفظ توازنه عند تحركه بامتداد المزاريب.

اعترضت أمي حديثي قائلة بانفعال: "كُفي عن ذلك الآن!" وأضافت: "ألا يكفيكِ ما قلتيه؟ هل يلزم دائمًا أن تختلقي شيئًا ما علاوة عليه؟ تلك الحكايات لا تستهويني. الآن أتى دور أيكه." والتفتت بذلك نحو شقيقي، الذي كان يجلس بجواري مرتديًا رداء النوم المفضّل المخطط ذا اللون الأزرق المائل إلى البياض ولّف خصلة من شعره حول إصبعه، كانت أمي تسمي ذلك لهوًا يفعله بيده وكانت تضطر بانتظام إلى أن تقص له الخصلات المُلّبدة.

"لقد ركبنا الدراجة فحسب." قالها متمتمًا وتثاءب.

"لكن بسرعة خاطفة لم تكن أنّا تسير على نحوٍ مستقيمٍ، كانت تجد دائمًا ما يتحتم عليها أن تلتقطه وأن تأخذه معها.

كان يبدو لي دائمًا مثل العنزة التي ترد في القصة الخرافية. مااااء، مااااء، مااااء، يقوده أحدهم في مرعى ريان، حيث كان يرعى طيلة ساعات. غير أنه عندما كان أحدهم يسأله مساءً، هل اكتفى، فكان يمأمئ: مم عساي أن أشبع؟ كنت أقفز فقط فوق الحفر الصغيرة ولم ألتهم ثمة عشب صغير، مااااء، مااااء.

ضحكت أمي ومسحت بيدها على شعره. ثم سحبت درج الكومودينو الخاص بي واستخرجت منه الكنوز، التي كنت قد جمعتها طوال اليوم. أحجار صغيرة وسنبلة إحدى الحبوب وبتلات الزهور وإيصال مجعد والجناح المكسور لنموذج مصغر لإحدى الطائرات، والذي كان قد انغرس في سياج من الشجيرات الملتفة. وضعت أمي كل الأشياء في سلة صغيرة، وقالت لي: "عندما تمتلئ السلة، عليكِ بفرز ما فيها وأن تتخلصي من الأشياء عديمة النفع." وأضافت قائلة: " لن تقدري يومًا تلو الآخر أن تجرجري تلك الحاجيات وراءك."

كانت سلتي الصغيرة مختلفة عن قِدْر تحضير الطعام المهروس، التي ورد ذكرها في القصة الخرافية، فلم تكن سلتي الصغيرة تفيض أبدًا بما فيها، حيث كنت أفرّغها بانتظام وأضع كنوزي في مأمن، باحثةً عن مخابئ في البيت كله. وعندما كانت أمي تكتشف موضع أحد تلك المخابئ، كانت دائمًا ما تُطلِق صرخة كبيرة قائلة لي: "ستملئين كل شئ عن آخره هكذا، حتى نبقي عالقين هنا ولن يعود بوسعنا أن نخرج من هنا."

لم تكن أمي تمتلك سوى كنزٍ واحدٍ، كانت بالتأكيد تحافظ عليه، مثلما أحافظ على مجموعة كنوزي. تمّثل ذلك الكنز في كتاب أساطير عتيق مُغَلّف بالكتان ذي اللون الخردلي، يلتصق به رسم لا لمعة فيه. يظهر في ذلك الرسم أمير ذو شعر أشقر مُجَعّد، يرتدي سروال أزرق فضفاضًا مربوطًا عند القدمين وقميصًا محاكًا بخيوط الذهب وينحني فوق شابة، ترقد نائمة أسفل نافذة مغطاة بعشب أخضر. كان الأمير ما زال ممسكًا في يده بالسيف، الذي مهّد به الطريق لنفسه.

وأمامه بقي مئات الرجال الآخرين منغرزين في سياج من نبات شائك، كان يحيط بالقصر مثل السور، غير أن الحظ كان يحالفه.

"الحظ فحسب، لا شيء سواه."، كما كانت أمي تقول دائمًا، عندما كانت تتناول كتاب الأساطير في يدها. "دامت اللعنة مائة عامٍ وكان ذلك الأمير هناك في الوقت المناسب، وإلا لكان قد هلك تمامًا في بؤس على غرار ما حدث للآخرين." قالت أمي إن الأمر كان مثل الحرب، حينما غرقت صفوف المنازل بأكملها في وابل من القنابل ولم يتبق سوى مبنى واحد لم يقع، وكأن هناك معجزة ما، شأنه في ذلك شأن بيت عائلتها في مدينة روستوك. كان أبوها دائمًا ما يحكي لها، أنه عندما عاد إلى وطنه، بعد مشاركته في الحرب، لم يجد سوى أنقاض حُطَام، على مرمى البصر. ولم يعد الحي، الذي كان قد ترعرع فيه، موجودًا بأكمله. تمامًا مثل الشارع، الذي كان يتنزه فيه مع جدته، عندما كان شابًا. ومدخل البوابة، الذي قبّلها عنده لأول مرة، وحده منزل والديه ظل واقفًا، فأوضح له من بعيد، أنه عاد إلى وطنه ودلّه، مثل منارة على الطريق، الذي سلكه عبر الأنقاض.

في ربيع عام 1946 وُلِدَ في ذلك المنزل، الذي شيَّده جده وجدته، الخال جورج وولدتْ بعد ذلك بأربع سنوات أمي.

كان جدي كارل يعمل مهندسًا مدنيًا. وبعد اندلاع الحرب شغل على الفور إحدى الوظائف في إدارة المباني في مدينة روستوك. عندما أفكر الآن في روستوك، فإن أول ما يلوح أمامي الشارع الطويل، الذي شارك جدي في تخطيطه وبنائه. كان شارعًا فخمًا اشتراكيَ الطراز، يشبه ما يوجد في كثير من المدن الكبرى في ألمانيا الشرقية سابقًا وفي الكتلة الشرقية سابقًا، ومنها على سبيل المثال طريق كارل ماركس في برلين. إلا أنه في روستوك تم استخدام الطوب المحروق في البناء، كما استخدم في شمال ألمانيا بأكملها الجملون المُزَيّن والورود المزخرفة بدلًا من الأعمدة الرومانية وواجهات المباني المكونة من بلاط لونه فاتح ومصارع الشبابيك الخضراء، التي تبدو في اتجاه الجنوب والموجودة هنا. كانت أمي تحكي أن جدي كارل كان فخورًا للغاية بذلك. لقد

حازت على إعجاب أمي نفسها، عندما كانت طفلة آنذاك، حيث كانت دائمًا ما يعتريها شعورٌ بالسعادة، عندما كانت أمها تصحبها معها عند ذهابها إلى مصفف الشعر أو ذهابها للتسوق في المحلات الجديدة. كان منزل والديها يبدو لها - مقارنةً بالمباني الحديثة الفخمة - قديم الطراز وبلا رونق. فجذبت أمها أي جدتي لورا من ذراعها وقالت لها إنها تفضل أن تسكن هنا. انحنت لورا، التي كانت ترتدي معطفًا من الصوف ذا لون فاتح وقفازًا من الجلد وقبعة صغيرة أنيقة، كانت عائلتها القاطنة في مدينة لوبيك قد أرسلتها لها، وقالت لأمي: "صغيرتي تينا، لا يسكن هنا سوى الشيوعيين."

وعلى الفور أدركت أمي، التي كانت ترتدي مريلة بها كاروهات وجوارب حتى الركبتين وشعرها بني اللون يصل حتى ذقنها ذلك بقولها: "إننا لا نريدهم أن يصبحوا جيراننا." أومأت لورا برأسها ووضعت في الوقت نفسه أحد أصابعها على شفتيها قائلة: "لكننا لن نبوح بذلك لأحد".

في أغسطس من العام 1961 وقبل أيام قليلة فقط من بناء سور برلين، كان جدي وجدتي قد سافرا بصحبة جورج وأمي إلى شرق برلين. كانت قطارات الترام ومترو الأنفاق آنذاك ما زالت تسير عبر المدينة بأكملها، غير أنه لم يكن يحق لمواطني ألمانيا الشرقية النزول في محطات القطار في ألمانيا الغربية، دون أن يكون بحوزتهم تصريح بالسفر. وكان آمري قوات التدخل يراقبون كافة المسافرين، في محاولة منهم لاكتشاف لاجئين بينهم ولمنعهم من مغادرة القطار وإلقاء القبض عليهم.

وفي سبيل إخفاء ما خططا له، كان جدي وجدتي قد قاما بعملية تمويه كي تبدو رحلة سفرهم إلى شرق برلين نزهة في عطلة نهاية الأسبوع وحجزا غرفة في بنسيون. وهناك تركا أمتعتهما وأخذا منها أفضل ما يحتاجون إليه من أغراضهما. بدا الأمر وكأنهما يريدان

الذهاب إلى الكنيسة. لم يكن مسموحٌ لأمي أن تأخذ معها سوى كتاب الأساطير هذا، الذي أهداه جدي لها ذات مرة بمناسبة الاحتفال بأعياد الميلاد، والذي كان يتلو عليها قصصًا منه كل مساء. كانت أمي مترددة في أن تتحدث وأرادت أن تتزاحم مع جدي على المرور من باب غرفة البنسيون. أمسك بها من ذراعها متسائلًا: "أين هو؟ ألم أقل لكِ صباح اليوم إنه يجب عليكِ حتمًا أن تدسيه بين أغراضك."

كانت حقيبة ظهرها موضوعة على السرير، قَلَبَ جدي الحقيبة. كانت خاوية.

كانت أمي قد أعارت كتاب الأساطير لصديقتها هانّا. "لكن يا أبي، ماذا في الأمر إذًا؟ لقد استعارته صديقتي مني مدة عطلة نهاية الأسبوع فقط، ليس هذا بالأمر السيئ." قالتها لها، عندما ترقرقت الدموع في عينيه، عانقته "ستعيده هانّا لي مرة أخرى يوم الاثنين!"

ضمّها بين ذراعيه وأمسك بها وطبع قُبلة على شعرها قائلًا: "أنتِ محقة، ليس هذا بالأمر السيئ."

وصلوا في المساء إلى معسكر الاستقبال مارين فيلده الواقع في غرب برلين، وحصلوا على حجرة ضيقة. ارتمى جدي على أحد الأسرّة الخشبية ودفن وجهه بين يديه طوال الليل، ولم يعد يتلو قصصًا على أمي مرة أخرى.

سافرت أمي ثانيةً إلى ألمانيا الديمقراطية بعد خمسة عشر عامًا من فرارها منها، أي عندما أصبحت فتاة يافعة بالفعل. قادتها خطواتها الأولى بالطبع إلى منزل والديها. خلف إحدى النوافذ في الطابق الأول، حيث كانت تقع حجرة معيشة منزل والديها في السابق، كانت إحدى الستائر تتحرك وكان هناك شخص ما يرهف البصر نحو الأسفل بارتياب. واصلت أمي سيرها سريعًا، كانت هانّا، التي تزوجت في تلك الأثناء، تسكن على مقربة منها وتبادلتا الرسائل عدة مرات واحتضنتا

بعضهما عند لقائهما. أدخلتْها هانّا وتوجهت إلى أحد الأرفف وسحبت منه كتاب الأساطير، الذي كانت قد احتفظت به لأمي كل تلك السنوات. حملت الصفحة الأولى منه كلمات بخط يد لونه باهت: روستوك أعياد الميلاد عام 1955 إهداء لكريستينا، من بابا.

كان هذا ما تبقى لها فقط من أبيها.

(9)

أحـضرت طفايـة السـجائر مـن الشُرفـة. أصبحـت الآن موضوعـة فـوق بطنـي العاريـة وكانـت تلمـع، عندمـا أتحـرك. إنهـا مصنوعـة مـن زجـاج بلّـوري ثقيـل الـوزن. خُيّـل لي أن شـقة كهـذه لا يمكنهـا أن تحتـوي عـلى أكـثر تقديـر سـوى عـلى طفايـة سـجائر مـن الألومنيـوم.

ترقـد أنـت بجـواري بـلا حـراك، حتـى إنـك تتنفـس بصـوت خافـت لدرجـة أننـي أسـتطيع بالـكاد أن أسـمع صـوت تنفسـك. إلا أني في كل مـرة أتوقـف فيهـا عـن الحديـث، فإنـك تطـرف بعينـك متسـائلًا عـما إذا كانـت كافـة الأمـور عـلى مـا يـرام.

أجيبك قائلة: "أجل، بالتأكيد."

"لماذا لا تنامين؟"

"لا أستطيع."

أشـعل سـيجارة أخـرى، تعتـدل في جلسـتك وتمسـك بي مـن يـدي وتضغـط عليهـا بفظاظـة. يتعفـر رمـاد السـجائر أعـلى بطنـي، تحمـل طفايـة السـجائر إلى النافـذة وتفتـح النافـذة وتضعهـا بالخـارج.

أقـول لـك: "مـن الأفضـل لـك أن تنتبـه." وأضيـف قائلـةً: "إن الطفايـة ثقيلـة الـوزن، إن سـقطت إلى أسـفل، أي مـن الطابـق العـاشر، ومـرّ أحـد الأشـخاص لتّـوه ..."

"يالـه مـن عبـث يجـول بخاطـرك دائمًـا." تقولهـا لي وتغلـق النافـذة، ثـم تعـود ثانيـًة وتقـترب منـي حـد الالتصـاق وتمسـح بيـدك عـلى بطنـي - أم أنـك فقـط تنفـض الرمـاد مـن فـوق جلـدي؟ تضـع يـدك فـوق عينـاي. أغلقهـما، تقـول لي عندئـذ: "هكـذا جيـد، يـا صغـيرتي العزيـزة."

"صغيرتك العزيزة؟"

"هششش، استريحي، اهدئي تمامًا، نامي يا صغيرتي العزيزة، نامي"

لا أستطيع.

لم يكـن بمقـدوري ذلـك في السـابق بالفعـل - أن أنـام، عندمـا ينـام الجميـع. كنـت أرى ذلـك الهـدوء، الـذي يسـود المنـزل بعـد أن ينـام الجميـع، مُوحِشًـا. كنـت آنـذاك في الخامسـة عـشر أو السادسـة عـشر مـن عمـري. وقتـما كان والـداي وأيكـه يذهبـون إلى الفـراش، كنـت أنهـض مـرة أخـرى وأتسـلل كعهـدي إلى حجـرة عمـل أبي. كانـت الحجـرة تقـع بجـوار بـاب البيـت مبـاشرة وبهـا نافذتـان تطـلان عـلى الشـارع. كان شـيش النافذتـين مسـدلًا والظـلام الحالـك يعـم الحجـرة. وعـلى الرغـم مـن ذلـك لم أضـئ النـور، تلمّسـت ببـطء طريقـي إلى المكتـب وجلسـت أمامـه عـلى المقعـد الوثـير المنتصـب العـالي. وبعـد ذلـك ضغطـت عـلى زر تشـغيل الكمبيوتـر، الـذي أفـاق متنهـدًا ونفـث هـواءً مُعَفّـرًا دافئًـا، فاحـت منـه رائحـة ورق عتيـق. كـما لـو أن الكمبيوتـر لا يمتلـئ في حقيقـة الأمـر بالكابـلات والأسـلاك والشرائـح متناهيـة الصغـر، بـل بدفاتـر كرتونيـة

وملفـات ومخطوطـات متكدسـة. أدرت الشاشـة فأضـاءت بضـوء لامـع ساطع كالبرق. وميض، ثـم ظهـرت علامـات وقوافـل مـن حـروف أبجديـة صفـراء اللـون وتحركـت ببـطء عـلى الشاشـة السـوداء.

اسـتغرقت عـدة دقائـق، حتـى تمكنـت أخـيراً مـن فتـح الملـف المكتـوب بـه روايتـي. جلسـت حينهـا وقتًـا طويـلًا للغايـة، أشـعر بأقـصى درجـات التوتـر وأسـترق السـمع لأعـرف، هـل أيقظـت أحـدًا مـن نومـه وهـل سـيأتي أحدهـم إلى أسـفل. غـير أنـه عندمـا ظهـر نـصي عـلى الشاشـة، بارحنـي التفكـير في ذلـك كلـه وأخـذت في الكتابـة طـوال الليـل.

لم أطفـئ جهـاز الكمبيوتـر إلا قرابـة السـاعة الخامسـة والنصـف، أي قبـل أن تنهـض أمـي بقليـل، وعـدت متسـللّة إلى حجـرتي. لم أشـعر بالإنهـاك، بـل بالانبسـاط. ارتميـت في سريـري النقّـال وقلبـي يخفـق؛ حيـث كنـت قـد فصلـت أجـزاء سريـري السـليم وحملتـه إلى القبـو، بعـد أن عـثرت عـلى ذلـك السريـر في إحـدى أسـواق بيـع السـلع المسـتعملة. كان أول قطعـة أثـاث، اشـتريتها لنفـسي وبنفـسي.

كان ميـل السـقف يمتـد لبضعـة سـنتيمترات فقـط أعـلى وجهـي. ورق حائـط محبـب، ألقـت مـا بـه مـن ارتفاعـات بظـلالٍ دقيقـة ذات لـون أسـود داكـن، حملقـت فيهـا.

رنّ جـرس منبّـه أمـي، السـاعة السادسـة، أغلقتـه ونهضـت عـلى الفـور. نزلـتْ إلى المطبـخ بالأسـفل وأدارت ماكينـة صنـع القهـوة، ثـم ركضـت مـن حجـرة إلى حجـرة وجذبـت الشـيش إلى أعـلى محدثـًة صـوت صلصلـة وضجـة. كانـت دائمًـا مـا تقـول: "أي لـص سـيحاول أن يفتحـه بالقـوة، سـيوقظنا بسـبب الضجيـج والعجيـج، اللذيـن سـيحدثهما حينئـذ وذلـك قبـل أن يدخـل إلى المنـزل بوقـت طويـل. لا يمكـن أن يدخـل أي شـخص إلى هنـا أو يخـرج مـن هنـا دون أن يُحـدِث صوتًـا مسـموعًا."

حجرة المعيشة، حجرة الطعام، الصالة، تجذب الشيش إلى أعلى، تفتح النوافذ، تجدد الهواء في المنزل. ثم ترجع إلى المطبخ.

نهض أبي من الفراش في تمام الساعة السادسة والربع. سمعته كيف أغلق باب دورة المياه بالمفتاح وفتح الدُش. كان الأمر يستغرق دائمًا بضع دقائق حتى تكتسب المياه درجة الحرارة المناسبة، أمضى أبي كل هذا الوقت في الحلاقة.

وبالجوار انطلق منبّه أيكه في الرنين وسقط من الكومودينو محدثًا صوت خشخشة، عندما حاول أخي أن يطفأه. كان الأمر يسير على المنوال نفسه كل مرة. دائمًا في تمام الساعة السادسة والنصف، نهض أخي من الفراش متذمرًا. جرّ ساقيه متوجهًا نحو الدَرَج، وفي أثناء نزوله أخذ يقول بشكل متكرر: "أحتاج إلى قهوة، قهوة، أحتاج إلى قهوة."

كان أبي يغني في أثناء استحمامه، لم أستطع أن أفهم ما يغنيه، فقد كانت المياه تحدث صوت خرير.

نادت أمي عليّ من أسفل قائلةً: "يا أنّا، لقد شارفت الساعة السابعة، ألن تنهضي إذًا؟"

كان البخار يعلو مرآة دورة المياه وقطرات الماء تسيل متلألأة من بلاط الحائط الصغير ذي اللون الأخضر المائل إلى الزرقة. خلعت ملابسي ووقفت أسفل الدش، جعلت المياه الباردة تنساب أولًا، ثم أضفت إليها شيئًا فشيئًا المياه الساخنة. سندت جبيني إلى البلاط ورفعت ذراعاي فوق رأسي وشعرت، كيف ينساب الماء فوق ظهري. كم كنت أود أن أظل واقفة هكذا للأبد! انغلقت عيناي.

نادت أمي عليّ من جديد، انتابني الفزع. عندما أغلقت الماء، صدر عن الماء الجاري صوت قرقرة، اندفع بخار الماء باتجاه النافذة، التي كان أبي قد فتحها قليلًا. أرهفت البصر إلى الخارج - سياجات

مـن الشـجيرات الجـرداء الملتفـة وأشـجار عاريـة. هنـاك صقيـع في المرعـى الواقـع خلـف المنـزل. أغلقـت النافـذة، نقـر أيكـه عـلى البـاب قائـلًا: "لكـم تحصنـتِ طويـلًا هنـا بالداخـل، فلتفتحـي البـاب إذًا! "

سـألت أمـي عندمـا دخلـت إلى المطبـخ قائلـةً: "هـل يمكنـك توصيـلي إلى المدرسـة؟"

"أنـتِ لم تتنـاولي طعـام الإفطـار بعـد، يجـب أن أنطلـق. اسـتقلي الأتوبيـس، مـا زال أمامـك فرصـة لتلحقـي بـه إذا أسرعـتِ الآن قليـلًا". قبّلتنـي وخرجـت مسرعـة إلى البـاب. السـاعة السـابعة والنصـف عليهـا أن تكـون في عملهـا في الثامنـة.

كانـت أمـي تقـود سـيارة سـوداء مـن طـراز سـيتروين "2 سي في" سـيارة تشـبه البطـة. دائمًـا مـا كان أيكـه يتحـدث عنهـا مازحًـا بقولـه: "سـيارة جيـدة جـدًا للهـرب." لم تكـن تضعهـا في الشـتاء في الجـراج، بـل بمحـاذاة الرصيـف الواقـع أمـام بـاب منزلنـا. كان الطريـق منحـدرًا هابطًـا، وعندمـا كانـت السـيارة السـيتروين تـأبى أن تـدور صباحًـا، كانـت أمـي تحـل ببسـاطة فرامـل اليـد وتنطلـق متحركـة بهـا بـدون فرامـل ولم تكـن تسـتخدم الفرامـل سـوى عنـد مرورهـا بالتقاطعـات. كانـت تجـذب الصـمام وتديـر مفتـاح السـيارة عـدة مـرات. فتكـون قـد أدارت المحـرك عنـد بلوغهـا حديقـة الاستشـفاء عـلى أكـثر تقديـر. أحيانًـا كنـت أخالنـي مثـل سـيارتها غـير أننـي أحتـاج وقتًـا أطـول مـن الوقـت المسـتغرق لبلـوغ حديقـة الاستشـفاء، لـكي يـدب النشـاط في جسـدي.

فاتنـي الأتوبيـس، ربمـا لا يـأتي الأتوبيـس التـالي إلا بعـد نصـف سـاعة؛ ولذلـك توجهـت إلى المدرسـة سـيرًا عـلى الأقـدام؛ سـأصل متأخـرة إلى المدرسـة في كل الأحـوال.

شعرت بالبرد، بدا النفس الذي كنت أتنفسه في الهواء المثلج مثل دخان أبيض. كم وددت أن أعود من حيث أتيت، لكي أنكمش في السرير النقّال أو أن أفعل شيئًا أفضل: أن أواصل تأليف روايتي.

مررت على عيادات الاستشفاء. بدت واجهات المباني العلاجية المكسوة بلوحات الأردواز مثل لوحات بها قشور وإلى الجوار ينزوي الحمام الحراريّ، مثل سلحفاة ذات رأس منسحبة إلى داخل جسدها. كان البخار المنبعث من الماء الساخن يتصاعد من الحوض الخارجي.

بدأت الحصة في تمام الساعة الثامنة والربع، ما زال لديّ نصف ساعة بأكملها. كان من الممكن استعارة روب الحمام ولباس استحمام ومنشفة من الحمّام الحراريّ.

سقطت قطرات من الماء المكثّف من سقف كابينة تغيير الملابس وسالت إلى أسفل على الحوائط البلاستيكية المطلية بدهان أزرق. كوفية، سترة، قفاز، بلوفر، ثياب داخلية. لم أستطع أن أتحرر بسرعة كافية من ملابسي، كانت الساعة الثامنة إلا عشر دقائق.

بدا الحمام الحراريّ من الداخل مثل صَدَفة كبيرة يسهل فتحها. أصبح السقف المنخفض شيئًا فشيئًا أعلى في مقابل واجهة البيت، المشتمل على عدة نوافذ. في سبيل أن أستطيع النظر إلى الخارج التمست كرسيًا طويلًا، كان موضوعًا بالقرب من واجهة البيت، المشتمل على عدة نوافذ بدرجة كافية، لكنه كان بعيدًا بدرجة تكفي لعدم الجلوس في تيار الهواء، الذي نفذ عبر الألواح الزجاجية الكبيرة المشربة باللون البني. تقع بالخارج الحديقة العامة ذات اللون الرمادي ذي الصبغة الشتوية، حيثما يتنزه زوار المنتجعات مرتدين سترات ومعاطف ثقيلة. مددت المنشفة ولففت روب الحمام فوق مسند الكرسي. كانت الزنابق الثلاث الذهبية الموجودات في شعار

مدينة فيسدبادن مطرزة بارتفاع الصدر. وفي بعض الأحيان، عندما كان يتوفر لديّ مالٌ كافٍ، كنت أقترض أيضًا شبشب استحمام مناسب.

في تمام الساعة الثامنة تجمّع المشاركون في دورة تدريبية للرياضة البدنية المائية في الحوضِ الكبير. وقفت المدربة على حافة الحوض، كانت سيدة قصيرة القامة قوية البنيان، ترتدي بنطالًا قصيرًا وتي شيرت وساقاها قويتان يكسوهما شعر غامق اللون. عندما كانت تصدر توجيهاتها، كان صوتها يدوّي عاليًا ومتقطعًا. كانت بالأحرى تنبح أكثر من كونها تتحدث. كان الشبشب، الذي ترتديه، يقرع فوق حافة البلاط وعندما كانت تشعر بالسخط أحيانًا، كانت تنفخ في الصفارة الفضية، التي كانت تتعلّق برباط حول رقبتها.

الساعة الثامنة وخمس دقائق. لم أكن أرى من المشاركين في الدورة التدريبية سوى أكتاف بيضاء وأغطية الرأس الخاصة بالاستحمام ذات الألوان المتعددة والتي كانت معلّقة فوق ألواح السباحة ذات اللون الأزرق الفاتح. استأثرت وحدي بالبقاء في الحوض الخارجي، وقتما مارس المشاركون في الدورة التدريبية رياضتهم البدنية هنا بالداخل. انزلقت في الماء الدافئ، الذي جعل بشرتي تتآكل، كما لو أنه كان ممتزجًا بحمض الكربونيك وانغمست أسفل الستارة البلاستيكية في الهواء الطلق. هاجمت البرودة وجهي بحدة وتخللت شعري لتبلغ فروة رأسي، كان القمر ما زال ساطعًا في السماء. سرى بخار الماء على هيئة موجات فوق حوض السباحة. أحيانًا كان بخار الماء يتصاعد أيضًا في شكل أبخرة سوداء، كما لو أن الماء يحترق.

سبحت في منتصف الحوض باتجاه النافورة وغطست أسفل خيوط الماء المنهمرة بعنف. وقفت ساندًا ظهري إلى منفث المياه المصنوع من الصلب المكرر، كأنني في سرادق. اختفى العالم خلف مسارات الماء ذات الزَبَد الأبيض. أغلقت عيناي، لا تنتهي الحصة الدراسية، إلا في تمام

الواحدة والربع. ينبغي ألّا أذهب إلى المنزل قبل ذلك؛ شعرت فجأة بتعب بالغ.

قال كونستانتين لي: "أنّا" ولمس كتفي برقة، هل غشيني النوم حقًا؟ فتحت عيناي، وقف كونستانتين أمام السرير مبتل الشعر. كان قد استحم بالفعل. انحنى فوقي وضغط بشفتيه على جبيني؛ كانتا يابستين ودافئتين.

قال لي: "حان الوقت، لنبدأ اليوم." وذهب إلى المطبخ.

لا يزال الظلام مخيّمًا بالخارج، أستطيع رؤية الحروف الأبجدية المضيئة على البناية الشامخة لمؤسسة شبرنجر.

"كم الساعة؟"

"إنها الرابعة والنصف." قالها صائحًا بسرور. غلاية الماء تصدر فقاعات. إن مغادرتي للسرير بمثابة عذاب لي، أنا منهكة القوى.

علّق كونستانتين ملابسي على نحو مرتب فوق رأس السرير. ظلّ بنطالي الداخلي القصير وحده على الأرض. رفعته، تفوح رائحة غريبة رائحة مادة كيميائية على نحو أو آخر، من السجادة - تلك البضاعة المعروضة للبيع. من المحتمل أن تكون رائحة مسحوق التنظيف.

أضأتُ المصباح المعلّق في السقف. يلتصق حول المفتاح الكهربائي إطار مطاطي، لحماية ورق الحائط من التعرض للاتساخ. كما أن الحوائط مكسوة حتى النصف بألواح بلاستيكية شفافة، ثم أطفأت النور مرة أخرى وانزلقت بجسدي في التي شيرت الخاص بي.

انطفأت غلاية الماء، صاح كونستانتين بعدها بلحظة قائلًا: "القهوة جاهزة."

عندما دخلت إلى المطبخ، أحكم كونستانين سد زجاجة مسحوق القهوة سريعة الذوبان وأعاد وضعه في الخزانة. يرتدي كونستانتين

بنطالًا داخليًا قصيرًا ضيقًا يلمع بلون فضي. لم يسبق لي أن التقي برجل، لا يرتدي البوكسر.

على سطح الرخامة الصغيرة المجاورة لحوض المطبخ لا يوجد سوى قدح لي.

سألني كونستانتين: "كيف تتناولين قهوتك؟" لأول مرة ألاحظ التجاعيد الصغيرة المحيطة بعينيه والتجاعيد الأعمق حول فمه.

أجبته: "باللبن."

"للأسف لا يوجد هنا سوى السكر."

"إذًا سأشرب القهوة سادة."

شعر صدره رمادي اللون، لم يسترعِ هذا الأمر انتباهي في الليل على الإطلاق، كم يبلغ عمره حقًا؟

"هل لا تزالين تريدين الاستحمام؟"

"أستطيع الاستحمام في المنزل أيضًا."

"هذا أمر جيد."

أعطاني قدح القهوة، رشفت منه. القهوة ساخنة جدًا، أخذت القدح معي إلى حجرة النوم. أغلق كونستانتين باب دورة المياه خلفه. أشعلت سيجارة. لا تزال طفاية السجائر أمام النافذة، فتحت النافذة. الهواء بارد، لكن تفوح منه رائحة لطيفة، أقرب إلى الرائحة الربيعية. أسندت نفسي بالخارج بعيدًا. يفصلني عن أسفل البيت عشرة طوابق. هبت ريح عاصفة على هيئة دوامة مرتطمة بالحائط ودخلت في شعري، انتزعتْ هبّة ريح مفاجئة السيجارة مني، ولفترة قصيرة استطعت أن أرى السيجارة تسقط، لقد هوت، وتطايرت منها شرارات، ثم اختفت. أغلقت النافذة بعنف، ثم انتفضت مفتوحة مرة أخرى، التصقت بالحائط وقلبي يخفق.

(10)

سألني أبي: "ما المقصود من ذلك؟" وأضاف: "هل تريدين استفزازي؟"

كنا نجلس في سيارته المرسيدس ذات اللون الأزرق الداكن. كانت سيارته من طراز دبليو 111 (W 111)، المُنتَجَة في الستينيات. كان بالسيارة زعانف خلفية صغيرة وأغطية مطلية للعجلات. تكاد تكون سيارة أثرية عتيقة، وفي نهاية غطاء الرادياتير الطويل اللامع استطعت أن أرى نجمة المرسيدس تومض عبر الزجاج الأمامي للسيارة.

أقلني أبي بالسيارة إلى المدرسة، لكي يستوثق من أنني لن أهرب منها مرة أخرى. وكانت أمي قد ثارت عليه بسبب هروبي من المدرسة. كانت ترى أنه أصبح المسئول الآن، فقد سئمت من العبث الصبياني، ولذلك كان على أي حال مُعكر المزاج.

"أطفئي هذا فورًا."، قالها بصوت مثل الفحيح، دون أن يصرف نظره عن الشارع.

"لِمَ إذًا؟"

"لا تتجاوزي إلى هذا الحد!"

على الرغم من أنني كنت قد سألته حتى، قبل أن أضع الشريط في جهاز التسجيل قائلَةً: " أنت لا تمانع في ذلك، أليس كذلك؟"

"لا مانع بالطبع."

لكنه جلس الآن منحنيًا فوق عجلة القيادة، كأنه ثور أشقر كبير، حتى إنه أخذ يملأ فتحتي منخاره بالهواء ويطلق من جديد أصوات فحيح غاضبة.

كانت الموسيقى المنبعثة من جهاز التسجيل ذات وقع يشبه إلى حد كبير وقع تلك الموسيقى، التي يحب أبي الاستماع إليها. فقد كان يطيب له شتيفان زولكه وأندريه هيلر وهانيز فادر وراينهارد ماي أيضًا، الذي كنا أحيانًا ما نستمع إليه معًا في السابق. لقد عشت معك حياتي بأكملها. يبدو لي أنني أعرفك عن ظهر قلب، فكل ذكرياتي تتضافر بأكملها مع اسمك ومعك. عندما كنت طفلة، كنت أظن أن أبي لا يعدو كونه راينهارد ماي وأنه عندما يعتكف لكي يجهّز مواعظه، كان في حقيقة الأمر يكتب تلك الأغاني: يقولون إنني عندما أراكِ، تسدين لي صنيعًا جيدًا، لكنني أعتقد بالأحرى، أنكِ تمسّين شغاف قلبي وأنكِ تحركين مشاعري، تصيبين أعماقي أكثر، تقتربين مني أكثر بكثير، تؤلمينني. دائمًا ما كان أبي يعطيني الانطباع بأنه رجل، يخفي شيئًا ما: يخفي سرًا، كنا نتشارك فيه معًا، عندما كنا نجلس معًا في السيارة أو في كراسي أمي؛ تلك الكراسي الخيزران غير المريحة الموجودة في حجرة المعيشة وعندما كنا نجلس أمام جهاز بث الموسيقى المجسّمة، مقتربين منه جدًا وواضعين أقدامنا على سطح أحد الأرفف. عبر النافذة المفتوحة يتسلل النهار إلى الحجرة ويغمر ضوء الصباح الغرفة. أشعر بكِ إلى جواري، لا تزالين نائمة وتلتمسين

الإمساك به، بحلمك. لم يكن أبي يتحرك بعد ذلك، لا يشرب شيئًا، لا يدخن، لا يتحدث، يصغي فقط إلى موسيقاه. كم يمضي الوقت فيما بعد خلال اليوم سريعًا، لتقتربي مني لحظة. إن لم أقل لكِ الآن، إنني أشعر بالسعادة معكِ، فمتي أقولها إذًا؟ لم يكن بالنادر أن يرمقني بعد ذلك بنظرة جانبية قصيرة، كنت أردها له، كعلامة على أنني فهمت مقصده. تعرّفت عليه، على صوته، على كلماته. عرفت، أنه كتب هذه الأغاني، لحنها. فهمت أنه أيضًا كان شاعرًا، ولا يزال. لم ينقطع قط عن أن يكون شاعرًا، غير أنه لم يكن يتحدث عن ذلك صراحة، فلم يكن من المفترض أن تعرف أمي شيئًا عن ذلك. فقد كانت أمي تقول إن الفنانين يتسمون بالأنانية ولا يؤمن جانبهم، بل لم تكن أمي تستطيع أن تطيق راينهارد ماي مطلقًا على وجه الخصوص. لم تكن تحب موسيقي المطربين الصادحين بالألمانية إطلاقًا. لكن أبي وأنا ... - كم من وقت مر على هذا!

والآن جلس أبي هكذا هناك، ثار وتمادى في ذلك أكثر فأكثر.

أحدثت التروس الصغيرة ذات السنون الموجودة في شريط تسجيل الكاسيت صوت خشخشة في جهاز التسجيل. فرانك رينيكه، صوت رخيم مُلَحّن، يصحبه جيتار.

انعطفنا بالسيارة، مرت السيارة بارتفاع شارع فيشته منزلقّة إلى أعلى. استطعت بالفعل أن أرى تقاطع الشوارع، الذي تقع فيه مدرستي. كبح أبي جماح السيارة على نحو مفاجئ وعنيف. سدّ الشارع أتوبيس، يقف في المحطة المخصصة للأتوبيسات. نزل بعض زملائي في المدرسة من الأتوبيس. كان يجب أن نسير على أقدامنا الجزء الأخير من الطريق والمنحدر نوعًا ما.

كنت أمقت المدرسة، وددت جل ما وددت أن أذهب إلى المنزل مرة أخرى.

كان أبي دائمًا ما يقول: "لا أفهمك، لا يتبق سوى أشهر قليلة." وكان يضيف قائلًا: "ستجتازينها دون مشقة." خريف 1997. كان العام الدراسي الثالث عشر، الذي لم يعد موجودًا اليوم، قد بدأ لتوه. كان ينبغي لي في الربيع التالي لذلك أن التحق بشهادة الأبيتور أي الثانوية العامة الألمانية.

بدأ رينيكه يشدو بأغنيته التالية، فنفخ أبي من الغيظ.

قلت له: "هدئ من روعك." وأضفت: "إنها ليست سوى موسيقى."

"فلتطفئي هذا إذًا!" قالها أبي مهددًا ومتمالكًا أعصابه وعشّق قابض السيارة ووضع ناقل سرعات السيارة على السرعة الأولى وترك محرك السيارة يهدر، عندما تحرك الأتوبيس ببطء. "يا له من أمر لعين! ألا تلاحظين ذلك؟ ماذا ألمّ بكِ؟"

كان دائمًا ما يسألني تلك الأسئلة، عندما كان يضبطني ليلًا وأنا أمارس الكتابة. كان أبي يرى أنني ربما أخطئ في تقدير جدية الموقف وأنني على وشك الضياع، بسبب هروبي المستمر من المدرسة. وأنني إذا تماديت في ذلك المسلك هكذا، وغرقت في عالمي الخاص، بدلًا من مواجهة نفسي بالواقع، سرعان ما سألقي مصيرًا سيئًا للغاية. كان أبي يرى أن الحياة في نهاية المطاف ليست برواية، بل إنها تخلو من الرحمة. يجب عليّ أن أدرك ذلك. فلا يمكنني أن أهيئها لنفسي عن طريق الكتابة ببساطة هكذا، على النحو، الذي تروق لي به. دائمًا، دائمًا كان يقول لي تلك الأقوال المأثورة السخيفة!

لم يكن لديه أية فكرة، بل أدنى معرفة. كنت مضطرة إلى تأليف تلك الرواية؛ حتمًا. ولم يكن يفهم ذلك، لم يكن يرى دائمًا وفي كل مكان سوى المشاكل فقط، التي يجب عليه حلّها؛ دائمًا بمفرده. لم يكن يثق بقدرتي على فعل شيء كهذا.

قلت له باستهجان: "أطفئه بنفسك."

قال لي بصوت كالفحيح: "اشرحي لي هذا."

"منذ متى تهتم بما أفكر فيه؟"

"لا تبدئي الآن مرة أخرى بتلك الرواية."

لوقت قليل أصبح صوت رينيكه مثل العواء، لأن شريط التسجيل أصبح باليًا من كثرة الاستعمال. إضافة إلى ذلك، كان تسجيل الشريط سيئًا نوعًا ما، اشتريناه بثلاثين ماركًا. أسفل طاولة أحد المحلات في حي محطة القطار في فرانكفورت، موسيقى محظورة، خاضعة للرقابة كما كان صديقي الجديد فالك يسميها؛ مانتي. فالك مانتي.

عقدت ذراعاي أمام صدري وحملقت من شباك المقعد المجاور للسائق.

"أطفئيه أو بإمكانك أن تشغلّي القطعة الموسيقية الأخيرة."

"أنت لا تجرؤ على طردي إلى الخارج."

صمت!

عندما ظل بلا رد فعل، أخذت أغني مع الأغنية بصوتٍ عالٍ.

"عشيةِ يوم الأحد في برلين، عندما يجوب الأتراك حي كرويتسبرج، يتملكني الغيظ البارد، خوف في الليل. يا شعبي، ماذا فعلوا بك؟"

حوّل عجلة القيادة وانطلق بسرعة فوق حافة حد الرصيف ليصعد فوق الرصيف وظل يجذب فرامل اليد في أثناء القيادة وأوقف السيارة بدفعةٍ واحدةٍ. ارتميت وأنا أرتدي حزام الأمان وارتطمت صابونة ركبتي بلوحة مفاتيح السيارة.

"اخرجي!" كانت مفاصل أصابع يد أبي شاحبة اللون. شدّ قبضته على عجلة القيادة بإحكام وقال: "اخرجي فورًا!"

ازدردت ألمي وحللت حزامي. "أتريد حقًّا أن تلقي بي في الشارع؟ بسبب الموسيقى؟"

"والويل لك، إذا لم تذهبي مباشرًة إلى المدرسة." قالها وهو ينفخ من الغيظ، دون أن يرنو إليّ.

استمرت الموسيقى في الدوران، أغنية جديدة أكثر مرحًا وإثارةً. كان تدويّ، كما لو أن النغمات تقدم مارشًا عسكريًا. "الرجل المُستذئب! الرجل المُستذئب يجوب البلاد، حاملًا سلاحًا في يده يجوب البلاد."

مرت بنا سيدة بدينة ذات خصلات شعر رمادية اللون، تركب دراجة وتضع سلة بها يد في المكان المخصص لوضع الحقائب بالدراجة. كنت أعرف ما بداخل السلة: امتحاناتنا الفصلية، التي كان من المتعين أن نستردها اليوم، وجزر، فقد كانت هذه السيدة تتبع باستمرار نظامًا غذائيًا لإنقاص الوزن. شارع فيشته، مُرتَفع كبير، رأس بها شعر ذو لون أحمر صارخ. وبالرغم من ذلك تمكنت السيدة من الارتطام بسقف السيارة المرسيدس، لأنها كانت تعترض طريقها. واضطرت إلى أن تزج بنفسها بين سياج الشجيرات المُلتفّة والسيارة، ورفعت مؤخرتها البدينة من على مقعد الدراجة، لكي ترتقي إلى بدّال الدراجة على نحو أفضل وأوشكت أن تسقط فزعًا من الدرّاجة، عندما أطلق أبي آلة تنبيه السيارة في وجهها بسبب ارتطامها بسقف السيارة.

قال أبي بصوت مثل الفحيح: "بقرة بلهاء."

"إنها المعلمة، التي تدرس لي اللغة الألمانية."

"لن تبقى هكذا، إذا تماديتي في مسلكك على هذا النحو."

"أنا متمكنة بالفعل من اللغة الألمانية."

"إن سلوكك هذا سيجعلك غير متمكنة من أي شيء البتة في القريب العاجل."

"أفضـل فأفضـل، إذا طـردوني مـن المدرسـة، سأسـتطيع أخـيرًا أن أمـارس الكتابـة في هـدوء."

بـدأ في الزئـير قائـلًا: "هـل تعرفـين فعـلًا، مـا المقصـود بهـذا؟" تطايـر لعـاب بـه رغـاوٍ عـلى عجلـة القيـادة. "مـا المقصـود بالرجـل المُسـتذئب؟"

"أجـل بالطبـع." حاولـت أن أضفـي عـلى صـوتي نـبرةً شـديدةً وأجبتـه بقـولي: "يقصـد بـه جنـود بواسـل مدججـون بالسـلاح، قاتلـوا مـن أجلنـا حتـى النهايـة."

مسـح البصـاق مـن عـلى عجلـة القيـادة، بـدا عـلى نحـو مفاجـئ مُتعبًـا، حزينًـا. لمـاذا لم يفهـم إذًا أننـي شـققت طريقـي منـذ وقـتٍ طويـلٍ وأن أمـوري سـارت بذلـك عـلى مـا يـرام؟

جعلني أشعر بالأسف من حيث لا يدري.

ضغطـت عـلى الـزر البـارز، الـذي يبلـغ عرضـه حجـم الإصبـع والمستخدم في إخـراج شريـط الكاسـيت مـن جهـاز التسـجيل. أخـذ شريـط التسـجيل يلـف بغرابـة مـرةً أخـرى لفـترةٍ قصـيرةٍ، ثـم قفـز إلى الخـارج.

"الرجـال كبـار السـن والأطفـال." قالهـا أبي بارتبـاك وأردف: "يكونـون في أيـام الحـرب الأخـيرة في حالـة حشـد، تؤهبهـم للانتحـار رميًـا بالرصـاص."

أصـاب التوتـر جسـدي، أمسـكت يـدي بشريـط الكاسـيت ذي الحرارة الدافئـة وضمّتـه. لقـد ارتكـب خطـأً، قلـت لـه: "هـذا ليـس المقصـود بالرجـل المُسـتذئب، أنـت تقصـد المقاومـة الشـعبية." وأضفـت قائلـةً: "لمـاذا تتحـدث عـن أمـور، لسـت عـلى درايـة بهـا؟"

لحظتهـا اسـتدار أبي نحـوي وانطلقـت يـده تنتـزع شريـط التسـجيل مـن يـدي وشـدّ الشريـط الداخـلي إلى الخـارج.

"هكذا" قالها. فحدقت فيه، ثم أطلقت صرخة.

"هـل جننـت؟ أتعـرف، كـم تبلـغ تكلفتـه؟" مـددت يـدي. "أنـت مديـن لي بمبلـغ ثلاثـين مـاركًا."

لكننـي لم أكـن قـد تلفظـت بذلـك بعـد، عندمـا انطلقـت يـده مـن جديـد. أصابـت يـده وجنتـي عـلى نحـو سـطحي، لم يكـن رد فعـلي سريعًـا بمـا فيـه الكفايـة. اسـتجمعت قـواي، كنـت غاضبـة، لقـد تعرضـت لـلإذلال لهـذا الحـد.

في صمت، فتحت الباب الجانبي، في صمت نزلت من السيارة.

لن يفهم هذا أبدًا.

هكـذا تقدمـت الآن أيضًـا في شـارع فيشـته إلى أعـلى سـيرًا عـلى الأقـدام.

هل سيلحق بي؟

لماذا لم يلحق بي؟

لكننـي لم ألتفـت لأنظـر خلفـي. حاولـت أن أنظـر فقـط إلى الخلـف خلسـة، ليـس أنـا، بـل هـو مـن فقـد السـيطرة؛ يجـب عليـه حقًـا أن يعتـذر!

لكـن لا، لم يلحـق بي. بـل رجعـت السـيارة المرسـيدس تنزلـق مبـاشرةً في الشـارع محدثـةً صـوت قرقـرة. سـارت السـيارة بتعجـل. وعندمـا مـرت السـيارة بي، لم يتطلّـع أبي حتـى نحـوي.

تـؤدي طـرق متعرجـة مغطـاة بالقـار إلى المدرسـة. ولطالمـا تعرضـت تلـك الطـرق للانسـداد سـياجات حمـراء موضوعـة عكـس بعضهـا البعـض، لا تسـمح بمـرور سـيارات أو سـائقي الدراجـات، بـل تسـمح فقـط بعبـور المشـاة. اضطـرت المُدرِّسـة، التـي تعلمنـي اللغـة الألمانيـة، أيضًـا إلى التنحـي جانبًـا الآن. كان فنـاء المدرسـة مشـيدًا في داخـل المنحـدر عـلى هيئـة درجـات، إلا أن أحـدًا لم يكـن يمكـث في أيٍ مـن الدرجـات السـفلى.

كان الجميع يتزاحمون في الفناء المبني في الدرجة الأولى، والذي كان يقع في الأعلى تمامًا أمام المدخل الرئيسي مباشرةً. لوّحت لي صديقتي إستر بيدها. ومرة أخرى تصبح إستر بصحبة تكتل المدرسة المتوسطة، عصابة القمامة البيضاء(1)، كما كانت لوسي تسميهم على سبيل المزاح. لم يتمكن أغلب طلاب كتلة المدرسة المتوسطة من الانتقال إلى المرحلة الدراسية العليا، إلا بعد جهد جهيد وعناء. ولن يلتحق أحد منهم تقريبًا بشهادة الأبيتور. إن وجودهم هنا على الرغم من ذلك، كان ينبثق من الأمنيات، التي يحملها تفكير معلمينا، حيث كانوا يرون أن كل تلميذ، حقًا كل تلميذ، يستطيع أن يجتاز الدراسة هنا وأن أصل نشأة التلميذ لا تتحكم في مستقبله. في الواقع لم تكن الفرصة سانحة حقًا لإتمام شهادة الأبيتور سوى لأولئك، الذين كانوا قد التحقوا قبل ذلك بالفعل بالمدرسة الثانوية، أو على الأقل لمن التحق - مثلي - بالتخصص الفرعي للمرحلة الثانوية في مدرسة شاملة. ومن كان قد أخفق في غير هذا المكان، كان بإمكانه إمّا أن ينضم إلى المدرسة الخاصة الكائنة في شارع بيرشتات، حيثما يمكنه الحصول على شهادة الأبيتور مقابل دفع مبلغ من المال، كما كان يقال، وإمّا أن ينتقل إلى مرحلتنا الدراسية العليا. لماذا ندفع مبلغًا من المال، إن كان بإمكاننا تلقي ما نسعى إليه في شكل هدية. كان هذا شعار العام الدراسي الأخير من مرحلة الأبيتور.

كانت مدرستي واحدة من كبريات المدارس في المدينة وكان التلاميذ فيها ينقسمون إلى مجموعتين تنفصلان عن بعضهما بعضًا على نحوٍ جلي: مجموعة المبهرين ومجموعة الفاشلين. لوسي وإستر

(1) وايت تراش أو القمامة البيضاء مصطلح في اللغة الإنجليزية يشير إلى البيض الفقراء في الولايات المتحدة الأمريكية و يشير أيضًا إلى المناطق الريفية الفقيرة في الولايات المتحدة الأمريكية. (المترجمة).

وأنـا كنـا ضمـن مجموعـة المبهريـن، لم تكـن إحدانـا تشـعر بأنهـا مـن الفائـزات.

لوقـت طويـل لم أكـن قـد تعرفـت عـلى كلتيهـما، وبعـد أن اشـتبكت مـع معلـم العلـوم الاجتماعيـة لدرجـة أن طـردني مـن الفصـل، انضممـت بـلا تـردد إلى دورة دراسـية أخـرى. دخلـت في حصتـي الأولى إلى الفصـل وجلسـت في المـكان الوحيـد، الـذي كان لا يـزال شـاغرًا، بجـوار إسـتر. دكّـت جانـب جسـمي بمرفـق يدهـا وقالـت باسـتياء: "هنـا تجلـس لـوسي، اهـربي بجلـدك." عقـدت ذراعـاي أمـام صـدري وبقيـت جالسـة.

كانـت في وجنـة لـوسي شـامة، تبـدو مثـل جزيـرة سـيلت. وعندمـا كانـت لـوسي تتغيـب عـن المدرسـة، كانـت إسـتر دائمًـا مـا تقـول: "فيضـان عـارم، جزيـرة سـيلت تتعـرض مـرة أخـرى للغـرق." عانـت لـوسي مـن الاكتئـاب وكانـت لا تـأتي تقريبًـا أبـدًا إلى الحصـة المدرسـية، غـير أنهـا عندمـا كانـت تحـضر الحصـة المدرسـية، كنـت أتنـاوب مـع إسـتر عـلى إيجـاد كـرسيّ لهـا. كنـت أحـب كلتيهـما: لـوسي وإسـتر. لكنهـما لم تكونـا مـن الصقـور، أي مـن أفـراد عصابتنـا، مـن الأصدقـاء، الذيـن كان والـداي يمقتونهـم. كان أصدقـائي يذهبـون إلى مـدارس معقولـة، إلى مـدارس ثانويـة أصليّـة، أي يذهبـون إليهـا بشـكل مبـاشر ابتـداءً مـن الصـف الخامـس. كـما كانـت تحتـم مقتضيـات الأمـور. كان أبي دائمًـا مـا يقـول، إن هـذا كلـه عبـث؛ فلـن يسـألني أحـد في أي وقـتٍ كان، عندمـا أحصـل عـلى شـهادة الأبيتـور يومًـا مـا، أيـن أتممتهـا. كانـت لـوسي تسـمي مدرسـتنا الثانويـة العليـا حـوض التجميـع. ولم تكـن لـوسي قـد نجحـت في اجتيـاز مرحلـة المدرسـة الثانويـة في مدينـة لايبنتـس ونُقِلـتْ مـن هنـاك إلى مدرسـتنا. وعـلى الرغـم مـما مـرّت بـه مـن فـترات اكتئـاب، كانـت تتمتـع نوعًـا مـا بولـع التفـوق فحققـت تقديـرات دراسـية جيـدة جـدًا. "لقـد سـئمت كل شيء."، كـما كانـت تقـول دائمًـا. "غـير أننـي لسـت بحمقـاء.". لم يكـن المدرسـون يسـتطيعون أن يتحملـوا لـوسي، لأنهـا لم تكـن قـط ذات أداء جيـد

في الحصة المدرسية ومع ذلك كانت تفهم كل شئ. كانت إستر تقول دائمًا: "لو كنت أتمتع بقدرات خاصة كتلك التي تتمتع بها لوسي، لما شعرت بالاكتئاب."

انفصلت إستر عن تكتل المدرسة المتوسطة وتوجهت قبالتي مبتسمةً بشماتة. أضفيت على وجهي ملامح الجدية. كان ينبغي أن تنتبه على الفور، أنني لست على ما يرام. كان شعرها قصيرًا داكن اللون وبه فرق من الجانب وبشرتها داكنة بلون القهوة باللبن. وكانت لوسي دائمًا ما تسمي فمها فم التقبيل. "فلتأتي إذًا يا إستر. يمكنك أن تكاشفينا بهذا الأمر."، كما كانت لوسي تقول كثيرًا. "من المستحيل أن يكون أبوكِ ذلك الرجل ضيق الأفق ذو البشرة البيضاء متصلب الجذع، الذي تزوجت منه أمك. أنتِ من سلالة سوداء البشرة. لقد أحبت أمك رجلًا زنجيًا أسود البشرة. اعترفي بذلك." كانت إستر تضحك دائمًا ساخرة من ذلك، غير أنني كنت أعرف، أن الشك يخالجها أيضًا. حيث كانت قد روت لي ذات مرة، أنها تظن أن أباها الحقيقي جندي أمريكي، كان ليحضرها إليه في الولايات المتحدة الأمريكية، لو كان قد عرف بوجودها.

أدركت إستر على الفور. فبعد أن احتضنتني لفترة قصيرة وقبّلت وجنتاي، سألتني قائلَةً: "هل تشعرين بضغط عصبي؟" كانت ترتدي حذاءً رياضيًا من القماش وتي شيرت ضيق رمادي اللون وبنطال. وكالمعتاد كانت تفوح منها بعض الشيء رائحة جوز الهند ورائحة لبن، وكذلك أيضًا رائحة قشر الفاكهة وحلوى بيضاء ورائحة خشب جاف.

رفعت كتفاي وقل: "لقد جُنّ أبي تمامًا."

"بسبب الرواية؟"

"الرواية! لا، بسبب الموسيقى."

"موسيقاكِ اللعينة. أليس كذلك؟" أرادت أن تلكز جانب جسمي بمرفق يدها مرة أخرى، بصورة حميمية، إلا أنني تفاديتها.

"وماذا بعد؟ لن أدع أحدًا يخضعني للرقابة. إنه واهم."

"إذًا فكل الأمور تسير على ما يرام."

نفخت من الغيظ. رَفَعَت بأحد أصابعها العقد اللؤلؤ، الذي كان فالك قد أهداه لي. كنت أرتدي بذلتي السوداء ذات البنطال، الزي الرسميّ للعنزة، كما كانت إستر تقول دائمًا. نقرت بإصبعها على ياقة بلوزتي البيضاء. "لديك بقعة من إثر وضع زينة الوجه. إذا كان لزامًا أن تضغي زينة وجه كالغراء على وجهك على هذا النحو، فافعلي هذا على الأقل بنظام، هل لي أن أقل لك شيئًا ما؟"

"ماذا؟"

"هؤلاء الناس وهؤلاء الرجال المهذّبون وصديقك الرائع ..."

"فالك مانتي."

"هو ورفاقه المثيرون للاستغراب. إنهم لا يتسببون للآخرين سوى في المضايقات. هذا السلوك المتكلّف لأولئك الشباب الأثرياء واعتقادهم اللعين بأنهم أفضل الناس يعد أمرًا مقززًا للغاية. لا يروق لي هذا البتة"

ملكت عزمي قائلةً: "لو كان ذلك قد ثبت لي يا إستر، لكنّنا منفصلون منذ وقتٍ طويلٍ." تحكّمت بحركة تبدو آلية في وضع شعرها المصفف بالجِل إلى الجانب."ربما نصبح هكذا في القريب العاجل، إن لم تنتبهي."

"لماذا ينتابني الشعور، بأن هناك تهديدًا يحدق بي اليوم من كل الجهات؟"

تراجعت إستر خطوة. كانت أقصر مني بمقدار قدم. سحبت من جيب بنطالها عبوة ناعمة مضغوطة من الجانبين من سجائر لاكي سترايك وعبثت بإصبعها بسيجارة نحو الخارج.

"أتريدين واحدة؟"

أومأت برأسي وتركتها تعطيني ثقابًا لأشعل السيجارة.

صدرت عن الضوء الأحمر، الذي يعلو باب المدخل، إشارة إيذانًا ببدء الحصة الأولى. وشيئًا فشيئًا أصبح فناء المدرسة خاويًا. واصلت مع إستر تدخين السجائر. مر مدرسان بنا، إلا أنهما لم ينبسا ببنت شفه. ربما، لأنهما أنفسهما كانا متأخرين. ضغطت إستر بإصبعها على عُقب السيجارة فوق الألواح الأسمنتية. وفجأة عانقتني، وقفت حينها للحظة متصلّبة وذراعي سائبة. ثم تركت سيجارتي تقع وعانقت إستر بدوري. وقفت على أطراف أصابعها وهمست في أذني قائلًة: "أعرف أنكِ واقعة في غرامه بشدة، وأن فالك حبيبك أيضًا -" ملأت صدرها بالهواء وواصلت حديثها بسرعة: "لا، إنه ليس بشخص سيئ، لكن لتنتبهي لشأنك؛ رفاقه هؤلاء غير مأمونين." تنهّدت ولامست شحمة أذني بشفتيها برقة، وانتابتني قشعريرة وأمسكت برأس إستر وقبلّت وجنتها بقوة. "لقد مللت من أن أظل دائمًا منتبهًة، لكنني ربما أفعل ذلك من أجل خاطركِ أنتِ يا حبيبتي الحلوة."

قالت لي: "لا تتصرفي بحماقة." وأردفت: "لا تقتربي من النهاية هكذا، بدونك لن أتمكن من إتمام شهادة الأبيتور." فكّرت قليلًا، ثم هزت كتفيها. "تشعرين حقًا بضغط عصبي، أليس كذلك؟ هل تحتاجين مكانًا للمبيت الليلة؟"

(11)

لم يكـن سريـري النقّـال ملائمًـا لأن يوضـع في السـيارة ماركـة فولفـو العائليـة، التـي كانـت إسـتر قـد اقترضتهـا مـن صديـق أمهـا. جلسـت لـوسي القرفصـاء عـلى الـدَرَج المجـاور لشـجيرة نبـات الردنـدرة، مُرخيّـةً منكبيهـا ومُدلّيـةً رأسـها. كانـت شـفتاها متفلقتـين، وجانباهـما مشـققين. بـدت عيناهـا الخضراوتـان ملتهبتـين. تعرضـت سـيلت لأزمـة مـرة أخـرى، منـذ بضعـة أيـام بالفعـل. استطعت هـذه المرة أن أفهـم ذلـك؛ لم تتمكـن لوسي مـن إتمـام شـهادة الأبيتـور. وكانـت إسـتر قـد أعطتهـا حجريـن صغيريـن، لكيْـلا تفـرك معصميهـا في بعضهـما ببعـض باسـتمرار أو لا تهـرش حولهـما إطلاقًـا. وفي فـترات زمنيـة غـير منتظمـة كانـت لـوسي تـضرب الحجريـن في بعضهـما بعضًـا بعنـف، وكنـت أنـا وإسـتر نرتجـف في كل مـرة ونلتفـت إليهـا عـلى الفـور، إلا أنهـا لم تكـن حتـى ترفـع نظرهـا نحوهـا وكان يبـدو أنهـا لا تلاحـظ وجودنـا البتّـة. وفي مـرة واحـدة، عندمـا خرجـت أمـي وقالـت لي إننـي لـديّ أمتعـة كثـيرة للغايـة وأضافـت: لا، أنـتِ إنسـانة مزعجـة، حينهـا أومـأت لـوسي برأسـها وابتسـمت قائلـةً: "معهـا كل الحق."

نظرت أمي إليها بارتباك وذهبت إلى داخل المنزل مرة أخرى دون أن تنبس ببنت شفة.

كانت السيارة الفولفو متوقفة في المدخل المؤدي إلى الجراج المزدوج. وانطلاقًا من هناك، كنا نصوب بصرنا باستمرار تجاه لوسي. عندما نقلنا متاعنا إلى حجرتي وفككنا أجزاء أثاثي، كانت تبكي طوال الوقت، لكنها لم تسمح لأحد أن يلمسها. بدأت الآن في الترنح إلى الأمام وإلى الخلف بخفّة.

أخذت إستر تصب اللعنات وواصلت كفاحها في وضع السرير النقال. وقع الطلاق بين والديها قبل بضعة أشهر. بدا أن هذا ليس له ثمة تأثير عليها. "مع احترامي، مع احترامي.". قالتها مؤخرًا. "لم أكن لأتصور، أن أمي لديها عشيق. لقد عاش والداي بجوار بعضهما البعض في صمت مطلق. وبالرغم من ذلك فقد أخذ العجب مني كل مأخذ، أنها انفصلت عنه حقًا. وبالمناسبة لقد أصبح لأبي أيضًا عشيقة جديدة."

كانت أمها على علاقة بمالك مقهى"بريسه كلوب"، ذلك المقهى المعبق بالدخان، حيث تتوفر وجبات الكسكسي ومشروب المتة(6) حيث توجد ملصقات مناهضة للطاقة الذرية ولا يوجد كرسي لا يهتز. لم أر الرجل سوى مرة واحدة ولوقتٍ قصير، وذلك عندما مررنا عليه لأخذ السيارة الفولفو من عنده: رجل يكاد يكون قزمًا يبدو متقوسًا، ويرتدي نظارة لها إطار مصنوع من النيكل ونصف رأسه خالٍ من الشعر ويربط بقية شعره على هيئة ذيل حصان. لم أكن لأترك زوجي لأجل رجل كهذا، إنه رجل تليق به سيارة ماركة فولفو العائلية ذات اللون الأخضر الطحلبي والتي بدأ الصدأ بالفعل يصيبها بعض الشيء.

عن هذا قلت: "نمط يساري؛ سيارة يسارية."

جففت إستر بضغطات من يدها العرق المتصبب على جبهتها. "إن تلفظتِ مرة أخرى بقول كهذا فسوف أتركك تنتقلين إلى المأوى الجديد بمفردك." ثم واصلت جرّ السرير النقّال. وجهت نظري إلى لوسي. كانت لوسي قد أدارت راحتي يدها إلى أعلى، مُحَدقّة في الأحجار، كما لو أنها لا تدري كيف جاءت إلى هناك. في الواقع لم تعترينى مشاعر أفضل من مشاعرها بكثير، وربما اختل عقلي أنا أيضًا. هذا ما ادعته أمي عني فعلًا قبل فترة من الوقت. شيئًا فشيئًا صرت أعتقد أنها محقة، كان يبدو على نحوٍ مستمر أن كافة الأمور تسير على غير وجهتها. فقد أخرجتني بعض الأمور التافهة عن هدوئي وأثارت غضبي لدرجة أنني لم أعد أعرف نفسي، أو أنني قد بدأت في النواح. آه.... لو أنني لم أفكر فقط في انتخابات البرلمان الاتحاديّ السخيفة تلك! كنت حينها في التاسعة عشر من عمري. كانت تلك أول انتخابات برلمانية، أدلي فيها بصوتي. أعطيت صوتي لهيلموت كول، أو ثمرة الكمثرى، كما كان أيكه يسميّه. أعطيت صوتي لمستشار الوحدة الألمانية للمستقبل السياسي المزدهر، الذي وعد بتحقيقه. إلا أن جيرهارد شرودر أصبح المستشار حينها، فقد صوّت ما يربو عن عشرين مليونًا لصالح الحزب الاجتماعي الديمقراطي الألماني. أخذت أولول باكيّة واعتراني شعور كما لو أنني أنا من خسرت الانتخابات وليس كول. احتضنتني إستر. "آه يا حبيبتي الصغيرة، يا حلوة. ما زال هناك الكثير من الانتخابات، التي ستشهدينها ومن المؤكد أنكِ ستفوزين في واحدة منها!" انفجرت حينئذ في الضحك بهيستريا ولم أستعد هدوئي لما يقرب من ساعة. كنت أضحوكة تمامًا، لم أدرِ ماذا جرى لي آنذاك. بدا أنه لم يعد هناك ما يطيب لي نفسًا. كان كل شيء يثير أعصابي. السرير النقّال اللعين والسيارة الفولفو العائلية وإستر، التي لم تدع لوسي تغيب عن نظرها منذ إقامتها الأخيرة في المؤسسة العلاجية فكانت تسحبها معها عند الذهاب إلى كل حدب وصوب. من المحتمل أن نضطر أيضًا إلى أن نصطحب لوسي معنا، عند توجهنا

إلى لايبزيج في الصباح الباكر غدًا. كانت إستر تذهب باستمرار إليها وتسألها، هل يجب أن تذهب إلى المرحاض أو هل تريد أن تشرب شيئًا ما. وعندما كانت الأحجار تسقط من لوسي إلى أسفل، كانت إستر ترفعها وتعطيها لها مرة أخرى.

قلت: " لقد فقدت صوابها حقًّا."

اكتفت إستر بهزّ كتفيها. "سوف تستعيد لوسي هدوءها مرة أخرى ، هيّا تكرمي ببدء العمل معي."

جذبنا معًا السرير النقّال من حقيبة السيارة مرة أخرى. وعندما مررنا بلوسي ونحن نحمله كي نعيد نقله إلى حجرتي، انتفضت واقفةً فجأة وصاحت قائلة: "سأضع حلًا للمشكلة، لستِ مضطرة إلى النوم على الأرض. سأجلب لكِ مرتبة، يمكن طيّها طيّات متناهية الصغر. متناهية الصغر!" بدأت تقهقه، ثم انفجرت في البكاء من جديد. شعرت على الفور أنني أيضًا سوف أولول باكيةً مرة أخرى. رمقتني إستر بنظرة وقالت: "فلتبقِ هادئة، سأقرضك حصيرة للنوم."

اصطحبنا لوسي معنا فعلًا عند ذهابنا إلى لايبزيج. في العام الدراسيّ المنصرم كانت لوسي باستمرار نزيلًة في المؤسسة العلاجية. المؤسسة العلاجية - أي قسم الأمراض النفسية والعقلية المغلق في المستشفي الجامعيّ في فرانكفورت. عندما كان أحدنا يتصلِ في ذلك الوقت بلوسي عبر الهاتف المحمول، كان لا يسمع سوى تسجيل صوتي بصوتها تقول فيه: " للأسف لا أستطيع في اللحظة الآنية أن أتواصل عبر الهاتف، لأنني أفقت من نومي صباح اليوم بسبب أحلام مزعجة ووجدت نفسي قد تحوّلت إلى حشرة ضخمة." من المألوف أنها كانت تصبح في حالٍ أفضل بعض الشيء بعد بقائها في المؤسسة العلاجية، لكن هذه المرةَ لم تكن كذلك. وبالرغم من فترات غيابها عن المدرسة، إلا أنها كانت أفضل تلميذة بيننا نحن الثلاثة. فلم تشاركنا فقط في خوض

اختبارات شهادة الأبيتور، بل اجتازتها محققة معدّل درجات يبلغ 0.9 درجة. وبالرغم من ذلك فقد رسبت في الحصول على شهادة الأبيتور. وعند خروجها من مكتب الناظر، فسّرت لنا ما حدث بصوت متهدج قائل: "تغيبت كثيراً جدًا." وأضافت: "إنه يستخف بي، سوف أقاضيه، سوف أرفع دعوى قضائية ضده بسبب ذلك. وعندما أكسب القضية، وعندما يصبح مضطرًا أن يحرر لي شهادتي، سأدس قنبلة في ثقب مؤخرته الضخمة وسأفجّره."

"بالضبط، فلننطلق ونُحضِر المادة المتفجّرة، سأساعدك." قلتلها لها على سبيل المزاح وتهدئة الموقف، غير أن إستر لكزتني مرة أخرى في جانبي قائلًة: "اخرسي! لا تواصلي تحريضها."

عندئذٍ هدأت لوسي فجأة تمامًا. "إنه لا يعتبرني سوى مجرد تلميذة ممتنعة عن الدراسة. ابنة أسرة ثرية، تفتقر إلى حسن السلوك اللازم، سوف أقتله، أقسم لكم، سأقتله." حاولنا أن نصرف نظرها عن ذلك وأن نوحي لها بفكرة أخرى. ذهبنا للسباحة ومساءً رقصنا معًا. كانت تضحك وتعانقنا وتقبّلنا معًا مرة تلو الأخرى. وحوالي الساعة الرابعة صباحًا اصطحبناها إلى المنزل، حتى وصلت إلى حجرتها. وضعت إستر عليها الغطاء كأنها طفل صغير وقبّلتها قبلة قبل النوم. وأنا أغلقت الستائر وأطفأت النور، ثم انصرفنا فنهضت لوسي من الفراش مرة أخرى وقطعت شرايينها في دورة المياه.

اجتازت إستر شهادة الأبيتور، إلا أن معدّل درجاتها كان سيئًا للغاية لدرجة أنها لم تتحصل على مكان للدراسة بالجامعة وتم إدراجها في أدنى ذيل قائمة الانتظار. لكن لا يهم، فالأقوال المأثورة لآبائنا وأمهاتنا بأنه علينا أن نبذل أقصى ما في وسعنا، وعندئذ سنصبح ذوي شأن، فالتعليم الجيد يساوي وظيفة جيدة، لم تعد صحيحة. فقد أصبحت معدلات البطالة مرتفعة على نحو لم يسبق له مثيل وما زالت تواصل ارتفاعها. دائمًا ما قيل إن النظام الاشتراكي يشارف على

الانهيار وإن أنماط الحياة الأمريكية تغزو البلاد. كما أن كل شخص هنا أصبح مهددًا في كل وقت بالسقوط. ربما يكمن في هذا سبب تصويت الناخبين لصالح الحزب الاجتماعي الديمقراطي الألماني آملين أن يحقق لهم المستشار الاتحادي الديمقراطي الاجتماعي تحولًا نحو الخير، نحو الأمان الاجتماعي.

كان فالك يقول دائمًا: "لن يضرنا -نحن الألمان- أن تصبح مسئوليتنا الخاصة أكثر قليلًا." لم يكن بوسع إستر سوى أن تسخر من ذلك بقولها: "إن صديقك يجيد الحديث. غير أن والديه لديهما نقودٌ ويدفعان مالًا كي يستطيع الالتحاق بجامعة خاصة. هؤلاء يصبون اللعنات على الدولة، وهم لا يحتاجونها على الإطلاق."

تمتمت لوسي: "أنا أيضًا أصب اللعنات على الدولة، أنا أيضًا لا أحتاج ذلك كله."

من بيننا نحن الثلاثة، كنت أنا الوحيدة التي بدأت في هذا العام الدراسة في الجامعة. لم أكن أريد أن أسافر إلى لايبزيج للدراسة ولم أكن أريد أن أدرس الحقوق. ذات مرة قالت المعلمة التي تُدرِّس لي اللغة اللاتينية والتي كنت أحبها للغاية إن كل الأدباء في روما القديمة كانوا فقهاء قانونيين وأنني ينبغي أن أحذو حذوهم، إن لم يخطر ببالي شيء أفضل.

كانت إستر تجلس على مقود السيارة، لأننا كدسنا كل أغراضي حتى بلغت أسفل السقف ولأنها كانت الوحيدة، التي تستطيع قيادة السيارة دون الاستعانة بالمرآة الخلفية. حشرت نفسي في المقعد خلفها وجلست لوسي القرفصاء متربّعةً في المقعد المجاور للسائق. راقت لها رحلتنا القصيرة. فتّشت لوسي بابتهاج درج تابلوه السيارة الفولفو ونبشت في كوم من الأقراص المدمجة المُلطّخة واستخرجت من بينها سيجارة محشوّة، كان هناك من دخّنها حتى نصفها. لا بُد وأنها تخص

صديق والدة إستر. "انظري، انظري! إن صديق أمي رجل ذو مزاج خاص." قالتها ضاحكة وأشعلت السيجارة المحشوّة لنا، وبينما أخذت إستر نفسًا عميقًا، رفعت لوسي إلى أعلى أحد الأقراص المدمجة، كانت قد وجدته في درج تابلوه السيارة. "قرص مدمج لأغنية "شيء من السلام" للمطربة نيكول، ألم أقل إنه رجل ذو مزاج خاص."

التفتت إستر نحوي ونظرت إليّ قائلةً: "إن هذا لكِ يا حبيبتي الصغيرة."

"لماذا هذا إذن؟ أنا أكره نيكول."

قالت إستر: "إنها أول ألمانية تفوز بمسابقة يوروفيجن للأغاني." وأضافت: "فازت بها عام 1982. إنه لنصر كبير للوطن. لا تنسي أن تدرجي هذا في قائمتك للإنجازات الوطنية."

ركلت مقعدها من الخلف، لكنها كانت قد رأتني وأنا أهمّ بذلك فانحنت نحو الأمام بعيدًا جدًا، لدرجة أنها علقت بكلتا ذراعيها فوق عجلة القيادة فلم تصبها ركلتي. وضعت لوسي القرص المدمج في جهاز تسجيل السيارة. صرخنا بصوت عالٍ اشمئزازًا وابتهاجًا وعندما بدأت لوسي في الغناء مع الأغنية، خطر ببالي أنا وإستر أن نغني بصوتٍ عالٍ معها: "أعرف أن أغنياتي لن تغير الكثير، فلست سوى فتاة تقول ما تشعر به، أشدو بأغنية خوفًا من الظلام وآمل ألا يحدث شيء."استمعنا طويلًا لأغنيات "نيكول"، حتى بدأ القرص المدمج في القفز خارج جهاز التسجيل فاضطرت لوسي إلى أن تضع في جهاز التسجيل قرص مدمج آخر: للمطرب كريس دي بيرج. قالت إستر: "نحتاج في هذه اللحظة بلا نقاش إلى سيحارة محشوة أخرى.". بيد أن درج تابلوه السيارة لم يكن يحتوي - بالإضافة إلى الأقراص المدمجة - سوى على كومة من المناديل الرمادية المكوّرة بإحكام، والتي أخذنا نلقيها على بعضنا بعضًا.

سِرْنـا بالسـيارة عـلى الطريـق السريـع ذي الحـارات المروريـة الثلاثـة باتجـاه مدينـة كاسـل. وعنـد بلديـة هرلزهـاوزن عبرنـا الحـد الـذي كان يفصـل في السـابق بـين الألمانيتـين، وانتقلنـا إلى الطريـق السريـع الشرقـي، أي طريـق الترانزيـت للعبـور بـين الألمانيتـين سـابقًا، والـذي كنـت أمـر بـه مـع والـداي أحيانًـا عندمـا كنـت طفلـة. وبسـبب بعـض الأعطـال في الشـارع لم تكـن سرعـة السـيارة تتجـاوز 80 كـم في السـاعة، بـل ووصلـت أحيانًـا إلى 60 كـم في السـاعة. كانـت المنطقـة ذات طبيعـة هضبيّـة وكانـت الغابـات الممتـدة في جانبـيّ الطريـق والمتلوّنـة بألـوانٍ خريفيـة كثـيرة مزروعـة بنظـام في غايـة الانضبـاط، كـما لـو أنهـا مزروعـة وفقًـا لنظـام عسـكري. بـدت الأشـجار كـما لـو أنهـا تصطـف عـلى جانبـيّ الطريـق. كان قائـدو سـيارات النقـل يكابـدون عذابًـا عنـد اجتيازهـم مرتفعـات الطريـق إلى أعـلى وعندمـا كان الطريـق ينحـدر إلى أسـفل، كانـت إكسـدامات سـيارات النقـل تحتـك ببعضهـا بعضًـا وتحـاول كل سـيارة منهـا أن تتجـاوز سـيارات النقـل الأخـرى في منـاورات لا تخلـو مـن الاندفـاع. تركـت إسـتر ضـوء الكشّـاف العـالي بالسـيارة مفتوحًـا ومـرّت بالسـيارات النقـل، مطلقـة آلـة التنبيـه بالسـيارة. "لقـد تجاوزنـا ذلـك الشـارع اللعـين تمامًـا." قالتهـا شـاتمة وتفـادتْ أحـد المطبـات، فخدشـت تقريبًـا أحـد الحواجـز المروريـة.

قلت: "من المؤكد أن من بناه أدولف هتلر."

اعتدلـت لـوسي متصلبـة وقلّـدت نـبرة صـوت فالـك قائلـة: "فلتبتعدي عـن أعـمال السـيادة الألمانية."

قلـت لهـا ضاحكـةً: "ربمـا كانـت كذلـك آنـذاك." وعضضـت عـلى لسـاني، عندمـا اصطدمـت السـيارة الفولفـو بأحـد المطبـات، محدثـة صوتًـا مدويًـا. "لقـد أصـاب ذلـك بالتأكيـد عمـود الكـردان أي أكـس السـيارة."

قالـت إسـتر: "إن الرومـان يضمنـون تلـك الخطـوط بعـد." هـزّت لـوسي رأسـها بشـدة مبالـغ فيهـا. "أنـتِ غبيـة جـدًا! لم يصـل الرومـان

مطلقًا إلى هذا المكان. كل هذه أراضٍ يملكها البربر. أتعرفين أين تنمو ثمار الليم؟" ولمّا لم نعرف كلتانا الإجابة، ثارت لوسي من كوننا حصلنا على شهادة الأبيتور ولا نعرف الإجابة. أدارت مقبض النافذة إلى أسفل واستندت إلى الخارج وصرخت قائلة: "النجدة! لقد أوقعني قدري بين بلهاء! النجدة، البلهاء يُطبِقون عليّ الحصار!"

قلت لها: "أتقصدين البربر؟"واصلت لوسي جلستها مستندةً إلى الخارج وقالت: " لا شيء بربري هنا سوى افتقاركما إلى التعليم!"

تساءلت إستر بعصبية: "تعل-ماذا تقولين؟" انتابها القلق من أن يستثير صياح لوسي إحدى دوريات الشرطة." ضحكت لوسي وأدارت مقبض لوح زجاج النافذة مرة أخرى إلى أعلى. كان أحد أصدقاء والداي فالك يمتلك مكتبًا للسمسرة العقارية وكان يؤدي دور الوساطة أيضًا في صفقات العقارات في شرق ألمانيا. فأوجد لي شقة، تحسسّت موضع المفتاح في حقيبتي وحاولت أن أتخيّل مواصفات بيتي الجديد. لم أكن أريد أن أنتقل إلى سكن جماعي؛ أفضل الحياة وحيدةً.

مررنا في أثناء سيرنا بالثلاث متشابهات، أي الثلاث قلاع المشيّدة على هضاب بالطريق السريع. كانت واحدة منها لا تزال سليمة لم يمسها سوء، بينما لم يتبق من الأخرتين سوى أطلال.

قالت لوسي: "سأكلفكم بحل لغز." وأضافت: "واحدة منا ستنجح في حله والأخريتان ستخسران؛ من لها؟"

لذْتُ أنا وإستر بالصمت!

مررنا بالسيارة على مدينة ينا، حيث المباني ذات الألوان المتعدّدة وذات الواجهات المركبة من البلاط الخرساني والواقعة أمام هضاب خضراء. كان كريس دي بيرج قد انتهى من غناء آخر أغنياته ولم تضع لوسي أي قرص مدمج آخر في جهاز التسجيل. أخذت إستر تقرأ أسماء الأماكن المكتوبة على اللافتات: مجدلا وشوربا وأوردروف وكراوشفيتز

وتاوخا. حاولت إستر أن تنطق تلك الأسماء بلهجة ساكسونية. لم تكن تجيد سوى الحديث بلهجة ولاية هسن، والتي لم أكن حتى أجيدها. حيث كانت أمي، التي كانت تشعر أنها مواطنة من شمال ألمانيا، تصحح لي ولأيكه كلامنا على الفور، عندما يصطبغ كلامنا بأي صبغة من لكنة ولاية هسن.

"اللعنة!". قالتها إستر، عندما انعطفنا من الطريق السريع إلى غرب لايبزيج. "لماذا يجب عليكِ حتمًا أن تنتقلي إلى تلك المنطقة؟"

(12)

قالت لوسي ذات مرة أن مدينتنا، مسقط رأسنا، مدينة جميلة سخيفة، تلتصق باستكانة بالوادي أي بسجنها الذي يحبسها. فمن يبحث في موقع جوجل عن مدينة فيسبادن من الناحية الجغرافية، يجد مصطلح "موقع القِدْر"؛ فهناك جبال تطبق الحصار على المدينة.

وبالمقارنة بمدينتنا كانت لاييزيج ساحةً مفتوحة، لها أجنحة عسكرية غير خاضعة لحماية، تمتد صوب الشمال والشرق والجنوب والغرب.

كانت شقتي تقع في منطقة، لم تحظ كافة البيوت بها تقريبًا بأي إصلاحات، فلم يتبق من بعضها سوى الواجهات. وكانت الشوارع تذكرني بطاقم أسنان صناعية تالف به ثغرات والأسنان به لونها تحول إلى اللون البني وبها كسور. يقُال إن السجناء السابقين ومنتقدي النظام الراغبين في مغادرة البلاد في أثناء حكم جمهورية ألمانيا الديمقراطية كانوا يُنقلون للسكن هنا، لكي يكسروا عزيمتهم.

تقدمت للحصول على مكان للدراسة بالجامعة في هامبورج وميونيخ وكولونيا. وأرسلتني الجهة المركزية لتوزيع أماكن الدراسة بالجامعة إلى هنا. وعندما عرضت على أمي رد هذه الجهة، قالت لي بصوت ضعيف: " ستذهبين أنتِ أيضًا الآن إلى الشرق." وأردفت: "ما بالكم؟ لماذا لا تطيقون البقاء هنا؟" كان أيكه قد انتقل قبل ذلك بعام إلى برلين حيث يدرس هناك علم السياسة والفلسفة. كانت لديه شقة كبيرة تطل على شارع شونهاوزر وعرض عليّ أن يخصص لي حجرة فيها، إن لم يرق لي البقاء في لايبزيج.

جلست في قاعة الحفلات الموسيقية في لايبزيج، والتي كانت ممتلئة عن آخرها بطلاب يدرسون الفصل الدراسي الأول، وأصغيت إلى رئيس وزراء ولاية ساكسونيا المسمّى بالملك كورت والذي يرجع أصله إلى غرب ألمانيا. لقد قال إننا نؤدي في لايبزيج عملًا رائدًا. نحن، من تجاسرنا - مثله - على اتخاذ خطوة القدوم إلى هنا، ومن، ولدوا في لايبزيج ولم يلتمسوا سعادتهم في الغرب. قال لنا: "أنتم هنا، لكي تشاركوا في بناء الدولة." خُيِّل لي طوال لحظة، أنني إحدى نساء الأنقاض اللواتي كن يفعلن ما يجب عليهن فعله، باجتهاد وإقدام ودونما إبداء شكوى.

لم يكن لديّ في بيتي تدفئة مركزية ولم يكن المرحاض يقع في الشقة، بل في بئر السلم وكان الحمّام يتكون من كابينة استحمام بلاستيكية، تقع بجوار موقد الطبخ في المطبخ. كنت أُسمِّي المنازل القليلة، التي جرى بها إصلاحات، بالأسنان الذهبية. وكانت تتعلّق على واجهاتها لافتات دعائية لمكاتب السمسرة العقارية، والتي كانت تعد بتوفير غرفة معيشة بها تجديدات فاخرة في مقابل أقل سعر. بلا عمولة سمسرة ولا تأمين. بقيت معظم الأسنان الذهبية خاوية. قيل إنه من الواجب أن تُجرَى في القريب العاجل إصلاحات في البيت، الذي كنت أسكن فيه. كنت أعيش حتّى ذلك الوقت في الحكايات،

التي حكتها أُمّي لي عن طفولتها؛ فرأيت للمرة الأولى الزهور، التي تنمو في الثلوج، تنمو لأعلى على ألواح النوافذ وكنت أحمل الفحم في دلوٍ من القبو إلى أعلى وأشعل النار وأدفئ يدي بالبقاء عند المدفأة الحجرية.

عانيت مجددًا من الأرق ولم أطق صبرًا على السكون المخيّم على البيت، الذي لم يكن يسكنه أحد سواي. فقضيت الليالي في الكتابة أو في الاتصال هاتفيًا بجدي بنيدِكت. انتابني نوع من الحُمَّى، أصابني بالاضطراب وجفاف الفم وارتعاش يداي وتشوش الرؤية. كانت حصيرة النوم، التي أخذتها من إستر، موجودة على المدفئة. بيد أنني، عندما كنت أتمدد وأغمض عيناي في محاولة مني للنوم، كنت أخال، كما لو أنه لن يعد بمقدوري ثانيةً أن أنهض، كما لو أن كل شيء سينقضي، إن لم أنتفض واثبةً على الفور مرة أخرى وأواصل الكتابة.

قال لي جدي بنيدِكت: "أعرف هذا الشعور؛ تنمو الحكاية بداخلك على نحو متواصل ودائم، لا تبارحك، وإن لم تستطيعي أن تحكيها أو تكشفي عنها بأي شكل كان، فإنها سوف تملأك، لا، سوف تحشوكِ يومًا ما إلى حد الانفجار. وماذا ستكونين حينئذٍ؟ كتاب لم يُكتَب؟ كاتب لم ينجح؟ لن تكوني حينئذٍ شيئًا."

حكى لي جدي أنه أحيانًا كان يستلقي ليلًا في سريره ويتصوّرأن خادمًا يطرق على بابه، لكي يحضر له طعامًا، ربما طبقًا من الحساء. تمثلت أعظم درجة من الترف، كان بوسعه أن يتخيّلها؛ في أن يُسدي له أحد الأشخاص صنيعًا طيبًا وألا يضطر مع ذلك إلى الحديث معه. قد يجيبه بإجابات مقتضبة إلى أقصى درجة: إلى الداخل، إلى هنا من فضلك، تستطيع الذهاب، لا أحتاج شيئًا آخر.

وددت ألّا أضطر إلى أن أقول شيئًا آخر البتّة، ودار في مخيلتي أن أحد الحراس يقف على بابي ويحرسني قائلًا: منطقة محظورة، غير مسموح لأحد بالمرور هنا؛ هذا الباب سيظل موصدًا.

وعلى الرغم من ذلك كان هناك شيء دائمًا ما ينفذ إلى الداخل ويصدر صوت صفير عبر المدفئة وينفذ عبر شقوق النوافذ. دلفت عبر باب الشقة من أسفل ورقة بيضاء، تهديد لم يُكتَب. استرقت النظر عبر العين السرية الموجودة بالباب نحو بئر السلم المظلم. وأضأت النور في كافة أرجاء الشقة، سحبت الستائر. أرهفت البصر إلى الخارج نحو الشارع، أخذت أطوف بجميع الحجرات في اضطراب وقلق. اتصلت هاتفيًا بجدي، كان جدي وحده، الذي يظلُّ مستيقظًا في وقت متأخر كهذا. "لا أنام قط" قالها لي، عندما سألته، عما إذا كنت قد أيقظته من النوم، ثم قال بعدها: "لماذا نتحدث معًا؟ ينبغي لكِ أن تكتبي."

كان بهاتفي تلامس متقطع؛ فعندما كنت أتحرك بقوة كبيرة، كان الاتصال ينقطع. لم أتمكن بعد ذلك من الاتصال بجدي مرة أخرى، لم يضع جدي سماعة الهاتف أبدًا. أخذت أطلب رقمه على الهاتف مرارًا وتكرارًا وأصيح عند سماع علامة أن الخط مشغول، بينما كان جدي يجلس صامتًا عند نهاية خط التليفون من الناحية الأخرى وينتظر أن أواصل حديثي معه. أحيانًا كانت جدتي أيضًا تزعجنا، فيصدر عن زجاج الباب صوت رجرجة، عندما تضغط على مقبض الباب بقوة وتدخل إلى الحجرة. "من لا يستطيع أن ينام هنا من جديد؟"، هتفت بها منادية، كما لو أنها ممرضة وهو أحد المرضى. وضع جدي يده على فوهة سماعة الهاتف، بيد أنني سمعت مع ذلك كيف قال لها: "إنها حفيدتنا."

أجابته جدتي بقولها: "حوّل لها نقودًا، عندئذٍ سيسود الهدوء!"

كان والـداي يدفعـان إيجـار شـقتي ويحـولان لي كل شـهر نقـودًا، حتى تنبّهـا إلى أننـي لا أنشـغل بالدراسـة، بـل بتأليـف روايتـي. فأصبحـت الآن أجنـي قـوت يومـي مـن العمـل في مصنـع للمخبـوزات. لم أكـن أسـتطيع التأليـف، عندمـا كنـت أعـود إلى المنـزل في وقـت متأخـر مـن المسـاء ولا تسـتطيع يـداي أن تتوقفـا عـن التقـاط البسـكويت مـن السـير الآلي الناقـل ووضعهـا في عبـوّة التغليـف بالضغـط عليهـا. واحـد اثنـان ثلاثـة، واحـد اثنـان ثلاثـة. دائمًـا أضـع ثـلاث قطـع في موضـع عميـق، عندمـا تطقطـق أصـوات الماكينـات في رأسي، عندمـا لا يتعطّـل سـير الماكينـات. واحـد اثنـان ثلاثـة. عندمـا كان فتـات البسـكويت يظـل محتـكًا بـين أصابـع يـدي، التـي أفركهـا كي تصبـح نظيفـة. عندمـا تمـلأ رائحـة الشـوكولاتة لسـاني وسـقف حلقـي، مثـل الزيـت. كنـت أحتـاج في تلـك الأوقـات إلى الاسـتماع إلى صوت جـدي، إلى صـوت الامتصـاص، الـذي يصـدر عندمـا يضغـط جـدي بلسـانه عـلى ملبـس العرقسـوس ليدفعـه نحـو سـقف حلقـه. إلى صـوت جـدي يتشـدق بالملبـس، عندمـا يـذوب. إلى صـوت طرقعـة القداحـة والأزيـز الخفيـض الناتـج عـن لهيـب النـار التـي تنخـر في التبـغ. سـألني جـدي عـن المصنـع وجعلنـي أحـكي لـه عـن العامـلات ورؤسـاء العـمال بـه وعـن البناطيـل ذات اللـون الأزرق المائـل إلى الأبيـض ذات الكاروهـات، التـي نرتديهـا، وعـن المرايـل البيضـاء وعـن الكمامـات التـي نضعهـا عـلى أفواهنـا وعـن أغطيـة الـرأس، التـي نرتديهـا، وعـن الرجـال، أي رؤسـائنا في العمـل، الذيـن يرتـدون بـذلات ويمـرون علينـا عـلى ممـرات معدنيـة ذهابًـا وإيابًـا.

قـال لي: "كانـت الحكايـة دائمًـا مسـتقرة بداخـلي." وأردف بقولـه: "غـير أننـي لم أكـن أسـتطيع أن أحكيهـا، كأننـي أصبـت بسـكتة دماغيـة. ببسـاطة لا تخـرج العبـارات مـن فمـي عـلى نحـوٍ سـليمٍ." حصـل في عـام 1953 عـلى منحـة عمـل، خُصِـص لهـا مبلـغ مـالي ضخـم، في مقابـل كتابـة أول فصلـين مـن روايتـه. ومـن هـذا المـال، الـذي حصـل عليـه، شـيّد وجهّـز متجـر نجمـة الشـاطئ لأول مـرة. ظلـت في بـادئ الأمـر مكتبـة لبيـع

الكتـب، أي نـوع مـن مواصلـة تطويـر مكتبـة إعـارة الكتـب، التـي كانـوا يُشَـغلّونها حتـى ذلـك الوقـت. إلا أنهـا لم تـدر ربحًـا كافيًـا وسرعـان مـا تحوّلـت إلى محـل بقالـة، كان متخصصًـا في بيـع احتياجـات السـائحين. قـال إنـه كان في الحقيقـة يديـر تلـك التجـارة عـلى نحـوٍ ثانـوي فقـط، في سـبيل كسـب قـوت يومـه، وإنـه كان يعتـزم عزمًـا أكيـدًا أن يواصـل العمـل في تأليـف روايتـه. "لكننـي لم أفعـل ذلـك." قالهـا لي وأردف قائـلًا: "إن عملـك في المصنـع يجعـل حالـك أفضـل منـي. إننـا لا نبقـى ملتصقـين بسـوء الحـظ اللعـين، بـل بالمـال فقـط."

أحيانًـا كان جـدي يطلـق عـلى الكتابـة أنهـا نقمـة، ثـم يطلـق عليهـا مـن جديـد أنهـا نعمـة. أعـدُّ كلا الوصفـين مبالغًـا فيهـما. ومـع ذلـك كان ينتابنـي الخـوف مـن أن أُمنـى بالفشـل مثلـه تمامًـا. كنـت مقتنعـة في النهـار أننـي قـد يشـقّ علـيّ طـوال حيـاتي حقًـا أن أعـاني مـن ذلـك. كان ينبغـي لي أن أدرك في وقـت مـن الأوقـات، أننـي مـع ذلـك لسـت بكاتبـة. كنـت أريـد أن أؤلـف روايتـي، أن أحـكي الحكايـة وكنـت أظـن أننـي أفعـل الصـواب. لكـن حتـى وإن كنـت مخطئـة، أنـا لم أكـن أبلـغ سـوى العشريـن مـن عمـري، فـما يـضرني أن أحيـد ذات مـرة عـن الطريـق الصحيـح أو أن أحـرث حقـلًا، ربمـا تكـون تربتـه ليسـت بالخصبـة؟ يمكننـي في أي وقـت أن أعـاود الالتحـاق بالجامعـة ولا أزال مـع ذلـك أسـتطيع أن أدرس بهـا، أليـس كذلـك؟

يرجـع أصـل جـدي بنيدِكـت إلى منطقـة ماريـن شـبرنجه وهـي جُحـر بافـاري، يقـع بالقـرب مـن بلـدة فاسربـورج، حيثـما يوجـد فنـدق صغـير، تُقبِـل عليـه الزبائـن، ومستشـفى مجانـين كبـير، تديـره راهبـات، وبـه نوافـذ عليهـا قضبـان. كان جـدي ثمـرة علاقـة غـير شرعيـة، حيـث حملـت بـه أمـه، عندمـا كانـت في السـابعة عـشر مـن عمرهـا، بعـد علاقـة، أقامتهـا مـع طبيـب شـاب مـن ميونيـخ، كان قـد قـضى ليلـة في الفنـدق الصغـير، في أثنـاء مـروره بتلـك البلـدة. وعندمـا انتبهـت، إلى أنهـا حُبـلى بجـدي،

حاولت أن تنتحر. وبعد ذلك أودعت مستشفى المجانين، الذي تديره الراهبات ولشهور طويلة كانت توجه نظرها عبر نافذة عليها قضبان إلى فندق والديها الصغير، اللذين لم يزوراها. ولكم شعرت بانشراح الصدر عندما سُمِح لها أخيراً، أخيراً أن تعود إلى منزلها مرة أخرى! مثّلت لها الخطوات القليلة، التي خطتها لعبور الشارع، أجمل طريق، سلكته في حياتها.

أرسلت الراهبات جدي، عندما كان رضيعًا، لمربيّة في فاسربورج. حصلت المربية في دفعة واحدة على مبلغ مالي، من المفترض أن يكفي للإنفاق على جدي حتى التحاقه بالتعليم وكان يحق لها الاحتفاظ بذلك المبلغ المالي أيضًا، حال وفاة الرضيع قبل التحاقه بالتعليم. " كانت تجعل الأطفال يموتون موتًا هادئًا. هكذا أسمى الناس ما كانت تفعله. الأطفال غير المرغوب فيهم، الأطفال غير الشرعيين. والمعاقين، الأطفال الذين لا يريدهم أحد. الذين يمثّلون عبئًا، الذين يمثّلون عارًا. كنت بالطبع قد تعمّدت قبل ذلك باسم "بنيدِكت"، الذي يعني "المبارك"" قالها جدي وبدأ في الضحك بصوت أجشّ. "كان الأطفال يموتون إما جوعًا وإمّا من البرد، وهم ما زالوا رُضّعًا. كانت المربيّة سيدة ميسورة الحال."

قلت له: "إنه لضرب من الإجهاض المتأخر."

ردّ بقوله: "وصفه بالموت البطيء له وقع أخفّ." وأضاف: "كما أنه لم يكن لأحد أن يجري إجهاضًا بأثر رجعي، أتعرفين تعبير أن طفلًا وُلِد ميّتًا؟"

"ولادة جنين ميّت."

"دائمًا ما كنت أتصور في السابق الأطفال في فاسربورج على نحو مشابه لهذا. إنهم كانوا غارقين في النوم بسلام، لكن هل سمعتِ ذات مرة رضيعًا يصرخ، عندما يشعر بالجوع أو الألم؟ عندما وُلِد أبوكِ

وكان يستيقظ أحيانًا في الليل باكيًا، كنت أقف عند مهده وكنت أتصوّر، كم من الوقت قد يستطيع أن يتحمّل، إذا قام أحد ب - كم من الوقت قد يستغرق ذلك؟ فكنت آخذه من مهده وأحضره لأمه. لم أكن أستطع أن أتحمل سماع صوت بكائه. كان لأمي شقيقة أكبر منها سنًا وكانت تعمل طاهية في لوبيك، أي بعيدًا جدًا عن منطقة مارين شبرنجه البافارية. وتنامى إلى علمها من خطاب أرسلته لها أمي، إلى أين أتوا بي فأرادت أن تأخذني لأقيم معها. بيد أنه كان ينقصها المال اللازم للقيام بالرحلة. عندئذ أرسلت خطابًا للمربيّة. وفي كل يوم سبت بعد الظهر، أي عندما كانت في فترة راحة من العمل، كانت ترسل لها خطابًا وتستفسر عن حالتي، طوال ستة أعوام. حتى جمعت المال اللازم للقيام بالرحلة."

"لقد أنقذت تلك الخطابات حياتك."

"إن هذا لأمر مؤثر جدًا." قالها لي وأضاف: "امحي هذا."

"أنا لا أدوّن ما تقوله لي، لكنها حكاية جيدة."

"قد تكون جيدة حقًا، إن استطعت أن أحكيها من منظور الأم. لقد حاولت أن أفعل ذلك عدة مرات، إلا أنني في النهاية كنت دائمًا أشعر بذلك العجز، كما لو أن جسدي أصيب فجأة بالشلل وكما لو أنني مضطر - دون أن أفعل شيئًا - إلى أن أراقب، كيف أنها ... ثم كنت أصاب بغيظ لدرجة أنني لم أكن أحلم طيلة ليالٍ عدة سوى بأنني أقتلها؛ أقتل أمي. أحلم أني قتلتها مختنقة بوضع وسادة فوق وجهها لكتم أنفاسها، أخذت أضغط وأضغط، غير أنها كانت تفتح عينيها من جديد في كل مرة، كنت أزيح الوسادة فيها."

"هل رأيتها مرة أخرى؟"

"أجل، عندما أصبحت فتىً يافعًا وأصبحت أبًا بالفعل، سافرت ذات مرة إلى مارين شبرنجه."

"كيف كان الحال آنذاك؟"

صمت لبرهة، ثم تنهد قائلًا: "حتى وإن أردت أن أحكي هذا، فلن أستطيع ذلك؛ ببساطة لا أستطيع."

قال لي جدي: "إن الثلوج تتساقط الآن مرة أخرى." كان هذا في شهر فبراير من عام 2001. "اليوم لا نستطيع أن نتحادث هاتفيًا لفترة طويلة ومتواصلة. يجب أن أخرج وأذهب لأزيح الجليد بالمجراف." كنت أعرف، أنه يحب أداء الأعمال، التي لا تستوجب التفكير في شيء عند القيام بها، الأعمال التي تسير على وتيرة واحدة، الأعمال المنهكة على نحوٍ مقبول. كان يحب العمل في مخزن محله، حيث يفرز ويكدّس ويفهرس ما به ويجمع الأوراق الساقطة من الشجر أو يقطع الخشب لساعات طويلة.

يضع اللبدة على الحامل ويرفع الفأس ويضرب به وفي النهاية يضع قطع الحطب طبقة فوق الأخرى.

كنت أحيانًا ما أفكر في ذلك في أثناء عملي في المصنع. فبينما كانت يداي تتحركان وفق الإيقاع المحدد للماكينات، كان هناك شيءٌ ما يذوب في رأسي. انسابت أفكاري، فاستطعت للحظة أن أتواجد في أماكنَ عدةٍ في الوقت ذاته وذبت فيها. ربما كان حال جدي مشابهًا لحالي.

عندما كنا نتحدث هاتفيًا، كان ينهض مرارًا وتكرارًا وينظر عبر النافذة إلى الخارج. "هل ترين هذا؟ ألا ترين هذا؟ الطرق وأحواض الزرع ومدخل الطريق والشارع. كل هذا مُغَطّى بالجليد، كأن عليه ورقة بيضاء، ورقة بيضاء كبيرة ليس لها وصف، لا يمكن أن يبقى الوضع هكذا. يجب أن نواصل حديثنا غدًا، يا طفلتي. لدي عمل يجب أن أؤديه." وضعت سمّاعة الهاتف بحذر جانبًا، لكيلا ينقطع الاتصال ونهضت ونظرت عبر النافذة إلى الخارج. كانت مصابيح

الشارع تلقي دوائر من الضوء لونها مائل إلى الإصفرار على حصى الطريق. ظهر صف من البيوت الواقع على الجانب المواجه من الشارع أسود اللون بالمقارنة بالسماء ذات اللون الأحمر الشاحب.

لم تتساقط الثلوج في لايبزيج. عندما التقطت سماعة الهاتف مرة أخرى، كان جدي قد وضع سماعة هاتفه.

عندما عثرت عليه جدتي بعد ذلك بساعات، كان يجلس في الثلج مستندًا بظهره إلى حائط المنزل وباسطًا ساقيه ومغلقًا عينيه وواضعًا سيجارة غير مشتعلة بين شفتيه الزرقاوتين. كان ما زال ممسكًا بمجراف الثلج في يده.

"مسترخيًا ومسالمًا."، قالتها جدتي مرارًا وتكرارًا في أثناء دفن جدي، كما لو أنها لا تستطيع أن تصدق ما حدث. "أشعل سيجارة وجلس في الثلج واستغرق في النوم، لم يكن قد بدأ في العمل بعد."

بعد ذلك بستة أشهر، أي في شهر أكتوبر من العام 2001، صدرت أولى رواياتي.

(13)

يالها من هوة! وقفتُ مستندةً بظهري على الحائط. كان قلبي يخفق، أخذ مصراع النافذة يرتطم فتحًا وغلقًا بفعل الرياح، لماذا لم يتمكن كونستانتين من غلقها؟

سأل: "ألا تريدين ارتداء ملابسك؟"

أردت أن أصرخ في وجهه قائلة: "أَغلق النافذة اللعينة!" لم أنطق ببنت شفة، جف فمي.

ابتسم كونستانتين ونقر بظفر إصبعه على زجاج ساعة معصمه. " لديَّ اجتماع هاتفي وأريد الذهاب للسباحة قبل ذلك. أوصاني طبيب الأسرة بضرورة محافظتي على لياقتي دائمًا، يجب أن أهتم بصحتي." ضحك؛ ما المضحك في هذا؟

ارتدى بنطالًا ضيقًا من الجينز وسترة بغطاء رأس فضية اللون، كأنه مراهق. لا تناسبه؛ تجعله يبدو كبيرًا في السن. كانت حقيبة رياضية بلون أزرق فاتح تتدلى من على كتفه، مطبوع عليها شعار

لامـع. أعطـاني بنطـالي الجينـز، بـدا عليـه أنّ صـبره قـد نفـد. حـاول أن يتصنـع ابتسـامة قائـلًا: "عليـك الذهـاب إلى العمـل بالتأكيـد."

تحررت ببطء من الحائط، هززت رأسي " اليوم السبت."

رفع كونستانين حاجبه.

"قسم الدعاية" ليونيفرسال شوز"مغلق في عطلة نهاية الأسبوع."

دس البنطـال الجينـز في يـدي وقـال: " أقصـد روايتـك." "منـذ متـى وأنـت تعملـين لـدى ""يونيفرسـال"؟

"منذ لم أنته من روايتي الجديدة."

" وما العقبة؟"

" لا أعرف" أغلقت النافذة.

حـدق بي كونسـتانتين وأنـا أرتـدي ملابـسي. عندمـا انتهيـت أشـار بحركـة مـن رأسـه تجـاه الفـراش، "سـجائرك."

"حسـنًا." كانـت موضوعـة عـلى منضـدة الفـراش؛ دسسـتها. لطيـف أن آخـذ شـيئًا مـن هنـا معـي، إنّهـا ذكـرى صغـيرة لكـن كونسـتانتين كان واقفًـا في مدخـل البـاب. "يجـب أن أذهـب أيضًـا، يمكننـا النـزول معًـا."

انزلـق داخـل معطفـه في الردهـة وأغلـق أزراره، ثـم أخـرج شـالًا كاروهـات مـن الحقيبـة الرياضيـة ولفَّـه حـول رقبتـه، ثـم ارتـدى طاقيـة صوفيـة صغـيرة تلمـع بلـون مفضـض. التقـت نظراتنـا في المـرآة بجـوار خزانـة الملابـس. كانـت عينـاه خضراوتـين بداخلهـما بقعتـان ذهبيتـان. قـال وهـو يبتسـم: "أعـرف أنهـا تبـدو سـخيفة، لكننـي أشـعر بالـبرودة في رأسي بعـد السـباحة."

"ستذهبين أولًا"

دفعنـي إلى البـاب، أصـدر المصعـد أزيـزًا، ونـزل بنـا لأسـفل إلى الطابـق الأرضي، غادرنـا البناية.

آنـذاك -بعـد وفـاة جـدي- كان أيكـه يـزورني مـرة كل شـهر عـلى الأقل خـلال عطلـة نهايـة الأسـبوع في لايبزيـج. كان يجلـب لي مـالًا معـه ويمـلأ لي الـبرَّاد ويرتـب شـقتي ويُلـح عـليّ في الذهـاب معـه للتنـزه لسـاعات قائـلًا: "يجـب أن تخرجـي." ومـد لي ذراعـه كي أتعلـق بـه. بعـد ذلـك لم يقـل أي شيء. مَشَـيْنا معًـا في صمـت لعـدة كيلومـترات. ظننـت أن أمـي وأبي أرسـلاه، لم يفهـما لمـاذا لا أدرس، سـيعيداني هكـذا، لم يغـير صـدور أول روايـة لي مـن قلقهـم.

قالـت لي أمـي في جنـازة جـدي: "ألا تلاحظـين أنـك عالقـة؛ حياتـك توقفـت."

"سأتقدم للأمام ببطء."

هـزَّت رأسـها "ربمـا عليـك العـودة إلى المنـزل، تلتحقـين بتدريـب مـا، تبدأيـن شـيئًا عقلانيًـا."

أراد أيكـه أن أنتقـل للعيـش معـه في برلـين، قـال: "كي أعتنـي بـك عـلى نحـو أفضـل." اعتـادت إسـتر عـلى قـول هـذا لِلُـوسي. اشـتكت لُـوسي إدارة المدرسـة بالفعـل وكسـبت القضيـة وحصلـت عـلى موافقـة بالاعـتراف بشـهادة الثانويـة الألمانيـة - أفضـل دفعتنـا." كتبـت لي رسـالة عـبر الهاتف: "تقدمـت بشـكوى ضـد الأوغـاد." وبعـد مـرور أيـام قليلـة أرسـلت لي: "الآن سـتبدأ لـوسي!" حيـث اجتـازت اختبـار القبـول في جامعـة يوربيـان بيزينـس سـكول في منطقـة راينجـاو، جامعـة خاصـة التحـق بهـا فالـك أيضًـا. كافأهـا والداهـا بسـيارة مينـي كوبـر بلـون أحمـر صـارخ.

في أول أسـبوع لهـا في الدراسـة، انحرفت بالسـيارة مـن الطريق السريع وهـي في طريقهـا إلى الجامعـة بسـبب هطـول الأمطـار واصطدمـت بأحـد أعمـدة الجـسر. اسـتغرقت المطافـئ سـاعات حتـى تمكنـت مـن إخراجهـا

من حطام الميني كوبر. كانت واعية طول الوقت، نقلتها مروحية إنقاذ إلى المشفى الجامعي بفرانكفورت. فجأة دخلت في غيبوبة، وجاهد الأطباء لمدة يومين لإبقائها على قيد الحياة، لكن لوسي توفيت نتيجة إصاباتها الداخلية البالغة. قالت لي إستر عبر الهاتف:" هل ستعودين إلى المنزل لحضور الجنازة؟"

"نعم بالطبع، ماذا كنت تعتقدين؟"

كنت أنوي فعل هذا حقًا إلا أنني لم أسافر إلى هناك. اتصلتْ بي إستر عدة مرات بعد الجنازة قائلة: "لقد وعدتيني بالحضور! أنت أنانية. كيف لك أن تفعلي هذا بلوسي؟"

آنذاك كنت لا أغادر شقتي إلا في حالة الضرورة. الأشخاص الوحيدون الذين كنت أراهم بانتظام هم أخي وصاحب الكشك الذي كنت أشتري منه السجائر وساعي الطرود الذي كان يحضر لي طرود جدتي لورا والتي تشمل قهوة ومسحوق غسيل وعبوات حساء وزجاجات كوكا كولا صغيرة وعبوات مكرونة ماركة ميراكولي. أحيانًا تضع لي أيضًا صندوقًا من السجائر؛ عندئذٍ لا أحتاج إلى الذهاب إلى الكشك لبضعة أيام. أتم أخي دراسته بامتياز وعمل متطوعًا في إحدى الجرائد اليومية الكبرى والتحق إلى جانب هذا بمدرسة للتصوير الفوتوغرافي.

كان حلمه هو العمل مراسلًا في الخارج إلا أن الجريدة لم يكن لديها وظائف شاغرة ولا توكل هذا العمل لمتطوع. لذا سعى للحصول على عمل في جرائدَ أخرى وفي الإذاعة والتلفزيون، لكن الوقت لم يكن مناسبًا للصحفيين المبتدئين. عندما انتقلت للعيش معه في برلين عام 2004 كان قد بدأ للتو عمله مصورًا فوتوغرافيًا للمنتجات في شركة "يونيفرسال شوز". كان حصولي على عمل مسألة أكثر صعوبة. بدا أن نشر رواية يمثل عقبة في التقدم للحصول على وظيفة. عل كل حالٍ

لم أكن مؤهلة للكتابة عن أحذية البوت والأحذية وحقائب اليد، إلا أن أيكه بذل مجهودًا من أجلي لفترة طويلة حتى سُمح لي أن أقدم نفسي شخصيًا "ليونفيرسال شوز". حصلت على وظيفة كاتبة لوصف المنتجات في قسم "المحتوى" إلا أنهم كانوا يطلقون على أنفسهم هناك اسم "محرري نصوص الدعاية" لأن الاسم يبدو أفضل هكذا. كان معظم زملائي الجدد من خريجي العلوم الإنسانية ومنهم متخصص في علم اللاهوت وآخر في الدراسات الإنجليزية، وثالث حاصل على دكتوراة في الفلسفة، وعشرات من خريجي أقسام الدراسات الجيرمانية. لم يجد أي منهم عملًا في مجال تخصصه. كنت أنا المؤلفة الوحيدة وحذرني مدير شؤون العاملين بقوله: "الكتابة لا تشبه التأليف ولا نستطيع أن نستخدم الفنانين هنا؛ لذا فإن أقل تكلّف وتصنّع سيطيح بكِ من هنا."

كانت عبارة "سيطيح" مبالغًا بها. شغلت الوظيفة وأعطتني "يونيفرسال شوز" تكليفات العمل، حتى عندما كنت أجلس كل يوم من الصباح وحتى وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة في مكتبهم الكبير ولا أعمل لأحد سواهم. لم أُعيَّن، بل كنت حرة دون أن يكون لي حقٌّ في المطالبة بإجازة أو الحصول على بدل مرض وتأمين ضد الفصل من العمل بالطبع. لكنني قضيت كثيرًا من الوقت مع أيكه وكان هذا الأمر يروقني، كنا نعيش معًا. كانت شقته في شارع شونيرهاوزر كبيرة بالقدر الكافي لنا نحن الاثنين لسنوات طويلة. ثم تعرف على أليس وكان عليَّ الانتقالُ من شقته.

قلتُ: "كانت صدفة لا تصدق في الأساس، بل قد تكون معجزة أنني قابلتك مساءَ أمس. فأنا أكاد لا أغادر شقتي في نهاية الأسبوع على الإطلاق، لا أخرج ولا حتى أذهب إلى الحانة." كنت أفكر في النوافذ، في مطبخي، التي أتركها مفتوحة. ورفعت بصري إلى البناية العالية التي نقف أمامها.

قلت لي: "يجب أن أذهب الآن."

تمنيت أن أرفع حجرًا صغيرًا وآخذه معي، أو السيجارة التي وقعت من النافذة. كانت الحشائش الصفراء المدهوسة بالأقدام أمام البناية العالية مليئة بأعقاب السجائر، وهناك أكياس بلاستيكية معلقة في الشجيرات، وأكواب من الفوم، وكتيبات دعاية ممزقة. شجيرات الروان، وقطفت إحدى ثمار التوت الحمراء وأنا في طريقي. عندما تركتها تسقط في جيبي أمسكت بيدي وهززتها حتى تركت ثمار التوت.

"يا إلهي، ألا تعرفين أنها سامة؟"

حدقت بك.

سألتني عدة مرات: " ألا تعرفين هذا؟" لمست وجنتي لبرهة. هبت عاصفة باردة خلال الممر العامودي للبنايات العالية وحركت الشجيرات ورفعت أكياس البلاستيك وقطع الورق في دوَّامة وحركت شعري ناحية وجهي.

طوقت نصفي العلوي بذراعيّ. رفعت أنت رقبة معطفك لأعلى، لم يكن معي سترة، تجمدت. جذبت شالك كما لو أنك تريد خلعه؛ كي تعطيني إياه؟ ربطَّه بشدة وسألت: "إلى أين تريدين الذهاب؟"

"إلى محطة المترو تجاه ميدان بوتسدام."

"يقع حمام السباحة في الجانب الآخر، إذنْ ستفترق مساراتنا هنا." أعطيتني قبلة خاطفة على وجنتي في أثناء الوداع.

تتكوم صناديق الانتقال حتى السقف في ردهتي. قطع الأثاث في كل مكان. على الرغم من أن كل شيء يبدو تمامًا كما تركته إلا أن ثمة شيئًا بدا لي أنه تغير بين عشية وضحاها. هب هواء منعش نحوي، ذهبت للمطبخ وأغلقت النوافذ التي يقع مكتبي أسفلها. كان

جهاز اللاب توب يصدر أزيزًا هادئًا. سقطت بعض صفحات المُسوَّدة وأوراق بها ملاحظات على الأرض، عندما جلست القرفصاء كي أجمعها أصبت بدوار، لكن لم يكن الأمر سيئًا، بل مثل ما يحدث بعد رحلة طيران طويلة ليس مسموح فيها بالتدخين، وعندما تصير في الهواء الطلق وتتمكن في النهاية من إشعال سيجارة وتستند للوراء وتنظر إلى السماء وتأخذ نفسًا عميقًا - انساب دفء تحت جلدي، نوع من المخدر جعلني أشعر بكل شيء بوضوح أكثر. تمددت على الأرض، نظرت عاليًا إلى السقف، بدت زخارف الجبس تتحرك بعض الشيء مثل أعواد وأوراق تنساب بينها رياح هامسة خفيفة.

زال الدوار بسرعة بالغة. أرضية الردهة يابسة وباردة.

ثمة مذاق سيء في فمي، عيناي ملتهبتان، ثم انتشر تعب شديد بداخلي. جمعت شتات نفسي وجمعت الأوراق المبعثرة. كان هناك لوح ممغنط بطول إنسان بجوار مكتبي مليء بصور أبيض وأسود مطبوع فوقه شعار "يونيفرسال شوز". تعود الصور الفوتوغرافية لشقة عمي جورج، كانت مخفية في حافظة أسفل الخزانة. أخذت اللوح الممغنط معي في حفل الشركة وتمكنت من المرور به على كل الزملاء وأنا أحمله، لم يحاول أحدٌ أن يوقفني. أعتقد أنهم لم يلفت انتباههم بالمرة.

أو لو كنت تركت لي ثمار الروان على الأقل.

لا أعرف حتى لقبك.

لكني ما زلت أحتفظ بتذكرة المترو، بختم التاريخ والساعة. إلى جانبها دونت اسم "كونستانين"، ترددت لبرهة وأضفت كلمة "كونستي". بين قوسين، ثم علقت التذكرة على اللوح الممغنط.

(14)

كان لـدي زميلـة في المقعـد في المدرسـة الابتدائيـة اعتـادت تقديـم الهدايـا لي. كانـت تريـدني أن آخـذ ممحاتهـا ذات اللـون الـوردي، تضـع لي بمـلء يدهـا حلـوى الدببـة المطاطيـة وتعطينـي الشـوكولاته خاصتهـا. كانـت تُدعـى (سـفينا) قصـيرة ونحيفـة ووجهـا شـاحب ومـليء بالنمـش وشـعرها أشـقر يميـل إلى البيـاض. كنـت أسـميها سرًا "حمقـاء". كنـت أعيـد لهـا هداياهـا دائمًـا، كانـت تبـكي أحيانًـا بسـبب ذلـك. ذات مـرة قفـزت في منتصـف الحصـة وسـارت بـين الصفـوف ناحيـة سـلة المهمـلات وتقيـأت، عـلى الرغـم مـن أننـي لم أكـن مسـؤولة عـن ذلـك بـل فـيروس أصـاب كل مـن في الصـف؛ راودني شـعور بتأنيـب الضمـير ومنـذ ذلـك الحـين وأنـا أقبل هداياهـا. بعـد مـرور بعـض الوقـت بـدأت تكتـب لي رسـائل بخطـوط مائلـة بلـون وردي وترسـم قلبًـا سـميكًا بـدلًا مـن كل نقطـة فـوق حـرف "i".

أمسكت أمي بالأوراق من حقيبتي المدرسية وقت الظهيرة وقرأتها عليَّ بجبين مقطب: ألن تلعبي معي اليوم؟ أو: هل يمكن أن أكون صديقتك؟

أزعجني أنّ سفينا لا تدعني وشأني. رأت أمي أنه يجب أن استسلم وأن أدعوها للعب ذات مرة، ربما ينتهي هذا الكابوس قريبًا. لم أستطع، كان ثمة شيء في سفينا لا يجعلني متعاطفة معها لدرجة أنني لا أتحمل الفكرة.

على الرغم من أن درجاتها كانت أسوأ مني، إلّا أنّ معلمة الفصل تثني عليها. كانت تدعي السيدة "روزينموللر" كانت سمينة للغاية، ترتدي سلاسل ضخمة من حجر الكهرمان وأقراطًا كبيرة بحجم قبضة اليد وشعرها أحمر يميل إلى اللون البرتقالي يصل إلى خصرها. أسر لي أحد زملائي في الفصل في فناء المدرسة أنّ مؤخرة السيدة روزينموللر عريضة لدرجة أنه يستطيع أن يعزف البيانو عليها. عندما كانت تندس بين صفوف التلاميذ يجد نفسه يفكر في هذا الأمر، ثم يشعر بوخز منتظم في أصابعه كي يجرب هذا.

على الرغم من استحالة أن تتمكن السيدة روزينموللر من سماع هذا حصل فجأة على درجات سيئة وكان يُرسَلُ إلى المدير لأبسط الأمور. بعد ثلاثة أشهر كان على والديه أن ينقلاه من المدرسة. بعد ذلك صرت مقتنعة أن السيدة روزينموللر قادرة على قراءة الأفكار؛ بمجرد أن تدخل إلى الفصل كنت أحاول التوقف عن التفكير في أي شيء. لكن سفينا كانت تنظر إلى السيدة روزينموللر بفمٍ مفتوح وعينين لامعتين عندما كانت تندس بين صفوف التلاميذ وتصدم مقاعدنا بمؤخرتها. همست لي قائلة: "لديها شعر جميل للغاية" أو: "هل رأيت قرطيها الرائعين؟ أعتقد أن هناك حيوانًا صغيرًا في القرط الأيمن؛ ربما حشرة؟ حسنًا أنا، أحب حجر الكهرمان، وهل أنت أيضًا؟"

قطبـت عينـي وضممـت فمـي ورفعـت كتفـي لأعـلى، ضممـت قبضتَـي يـدي وجاهـدت في طـرد كل أفـكاري. ربمـا أسـقطت سـفينا ورقتهـا أيضًـا. أسـعد أوقاتهـا عندمـا تظـل السـيدة روزينمولـر واقفـة بجوارهـا وتعطيهـا الإمـلاء الملطخـة باللـون الأحمـر مـن أعـلى لأسـفل.

"أنـت مرشـحتي للرسـوب في المرحلـة الابتدائيـة، سـفينا. إذا اسـتمر أداؤك عـلى هـذا المنـوال فـإن حياتـك سـتنتهي حتـى قبـل أن تبـدأ."

نظـرت سـفينا بعنيـين كبيرتـين دامعتـين إلى السـيدة روزينمولـر: "أريد أن أحسـن نفسي حقًـا، مـن فضلـك اشرحـي لي مـا فعلتـه خطـأ." تنهـدت وعلقـت شـفتيها بمقدمـة لسـانها عندمـا انحنـت السـيدة روزينمولـر فوقهـا وشرحـت لهـا كل خطـإٍ عـلى حـدة.

في المقابـل أغضبتهـا كل الأخطـاء التـي ارتكبتهـا. بمجـرد أن استعدت إمـلائي الملطخـة بالأحمـر ووضعـت الدفـتر في الحقيبـة في صمـت ودون أن أنظـر لهـا نظـرة واحـدة كانـت ترجـوني بقولهـا: "دعينـي أشرح لـك." كنـت سـيئة في اللغـة الألمانيـة، لم أكـن قـادرة عـلى القـراءة بشـكل صحيـح وأنـا في الصـف الرابـع في العـاشرة مـن العمـر. فبمجـرد النظـر إلى كتـاب تبـدأ عينـاي في الالتهـاب ومجـرد أن أفتحـه أرتعـش وتصـير رأسي فارغـة.

عندمـا كانـت تدربنـي أمـي بعـد المدرسـة كانـت تـصرخ قائلـة:" قطـة!" "هنـا، قطـة!"

كان اسـم الكتـاب الـذي يحصـل عليـه الجميـع للتدريـب هـو "تعليـم القـراءة للمبتدئـين" وكنـت الوحيـدة التـي لم تتخلـص منه لسـنوات طـوال. كل مسـاء كانـت أمـي تقـرأ لي مـرارًا وتكـرارًا نفـس النـص:

"تقول أوته: انظر، يا أوفه!

يقول أوفه: ما الأمر، يا أوته؟

تقول أوته: انظر! قطة، يا أوفه"

أستطيع أن أسرد ما في الكتاب عن ظهر قلب، كان يحوم برأسي دومًا، حتى إنني كنت أحلم به، لكن قراءته فهو أمر لم أقدر عليه.

عندما كانت أمي تسند ظهرها من التعب وتشعل سيجارة بتنهيدة، كم تمنيت أن آخذ القدّاحة من يدها وأضرم النيران في كتاب تعليم القراءة حتى تلتهمه ألسنتها.

كانت السيدة روزينموللر تنادي عليَّ في حصة اللغة الألمانية أحيانًا. كان علي أن أقف والكتاب في يدي، لأن هكذا يُقال إنه يمكن الحديث بحرية أكثر، وأقرأ على الصف بصوت عالٍ. ثم وضعت الحمقاء ذراعيها على الطاولة وأخفت وجهها، تنهدت وتثاءبت وعندما سمحت لي بالجلوس مرة أخرى أمسكت يدي وضغطت عليها. حصلت على حلوى الدببة المطاطية أو سكاكر. كانت الحمقاء تسمي هذا مواساة وتنظر إليَّ بعينين حزينتين وتهمس إذا استمررنا هكذا فسينتهي بنا المطاف إلى المدرسة العامة.

كنت أكرهها.

ثم جاء ماكسميليان إلى فصلنا وصار زميلي الجديد في المقعد. لم يتمكن من اجتياز فترة الاختبار في المرحلة الثانوية العليا وكان عليه العودة إلى الصف الرابع لأن والديه لا يريدان إرساله إلى المدرسة الثانوية المتخصصة. عرفته عندما رأيته، كان في الفصل الموازي لفصل أخي. بمناسبة وداعهم قبل العطلة الصيفية قدم فصلي عرضًا مسرحيًا الذي وقف ماكسميليان في نهايته وقال بصوت عال: "صغاري الأعزاء، مع السلامة يا تلاميذ المرحلة الابتدائية، لن نلتقيَ مجددًا!"

ها هو قد عاد مرة أخرى. تصورت أن هذا جحيم بالنسبة له بالتأكيد لكنه بدا وكأنه يتعامل مع الأمر ببساطة.

في أول يـوم لـه في المدرسـة حيّتْـه السـيدة روزينموللـر قائلـة: "كي تكـون الأمـور واضحـة مـن البدايـة؛ أعـرفُ عنـك كلَّ شيء، ماكـس. وإذا كنـت تعتقـد أنـك تسـتطيع أن تلعـب هنـا دور المهـرج كـما كنـت تفعـل في فصلـك الأسـبق فأنـت مخطـئ؛ لـن أسـمح بحـدوث هـذا، هـل فهمنـا بعضنـا؟"

هـبَّ ماكسـميليان واقفًـا وحيّاهـا قائـلًا:" تمـام، سـيدي. فهمـت، سـيدي."

كان عـلى الجميـع الضحـك؛ الأمـر الـذي تبعـه عمـل عقـابي مـن السـيدة روزينموللـر في الحصـة التاليـة وكتابـة إمـلاء دون إعـلام مسـبق.

كان وجـه ماكسـميليان مسـتطيلًا بحـواف، كانـت شـفتاه رفيعتـين، وأنفـه مدببـة. لـه بـشرة باهتـة ومـن الممكن رؤيـة أوردتـه الزرقاء في رأسـه مـن خـلال شـعره الأشـقر الحليـق. تصـورت أنـه يبـدو مثـل سـجين هـارب. كان معتـادًا عـلى ضغـط يـده عـلى الطاولـة كـما لـو أنـه يريـد اتخـاذ وضـع الاسـتعداد ويهـب واقفًـا في اللحظـة التاليـة. كان ينقـر بقدميـه دومًـا كـما لـو أن الأمـور لا تسـير بالسرعـة الكافيـة بالنسـبة لـه. لكـن عندمـا كنـت أنظـر إليـه كان يتوقـف عـن النقـر ويميـل برأسـه ويبتسـم. كانـت عينـاه دافئتـين بلـون بنـي ذهبـي مثـل لـون العسـل الداكـن.

كانـت الحمقـاء جالسـة خلفـي وكان عليهـا أن تنقـر عـلى كتفـي أو تضفـر لي ذيـل حصـاني كي ألتفـت إليهـا وآخـذ أوراقهـا الصغـيرة أو هداياهـا. كان ماكسـميليان يسـعد بهـذا ويفتـح يـده. وضعـت بهـا إحـدى حلـوى الدببـة المطاطيـة، ألقاهـا لأعـلى في الهـواء واسـتند للخلـف وتركهـا تسـقط في فمـه.

كان يقـرأ الأوراق الصغـيرة في فنـاء المدرسـة بصـوتٍ عـالٍ قائـلًا:" هـل سـنلعب لعبـة القفـز في فـترة الراحـة؟" أو:" هـل تحبـين شـطيرة النوتيـلا؟ إذن سأشـاركك شـطيرتي!"

ذات مـرة التففنـا جميعًـا حولـه وقـرأ: "مرحبًـا أنّـا، للأسـف يجلـس ماكـس بجـوارك الآن، أفتقـدك!" حـك خلـف أذنـه، هـز رأسـه ثـم اسـتطرد قائـلًا كـما لـو أنـه يُلقـي قصيـدة شـعرية: "حبيبتـي أنّـا، قلبـي محطـم، أنـا أحبـك بشـدة، وأنـت لا تلاحظـين. أي بحـر هـذا وأي سـماء تلـك التـي تنعكـس في عينيـكِ كي تكـون زرقـاء بهـذه الروعـة، حبيبتـي. كـم أتمنـى ألا تمـدي للأفـق البعيـد بـصرك، أتمنـى أن يلمسـني نظـرك."

في البدايـة اعتـبرت القافيـة مزحـة وضحكـتُ مثـل الآخريـن، لكـن فجـأة نظـر نحـوي ماكسـميليان وكـوَّن بشـفتيه عبارة."حبيبتـي أنّـا." جذبـت منـه الورقـة وحدقـت بالكلـمات الموجـودة بهـا. كانـت قليلـة، قليلـة للغايـة بالنسـبة لقصيـدة كاملـة. جـف فمـي واشـتد خفقـان قلبـي عندمـا بـدأ ماكسـميليان في الضحـك، هـل كتـب هـذا الشـعر مـن أجـلي؟ هـل كان يقصـدني أنـا حقًـا؟

عندمـا دق جـرس انتهـاء فـترة الراحـة عدنـا إلى الفصـل جنبًـا إلى جنـب.

جلسـنا بجـوار بعضنـا في صمـت، وخزتنـي بطنـي، كل مـرة يتحـرك فيهـا بجانبـي كنـت أحبـس نفسـي عـلى أمـل أن تصـدم ركبتـه ركبتـي أو يلامـس كتفـه كتفـي.

عندمـا غادرنـا المدرسـة وقـت الظهـيرة مشـيت خلفـه. كنـا نسـلك نفـس الطريـق إلى المنـزل، لكننـا لم نـسِر فيـه معًـا مـن قبـل. تقـدم ماكسـميليان بسرعـة. لحقـت بـه وربّـت عـلى ذراعـه مبتسـمة.

لم ينظـر إليّ بالمـرة وقـال: " مـاذا تريديـن؟" لا تظنـين أننـا سـنصبح أصدقـاء، يـا صغـيرتي. أنـتِ صغـيرة جـدًا بالنسـبة لي."

" أنا في العاشرة."

" وأنا أوشكت على الثانية عشر. بينهما عوالم."

" أعجبتني قصيدتك."

"كانت مزحة."

تلعثمت قائلة:" أحب مزاحك."

لم يقل شيئًا آخر وعندما واصلت السير بجانبه على الرغم من ذلك، غيّر جانب الطريق.

كنت غاضبة ومحبطة للغاية لدرجة أنني حبست نفسي في غرفتي بالمنزل وألقيت نفسي في الفراش ولم أعد راغبة في رؤية أي شخص. طرقت أمي الباب مرارًا وتكرارًا لكن عندما عاد والدي مساءً إلى المنزل وتوعد أن يركل الباب إذا لم أجعله يدخل على الفور فتحته. احتضنني وحكيت له عن ماكسميليان وأنا أنتحب.

قال: "يا إلهي، بالتأكيد هو صغير أسرة بيكمان كلاجين. أعرف الأسرة. بيكمان الكبير أي جد ماكسميليان، دفنته، كان رجلًا لطيفًا، تاجرًا من الطراز القديم - لكن بقية الأسرة..." انتظرت أن يحكي أكثر لكنه هزَّ رأسه. ثم وقفت أمي بالباب. سألت: "أليسوا هم تجار السجاجيد الصغيرة؟"

خطر ببالي على الفور الإعلان الإذاعي" سجاجيد شرقية على مساحة ثلاثة طوابق، في شارع فيلهلمشتراسيه لدى بيكمان كلاجين!" كان يتم نطق الجزء الثاني من الاسم بلهجة ولاية هيسن " كلاچين" حتى يناسب نطق كلمة "طوابق" باللغة الألمانية "إتاچين". قالت أمي إنها كانت شركة عائلية من أهل البلد، كانت مؤسسة تقع في أغلى شوراع التسوق بالمدينة. وتضاء ثريات بلورية عملاقة خلف نوافذ العرض ذات الإطارات الذهبية. وكانت سجاجيد متعددة الألوان تغطي الأرضية والجدران.

قال والدي: "إنهم أشخاص باردون للغاية وسطحيون." وأضاف: "الوالدين وبالتأكيد الصغير أيضًا." مسح على وجنتي ومسح دموعي

بأطراف أصابعه وقال: "أنتِ فتاة رائعة وذكية، يا أنّا، وأنا متأكد أن ماكسميليان سيرى هذا." على الرغم من أنه لم يقصدك. لم تكن القصيدة لكِ. أراد أن يجذب انتباهكم. استخدمك كي يصبح في بؤرة الاهتمام."

ألقيت لأمي نظرة توسل وتمنيت منها أن تعارض أبي لكنها هزت كتفيها وقالت: "لا أعرف الصبي." عندما بدأت في البكاء مجددًا جذبني والدي إلى ذراعه وهمس قائلًا: "يوسفني هذا لكننا نريد أن ندعمك فحسب، وقالت أمي: "الحقيقة تؤلم أحيانًا."

لم أستطع النوم طوال الليل كله، حدقت في ميل السقف فوق فراشي ورأيت ماكسميليان أمامي. هاتان العينان العسليتان، ابتسامته، يده التي فتحها كي أضع فيها قطعة الحلوى. حتى نقر قدميه بدا لي رائعًا فجأة، لِماذا لا يمكن أن نكون أصدقاء؟

في الصباح التالي سار ماكسميليان في طريقه إلى المدرسة أمامي. لم يُلق التحية عليَّ وتصرف كما لو أنه لا يريد أن يسمعني عندما ناديت عليه. جريت نحوه وأمسكته من ذراعه وقلت له:" ماذا بك؟"

خلّص نفسه وقال:" دعيني أيتها الصغيرة، لا أريد أن يراني أحد مع تلميذة في المرحلة الابتدائية."

كان هو نفسه تلميذًا في المرحلة نفسها. عضضت على لساني. أضاف قائلًا بصوت أكثر تصالحًا: "نستطيع أن نتحدث في المدرسة مرة أخرى." تركت نفسي أسير خلفه، تصورت أنني سأبكي مجددًا من الغضب، لكن هذه المرة لم تسقط دموعي، عقدت العزم ألا أتكلم مع ماكسميليان مجددًا.

عندما أهدتني الحمقاء حلوى الدببة المطاطية فتح ماكسميليان يده مرة أخرى، تجاهلته ووضعتها في فمي.

نقر بقدميه، دفعني بمرفقه وقال:"هيا، لا تكوني عابسة هكذا."

التففت بعيدًا ونظرت من النافذة التي من خلالهَا أستطيع رؤية قلعة زونينبيرج ببرجها الرمادي ذي الحواف. حدقت بها، شعرت كيف أنها تنقل لي شيئًا من قدرتها الدفاعية. في وقت ما سأقف هناك أعلى وأسكب الشاي الساخن فوق المدرسة وماكسميليان. راقتني الفكرة.

صفقت السيدة روزينموللر بيديها وقالت: "لا تحلمي، يا أنّا." ارتعدت واستعدت تركيزي ثانية في ألا أفكر في أي شيء.

عندما ذهبت إلى الممر لفترة وجيزة في أثناء قيامنا بتكليف في صمت سمعت قهقهة. جلس ماكسميليان على مكتب المعلمة في المقدمة، لم ألحظ أنه قد وقف. جيد جدًا، لايهمني. انشغلت بدفتر الحساب. تزايد عدد الأشخاص الضاحكين. نظرت إليه مرة أخرى، وفتح حقيبة السيدة روزينموللر وأخرج حافظة طعام الغذاء خاصتها، عبارة عن برج يتكون من عدة رفوف متراصة فوق بعضها ببعض تحفظ عدة محابس من تماسكها. كنت أعرف هذا الأمر وحاولت التركيز على الحساب مرة أخرى. صوت طقطقة؛ فتح ماكسميليان برج الطعام. كان لديه مقبض من الممكن حمله منه مثل حقيبة يد. رأيت السيدة روزينموللر تذهب به غالبًا عبر الممر وتختفي في حجرة المعلمين، لم تأكل أمامنا أبدًا.

فتح ماكسميليان عينيه على آخرهما وحدق بانزعاج واضح في القسم الأعلى وجذب بعضًا من مقانق الفينر فورتسشن، ثم الثاني والثالث والرابع؛ ثمانية مقانق إجمالًا رصهم على المكتب. في الرف الثاني كان يوجد كرات من اللحم؛ أربع قطع. انتشرت رائحة الثوم والكمون في الفصل. عندما فتح ماكسميليان الرف الثالث نظر نحوي، أخفضت نظري، وصاح قائلًا: " كعكتان برلينر!" " مليئة بشراب السكر."

ضحـك الآخـرون، وضعـت قلمـي عـلى الورقـة وحسـبت. جمـع ماكسـميليان الطعـام وانزلـق عائـدًا إلى طاولتنـا بحـركات ناعمـة وبـلا صـوت. لم يسـعني سـوى التفكـير في ثعبـان.

همـس قائـلًا: "ليـس غريبًـا أن تكـون السـيدة روزينموللـر سـمينة هكـذا."

لم أقـل شـيئًا، كـدت أن أتمنـى اسـتعادة الحمقـاء كي تكـون رفيقتي في المقعـد.

في طريـق العـودة إلى المنـزل، مشـيت بصمـت خلـف ماكسـميليان. هـل سـيقف ويتحـدث معـي؟ هـل سـيعتذر ويقـول إنني لسـت صغـيرة للغايـة؟ لم يفعـل، لا يقـترب منـي سـوى في الفصـل وفي فنـاء المدرسـة. أينـما أذهـب أجـده إلى جـواري حتـى نغـادر المدرسـة. عندئـذٍ أصبـح أشـبه الهـواء بالنسـبة لـه. سـارت الأمـور عـلى هـذا المنـوال أسـابيع طويلـة. كان يقـوم بعمـل مزحاتـه، وأنـا لا أتحـدث معـه بكلمـة واحـدة. كانـت أمـي تـرى هـذا اسـتراتيجية جيـدة. قالـت: "تـصرفي كـما لـو أنـه غـير موجـود." بذلـت أقـصى مـا في وسـعي وشـعرت بـألم. كان أحمـق، بـلا شـك، عـلى الرغـم مـن ذلـك كنـت أحبـه. أكـدت لي أمـي أن الأمـر سـوف يمـر.

دعـوتُ سـفينا لزيـارتي في المنـزل. جابـت غرفتـي وأعجبـت بألعـابي، قالـت: "هـذه أجمـل دميـة بـاربي رأيتهـا مـن قبـل." أعـادت الدميـة وأمسـكتني مـن شـعري، قالـت:" أنـت عـلى نفـس القـدر مـن الجـمال الشـديد يـا أنّـا، كـم أتمنـى أن نكـون أفضـل قليـلًا في المدرسـة."

سعدت برحيل سفينا.

ثـم في يـوم جمعـة مشـمس طالبتنـي السـيدة روزينموللـر في حصـة اللغـة الألمانيـة بقولهـا: "أنّـا، اقـرئي الفقرتـين: صفحـة ثلاثـة وعشريـن أمـام الجميـع."

توقف قلبي عن الخفقان، همستُ: "لا أستطيع."

لوّحت السيدة روزينمولر بيدها قائلة: "هيا، قفي، تنفسي بعمق، ثم قدمي لنا ما لا تستطيعينه." كان قرطاها يتلألأن وتسببت الأحجار الكبيرة ذات اللون الكهرماني لسلسلتها في انكسار شعاع الضوء وإلقائه على الجدران.

وقفت ببطء، فتحت كتاب "تعليم القراءة للمبتدئين" الرابع بيدين مرتعشتين وتصفحت الصفحة العاشرة، الثانية عشر، الثالثة عشر ...

همستُ: " أي صفحة؟"

تثاءب ماكسميليان وتمغط.

قالت السيدة روزينمولر بعصبية: "ثلاثة وعشرين"

أربعة عشر، خمسة عشر، سته عشر ... لماذا لا تكلف أحدًا غيري؟ تأوهت سفينا بهدوء، تعاطفت معي مرة أخرى، بدأ ماكسميليان النقر بقدميه بعصبية.

سألت السيدة روزينمولر: "هل ستبدئين؟"

تصببت عرقًا، احمرّ وجهي، انزلقت أصابعي من الصفحات الملساء ذات الغلاف اللامع. فجأة صارت السيدة روزينمولر واقفة أمامي مباشرة، نزعت مني الكتاب، فتحته على الصفحة الصحيحة وضغطته في يدي.

"هيا، اقرئي. أنت في العاشرة، يجب أن ينتهي هذا الأمر في وقتٍ ما." سارت بين مقاعد التلاميذ عائدة إلى مكتبها. تمكنتْ من سماع حفيف ملابسها، حاولت التركيز على النص. حدّقت في الكتاب، أعمدة من الأحرف لا نهاية لها تمتد من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل في كل الصفحة. " كاااا. " اللعنة، ما هذا؟ قابلت نظرتي نظرة ماكسميليان لبرهة الذي نظر إليّ متسائلًا. لم يعايش شيئًا مثل هذا

مـن قبـل، لم يعـرف ... امتـلأت عينـاي بالدمـوع، حاولـت أن أرمـش بعينـي لأبعدهـا.

صاحـت السـيدة روزينمولـلـر مـن مكتبهـا قائلـة: "بصـوت أعـلى، أنّـا."

قلـت: كان ..." تلعثمـت وشـعرت كيـف حـدق ماكسـميليان بي. "كا كااااان هنـا...." مـال تجاهـي في هـدوء وهمـس لي قائـلًا: "كان هناك"سـاحر شريـر."

ارتعش صوتي عندما قلت وراءه.

قالـت السـيدة روزينمولـلـر:" أنّـا، نحـن لا نسـمعك." أسـندت رأسـها للـوراء بهـدوء وأغلقـت عينيهـا كـما لـو أنهـا تسـتمتع بالقـراءة.

صحت قائلة:" كان هناك ساحر شريرا!"

همـس ماكسـميليان قائـلًا:" صنـع مـرآة ذات يـوم..." كـررت مـا قالـه بصـوتٍ عـالٍ: "صنـع مـرآة ذات يـوم..."

" ... كل ما هو جميل وطيب ..."

" ... كل ما هو جميل وطيب ..."

" ... عندما ينعكس بداخلها ..."

" ... عندما ينعكس بداخلها ..."

" ... ينكمش ويبتسم بقبح ..."

" ... ينكمـش ويبتسـم بقبـح ... في حـين أن مـا لا يصلـح لـشيء، يظهـر بوضـوح ويبـدو جيـدًا."

غمغمــت السـيدة روزينمولـلـر وهــي لا تــزال مغمضــة عينيهــا: "جميـل جـدًا." ذاكـرت دروسـك بجديـة، يروقنـي هـذا. واصـلي القـراءة مـن فضلـك، يـا أنّـا."

فجـأة صـدر صـوت شـديد، هبّـت سـفينا واقفـة وقلبـت كرسـيها. وقفـت خلفـي وهـي ترفـع ذراعهـا وأصـدرت طقطقـة بأصابعهـا، صاحـت بانفعـال قائلـة: " لم تذاكـر أي شيء؛ ماكـس هـو مـن يقـرأ لهـا." "ماكـس يقـرأ لهـا! لا تـزال غـير قـادرة عـلى القـراءة."

عندئذ التف ماكسميليان ومسكها من شعرها.

قـال لهـا: "وهـل تريديـن أن تصبحـي صديقتهـا؟" جـذب رأسـها إلى الأمـام، تعـثرت واصطـدم وجههـا بالطاولـة، صـدر صـوت طقطقـة. سـاد الهـدوء الشـديد للحظـة واحـدة. ارتفعـت سـفينا لاهثـة. كانـت الدمـاء تسـيل مـن فتحـة أنفهـا اليـسرى. كـم كان داكنًـا، بـدا أسـود عـلى بشرتهـا الباهتـة. فجـأة، كـما لـو أن سـدًا قـد انكـسر وخرجـت موجـة عارمـة وبـدأ الجميـع يصيحـون حـولي.

(15)

جلسنا على مقعد خشبي أمام مكتب المدير. اصطحبتنا السيدة روزينموللر نحن الاثنين إليه على الفور، وصفتني بالغشاشة الوقحة وماكسميلان بالمهاجم العنيف. كانت كنزته ملطخة بدماء سفينا.

انفجر المدير غضبًا بقوله دون أن يلتفت إليَّ: "بيكمان كلاجين، أتعتقد أنه مسموح لك القيام بكل شيء."

علمني والداي أن أصر دائمًا على أن يتم الاتصال بهما حال وقوعي في مشكلات. ثم لا يجب أن أنطق بكلمة وأنتظر حتى يأتيا لمساعدتي. لم أتعرض إلى مشكلات من قبل، لكني وأنا في مكتب المدير فكرت على الفور أن أقول بصوت مرتعش قليلًا وأنا أضم ذراعي أمام صدري: "من فضلك اتصل بوالديَّ أولا، ليس مسموحٌ لنا بالحديث معك قبل مجيئهم إلى هنا."

نظـر إليَّ ماكسـميليان في دهشـة وابتسـم عندمـا أشـار إلينـا المديـر بالخـروج قائـلًا: "اجلسـا هنـاك في الخـارج! إذا سـمعت همسـة واحـدة منكـما فسـوف تريـان!"

دقَّ جـرس فـترة الراحـة. فُتحـت أبـواب الفصـول وخـرج التلاميـذ. أبطـأوا مـن مشـيتهم عندمـا رأوني "أنّـا وماكسـميليان" جالسـين عـلى المقعـد، كانـوا يحدقـون لبرهـة ثـم يواصلـون العـدو بسرعـة. لم يسـأل أحـد أو لم يقـل لنـا أحـدٌ شـيئًا.

صـارت الردهـة خاويـة. كان وقـع الخطـوات الأخـيرة عـلى الـدرج. كانـت ضحـكات بصـوت خفيـض وصخـب تنبعـث مـن الفنـاء.

لم ننظـر أنّـا وماكسـميليان لبعضنـا بعضًـا، تسـاءلت في هـدوء: "مـا اسـم تلـك الحكايـة الخرافيـة؟"

قال: " ملكة الثلج، لأندرسين، ألا تعرفينها؟"

هززت رأسي.

ضحك في هدوء وقال:" كان جميلًا وحزينًا."

" السـاحر الشريـر - كـسر مرآتـه، وانتـشرت الشـظايا في العـالم كلـه. إذا أصبتـك إحداهـا، سـترين كل شيء معكوسًـا، سـترين الخطـأ في شيء واحـد. لكـن أسـوأ مـا في الأمـر هـو إذا أصابـت شـظية قلبـك فسـتحوله إلى قطعـة ثلـج ولـن تتمكنـي مـن الشـعور بـشيء جميـل بعـد ذلـك، ألا تعرفـين هـذه الحكايـة حقًـا؟"

هـززت رأسي مجـددًا، شـعرت أني مصدومـة بعـض الـشيء. قـال ماكسـميليان:"كتب أندرسـين حكايـات مخيفـة للغايـة." الفتـاة والأخشـاب الرصاصيـة، شـجرة عيـد الميـلاد التـي تـأبى المـوت، أحبهـا جميعًـا." وضـع يـده في جيـب بنطالـه وأخـرج زجاجـة صغـيرة وفتحهـا. سـألها:" أتريديـن؟"

أكان هـذا خمـرًا؟ هـزت رأسي، تجرعهـا مـرة واحـدة ودسـها في جيبـه مـرة أخرى.

سألها:" هل معك علكة؟"

" ليس معي سوى قطعة حلوى واحدة."

وضعها في فمه، أسند رأسه على الحائط وأغلق عينيه.

"ماكسميليان؟"

همهم قائلًا:" نعم؟"

" هل نحن صديقان الآن؟"

ابتسم وعيناه مغلقتان: "ستتم الإطاحة بي من المدرسة، يا حلوتي."

ارتعـدت، صدمتنـي كلماتـه كأنهـا لكمـة. لم أتصـور أن يُطـرد. كل هـذا ذنبـي أنّـا. قـال وكأنـه يقـرأ أفـكاري:" الأمـر ليـس سـيئًا، سـأذهب إلى مدرسـة جديـدة. هـذا يليـق بي، لا أسـتطيع تحمـل الخونـة."

همست: "ولا أنّا أيضًا."

لـف رأسـه تجاهـي ونظـر إلي بعينـين نصـف مغلقتـين، ابتسـم وقـال: "نحـن صديقـان." أمسـكتُ يـده فضغـط عـلى يـدي. عندئـذ سـمعت وقـع خطـوات عـلى الـدرج؛ الخطـوات السريعـة الطائـرة هـي خطـوات أمـي التـي تصعـد دائمًـا درجتـي سـلم مـرة واحـدة، أمـا الخطـوات الثقيلـة التـي تـدق الأرض فهـي لأبي الـذي لحـق بهـا ببـطء. أسرع والـداي في خطاهـما بالردهـة. احتضنتنـي أمـي، وتوجـه أبي إلى غرفـة المديـر، أوصـد البـاب خلفـه وبـدأ في الزمجـرة عـلى الفـور.

نظرت إليَّ أمي وقلت لها: "لم يرد ماكسميليان سوى أن ..."

أشـارت لي بقولهـا: "سـكوت، لــن يفيـد هــذا الآن، تسـتطيعين أن تحــكي لنــا الأمــر لاحقًــا في هــدوء."

صَمْتٌ!

ثـم انفتـح البـاب مـرة أخـرى، خـرج أبي مـع المديـر الـذي أومـأ لي برأسـه قائـلًا: "تـم حـل الأمـر، يـا أنّـا. تسـتطعين الذهـاب." خلصـت نفسي مـن ذراع أمـي، بـدأت مجـددًا في قـول: "لم يـرد ماكسـميليان سـوى أن..." لكـن أبي ربّـتَ عـلى رأسي وقـال: "دعينـا نتحـدث في الأمـر في المنـزل."

وضعـت أمـي ذراعهـا حـولي مـرة أخـرى وجذبتـي معهـا. رن جـرس انتهـاء فـترة الراحـة، امتـلأ درج المدرسـة بصـوت شـديد عندمـا عـاد مئـات التلاميـذ إلى فصولهـم ومـلأوا الردهـة في شـكل طوابـير. مـرة واحـدة وجدنـا أنفسـنا محاطـين بأطفـال. تحركـت أمـي بينهـم بـلا خطـأ. التفقـت مـرة أخـرى عنـد الـدرج وشـاهدت صديقـي جالسًـا عـلى المقعـد وحـده خفيض الـرأس، ثـم وقـف شـخص أمامـه واختفـى ماكسـميليان.

قالـت أمـي: "سـنزيد فـترة التدريـب عـلى القـراءة سـاعة كل يـوم؛ أداؤك الـسيء هـو مـا يجعلـك عرضـة للهجـوم. لـن يكـون مسـموح لـك الآن بـأي شيء ولا بالأصدقـاء الزائفـين. عندمـا تحصلـين عـلى درجـات جيـدة ولا يسـتطيع المعلمـون أن يعاقبـوك ستسـتطيعين القيـام بمـا يحلـو لـك. ثـم لـن يسـتطيع أحـد أن يضايقـك، أبـدًا، وسـيكون مسـموح لـك اختيـار أصدقائـك بنفسـك مـرة أخـرى. لكـن حتـى ذلـك الوقـت انـسي هـذا الصبـي وذاكـري دروسـك. هـل فهمـت؟ أنّـا، هـل تنصتـين إليّ؟"

عـادت سـفينا للجلـوس بجانبـي مـرة أخـرى، لكنهـا لم تعـد تعطينـي هدايـا. بـل العكـس، عندمـا كنـت ألتفـت إليهـا كانـت ترتعـد وتبعـد بصرهـا سريعًـا كـما لـو أنهـا خائفـة مـن أن أصيبهـا بمكـروه. عـلى الرغـم مـن ذلـك كنـت أظـل وحيـدة في الفنـاء في فـترات الراحـة. كان الجميـع يعاملونني باحترام لكنهـم كانـوا يبتعـدون عنـي بمسـافة كبـيرة في الوقـت نفسـه. سـمعتهم يتهامسـون قائلـين: "هـذه صديقـة بيكـمان كلاجـين." إذا صدمـت أحـدًا بالصدفـة عـلى الـدرج سرعـان مـا يعتـذر لي. وذات مـرة

ناداني أحد بقوله: " فلتلقِ التحية على ابن المليونير، كيف تبدو فيلته؟" عندما التفتُ لم أرَ أحدًا ولم أستطع معرفة من قال هذا. المرة الأخيرة التي رأيت فيها ماكسميليان كانت أمام مكتب المدير، إذْ لم يأتِ للمدرسة ثانية بعدها.

ثم في صباحٍ باردٍ وممطرٍ من شهر مايو - كان لدينا حصة رسم وكان علينا رسم قلعة زونينبيرج التي توارى برجُها الدفاعي الرمادي خلف اندفاع مياه الأمطار -، إذا بمن يدق الباب.

أجابت السيدة روزينموللر بانفعال قائلة:" تفضل".

دخل ماكسميليان، أومأت له برأسها، وأشارت بحركة من يدها إلى مقعدنا؛ كدت أن أصرخ من السعادة. بلا صوت انزلق بين المقاعد ومر بمقعدي، ثم جلس إلى جواري. نظرت إليه وأنا أضحك وتمنيت أن أحيطه بذراعي، مر ببصره علي. أمسك أسفل المقعد وأخرج كتبه، أخذها أسفل ذراعه وذهب دون أن ينظر حوله.

أين كان يعيش ماكسميليان؟ كان الأمر يبدو كما لو أنه يظهر صباحًا من العدم ثم سرعان ما يختفي فجأة في طريق عودته للمنزل.

مشيت على طول الشارع "المتفرع" وهو شارع مليء بالفيلات أعلى قلعة زونينبيرج. هنا يجب أن يكون منزل عائلة بيكمان كلاجين. نظرت إلى كل لافتات أجراس المنازل وحاولت أن أفك شفرات الأسماء المكتوبة عليها. ودومًا ما كان يظهر شخص عند بوابة الحديقة أو من يتلصص من النافذة أو يصيح بنغمة تنم عن أنه يجب أن أنصرف:"ما الأمر؟ هل يمكنني مساعدتك؟"

كانت كل الأراضي محاطة بأسوار عالية وتشير المصابيح ذات اللون البرتقالي فوق المداخل إلى أجهزة إنذار تعمل. ربما كان هذا منزل بيكمان كلاجين، سري مثل رقم هاتفهم الذي بحثت عنه في دليل

الهاتف لكن بلا جدوى. قال لي أخي:" هذا هو الحال لدى الأثرياء، وإلا لاتَّصل بهم أي شخص يرغب في أن يقترض الأموال منهم."

سألته مساءً ما إذا كان يعرف أين يعيش ماكسميليان، قال: "منطقي أن تكون أسرة بيكمان كلاجين صاحبة أكبر منزل في الشارع المتفرع لأعلى الجبل، لكن لا يمكن رؤية المنزل من الشارع؛ لأنه محاط بسور أسود ضخم."

كان ارتفاع السور يصل إلى مترين على الأقل، يستند على قاعدة من الجرانيت ومكسو من الداخل بأُسطوانات معدنية. لا يوجد لافتة تحمل اسمًا بجانب البوابة العالية أيضًا. لا يوجد سوى نظام للاتصال الداخلي وزر أسود لامع؛ لم أجرؤ على الضغط عليه. كل صباح كنت أظل واقفة أمام البوابة بضع دقائق على أمل أن يخرج ماكسميليان من هذا الحصن ويذهب إلى المدرسة هذه المرة معي. في طريق العودة كنت أبقى لفترة أطول وكنت أدفع نفسي أحيانًا للسير بالقرب من البوابة ساعتين، أركل حجارة صغيرة على الطريق أو أتصرف كما لو أنني أتنزه؛ كي لا أثير انتباه الجيران. تمنيت فقط أن أرى ماكسميليان. كنت أتخيل أحيانًا أنه محبوس داخل الحصن وستُطلق عليه النيران إذا ما حاول الاقتراب من السور، وأنه يقف في مكان ما عند النافذة ويستطيع رؤيتي، لكنه لا يتمكن من الحديث معي أو حتى الخروج لمقابلتي. لذا كنت ألوح بشكل غير لافتٍ وألقي له قبلات سريعة في الهواء: اصمد، اصمد، اصمد!

دائمًا ما كانت تأتي أمي ببطء في وقت ما بسيارتها السيتروين السوداء، تتوقف بجواري وتقول من النافذة الجانبية المرفوعة "ماذا تفعلين هنا؟" اركبي حالًا يا آنسة، حان وقت التدريب على القراءة."

في صباح أحد الأيام عندما كنت منتظرة عند البوابة مرة أخرى مر أحد تلاميذ المدرسة من الشارع. تلميذ في الصف الأول الابتدائي،

صغير وسخيف، سأل: "ماذا تفعلين هنا؟" ثم ابتسم قائلًا:" ألا يسمح لك بن المليونير بالدخول؟" سمعت أنكما صديقان، أودُّ أنْ أرى الفيلا أيضًا."

قبل أن أتمكن من الرد عليه كان قد ألقى حقيبته المدرسية والتفت حوله لبرهة وبدأ تسلق السور، صحت قائلة:" توقف!"

"لماذا؟" قالها وقد صار واقفًا بالفعل فوق القاعدة الخرسانية.

"ألا ترى الكاميرات؟ والأسلاك الشائكة؟"

استمر في التسلق وهو يضحك، ثم قال: "يمكن أن تصدري صفيراً إذا جاء أحد!"

" ماذا لو أن هناك أجهزة إطلاق نيران ذاتية التشغيل؟ سيتم تصفيتك قبل أن تقفز من فوق السور."

قال وقد ظل واقفًا: "هنا؟ أنت تهزين" أحاطت يداه الصغيرتان شدادات السور. "هل أخبرك ماكسميليان بذلك؟ أم رأيتينه بنفسك؟"

"رأيته بعيني." نظرت إليه لأعلى" ألم تذهب إلى حدود جمهورية ألمانيا الديمقراطية من قبل؟" تبدو مثل هنا، وإذا بقيت معلقًا فوق السور ميتًا ..."

قفز الصبي على الشارع وحدق بي برهة ثم أخذ حقيبته وركض. شعرت بالأسى عليه، ماذا حدث لي؟ أجهزة إطلاق نيران ذاتية التشغيل في فيلا بيكمان كلاجين، ياله من هراء. أمر مثل هذا كان يوجد على حدود جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

كان هناك شيء يأز، تحركت الكاميرات تجاهي. بدت مثل بنادق سوداء، انخفضت لأسفل مُصدرةً نقرًا وركزت علي. عندئذ أطلقت العنان لقدمي وركضت أنا أيضًا.

(16)

كانت أمي تقول لنا دائمًا إنّ الزمن قد توقف في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. لم يتغير هناك أي شيء منذ طفولتها؛ كانت تقصد بذلك هروبها.

عندما كنا نذهب إلى مدينة روستوك كانت تمر بنا على منزل والديها مرة واحدة على الأقل. كانت طبقة الجبس المطلية على الواجهة محطمة. نمت طحالب سميكة فوق السطح، بنى جدِّي السور في الحديقة الأمامية وغرس شجرة الكرز بمناسبة مولد خالي جورج. حتى أماكن مبيت الأرانب والتي هي عبارة عن صناديق كبيرة متراصة فوق بعضها بعضًا كانت كما هي.

كم تمنيت أن أرى غرفة المعيشة التي لم تكن تُستخدم إلا في المناسبات وكان يوضع بها شجرة التنوب كل مناسبة عيد ميلاد مجيد، عالية ومزدانة للغاية، لا مثيل لها في أي مكان آخر كما كانت تمدحها أمي.

ظل والدي يعاني قليلًا جرّاءَ ذلك لأنه كان المسؤول عن شراء شجرة عيد الميلاد وتزيينها، ولم يصل أبدًا للصورة التي في ذاكرتها.

ذات مرة عندما مررْنا بمنزل أمي سألتها: "هل تعرفين من يعيش هناك الآن؟ ألا نستطيع أن ندق جرس الباب؟ ربما يسمحون لنا بالدخول قليلًا كي تتمكني من أن تُرينا كل شيء."

لكن أمي هزت رأسها وقالت: "انسي هذا الأمر، هذا الباب سيظل مغلقًا للأبد."

كان زوج الخالة هانيه يعمل لصالح جهة حكومية وغير مسموح له باستقبال ضيوف من الغرب؛ لذا قضينا الليلة في فيلا كبيرة رديئة. كانت العجوز صاحبة الفيلا تؤجر بعض الغرف مقابل المال بعملة الغرب. عندما كنا نصل إلى هناك كنا نضع أمتعتنا ونذهب إلى الخالة هانيه في الحال، كانت تعيش في شقة كبيرة منيرة ببناية قديمة بأسقف عالية وأرضية ردهات تصدر أزيزًا. في كل مكان كانت هناك دُمي-في واجهات العرض والرفوف وعلى الأرائك ومساند النوافذ والأسرّة-على شكل فتيات وصبية رُضَّع مرتدين ملابس تعميد طويلة، صغار بوجنات وردية اللون وسيقان مشدودة، أطفال مدرسة مرتدين زي البحَّارة وفساتين صغيرة يحملون حقائب جلدية بحجم راحة اليد على ظهورهم. كانت بعض الدُّمي تعود إلى طفولة هانيه لكن معظمها من صنع يدها. كانت أمي تحذرني كل مرة من مساس الدمي بل النظر إليها فقط، إلا أن هانيه قالت إنني يجب ان ألعب بها طوال عام - منذ الصيف الماضي انتظرتني دماها ولم تكن تتمنى سوى أن ترانا مجتمعين في سعادة مرة أخرى. كانت ثمة أدراج ممتلئة بملابس الدمي وأحذية صغيرة وأواني طهي نحاسية وأدوات مائدة صغيرة وأطباق فاخرة مصنوعة من البورسلين؛ كنت في الجنة.

قالـت هانيـه لأمـي مازحـة: "خسـارة أنـك لم تعـودي تلعبـين بالدمـي بعـد الآن." إلا أن أمـي أجابتهـا بغرور:"منـذ أن تركـت كارل الصغير هنـا لم يعـد لـدي أي دميـة."

"نعـم، أنّـا آسـفة عليـه هـو أيضًـا، عندمـا لم تذهبـي إلى المدرسـة يـوم الاثنـين، عرفـت عـلى الفـور أنكـم رحلتـم، فكـرت في دميتـك الصغـيرة كارل، ذهبـت بعـد الحصـة إلى منزلكـم كي آخـذه - آلمنـي أن يبقى جالسًـا بمفرده منتظـرًا عودتـك بـلا جـدوى، لكـن الكثـير مـن رجـال الشرطـة احتشـدوا لديكـم وأخـذوا يفتشـون كل شيء. لم يكـن مـن الممكـن الدخـول إلى هنـاك بسـهولة. حُطـم قلبـي، وأسـال نفـسي اليـوم أيـن هـو."

قالـت أمـي: ربمـا في صندوق القمامـة" اهتزت هانيه قائلة:"كريسـتينا! كيـف لـك أن تكـوني قاسـية القلـب هكـذا! لا، لا يضيـع شيء لدينـا. أنّـا متأكـدة أنـه وجـد منَـزلًا طيبًـا."

عندمـا احتسـينا القهـوة جلسـت أمـي وهانيـه عـلى الأرض، أخذتـا يخرجـان الهدايـا التـي أحضرتهـا أمـي معهـا: مسـحوق غسـيل، مـوز، أنانـاس، قهـوة، كـولا، جهـاز وُوكْـمان، بعـض بناطيـل الجينـز ماركـة ديـزل وحقيبـة ورقيـة بنيـة اللـون سـعدت بهـا هانيـه، قالـت: "يجـب أن أتفقـد الأشـياء في هـدوء. أنتظـر في سـعادة هـذه الأغـراض طـوال العـام." حملـت الكيـس إلى مكتبهـا الـذي كان يشـغل مسـاحة الحائـط كلهـا أسـفل النوافـذ المؤديـة إلى الحديقـة. عندمـا فتحـت الكيـس أخرجـت منـه عينًـا زجاجيـة زرقـاء ودحرجتهـا عـلى سـطح المكتـب. أمسـكتها الخالـة هانيـه في الوقـت المناسـب وكـورت قبضـة يدهـا حولهـا وتنهـدت بسـعادة قائلـة: "يـا إلهـي! أرجـوكِ لا تنكـسري منـي. وإلا سـيظل هنـاك طفـل بعـين واحـدة." ثـم التفتـت لأمـي مبتسـمة وقالـت:" بعـين واحـدة، بعينـين، بثـلاث - أمـا زِلْـتِ تتذكريـن الحكايـة الخرافيـة؟"

"بالطبع، اعتاد أبي أن يقرأها لي."

التفتت هانيه بعيدًا على الفور وأفرغت الكيس: عشرات العيون الزجاجية باللون الأزرق والبني والأخضر، رموش صناعية، قدور ملونة، فرشات رفيعة، شعر مستعار بأشكال مختلفة.

كان علينا الرحيل دائمًا قبل عودة زوجها؛ لذا كانت هانيه تُعد لنا طعام العشاء قبل موعده لدرجة تجعلني أستيقظ ليلًا لشعوري بالجوع.

ذات مرة كنا جالسين على مائدة طعام العشاء عندما كان باب الشقة مفتوحًا. جاء زوج هانيه قبل موعده، طردنا من المنزل وهو يستشيط غضبًا، وتمكنا من أن نسمع شجاره بصوتٍ عالٍ مع هانيه ونحن في الشارع. عندما قال والدي إنه أحمق لأنه بذلك جعل الجميع يعرفون بزيارتنا، هزت أمي رأسها قائلة: "ربما صرخ كي يعرف الجميع أنه معترض على زائرين من الغرب."

لم أحب زوج هانيه لأننا بسببه كان علينا المبيت في فيلا السيدة العجوز. كنا نقطن هناك نفس الغرفة الواقعة في نهاية الممر الطويل. كان أكثر الأماكن المخيفة التي رأيتها في حياتي، كان هناك أربعة أسرّة عتيقة بقضبان تساقط من عليها الطلاء الأبيض موضوعة عند الجدران. كانت الوسائد والأغطية محشوة بزغب صقيل ورائحته عفنة ومغطى بغطاء أسرَّة يابسة ومصفرة. كانت مناسبة لملابس النوم الطويلة المزدانة بأشرطة من الدانتيل المعلقة على حمَّالة خشبية على الباب والتي تصير بالية أكثر مع كل ضيف. كنت أبدو مثل الشبح في الضوء الخافت لمصباح الشارع الذي كان يسقط ليلًا خلال الستائر الشبكية الطويلة. عند فتح الباب كان الهواء يبدأ في التحرك وتنبعث رائحة حمضية قوية تنتشر في المكان. علاوة على ذلك كان مسموحٌ لنا استخدام حمام السيدة العجوز، لكنها كانت تضع لنا وعاءً لفترة الليل. على الرغم من أن أمي كانت تدَّعِي أنه نظيف كانت رائحته حمضية مثل رداء النوم.

مـن المؤكـد أن السـيدة كانـت تحبـس أطفالهـا في هـذه الغرفـة. تصـورت أنهـم كانـوا أربعـة. ومـات الواحـد منهـم تلـو الآخـر في فراشـه ذي القضبـان. كان رداء النـوم ملـك لآخرهـم؛ لـذا كانـت رائحتـه مثـل رائحـة المـوت.

لم أتخلص من هذا التصور أبدًا.

بمجـرد أن يحـل الليـل كنـت أسـمع همسـات هـذه الفتـاة المفقـودة والبائسـة، همسـت قائلـة: "اصمـدي، اصمـدي، اصمـدي، سـتصير الأمـور عـلى مايـرام."

لم يـزر أي مـن زمـلائي في المدرسـة جمهوريـة ألمانيـا الديمقراطيـة وكنـت أروي لهـم دائمًـا بعـد العطلـة مـا عايشـته هنـاك.

عندمـا سـألني أيكـه ذات مـرة، لمـاذا ليـس لـدي أصدقـاء في فصـلي أجبتـه ضاحكـةً:" أعتقـد أنهـم يخافـون منـي."

فضحـك هـو أيضًـا وقـال:" ليـس منـك، بـل مـن حكاياتـك المُرعبـة. كنـت أخـاف منهـا أنـا أيضًـا في السـابق، أمـا زلتِ تذكريـن؟ الماء المسـموم؟"

قلـت: "كان مسـحورًا." مسـكته مـن كتفيـه وتوسـلت إليـه قائلـة: "أرجـوك، لا تـشرب منهـا، يـا أخـي العزيـز!"

إلا أن أيكـه صـاح: "لكننـي ظـمآن، يـا أختـاه دعينـي أشرب." ثـم خلّـص نفسـه مـن يـدي وزمجـر.

وضعـت يـدي عـلى فمـي:" أخـي، مـاذا فعلـت؟ حولتـك الميـاه إلى ظبـي وليـد لكـن لا تقلـق، لا تبـكي، سـأجدل لـك حبـلًا مـن الحشـائش وسـأعتني بـك."

دخلنـا إلى كـوخ في الغابـة. عندئـذ مـرَّ بنـا بـنُ ملـك ووقـع في غرامـي، لكننـي ظللـت ثابتـة، لـن أجعـل نفـسي تحـت إمرتـه، لـن أتبعـه أبـدًا إلى

قـصره، ولـن يُقـام حفـل زفـاف أبـدًا، ولـن أصبـح ملكـة أبـدًا. وبقيـت طيلـة حيـاتي أعتنـي بأخـي المسـحور.

كان يعرف ذلك هو أيضًا.

لـذا كان يخلـد إلى النـوم، كان ينـام كل مـرة في أمـان حتـى قبـل أن أنتهـي مـن سرد الحكايـة.

كنـا نعتقـد سـابقًا أننـا سـننجح في كل شيء، كل شيء طالمـا آمنـا بذلـك إيمانًـا راسـخًا. تخيلنـا مثـلًا أن ثمـة شـخصًا محـددًا سـيزورنا وإذا دق الباب بعـد ذلـك كنـا نغلـق أعيننـا لبرهـة ونسـتحضر أمنيتـا ونفتـح بـاب المنزل. كانـت أمـي تحذرنـا دائمًـا أننـا يجـب أن ننظـر مـن العدسـة السـحرية أولًا. كانـت تسـميها يهـوذا، أي الخائـن، قبـل أن نفتـح البـاب لأحـد. "يطلـق عليـه "يهـوذا" في فرنسـا. كان والـد أمـي جنديًـا في الجيـش الألمـاني هنـاك، المـرة الوحيـدة التـي كان بهـا خـارج ألمانيـا. عرفـت أمـي منـه اسـم "يهـوذا".

لكننـا كنـا نشـعر بالأمـان، وإذا مـن تمنينـا زيارتـه هـو مـن كان بالباب حقًـا كنـا نسـعد بسـيطرة قدرتنـا عـلى التخيل.

كـم تمنيـت أن يكـون ماكسـميليان هـو الزائـر! كل مـرة يـدق فيهـا جـرس البـاب تخيلـت أنـه هـو وكنـت أصـاب بالخيبـة عندمـا كنـت أجـد أحـد أصدقـاء أيكـه.

منـذ أسـابيع لم أذهـب إلى منـزل بيكـمان كلاجـين، لم أجـرؤ عـلى الذهـاب إلى هنـاك، كنـت أذهـب عـبر طريـق آخـر أطـول إلى المدرسـة. تصـورت كـما لـو أننـي تخليـت عـن ماكسـميليان، لـذا كنـت أفكـر فيـه أكـثر وأتمنـى أن يشـعر بهـذا.

لكـن كـم شـعرت بالمفاجـأة عندمـا وجدتـه واقفًـا هنـا. حقًـا! رأيتـه خـلال العدسـة السـحرية. بـدأ قلبـي يـدق بشـدة، وضعـت يـدي عـلى مقبـض البـاب ولكـن سرعـان مـا أبعدتهـا مجـددًا. لا، لم أسـتطع هـذا! لكـن

البـاب دق عـدة مـرات. نـزل أيكـه مـن عـلى الـدرج، همسـت: "افتـح، أرجـوك، افتـح!"

"لماذا؟ من بالباب؟"

دق البـاب ثـم رن الجـرس مجـددًا، بسرعـة دخلـت إلى خزانـة الردهـة وأغلقتهـا واختبـأت بـين المعاطـف وأحذيـة البـوت المطاطيـة وحقيبتـيّ والـدي الصغيرتـين.

فتـح أيكـه البـاب، سـمعته هـو وماكسـميليان يتحدثـان لكننـي لم أتمكـن مـن فهمهـما. تحدثـا طويـلًا، تصـورت أن ماكسـميليان لا يريـد الرحيـل. كانـت الرائحـة داخـل الخزانـة عفنـة وخانقـة ودافئـة، تصببـت عرقـًا.

رحـل ماكسـميليان أخـيرًا، خرجـت مـن الخزانـة. نظـر إليّ أيكـه وهـو يهـز رأسـه قائـلا: "تتحدثـين عنـه طـوال الوقـت وعندمـا يـأتي، تتراجعـين؛ أنـتِ لا تتصرفـين بعقلانيـة."

قلت له: "حسنًا، أخبرني ماذا كان يريد؟"

فتـح أيكـه ظرفًـا وقـال:" يدعـوني إلى حفـل عيـد ميـلاده." نزعتـه مـن يـده، جريـت إلى غرفتـي ورطمـت البـاب خلفـي مغلقـة إيـاه.

بـدلًا مـن اسـمي رسـم رسـمة صغـيرة تشـبه الكوميكـس، فتـاة بفـم واسـع، ضفائـر طويلـة وأنـف صغـيرة للغايـة، رسـمني أنـا. فتحـت الظـرف بحـرص وأخرجـت الدعـوة منـه. قصـة مصـورة، صـور صارخـة، ولا يوجـد كلمـة واحـدة. تعرفـت عـلى السـور الأسـود المرتفـع والصبـي الأشـقر المبتسـم الواقـف عـلى البوابـة المفتوحـة عـلى آخرهـا، تشـير السـاعة الرقميـة في معصـم يـده إلى التاريـخ والسـاعة.

(17)

ذهبنا إلى هناك معًا؛ أنا وأيكه. لم أكن لأتجرأ أن أفعل هذا بمفردي. صيف 1989، بدأت العطلة الصيفية لتوها، ضغط أيكه على الزر الرمادي أسفل نظام الاتصال الداخلي. أصدرت الكاميرات أزيزًا فوقي. فُتحت البوابة وكأن يدًا سحرية فعلت هذا. كان المنزل عبارة عن مكعب أبيض عملاق بنوافذ زرقاء وبمرايات عاكسة على شكل مزاغل.

قال أيكه وهو يجذبني خلال البوابة: "هيا، لا تقفي هكذا، ماذا بكِ؟" مشيت وأنا ممسكة بيده بمحاذاة المدخل الواسع المحاط بمساحات من الحشائش ذات اللون الأخضر الفاتح. على الرغم من أن سحبًا كثيفة كانت لا تزال تحجب الشمس وتبدو الأجواء كما لو أن ثمة عاصفة سوف تهب، أخذ أيكه ملابس السباحة معه. يُقال إنه يوجد حمام سباحة عملاق.

كان الجو حارًا بشدة، على يمين المنزل كان يوجد عدة جراجات وعلى اليسار كانت هناك درجات تؤدي إلى حديقة على عمق أكبر.

كان هنـاك رجـل بشـعر طويـل أشـقر ملفـوف يصـل إلى كتفيـه مرتديًـا زيًّـا بلـون أخـضر ذهبـي. هـل هـذا هـو الحـارس؟ لمـاذا كان مزينًـا؟ كانـت قطـرات العـرق تتسـاقط مـن عـلى جبهتـه المغطـاة بمسـحوق أبيـض. أشـار إلى منعطـف وقـال إنـه سـعيد باسـتقبالنا في المنـزل. "اتبعـاني مـن فضلكـما." تقـدم بخطـوة سريعـة، ربمـا لأنـه كان لزامًـا عليـه اسـتقبال الضيـوف التاليـين، تعبنـا مـن اللحـاق بـه.

قـال: "لا تخجـلا، تفضـلا!" وأشـار إلى الدرجـات المؤديـة لأسـفل إلى الحديقـة حيـث كانـت هنـاك امـراة تقـف عنـد منصـة مرتفعـة بتسريحـة شـعر تشـبه الـبرج مرتديـة تاجًـا صغـيرًا وفسـتانَ حفـلٍ أخـضر فضفاضًـا. بيديـن مغطتـين بقفـاز أبيـض كانـت تعـد لافتـات صغـيرة تحمـل أسـماءً ثبتتهـا عـلى قمصاننـا التـي شـيرت ورشـتها بمـادة لامعـة بلـون وردي.

قالـت: "أهـلًا بكـما في الحفـل الصيفـي للأمـيرة تابيـا" وقبـل أن نسـأل مـن هـي الأمـيرة تابيـا فُتحـت بوابـة حديقـة عاليـة بداخـل سـياج مـن النباتـات. هـا هـو هنـاك، حـمام السـباحة.

تطفـو عوامـات ملونـة ومراتـب هوائيـة عـلى صفحـة الميـاه الزرقـاء البلوريـة، وكانـت هنـاك بالونـات وأشرطـة زينـة طويلـة وأكاليـل معلقـة في أشـجار النخيـل الموجـودة في أصـص في الشرفـة. كان هنـاك رجـل يرتـدي معطفًـا طويـلًا وقبعـة مخروطيـة الشـكل يقـوم بألعـاب سـحرية، وآخـر كان يقـف عنـد منطقـة الشـواء ويعـد المقانـق. كان هنـاك عـشرات الفتيـات الصغـيرات يجريـن ضاحـكات مرتديـات فسـاتين صيفيـة وملابـس السـباحة أويقفـزن في المـاء وهـن يصحـن. كانـت تُعـزَفُ الموسـيقى في أثنـاء مـا كانـت بعـض النسـاء المرتديـات فسـاتين الأمـيرات يجـبن خـلال النـاس حامـلاتٍ صـوانيَ بهـا مشروبـات وقطـع جاتـوه صغـيرة وقطـع مـن البطيـخ. أكان هـذا حفـل عيـد ميـلاد ماكسـميليان؟ لا يمكـن! مسـكت بيـد أيكـه باضطـراب، أردت العـودة إلى المنـزل.

قال:" مستحيل!" "حسنًا، سخر منك ماكسميليان، لكن لا أهتم بمن يحتفل هنا. الجو حار ويوجد هنا حمام سباحة؛ سنبقى."

لوحت له فتاة صغيرة ذات شعر أسود مرتدية ملابس سباحة وردية اللون. خلع قميص التي شيرت ودسه في حقيبة السباحة، أغلق أنفه بإصبعي السبابة والإبهام وأخذ مسافة وقفز في الماء صوب الفتاة. مكثت واقفة في حيرة على جانب حمام السباحة. صنع الساحر فقاقيع هوائية عملاقة. أرادت إحدى الأميرات بشعرها المستعار الملفوف بلون وردي أن تقوم بتزييني. كانت تفوح منها رائحة الفازلين والعرق. ابتعدت ومشيت عبر الشرفة صوب المنزل، وقفتْ سيدة سمينة في طريقي، كانت ترتدي فستانًا لونه أزرق فاتحًا بمريلة بيضاء مكشكشة. قالت وقد انحنت أمامي: "أنا أنيتا، خادمة تابيا..." هل أستطيع مساعدتك ياعزيزتي؟"

قلت: "دعاني ماكسميليان للحفل، أبحث عنه." تغير تعبير وجهها بعض الشيء، بدا أقل ودًا. انتصبت ونتفت في كشكشة مريلتها. قالت: "الطابق الثاني، الغرفة الثالثة على الجانب الأيمن، بلغيه تحياتي الجميلة. ربما يستطيع أن يلقي نظرة بنفسه، من أجل أخته." تنحت جانبًا، ثم ابتعدت.

هرولت ومشيت إلى داخل المنزل عبر الشرفة.

ثم ساد الهدوء. لم يعد هناك أي صوت للموسيقى، لا يوجد صياح بسعادة وضحك. حتى روائح فحم الشواء والمقانق المحمرة ومياه الكلور اختفت. هبت نسائم باردة عطرة برائحة الورود المجففة من مكان ما.

سجاجيد فارسية ثقيلة، منضدة مرتفعة عليها إطارات فضية اللون بداخلها صور عائلية، أريكة بيضاء من الجلد، مقعدان وثيران صغيران

ومائدة طويلة زجاجية بمقاعد شفافة. هل كانت أيضًا من الزجاج؟ كانت تتدلى ثريا بللورية كبيرة من السقف الذي يشبه القبة.

كان ثمة مصراع باب يؤدي إلى بهو مدخل من الرخام، كانت الأرضية والعواميد والسلم الخارجي، كل شيء بلون أبيض ناصع. مياه تجري على جدار يمتد بطول كل الطوابق. نوع من الشلالات التي لا تنثر المياه أو تصدر صوتًا بل تسير في هدوء وكانت تبدو مثل منديل فضي اللون. صعدت الدرج وحركت أصابعي على سور السلم البارد،

"ماكسميليان؟"

لا رد، لكن صدرت من الغرفة طقطقة خفيفة.

"هل أنت بالداخل؟" كان الباب مواربًا، فتحته ورأيته جالسًا على ركبته أمام مدفأة، وقف متأرجحًا؛ كان قد حلق رأسه من وقت قريب، يكاد أن يكون أصلع الرأس، كان جفن عينه اليمنى يهتز. تقدم تجاهي بخطوات غير ثابتة، قال: "لم أتصور أنك ستأتين." كان صوته مترددًا، أسند نفسه على كتفي. كانت رائحته غريبة، أعدته إلى الوراء. قلت له: "ليس اليوم عيد ميلادك؛ تحتفل أختك ..."

قاطعني قائلًا: "أخت غير شقيقة، لنا نفس الأم، ليس لي علاقة بوالد تابيا." مدَّ ذراعيه وقال: "ليس لي علاقة بكل شيء هنا." تأرجح عائدًا إلى المدفأة وأخذ حلقة فضية من على الحافة." أهداه والدي، الحقيقي، لأمي، عندما كانت حاملًا بي. كنت طفلًا سمينًا؛ طفلًا سمينًا حقًا. هل تستطيعين تصور هذا؟" ضحك وكان عليه أن يمسك بحافة المدفأة لأنه لم يكن واقفًا بثبات. "أحبها، أقصد والدي الحقيقي." أراد أن يتزوجها. لكنها لا تفعل أبدًا ما يُراد منها، أبدًا."

حاول أن يرتدي الخاتم، جرب إصبعًا تلو الآخر، كان كبيرًا للغاية حتى بالنسبة لإصبع الإبهام.

قال: "كان يدعى برايتلينج، ميشي برايتلينج. لست من عائلة بيكمان كلاجين أصلًا، كنت أعرف دومًا أنني لست منهم. شعرت، شعرت من قلبي أنني مختلف؛ حتى إنني أبدو غيرهم. أنا من نسل برايتلينج، هل يزعجك هذا الأمر؟"

هززت رأسي ببطء، وعندما نظر إليَّ ماكسميليان بشك قلت له: "لا، في الحقيقة لا، لا."

" لا يخصني أي شيء هنا، يملك والدي الحقيقي متجرًا لبيع الكتب القديمة. لا يمكن أن يكون ثريًا منه، أنّا! لست غنيًا."

أومأت برأسي، ناولني الخاتم. "ليتها كانت هذه حياتي."

كان خاتمًا فضيًا رفيعًا وكانت ثمة نباتات متسلقة داكنة محفورة بداخله، ربما كانت مثل نبات اللبلاب. كانت ثمة كتابة في الجانب الداخلي للخاتم، قرأها ماكسميليان لي: "سأحبك للأبد."

وضع الخاتم في جيب بنطاله وقال:" سآخذه معي، سأحرق الباقي."

أشار إلى المدفأة الممتلئة بالأشرطة وملاءات الفراش وكتب. ظهرت دمية وجناح خلفي أحمر اللون لسيارة يتم التحكم بها عن بعد أسفل إحدى الوسائد.

"سأدمر كل شيء تمامًا، كل الأكاذيب."

وبركلة واحدة سدد كرة قدم داخل المدفأة. تدحرجت الأغراض وانزلقت، سقط بعضها من المدفأة. صرخ ماكسميليان غاضبًا، وبدا للحظة كما لو أنه أراد إعادتها للمدفأة مرة أخرى، لكن بعد ذلك تمايل متوجهًا إلى فراشه وهوى فوقه على بطنه ومد ذراعه إلى زجاجة كانت موضوعة على الأرض بجانب الفراش.

سألت: "ماذا تشرب؟"

"شنابس، لا أعرف، شراب روم." قرأ اللافتة:" لا، فودكا."

جلست إلى جواره، التف على ظهره وقرّب الزجاجة من فمه وتجرعها. عندما هدأ سعاله مرة أخرى أعاد الزجاجة ومسح بظهر يده على فمه.

سألني: "هل ستلتحقين بالمرحلة العليا؟"

"ماذا؟"

هل مسموح لك الالتحاق بالمرحلة العليا بعد العطلة؟ هل سيسمحون لكِ؟ هل نجحت؟"

"لا."

" أين سيرسلونكِ؟"

"إلى المدرسة الشاملة." أغلق عينيه، بدت رموشه الطويلة ذات اللون البني الذهبي مثل أهلّة مظللة، سقطت منها الدموع، ربما من السعال، حدقت به.

قال: "لم أنجح، قالت أمي. أنا مثل هذا المدعو برايتلينج، مثل أبي؛ فاشل."

"لا! لست كذلك! أنت رائع."

خنفر وبدا صوته كما لو أنه سيضحك وينتحب في نفس الوقت، "ماذا تعرفين؟ أنت حتى لا تستطيعين القراءة."

ابتعدَ عني وبكى، لم أعرف ما يجب أن أفعله. انساب صراخ الأطفال الآخرين من الخارج إلى الداخل والتصفيق الحار عندما قفز أحد الأطفال في المسبح.

"هل تعرف والدك؟ أقصد الحقيقي؟"

" نعـم، الآن نعـم، لكنـه لا يريـد أن يسـاعدني. قـال لي: "والدتـك تعـرف مـا تفعلـه، وأعطـاني الخاتـم، قـال: "خاتـم فـضي بقيمـة ثلاثـين مـاركًا. الآن صـار لديهـا واحـدٌ مـن الألمـاس، وأنـت تنشـأ في ظـروف جيـدة. لا أسـتطيع أن أقـدم لـك شـيئًا، ثـم أعـادني إلى المنـزل." التـف تجاهـي مـرة أخـرى ونظـر إلي مـن عينـين حمراويتـين، قـال: "أخـوكي في المرحلـة العليـا، وأنـت سـتلتحقين بالمدرسـة الشـاملة. لا يمكـن ألا يعنـي هـذا الأمـر شـيئًا بالنسـبة لـك."

سـكتُ، ابتسـم ومـد يـده لي، كانـت بـاردة كالثلـج. مسـح عـلى وجنتـي، شـعرت بالقشـعريرة، ثـم أمسـك بالزجاجـة مـرة أخـرى وشرب دون أن تصيبـه الشرقـة.

"سترسـلني أمـي إلى مدرسـة داخليـة إنجليزيـة، وسـيدفع زوج أمـي المصروفـات. أعتقـد أنهـما سـعيدان برحيـلي؛ هـم يسـتبعدونني."

"لا أعتقد، لا أستطيع أن أتصور هذا."

"قلت إنك غبية."

"ربما يستطيع والدي مساعدتك."

" لم يعد في وسع أحد أن يساعدني."

"بـلى، إنـه قسـيس، هـذه مهنتـه؛ ربمـا يسـتطيع الحديـث مـع والدتك وزوجها."

قفـز ماكسـميليان فجـأة وصـاح: "أنـتِ أغبـى مـما كنـت أتخيـل! ألا تفهمـين؟ ضـاع كل شيء. أنـا ضِعـت! يريـدون أن أختفـي! مـن حياتهـم المثاليـة، عالمهـم الجميـل! يجـب أن أتـلاشى في الهـواء! لم تـردني أمـي أبـدًا! أنـا مجـرد غلطـة! غلطـة مـن البدايـة! لم تلحـظ أنهـا حامـل في الوقـت المناسـب. حتـى اليـوم تتمنـى مـن كل قلبهـا ألا أكـون عـلى وجـه الأرض. تمنيـت أن تجهضنـي! عندئـذ ..."

أمسكته من كتفيه قائلة: "لا"، ضربني، وقعنا على الفراش. جلس فوقي وانهال بلكماتٍ على قفصي الصدري. صرخت، ضغط بيديه على وجهي، لم أعد قادرة على التنفس. خفَّت حِدة الضغط، رفع ماكسميليان يديه، ظل جالسًا فوقي؛ سَعُلْتُ.

حدق بي.

قال: "آسف، آسف حقًا." حاولت أن أومئ برأسي، كان حلقي يلتهب مع كل نفس وكان لساني سميكًا ومتورمًا.

قال: "لم أرغب في رؤيتك مرة أخرى، جميل، جميل حقًا أنك لم تنسي، أنك لم تنسيني، أتفهمينني؟"

أومأت برأسي مرة أخرى.

"يؤسفني، تمنيت أن أظل معك لفترة أطول، لكن قبل أن يبعدونني سأرحل. ليس هناك سبيل آخر، أنت تعرفين ما أقصد، أليس كذلك؟" سألته: "إلى أين تريد الذهاب؟"

نظر إلي بعينين كبيرتين لامعتين بودٍ ونعومة. "أعتقد أنكِ تمثلين أنك غبية؛ هذا هو أسلوبك، أليس كذلك؟"

شعرت بوزنه، بألم على خصري، حلقي ملتهب، كانت رائحة أنفاسه فظيعة. حاولت أن أومئ برأسي ثانية، تغير كل شيء، امتلأت عيناي بالدموع، أغلقتهما، قبلني.

اليوم التالي كان أول أيام العطلة؛ أردنا الذهاب إلى جدتي لورا. كان أبي قد وضع للتو آخر حقيبة في صندوق السيارة المرسيدس عندما رن الهاتف في غرفة مكتبه.

قالت أمي: " لم نعد موجودين هنا، لا تدخل."

أغلق والدي صندوق السيارة، "دقيقة واحدة!" وسار إلى المنزل.

تنهد أيكه.

كان الجو حارًا، الشمس ساطعة فوق سقف السيارة. وضعت أمي مناشف على المقعد الخلفي حتى لا نظل ملتصقين على المقاعد الجلدية. كان بيني وبين أيكه صندوقٌ كبيرٌ باللون الأزرق والأبيض لحفظ المثلجات.

سبق وأن قالت أمي: "هذا هو الحد الذي لن يتجاوزه أيٌّ منكما." " ممنوع الصراخ والشجار، لا أريد أن أسمعكما طوال الرحلة." ثم قالت للتو: "تمنيت أن يعرف كلُّ فردٍ في هذه الأسرة حدودَه مثلما أفعل."استندت على باب مرافق السائق المفتوح وضمت ذراعيها أمام صدرها. " يتصور السيد القسيس أنه لا بديل له، إذا لم يجلس معنا في السيارة بعد دقيقة فسوف نسافر من دونه."

حاولت أنا وأيكه أن نجعل أنفسنا مرتاحين في مقاعدنا قدر الاستطاعة. بدأت المنشفة الموضوع في ظهري أن تبتل، شعرت بالعطش. على الرغم من أن كل نوافذ السيارة كانت مفتوحة لم يكن هناك أي تيار هواء. أغلقت عيناي وحاولت أن أتجاهل الشعور الكريه في فمي. كان الهواء مثل الهلام.

قالت أمي وهي تشعل سيجارة: "الرجال لا يفكرون إلا في أنفسهم، يحتاجون دائمًا خشبة مسرح وجمهور، لا تكفيهم أسرة بالطبع. ينجزونها كشيء هامشي أو يتركونها جالسة. هذا الأمر يجعلني أصاب بالغثيان، كلهم سواء."

وضع أيكه سماعات الأذن الخاصة بجهازه الووكمان.

وضع أحدهم خطابًا غير مختوم في صندوق البريد صباح اليوم. من المؤكد أن ماكسميليان قد وضعه لي في أثناء الليل. الفتاة برسوم الكوميكس مرة أخرى. كتب اسمي بجانبها، ربما ليتأكد أنني سأحصل

على الخطاب إذا ما أخذه أحد من الصندوق. كنت أفكر في قبلة الأمس. ألقى أخي لي نظرة خاطفة عندما أخرجت الخطاب من حقيبتي، ثم أغلق عينيه وركز في موسيقاه.

سألتني أمي وقد أطفأت السيجارة:" ماذا أرسل لكِ؟" أكاد أن أُجزم بأنها كانت تنظر طوال الوقت صوب نوافذ غرفة المكتب التي كان يسير أبي خلفها ذهابًا وإيابًا.

غمغمت قائلة: "تذكار لأنه سيذهب إلى المدرسة الداخلية، ورسالة."

سألتني:" هل تستطعين قراءته؟ أم أيجب أن أساعدك؟"

" الأمر على ما يرام."

" ماذا كتب إذن؟"

قلت وأنا أُحدق بيأس في الحروف: "ليس كثيراً". لماذا رسم صورة صغيرة فقط على الظرف، وكتب الرسالة؟

نظرت أمي إلى ساعة معصمها وقالت: "ماذا يفعل الرجل بالداخل كل هذا الوقت؟" سأعطيه ثلاثين ثانية ثم سنرحل." توجهت نحوي وقالت: "سيعود ماكسميليان إلى المنزل بالتأكيد في عطلة الخريف، سترينه مرة أخرى بالتأكيد."

ربما كان عليَّ أن أعطيها الرسالة كي تقرأها لي، لكن ماذا إذا كان الخطاب رسالة حب؟ وضعت يدي داخل الظرف ولمست الخاتم بداخله، تمكنت من الإحساس بنبات اللبلاب وبالحروف المحفورة في جانبه الداخلي. أوصدت أمي باب السيارة الجانبي ودارت حول السيارة وجلست على مقعد القيادة. كانت أقصر من والدي وكان عليها أن تعيد ضبط وضعية المقعد والمرآة من جديد. أدار أخي مستوى الموسيقي لأعلى وتسلل من السماعات صوت أزيز وإيقاعات

باص عالية. أطلقت أمي بوق السيارة. ليس هناك أي رد فعل، لم يخرج أبي من المنزل. أشعلت أمي سيجارة ثانية وقالت: "في وقت ما سأضيق ذرعًا بكل شيء لدرجة ستجعلني أرحل ولا أعود مرة أخرى." بدا الدخان عالقًا في الهواء الرطب الساخن. ألقت نظرة في المرآة الخلفية والتقت نظراتنا. قالت: "سآخذكما معي بالطبع. أنا طبيبة وأحصل على مال كاف، أستطيع أن أرعاكما، لست في حاجة لزوج بالمرة."

رفع أيكه كتفيه لأعلى كما لو أنه تمكن من سماعها على الرغم من صوت الموسيقى.

سألت: "إلى أين تريدين الذهاب؟"

أصدر المحرك قرقرةعندما أدارت السيارة، زمجرت قائلة: "هذه السيارة الخردة اللعينة" أعادت ضبط السيارة المرسيدس القديمة من المخرج بسرعة. أحب والدي هذه السيارة، كان أجدادي يملكون نفس الطراز من قبل. وغالبًا ما كان يقول إن الرحلات التي كانوا يقومون بها كانت من أجمل ذكريات طفولته. لكن عندما كنا نسأله إلى أين كانوا يسافرون، كان يهز كتفيه فقط ويقول: "لم أعد أتذكر، ربما إلى اللا مكان. كان والداي يعملان طوال الوقت."

نزع أيكه سماعات الأذن من على أذنيه وصاح قائلًا: "هذا أبي، انتظري، يا أمي! توقفي."

تركت السيارة تتدحرج ببطء أمام حافة الرصيف، لم تغلق المحرك، قالت: "لن يأتي معنا، أستطيع أن أرى هذا."

جرى والدي حول السيارة وانحنى عند النافذة تجاهها وقال: "يؤسفني، يجب أن أذهب؛ اتصل بي بيكمان كلاجين الصغير للتو."

صحـت قائلـة:" مـاذا بـه؟ ألم يرغـب في الحديـث معـي؟" فتحـت بـاب السـيارة، أغلقـه والـدي مـرة أخـرى." ابقـي جالسـة، لـن تسـتطيعي مسـاعدته الآن، تسـلق عـلى مـكان مـا ويريـد أن يقفـز."

قلـت: " دعنـي أخـرج." هـززت بـاب السـيارة، لكـن والـدي أبقـاه مغلقًـا.

قالت أمي: " إنه مجرد طفل، ماذا أصابه؟"

صرخـت قائلـة:" يريـد أن يقتـل نفسـه! دعنـي أخـرج! يجـب أن أذهـب إليـه!"

قـال والـدي:" سـأتوجه إلى هنـاك الآن، لا تنتظـروني سـألحق بكـم بالقطـار."

أومأت أمي برأسها.

ابتسم لي أبي وقال: "اهدئي، سأعيد الأمور إلى نصابها، سأهتم بهذا."

جرى إلى الجراج وأخرج السيارة السيتروين.

بقينا جالسين في السيارة المرسيدس.

نظـرَتْ إليّ أمـي في المـرآة الخلفيـة، سـألتني: "هـل تحـدث معـك ماكسـميليان عـن هـذا الأمـر؟ هـل تعرفـين بهـذا الأمـر؟"

هززت رأسي.

سـألتني، "مـاذا عـن الرسـالة؟" عـلى الرغـم مـن أن الجـو كان شـديد الحـرارة شـعرت بالـبرودة فجـأة.

همست قائلة:" لم أستطع قراءته؟"

مـرت علينـا السـيارة السـيتروين مصـدرة قرقـرة، لـوح أيكـه. قالـت أمـي:" لـن يـرَ هـذا بعـد الآن." ثـم مـدت يدهـا للخلـف وقالـت" أعطنـي الرسـالة."

(18)

كانـت الجـدة لـورا تعيـش في أحـد المنـازل المجـاورة ذات اللـون الأحمـر المبنيـة مـن الطـوب وقـد أطلقـت عليـه اسـم حجـرة الدمـي. كان مثـل كل منـازل المسـتوطنة التـي بُنيـت في منتصـف السـتينيات للاجئـين مـن جمهوريـة ألمانيـا الديمقراطيـة، كان ضيقًـا وصغـيرًا، لكننـي كنـت أجـده مريحًـا. كانـت نافـذة المطبـخ وبـاب المنـزل يتلامسـان ويبـدوان مثـل حـرف "L " معكـوس. سـطح هرمـي، مسـتوى خرسـاني، ممسـحة الأحذيـة، مصبـاح زجاجـي عـلى شـكل مكعـب مُلصـق عليـه رقـم المنـزل باللـون الأسـود"i/6"، كل صفـوف المنـازل تبـدأ بحـرف " أ" وتنتهـي بحـرف " ز"، كـما كان الصـف مكونًـا مـن تسـعة منـازل، وتسـعة أحـرُف.

كانـت هنـاك فتحـة في الحائـط بجانـب البـاب لوضـع الخطابـات. يتـم فتـح صناديـق البريـد مـن الداخـل. بـدت لي مثـل رف سري، ممـر لا يمكـن المـرور بداخلـه إلا في طابـور. يسـارًا المطبـخ ويمينًـا بـاب القبـو، في نهايـة الممـر غرفـة المعيشـة التـي يتـم بهـا تنـاول الطعـام لأنـه لا يوجـد طاولـة

تناسب مساحة المطبخ. في الطابق العلوي كان يوجد غرفتان، وحمام، وسلم ملفوف يبدو مثل فتّاحة ويؤدي إلى أسفل السطح.

يحد حديقة الجدة لورا جسر قضبان سكك حديدية يمر فوقه قطار بضائع يصدر صوتًا عاليًا مرتين في اليوم ذهابًا وإيابًا، خلف السور كانت توجد الغابة التي تبدأ فيها ألمانيا الأخرى. كان الحدُّ يمر داخل منتصف الغابة. عندما كنا أنا وأخي نقود الدراجات ونتوغل داخلها، الأمر الذي كان بمثابة خطورة وسحر بطريقة خرافية مثل القصور والقلاع الزاخرة بالتاريخ، كنا ننادي على الجدة لورا مودعينها قائلين: "وداعا جدتي، سنعبر الآن!"

ثم نضغط على بدّال الدراجات، ونصيح من فرط السعادة ومتعة المغامرة وندّعي أننا ذهبنا لأن الجدة لورا لا تجد ذلك مزاحًا وكانت تصنع هذا الوجه المنزعج الذي كنا نهابه في أسرتنا، خاصة أوقات عيد الميلاد المجيد حيث كانت تستطيع أن تفسد علينا جميعا الأجواء الاحتفالية، كانت تبدو كما لو أنها أكلت شيئًا لم يروق لها وشيئًا فشيئًا يتملكنا شعور أنها تسممت من شيء.

كانت جدران المنزل رفيعة للغاية لدرجة أنه غير مسموح باستخدام المرحاض خلال فترة الظهيرة لأن صوت الغسيل كان يتسبب في إزعاج الجيران. كان الإفطار يُعدُّ في تمام الساعة السادسة وطعام الغذاء في تمام الثانية عشر وطعام العشاء يصبح معدًا على الطاولة في تمام السادسة مساءً. كانت أمي تفعل كل ما في وسعها كي تفسد هذا النظام اليومي. كانت تجعلنا نتوجه إلى الفراش في وقت متأخر، تجعلنا ننام لوقت متأخر وتصحبنا إلى الشاطئ وقت الظهيرة. لَكَمْ مَثّل هذا الأمرُ إزعاجًا شديدًا للجدة لورا. كل شيء كان لا بد أن يكون كاملًا ومريحًا كما كانت تقول. عندما كنا نريد التوجه إلى الشاطئ كانت تذهب إلى المطبخ وتبدأ بسرعة في إعداد الشطائر وتقشير التفاح.

كانـت أمـي تقـول حينهـا:" ليـس عليـك فعـل هـذا؛ سأشـتري لنـا طعامًـا مـن المتنـزه."

كان شـعر الجـدة لـورا ملفوفًـا قصـيرًا بلـون ليلـكي وكانـت رقبتهـا رفيعـة شـاحبة تفـوح منهـا دائمـة رائحـة الكولونيـا. كانـت ترشـها أيضًـا عـلى المفـارش البيضـاء الملبـدة الموضوعـة في درج منضـدة الفـراش خاصتها. كنـا نحصـل أنـا وأيكـه مـن الجـد بنيدِكـت والجـدة ليانـه عـلى المـال دومًـا عندمـا كنـا نزورهـما؛ عملـة معدنيـة فئـة الخمـس مـاركات، وورقـة نقديـة فئـة العـشر مـاركات. كانـت تعطينـا الجـدة لـورا منديـل جيـب نظيـف كل صبـاح. إذا ظـل نظيفًـا في المسـاء كانـت تطويـه بسرعـة كي ننظـف بـه أنوفنـا.

في أثنـاء وقـت الظهـيرة كانـت تجلـس معنـا في الشرفـة ثـم نلعـب أوراق الكوتشـينة أو لعبـة الليـدو، كانـت المظلـة ذات اللـون البرتقـالي تمتـد فوقنـا. كان هنـاك سـور يحدنـا عـن الأرض المجـاورة عـلى اليسـار، وكان هنـاك ردهـة مـن الزجـاج المصنفـر عـلى اليمـين. بينهـما تتجمـع الحـرارة. كانـت الشرفـة تـؤدي إلى الحديقـة فقـط، قطعـة أرض طويلـة وضيقـة مغطـاة بالحشـائش في وسـطها شـجرة كـرز قصـيرة بتـاج مسـتو. أسـفلها كانـت تجلـس أمـي وتبـدو كـما لـو أنهـا تتنصـت عـلى شيء، عـلى قليـل مـن الريـاح ربمـا.

كانـت تصيـح كل مـرة قائلـة:" يـا إلهـي، سـأختنق هنـا." عندمـا كانت الجـدة لـورا تفتـح المظلـة وتجعـل لنـا المـكان عنـد الطاولـة مريحًا.

بينـما كنـا نلعـب كانـت الجـدة لـورا تلقـي بصرهـا إلى أمـي مبديـة علامـات القلـق بوجههـا. تسـألها:" هـل تجلسـين بارتيـاح؟ " هـل أحـضر لـك كرسـيًا؟ حبيبتـي، أتريديـن أن تـشربي شـيئًا؟ هـل مـا زلـتِ جائعـة، صغـيرتي؟" عندمـا لا تـرد أمـي تقطـع الجـدة لـورا اللعـب وترسـلني أنـا

أو أيكـه لهـا كي نسـألها عـما إذا كانـت بخـير، لم تسـتطع أن تـترك أمـي في هـدوء للحظـة واحـدة.

كنـا نقـول لهـا: "هـي بخـير." لكـن الجـدة لـورا كانـت تراهـا دائمًـا متعبـة أو نحيفـة للغايـة.

مجـرد أن تـرى أمـي أحدنـا يـأتي نحوهـا كانـت تهـب واقفـة مـن عـلى الحشـائش وتتوجـه إلى المنـزل. كانـت الجـدة لـورا تنـادي عليهـا قائلـة: "حبيبتـي، هـل أنـت بخـير؟" فتجيـب هـي: "سـأذهب، مـن يريـد أن يـأتي معـي عليـه أن يكـون في السـيارة بعـد دقيقـة واحـدة."

كانـت تتوجـه إلى المدينـة أو إلى الشـاطئ أو لإحـدى صديقاتهـا. "حتى مسـاء اليـوم! لا تغضبـي منـي يـا أمـي، لكننـي أشـعر بالضيـق هنـا!"

فتنـوح لـورا قائلـة:" بمجـرد أن تـأتي إلى هنـا، تضطريـن للرحيـل، الوضـع صعـب معـكِ، صغـيرتي، كنـت كثـيرة الحركـة وأنـت صغـيرة."

فترد أمي بحدة:" لم أكن كذلك وأنا طفلة."

كانـت تدربنـي عـلى القـراءة في المسـاء، كل مسـاء. كانـت طاولـة الشرفـة تكتسي بـأوراق العمـل. تمتـد فوقنـا سـماء بلـون أزرق شـاحب، حـين تكـون المظلـة مطويـة. بـين الحـين والآخـر كانـت تهـب نسـمة خفيفـة مـن الحديقـة وترفـرف خـلال صفحـات الكتـاب. كـم تمنيـت أن تهـب عاصفـة تطيـح بـكل مـا هـو عـلى الطاولـة. الوضـع لم يكـن مريحًـا هنـا بالمـرة.

قالـت أمـي وهـي تشـير بإصبعهـا عـلى إحـدى الكلـمات التـي كنـت أحـاول فـك شـفرتها منـذ عـشر دقائق:"مـا هـذا؟" ثـم قالـت: "يـا إلهـي، لمـاذا لا تريـن المكتـوب أمامـك؟ هـذا مسـتحيل. لـو كنـتِ معاقـة أو مختلـة ربمـا كنـت أفهـم الأمـر، لكنـك في صحـة تامـة! وأنـت لسـتِ غبيـة، اجمعـي شـتات نفسـك واقـرئي!"

عندما قفزت واقفة ولم أعد راغبة في مواصلة التعلم، أمسكتني من ذراعي ووضعت خطاب ماكسميليان أمامي قائلة: "كان عليكِ أن تقرئيه! وإحضار المساعدة له في الحال! كاد عجزك أن يقضي على ماكسميليان!"

صاحت الجدة لورا من غرفة المعيشة حيث كانت تجلس في مقعدها ذي الظهر المرتفع وتشاهد التلفاز قائلة: "حبيبتي، دعي الفتاة وشأنها، ليس جيدًا أن تتحدثي معها بهذه الطريقة؛ أنت قاسية."

ردت أمي بحدة قائلة:" أؤدي هنا العمل الذي لم تنجزه تلك السمينة المدعوة روزينموللر! تبلغ من العمر الآن إحدى عشرة سنة - هل يجب أن تمضي في العالم وهي عمياء؟" ثم تركت الخطاب يسقط على الطاولة ودفنت وجهها في يديها. جلست في صمت بجوارها لم أجرؤ أن ألمسها. تسلل صوت قارئ النشرة الإخبارية من غرفة المعيشة. بعد فترة نظرت أمي إليَّ وابتسمت بإنهاك وقالت: "أنا آسفة، يا صغيرتي. تعالي، دعينا نواصل القراءة قليلًا؛ سننجح في هذا."

عندما أغلقت عيناي تمكنت من رؤية ماكسميليان واقفًا في النافذة. بسط ساقيه ورفع يديه إلى إطار النافذة، كان يبدو مثل حرف ›X كبير. ناديت عليه، في البداية لم يتفاعل، ربما كنت بعيدة عنه للغاية. " ماكسميليان! أرجوك! لا تتحرك، ابق واقفًا!" فجأة سمعني، التف ناحيتي، عندئذ فقد توازنه وسقط.

حلمت بجنازته ليلًا، كان راقدًا في نعش مفتوح. كان هناك منديل أبيض كبير حول رقبته، مثل منديل عملاق، يجمع أشلاء جمجمته التي تهشمت بفعل الارتطام.

استيقظت وأنا أصرخ. أسرعت أمي داخل الغرفة. وصاحت:"هذا الصبي، هذا الصبي المخيف! الآن يسرق منك النوم أيضًا." لكن بعد ذلك تنهدت وضمتني وسألتني:"بم تحلمين؟ لم يصب ماكسميليان بأي

مكروه. وصل والدك إليه في الوقت المناسب، لقد حكى لكِ كل شيء بالفعل."

ماكسميليان على مايرام، اهدئي الآن. هو بخير تمامًا، لم يرغب في الموت حقًا، بل عدم الذهاب إلى المدرسة الداخلية. شرب الخمر ثم - كان فعل .... لم يقصد هذا حقًا. وضح لك والدك الأمر بالفعل."

قلت بتذمر:"لكنهم سيبعدونه على الرغم من ذلك!" "إلى إنجلترا! يريدونه أن يختفي!"

أبعدتني أمي عنها بطول ذراعها ونظرت إليَّ في عيني وقالت: "توقفي الآن عن هذا الهراء، ماذا تقولين؟ ماكسميليان لديه مشكلات كبيرة، إنه يشرب الخمر، سيء في المدرسة، يكذب، ضرب زميلتك في المدرسة ..."

صرخت قائلة: "لم يفعل" لكنها تحدثت بسرعة قائلة: "تلك المدرسة الداخلية هناك هي الشيء المناسب له بالضبط، إنها مدرسة ممتازة. أنا متأكدة أنهم سيستطيعون مساعدته هناك."

حدقت بأمي قائلة:" أتريدين إبعادي؟" نظرت إلي بارتباك ثم ضحكت وضمتني قائلة: "يا إلهي، أبدًا! لا أرغب أن أنفصل عن أطفالي أبدًا!"

"لماذا يجب أن يبتعد ماكسميليان إذن؟"

تنهدت أمي: "يا إلهي، أنا، إنجلترا ليست نهاية العالم. علاوة على ذلك سيسمح له بالعودة إلى الوطن في العطلة، لا تفكري فيه بعد الآن."

أسندت وجنتي على كتفها وقلت:" ماذا إذا لم يعد مرة أخرى أبدًا؟"

ترددت أمي لفترة وجيزة، ثم أعطتني قبلة على جبهتي ووقفت قائلة: "نامي الآن واحلمي أحلامًا جميلة!"

أصدرت درجات السلم صوت طقطقة، كان باب المنزل مفتوحًا. بعد لحظة تم تشغيل نور الإضاءة الخارجية، ضوء أبيض ناصع سقط على الفراش من خلال النافذة. سمعت أمي تذهب ناحية الشارع بين صف المنازل والجراجات، كانت تسير في الطريق الضيق الذي كنت أقف فيه ليلًا لمقابلتها وهي عائدة من المدينة أو من عند أصدقاء لها. تباعد صوت طرق قدميها الحافيتين على الأرض الخرسانية. كانت أمي تقول دومًا إنها تريد أن تلتقط الهواء لفترة وجيزة، وإنها سوف تعود في الحال.

بعد مرور يومين أردنا الذهاب إلى الخالة هانّه في مدينة روستوك. قبل رحيلنا جلست في الشرفة مساءً مرة أخرى لتعلم القراءة، لكن أمي كانت تفرغ الأغراض الموجودة في السيارة المرسيدس أمام المنزل بين الجراجات، لأنه لم يكن مسموحٌ الدخول إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية بأشرطة كاسيت وكتب وجرائد أو مجلات. كانت دقيقة للغاية في هذا الأمر وكانت تقول دومًا إنّ الموجودين في الناحية الأخرى قد يضبطون شخصًا متلبسًا بأتفه شيء ويحتجزونه. " إذا فلت شخص ما مرة يغضبون بشدةن لكن في المرة التالية لن يسمحوا له بالذهاب؛ خطأ تافه و ..."

سعدت أن كتبي المدرسية ستبقى هنا. عادت أمي تحمل سلة الغسيل ممتلئة بأشرطة كاسيت وخرائط مدن ودارت حول المنزل وتوجهت إلى الشرفة وذهبت إلى غرفة المعيشة حيث كانت الجدة لورا تشاهد الأخبار. كانت تتابع الأحداث كل مساء في تشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الديمقراطية. قالت وصوتها ينم عن قلق: "حبيبتي، انظري إلى هذا. هل أنت متأكدة أنك تريدين الذهاب إلى روستوك

مـع الأطفـال في الناحيـة المقابلـة، سـيتم تدمـير كل شيء هنـاك. النـاس تهـرب في أسراب، سـتكون هنـاك فـوضى عارمـة."

جلسـت أمـي بجوارهـا عـلى مسـند المقعـد واضعـة سـلة الغسـيل عـلى ركبتهـا، حاولـت أن ألقـي نظـرة عـلى شاشـة التلفـاز إلا أن البـاب الأيمـن المصنـوع مـن خشـب البلـوط لخزانـة التلفـاز حجـب عنـي الرؤيـة.

قالـت أمـي: "لا أعتقـد أن ثمـة شـيئًا سـيتغير. إذا سـافرت معنـا ذات مـرة ستسـتطيعين أن تـرى هـذا أيضًـا -تعرفـين، لا يوجـد هنـاك بـشر بـل جـرذان، يهرولـون في الحيـاة، يتكيفـون مـع كل قـاذورات، يعرفـون كل المصائـد، ويأكلـون مـا يحصلـون عليـه."

"كريستينا، لا أحب عندما تتحدثين هكذا."

" أعرف، لم تهتمي بالحقيقة أبدًا"

قالـت الجـدة لـورا وقـد رفعـت صـوت التلفـاز: "لا تبـدئي، حالـة الطقـس؛ أفضـل عـدم ذهابكـم!"

وقفـت أمـي ووضعـت سـلة الغسـيل عـلى طاولـة غرفـة المعيشـة وخرجـت تجاهـي "ذاكـرتِ بالقـدر الـكاف، تسـتطيعين إخفـاء تلـك الأغـراض؛ نريـد الرحيـل في الصبـاح الباكـر."

كان الظـلام مخيـمًا، والجـدة لـورا لا تـزال محتفظـة ببكـرات لـف الشـعر في رأسـها ومرتديـة معطـف الحـمام فـوق ملابـس النـوم. هنـاك منديـل قـماش يخـرج مـن كمهـا الأيمـن. دائمًـا مـا كانـت تجذبـه وتربـت بـه عـلى عينيهـا. أصرت عـلى أن أشرب أنـا وأيكـه شراب الـكاكاو السـاخن قبـل الرحيـل. بينـما بـدأت أمـي تطلـق بـوق السـيارة بالفعـل، هـزت الجـدة لـورا رأسـها غاضبـة: "لِـمَ تفعـل هـذا والعـالم كلـه لا يـزال نائمًـا؟ أتعرفـون سـأصنع لكـما شـطيرة العسـل أولًا؛ امتـلأت عيناهـا بالدمـوع عـدة مـرات.

قلت وأنا أنظر إلى أيكه الذي كان لا يزال واضعًا سماعة الأذن: "أعتقد أن أمي تريد الذهاب." كان يريد سماع الموسيقى حتى آخر دقيقة. تمنيت للحظة أن أظل جالسة على مائدة غرفة المعيشة التي أعدتها الجدة لورا بشكل فاخر في المساء لطعام الإفطار. لم يَمسّ أحد الأطباق. أطلقت أمي بوق السيارة مجددًا، وقفت، أطفأت الجدة لورا الشمعة التي كانت توضع على طاولة الإفطار يوم الأحد فقط بتنهيدة وربتت على عينيها قائلة: "يا أطفال، لا أريد أن أترككما تذهبان."

نقرت على كتف أيكه الذي أراد الخروج بجهاز الووكمان. قلت له: "يجب أن تتركه هنا، ألقى إليّ نظرة غاضبة كما لو أنني أستطيع أن أفعل شيئًا حيال هذا الأمر وخطى إلى الخارج.

كانت السيارة المرسيدس أمام جراج الجدة لورا. نظرت أمي إلى الخلف أسفل المقاعد مرة أخرى وتفقدت درج القفازات والأرفف الجانبية؛ كل شيء فارغ.

سألت:" أين كنتما؟ "

"يجب على الأطفال أن تأكل شيئًا، يا كريستينا، من يعرف كم ستبقون في الطريق."

ردت أمي بانفعال: ساعتين" "إذا لم يبقوننا على الحدود فترة طويلة للغاية، قلت لك سنتناول الإفطار في روستوك، وضعت حقائبنا في منطقة القدمين أسفل المقاعد. كان صندوق السيارة مليئًا بالهدايا للخالة هانّه.

قالت أمي: جهازك الووكمان"

خلع أيكه سماعات الأذن رغمًا عنه وأعطاها للجدة لورا. عانقتها أمي لفترة وجيزة قائلة: "لا تقلقي يا أمي، سنعود إلى هنا بعد

أسبوع." ضمتني الجدة لورا أنا وأيكه بشدة قائلة:" انتبها لأنفسكما، أتمنى عودتكما سالمين!" انقطع صوتها.

جلست أنا وأيكه على ركبتنا، شاهدنا الجدة لورا خلال النافذة الخلفية واقفة على جانب الطريق وتلوح بمنديلها، لوحنا لها. بمجرد أننا لم نعد نراها توقفت أمي على جانب الطريق ونزلت من السيارة." اللعنة مرة أخرى، تجعل الأمر صعبًا عليَّ." استندت على السيارة واستهلكت خمس أعواد ثقاب حتى أشعلت السيجارة التي دخنتها ببطء وبضيق نفس.

(19)

رسالة منك؟ أمسكت الهاتف الخلوي على الفور.

لا، إنه أخي، كان يريد المرور في المساء. أنت لا تعرف رقمي بالمرة، وضعت الهاتف الخلوي جانبًا.

فُتح جهاز الكمبيوتر ببطء مُصدرًا أزيزًا. دخلت أشعة شمس قوية من النافذة وتسلطت عليه.

كم ساعة مضت على انفصالنا؟ ثلاث أو أربع ساعات تقريبًا. كم بقينا معًا، ألا توجد هذه القاعدة؟ الأمر يحتاج فترة طويلة كي نتوقف عن التفكير في شخص ما وكيف كنا معه؟

تفوح رائحتك من على بشرتي، ليس في وسعي سوى التفكير في خشب الأرز، لكنني لا أعرف كيف تكون رائحته. كتبت كلمة "شجرة الأرز" لمحرك البحث جوجل. أشجار دائمة الخضرة تحتاج إلى كثير من ضوء الشمس، هذا مناسب تمامًا. تكون أشكالًا مخروطية عمودية كبيرة. كنت أقرأ هذا بصوت يكاد يكون عاليًا. ابتسمت، أمسكت

القماش، رفعت القماش الرفيع من على بشرتي وامتصصْتُ الرائحة. تفوح رائحة خشب الأرز، لكن المقالة لم تذكر أي رائحة تلك.

رسالة أخرى، من أخي مجددًا. يسأل ما إذا كنت سأكون في المنزل مساء اليوم أيضًا. لم يرغب في الوقوف أمام بوابات موصدة.

منذ أنْ انتقلتْ "ألِيس" إلى شقته ساد حظر بالتدخين. لذا يأتي إلى هنا كل مساء تقريبًا. على الرغم من ذلك لن يمر فجأة دون سابق إنذار، حتى عندما كنا نعيش معًا، كان يطرق الباب أولًا وينتظر الإجابة. كان يكره اقتحامي لغرفته كي أحكي له شيئًا.

كتبت له رسالة أراك لاحقًا، منفضة السجائر في انتظارك، أشعلت سيجارة.

توجد صور غابات سوداء ونباتات تحت شجيرية كثيفة وأشجار عتيقة قوية على شاشة الكمبيوتر. تتسلل أشعة الشمس أحيانًا مثل البرق بين السيقان. أنا لم أُحمّل برنامج صور للشاشة، ربما كان أيكه هو من فعل ذلك، فهو يقول دائمًا: " للأسف لن أمكث إلا لفترة قصيرة." ثم لا يرحل حتى تتصل أليس كي تعرف أين هو.

تعجبني الغابات؛ تبدو غريبة وعتيقة وتكاد أن تكون خرافية، تختلف تمامًا عن تلك التي كانت موجودة خلف منزل الجدة لورا. هناك كانت أشجار التنوب والأرز متراصة ومصطفة بجوار بعضها بعضًا بدقة لدرجة أننا كنا نستطيع رؤية اللافتات التحذيرية على الخط الحدودي.

ذهبت إلى المدرسة الشاملة بالفعل في خريف عام 1989، ظهرت أمي منتصف الحصة عند باب فصلي وتبادلت بضع كلمات مع معلمتي وأشارت لي كي أتبعها، قالت بانفعال: "سنسافر إلى الجهة المقابلة."

كانت هذه هي السنة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية مرتين.

ركبنا السيارة، ملأت أمي كل الأرفف ودرج تابلوه السيارة بكتب وأشرطة كاسيت. تكدست المنطقة أسفل المقاعد بالجرائد والمجلات، قالت: "إذا تصرف هؤلاء الأوغاد الموجودون على الحدود معي بغباء، وخصوصًا الآن، إذا تجرءُوا على فعل ذلك." أدارت المحرك، ضحكت، وانطلقت السيارة.

صاح موظف الحدود غاضبًا: "جوازات السفر." أعطته أمي إياها. ألقى نظرة داخل السيارة لكنه لم يقل شيئًا. استعدنا جوازات السفر، لوَّح لنا موظف الحدود بالمرور. بدت أمي خائبة الأمل قليلًا، لم يفتش أي شيء حتى صندوق السيارة.

كان الوقت يشير إلى فترة متأخرة من المساء، وحل الظلام بالفعل. شاهدت نقطة التفتيش بأضواء شديدة تصير أصغر حجمًا خلفنا من المرآة الجانبية.

أقمنا هذه المرة لدى الخالة هانّه. أومأ لنا زوجها برأسه دون أن ينطق بكلمة واختفى في غرفة مكتبه.

بدأت هانّه في إعداد مائدة العشاء. هزت أمي رأسها وقالت: "ليس لدينا وقتٌ لذلك. يجب أن نذهب على الفور، هل ستأتين معنا؟"

"اذهبوا أنتم! وإلا سيغضب راينر مرة أخرى."

أصدرت أمي صوت طقطقة بلسانها وهي غاضبة. قالت:"أنت تتركين نفسك للضغوط، يا هانّه. أنتم تشاركون في كل ما يحدث هنا منذ وقت طويل."

"توقفي."

" إذن تعالي معي."

"كنت هناك، قبل أسبوعين، عندما كان راينر في رحلة عمل."

"انسي أمر هذا الأحمق."

مشيت أنا وأمي على أقدامنا إلى داخل المدينة، شوارع سكنية طويلة، منازل باللونين الرمادي والبني. ينبعث دخان سميك بلون مصفر من المداخن. قالت أمي وهي مستغرقة في التفكير: "مداخن عملاقة"

كان منزل والديها أمامنا. مررت عليه، في هذه اللحظة ظلت أمي واقفة عند بوابة الحديقة. مشيت تجاهها، نظرت إلى المنزل. كانت ثمة نافذة مضاءة. المطبخ، كانت الستارة تتحرك، مفتوحة لمسافة صغيرة. حدق رجل نحونا، رفعت أمي يدها، لوحت، انتفض الرجل. أُغلق الستارة، لم أتمكن إلا من رؤية ظله، ثم انطفأ النور. ضحكت أمي بهدوء. قالت:" يا له من جبان، موظف حكومة مثل راينر تمامًا."

"من هذا؟"

"والد هانّه."

"ماذا؟ لماذا يعيش في منزلك؟"

"لأنه يستطيع."

"لكن ..."

قاطعتني على الفور بقولها: " في وقت ما سأحكي لك كل شيء، لكن ليس الآن ليس هنا." ثم دفعتني إلى المضي قدمًا.

حل الظلام وكان الجو باردًا، بدا أن مصابيح الشارع تضيء لنفسها فقط .

مئات الناس؛ موكب احتفالي. أحيانًا تنطلق موجات مفاجئة من الهتافات لكنها سرعان ما تختفي مرة أخرى، مشيت أنا وأمي متأبطة ذراعها وملتصقة بها.

قالت أمي:" انظري." رفعت رأسي قليلًا، لم أرغب في أن أنفصل عنها. كان هناك بضعة رجال على جانب الطريق يصورون المتظاهرين. أخفض الناس من حولنا رؤوسهم وجذبوا طواقي ستراتهم حتى تغطي وجوههم عندما كانوا يمرون عليهم: أمن الدولة.

همست أمي قائلة: "انظري إلى هؤلاء الأوغاد، يعتقدون أنهم يصنعون الصواب ويقفون مع الجانب الصحيح. كان أبي مثلهم، نفس الشيء دومًا. كل معارفهم وأصدقائهم وحتى أسرهم قد يمرون عليهم هنا، لن يتغير شيء، لن يذهبوا معهم أبدًا."

أبطأت من مشيتي، أردت أن أرى الرجال بدقة، لكن أمي دفعتني لمواصلة السير.

قالت:" المهم أن نمضي في الطريق الصحيح فحسب، لا تقفي أبدًا."

لمست التذكرة التي كانت معلقة بين الصور القديمة على اللوح الممغنط بطرف إصبعي، كان عليّ أن آخذ شيئًا من شقتك. شممت رائحة عطر خشب الأرز مرة أخرى. أنا متعبة للغاية كي أعمل ويقظة للغاية كي أذهب للفراش.

هناك كومة من الملصقات المستطيلة بارزة من صندوق الورق المقوى في الردهة: الووكمان لأذنيك من فضلك، كان هذا مكتوبًا في كل الحافلات والقطارات في السابق. اشتريت هذا اللاصق من سوق لبيع الأغراض المستعملة.

فتحت بضعة صناديق عشوائيًا. قنينة لنبيذ التفاح، غطاء مصباح قديم من أول شقة لي، لافتات مطوية من متاحف، حزمة من بطاقات حفلات موسيقية، صندوقان من القواقع كلٌّ منهما يحمل إشارة

إلى التاريخ ومكان العثور عليها، يجب أن يكون خاتم ماكسميليان ورسالة وداعه في مكان ما. لا يوجد سبيل آخر، آسف، أحبك، يا أنّا.

أغلقت الصناديق الكرتون مرة أخرى وذهبت إلى غرفة النوم التي لم تبد بحالة أفضل من الردهة. أجزاء أرفف، أكياس كبيرة بها ملابس، عوارض فراش وألواحه، المرتبة محاطة على الأرض بجرائد وأكوام الكتب. نزلت إلى الأرض وأمسكت برواية بوليسية أقرأها في الوقت الحالي.

توجد حكاية، بل طرفة، كانت أمي ترويها دائمًا بعد عام 1989: "أولى الكلمات التي تمكنت أنّا من قراءتها بطلاقة كانت مكتوبة على نقطة تفتيش حدودية بلون ذهبي وأسود وهي: جمهورية ألمانيا الديمقراطية. خصوصًا كلمة ديمقراطية، لأول مرة تقرأ قراءة صحيحة لكن على الرغم من ذلك، على العكس تمامًا." كان هذا غريبًا للغاية لدرجة أنني أعتقد دائمًا أنها تختلق الأمر. لكن أخي يزعم أنه يستطيع تذكر الأمر، أكيد أن هذا يعني شيئًا. عندما أسأله كالسابق يقول دائمًا: "مر وقت طويل على هذا، كيف لي أن أتذكر الأمر يا أختي الصغيرة؟"

في ذاكرتي قرأت أول شيء قصة "ملكة الثلج" لأندرسين. وجدت الكتاب في صيف 1989 في رف كتب السيدة العجوز التي كنا نقيم لديها دائمًا في مدينة روستوك. عندما لم أكن أتمكن من النوم ليلًا كنت أقرأ، كنت أستطيع مع كل صفحة أن أتعرف على الكلمات أسرع. عند رحيلنا وضعت الكتاب في حقيبة الظهر، أردت أن آخذه معي. للأسف أمسكتني أمي قائلة: "يا إلهي، أنّا، ماذا حدث لكِ؟" أنتِ تعرفين أن الكتب هنا غالية الثمن! أعيديه على الفور!"

كان الهاتف الخلوي يصدر صفيرًا في المطبخ. يجب أن أرغم نفسي على تركه، عيناي تحترقان من التعب. على الرغم من ذلك لا

أستطيع النوم، نهضت، تفقدت من أرسل لي رسالة؛ أيكه مرة أخرى: حسنًا.

هذه المرة ماكسميليان! ظللت واقفة متصلبة وأخذت أتنصت. عندما كان الباب يدق دومًا يصير كل شيء بداخلي هادئًا. كان ماكسميليان في المدرسة الداخلية الإنجليزية منذ قرابة خمسة أشهر وانتظرت حتى يعود. في العطلات على الأقل، لكنه لم يأتِ، كنت أصاب بإحباط كل مرة مثل لكمة على مؤخرة الرأس.

في أمسية ممطرة للغاية في شهر نوفمبر - حيث قامت أمي بإنزال كل مصاريع النوافذ بالفعل- دق جرس الباب مجددًا. سمعت خطوة أمي السريعة في الردهة. ظلت واقفة بالباب عرفت أنها ستنظر من العدسة السحرية للباب، ثم شدت المزلاج للوراء وفتحت، سألت: "ماذا تريدين؟"

قفزت من على الفراش ونزلت مسرعة من على الدرج، كانت أمي واقفة بالباب واضعة يدها على إطار الباب كما لو أنها تريد غلق الطريق، اندفعت تجاهها. وبقيت واقفة من المفاجأة أمام امراة قصيرة بشعر أحمر كانت تحمل حقيبة يد عملاقة بلون أرجواني فاتح أمام بطنها، تمتد حمالتها بالعرض فوق صدرها؛ كانت الخالة هانّه.

حدقت بها، كدت أن أبكي. أما هي فقد مدت ذراعيها وجذبتي إليها وأعطتني قبلة بصوت على رأسي. عندما تركتني تواريت خلف أمي.

ضحكت هانّه قائلة: " تنظران إليَّ كما لو أنني شبح، ألستما سعيدتين؟ ألا تريدان السماح لي بالدخول؟" ثم مدت يدها إليَّ مرة أخرى وحاولت جذبي من خلف أمي قائلة: "أحضرت لك شيئًا معي، ألا تريدين رؤيته؟" طوقت خصر أمي.

"توقفي، هـذا يؤلمنـي." دفعـت أمـي ذراعـي بعيـدًا، خلصـت نفسـها مـن تطويقـي لهـا، ثـم ربتـت عـلى رأسي وقالـت: "عليـك أن تتمنـي مـن أعـماق قلبـك، أنـت تعرفـين مـا أقصـد."

سألت هانّه:" ما الأمر؟"

هزت أمي كتفيها قائلة: " تفتقد أفضل صديق لها."

أدخلـت هانّـه يدهـا داخـل حقيبتهـا العملاقـة وجذبـت كيسًـا صغـيراً مـن القـماش، لا، منديـل جيـب مطـوي." أيجـب أن أظهـر مـا أحضرتـه لـك؟ هـل مـا زلـتِ تجمعـين تلـك الأشـياء؟"

دقـت أمـي برفـق عـلى مؤخـرة رأسي، أومـأت بـرأسي. فتحـت يـدي، وضعـت هانّـه الحزمـة بهـا وفتحتهـا. أحجـار صغـيرة، قطعـة مـن الحشـائش مجففـة، قطعـة معـدن، قطعـة مـن السـيراميك الأزرق، أغطيـة زجاجـات كـوكا كـولا، عملـة البفينـج، ورقـة علكـة، فاتـورة شراء، شـوكة بلاسـتيكية صغـيرة حمـراء.

سـألت هانّـه: "أتمنـى أن أكـون قـد أصبـت؟ هـذا طريقـي إليكـم. أحـضرت لـك شـيئًا مـن كل محطـة. نظـرت إليهـا؛ شـعرها أشـعث، المعطـف مكرمـش، كان طـرف الشـال منسـدلًا عـلى الأرض. كانـت أعـواد مـن الحشـائش وطـين ملتصقًـا بحذائهـا، حـذاء مـترب بربـاط. هـل قطعـت الطريـق مـن روسـتوك إلى هنـا سـيراً عـلى الأقـدام؟

ابتسـمتُ، قلـت: "سـتحصل هـذه المجموعـة عـلى المركـز الـشرفي في مجموعتـي، شـكرًا، خالـة هانّـه."

فرحت وقالت:" رائع، هل سيُسمح لي إذنْ بالدخول؟"

ابتعـدت أمـي عـن البـاب، بـدت لي مـترددة. سـحبت هانّـه حمّالـة الحقيبـة مـن فـوق رأسـها وضربتهـا عـلى الأرض.

سـألت أمـي: "هـل هـذا كل مـا معـك؟" أخـذت معطـف هانّـه ودفعتـه بصعوبـة عـلى حمّالـة الملابـس، لكنـه سـقط مـرة أخـرى؛ رفعتـه بعصبيـة.

قالـت هانّـه وهـي تخلـع حذاءهـا: "ليـس معـي شيءٌ آخـر. كل مـا أملـك هـو حقيبـة يـدي." مـن الواضـح أنهـا كانـت تسـير حقًّـا، وضعـت حذاءهـا بجانـب أحذيتنـا.

دفعـت أمـي حمالـة الملابـس أخـيرًا داخـل المعطـف وعلقتـه في الخزانـة الموضوعـة في الردهـة. كانـت إحـدى الحقائـب غـير موجـودة. كان أبي مسـافرًا، رفعـت أمـي حـذاء هانّـه بأطـراف أصابعهـا ووضعتـه أمـام بـاب المنـزل.

سألت: كيف جئت إلى هنا؟"

"قطعـت المسـافة الأخـيرة في صحبـة رجـل عجـوز مرتديًـا قبعـة مـن الصـوف الخشـن. سـيارة مـن طـراز أودي بلـون أخـضر داكـن وكان يوجـد وسـائد مـن الكروشـيه في المقعـد الخلفـي. مرحبًـا في جمهوريـة ألمانيـا الاتحاديـة، أعـرف الآن كل الاسـتراحات بـين مدينتـي روسـتوك وفيزبـادن."

" أتقصديـن أنـك سـافرت تطفـلًا؟ تعرفـين بالتأكيـد مـدى خطـورة ذلـك. "

"عـلى رِسْـلك! مـاذا عسـاه أن يحـدث؟ نحـن ناضجـون. عـلاوة عـلى أننـي قابلـت مواطنـين ودوديـن فحسـب، سـألوا جميعًـا:" مـن الناحيـة المقابلـة؟ " حسـنًا، اركبـي." بـدا الأمـر لي كـما لـو أننـي تلميـذة في العطلـة. لكـن أود الآن أن أحتـسي قدحًـا مـن القهـوة، هـل لديكـم منهـا؟"

أجابت أمي:" بالطبع" لكنها ظلت واقفة في حيرة تامة.

عقـدتُ رابطـة الكيـس القـماش بحـرص، ثـم أمسـكتُ بيـد هانّـه. "تعـالي، لتريـن المطبـخ!"

قالـت أمـي: "لـن تعـرضي مزيـدًا مـن الأشـياء اليـوم، مـاذا تفعلـين هنـا أصـلًا؟ اذهبـي إلى فراشـك مـرة أخـرى، إنـه وقـت النـوم."

"دعيها، في يوم خاص مثل هذا تستطيع أن تبقى قليلًا."

رمقتني أمي بنظرة حادة: اذهبي إلى فراشك الآن!

لكـن هانّـه غمـزت بعينهـا. "أريـد أن أرى كل شيء!" كان عـليَّ أن أضحـك. دخلـت المطبـخ خلفـي "هـذه طاولـة المطبـخ مـن الرخام، نسـميها باسـم طاولـة البيسـترو، اشـتراها أبي، ثقيلـة بالنسـبة لأمـي، تعجبنـي. هنـا مـكاني، هنـاك يجلـس أيكـه وهنـا أمـي ويجلـس أبي - عندمـا يكـون موجـودًا - أسـفل صـورة الكاتـب هنـا، السـكير، اسـمه إنجليـزي ..."

قالـت هانّـه وهـي تتأمـل الصـورة الفواتوغرافيـة ذات الإطـار: "هيمنجـواي" مرتديًـا كنـزة بحـار وجالسًـا بـين شـمعة تتسـاقط منهـا قطـرات الشـمع وزجاجـة شـنابس.

"هنـا مذيـاع أمـي، ويـؤدي هـذا البـاب إلى الحديقـة، أيجـب أن أرفـع مصاريـع النوافـذ كي تتمكنـي مـن الرؤيـة؟ جمعـت أربطـة الجـذب. دقـت هانّـه عـلى كتفي."حسـنًا، هـذه تحيـة. بهـذه الطريقـة أقـدم نفسي، دعـك مـن هـذا، أمـك تنظـر بغضـب، مـن الأفضـل أن أجلـس هنـا وأنتظـر قهـوتي."

قلـت وأنـا أقـف عـلى أطـراف أصابعـي" نعـم، اجلـسي، يمكنـك اسـتخدام مقعـدي." كي أخـرج عبـوة القهـوة مـن الخزانـة العلويـة، دفعتنـي أمـي جانبًـا. مـلأت خزانـة ماكينـة القهـوة بالمـاء ووضعـت ملعقـة مـن مسـحوق القهـوة في المصفـاة. جلسـت أمـام هانّـه عـلى مقعـد أيكـه، وضعـت الحزمـة بحـرص، غمـزت لي هانّـه. لم تقـل أمـي كلمـة واحـدة بـل كانـت تنظـر إلى القهـوة وهـي تسـيل مـن المكاينـة.

بعـد فـترة قالـت الخالـة هانّـه بصـوت خفيـض مسـتفز:" عزيـزتي كريسـتينا، تبديـن محبطـة قليـلًا، هـل كنـتِ في انتظـار شـخص آخـر؟"

هـزت كتفيهـا قائلـة: "ومـن عسـاي أن أنتظـره في مثـل هـذا الوقـت؟" إلا أنهـا ارتعـدت عندمـا صفقـت هانّـه بيديهـا قائلـة: "فتحـت الحـدود. أردت رؤيتـك، أنـت أول مـن فكـرت فيـه. والآن أنـت لسـت سـعيدة بالمـرة."

قالـت أمـي وهـي تحـضر عبـوة مـن بسـكويت الزبـدة مـن الخزانـة:" بالطبـع أنـا سـعيدة." وضعـت بعـض منهـا عـلى طبـق صغـير ووضعتـه عـلى الطاولـة أمـام هانّـه، سـألت: "وكيـف ستسـير الأمـور؟"

نظـرت هانّـه في دهشـة:" لديـك هنـا مـكان كاف، ألا أسـتطيع أن أبيـت لديـك؟" ضمـت أمـي شـفتيها ورفعـت ذقنها."مثلـما كنـا لديـك، مـن فضلـك لا نريـد ضيـوف مـن الغـرب."

لوحـت هانّـه: "دعـك مـن هـذا، الأمـر كان متعلـق برايـنر، أنـتِ تعرفـين بالتأكيـد، وغرفـة الضيـوف كانـت مرتبـة أو لم تكـن؟"

قلـت وأنـا أرتعـد مـن تذكـر قميـص النـوم والأسرة ذات القضبـان التـي تصـدر صريـرًا " كانـت مرعبـة."

أشـارت أمـي بحركـة ازدراء: "هـراء، لكـن لم يكـن الوضـع جميـلًا هنـاك؛ أيـن رايـنر؟"

"في المنـزل، رفـض القـدوم معـي بالطبـع" رفعـت كتفيهـا. "الأمـر صعـب عليـه إلى حـدٍ مـا." " ووالـدك؟ أليـس الوضـع صعبًـا عليـه؟" رأيتـه أمامـي، الرجـل العجـوز الـذي كان يراقبنـا مـن فتحـة السـتارة وابتعـد مـن أمـام أمـي.

" صـار جامـدًا، لا يـأكل، لا يشـاهد التلفـاز، لا يسـمع المذيـاع، لا يريـد حتـى أن يخـرج إلى أمـام المنـزل. انتهـى العـالم بالنسـبة لـه ولرايـنر."

سـألت أمـي: وبالنسـبة لـك لا؟" ابتسـمت هانّـه ابتسـامة عريضـة قائلـة: "لا إلى حـد مـا، أليـس جنونًـا أن أكـون جالسـة عـلى طاولتـك الآن؟ أنـا لا أسـتطيع حتـى أن أصـدق أننـي في بيتـك حقًـا."

قالـت أمـي:" ولا أنـا." ثـم ابتسـمت لأول مـرة، نظـرا إلى بعضهـما فـترة طويلـة، لمـاذا لم يتعانقـا؟

قالـت هانّـه:" مـر وقـت طويـل." ابتعـدت أمـي. أخرجـت الإبريـق الزجاجـي مـن عـلى لوحـة التسـخين عـلى الرغـم مـن أن القهـوة لم تغـلي بالكامـل، سـقطت قطـرات القهـوة مصـدرة صوتًـا. قدمـت أمـي قدحًـا لهانّـه ثـم وضعـت الإبريـق بجـوار طبـق البسـكويت، مـاذا حـدث لهـا؟ لا تـزال قطـرات مـن القهـوة تتسـاقط عـلى لـوح التسـخين.

وضعـت أمـي الإبريـق الزجاجـي في حـوض الغسـيل. وقفـت ووضعتـه أسـفل المصفـاة مـرة أخـرى نظـرت إليَّ أمـي بغضـب قائلـة:" ألـن تذهبـي إلى الفـراش الآن؟ لـن أكـرر مـا قلـت."

سألت:" ما الأمر الذي مر عليه وقت طويل؟"

قالـت هانّـه:" قصـة جـدك" إلا أن أمـي واصلـت الحديـث قائلـة: " كنـا نذهـب إلى المدرسـة معًـا، والآن اذهبـي للفـراش. لا أريـد أن أسـمع منـك شـيئًا."

رمقتنـي بنظـرة لامعـة مـن عينيهـا، أجبـت نظرتهـا بعنـاد، ضممـت قبضـة يـدي.

همست أمي:" ألا تسمعين؟" اذهبي!"

دفعـت قبضـة يـدي في بطنهـا. فتحـت أمـي عينيهـا عـلى آخرهـما وتمايلـت. حاولـت أن تتنفـس الهـواء. أصابنـي الفـزع وابتعـدت. أمسـكت بطنهـا ببـطء. امتـلأت عينـاي بالدمـوع. الفـرار مـن هنـا عـلى الفـور!

لكـن أمـي أمسـكت ذراعـي. ثـم تركتـه مـرة أخـرى في الحـال. سرت بهـا رعشـة، شـعرت كـم كانـت تحـاول الوقـوف بصمـود، ثـم قالـت بهـدوء: "الأمـر لا علاقـة لـه بـكِ، أنـت لا تفهمـين، مـن فضلـك، اذهبـي الآن. دعينـي أنـا وهانّـه بمفردنـا."

(20)

أقـف ببـاب الشـقة لأرى أيكـه قادمًـا تجاهـي. جـذب طاقيـة سـترته الخـضراء التـي تشـبه سـترة الجيـش حتـى وجهـه وصعـد الـدرج كـما لـو أنـه يتسـلق جبـلًا. أخـي إمـا بطـيء جـدًا وإمـا متوتـر، ليـس هنـاك وسـط بـين الاثنـين بالنسـبة لـه. أنّـا سريعـة للغايـة بالنسـبة لـه، جامحـة كـما يقـول. ليـس غريبًـا أن يعيـش مـع امـرأة تفضـل قضـاء معظـم وقتهـا عـلى المكتـب. يقـول لي دومًـا، أختـي، مـارسي الرياضـة، تحـركي قليـلًا، عندئـذٍ لـن تتراكـم أشـياء كثـيرة هكـذا. أمـا هـو فيلعـب كـرة السـلة بحـماس، حيـث يسـتطيع أن يمـرح ويتحـرك. لكننـا لم نعـد أطفـال عليهـم التحـرك والمـرح كي يبلغـوا مرحلـة الإنهـاك التـام.

منهك بشدة كما كانت أمي تقول في السابق.

لم أصـل لهـذه المرحلـة، فشـلت دومًـا في الوصـول إلى هـذه النقطـة. مـا زلـت أتعجـب مـن أننـي خلـدت إلى النـوم بعـد فـترة قصـيرة وأنـا بـين ذراعـي كونسـتانتين، لكننـي منـذ ذلـك الحـين وأنـا يقظـة. كـم السـاعة الآن؟ حـل الظـلام في الخـارج بالفعـل.

أعـاد أيكـه طاقيـة سـترته إلى الـوراء عندمـا وقـف أمامـي. هـو أطـول مني بمسافة رأس. سألني وهـو يـضرب جبهتـه بجبهتـي: "أختـي الصغـيرة، هـل كل شيء عـلى مايـرام؟" كنـا نسـمي هـذه التحيـة ونحـن أطفـال باسـم "ارتطام الـرؤوس."

"اسمع، يا أيكه، أنت ما زلت تتذكر بالتأكيد، هذه الحفلة ..."

مـر بجـواري ليسـبقني إلى المطبـخ وهـو يقـول: "هـل مسـموح لي أولًا أن أفـرغ عبـوات الجعـة؟" ذهبـت وراءه إلى المطبـخ، أخـذ صنـدوق بـه سـت عبـوات مـن جعـة جيفـر مـن حقيبـة الظهـر خاصتـه، فتـح زجاجتـين ووضـع الباقـي في الـبرّاد." ألم تتسـوقي مـرة أخـرى، أختـي الصغـيرة، كيـف تأكلـين؟"

يعـرف تمـام المعرفـة أننـي أطلـب طعامـي، كـما كان يفعـل هـو أيضًـا سـابقًا. منـذ أن بـدأ يعيـش مـع أليـس، وهـو يطبـخ بنفسـه، لسـاعات طـوال. يسـتغرق الأمـر وقتًـا طويـلًا حتـى نجـد مـا يـؤكل في صحـن الطعـام في النهايـة.

علـق سـترته ذات القلنسـوة عـلى بـاب المطبـخ وجلـس مسـترخيًا عـلى كـرسي المكتـب. وضـع زجاجـة الجعـة بجـوار جهـاز الـلاب تـوب. لا أسـتطيع التحمـل، هـذا خطـير للغايـة. قـد يحـدث أي شيء بجـوار الجهـاز، لكـن إذا قلـت هـذا الآن، فسـوف يسـألني مجـددًا مـا إذا كنـت لم أؤمـن نصـوصي. أنـت تحتاجـين إلى أسـطوانة تخزيـن خارجيـة، يـا أختـي. توجـد خاصيـة تخزيـن رائعـة للغايـة أونلايـن...

اصطدمـت بأيكـه، تجـرع رشـفة، وضـع الزجاجـة بجـوار الـلاب تـوب مـرة أخـرى وحـك لحيتـه الداكنـة التـي لم يحلقهـا منـذ ثلاثـة أيـام. شـعره الأشـقر المائـل إلى الرمـادي المفضـض مجعـد، لـذا يحتـاج نصـف سـاعة عـلى الأقـل كل صبـاح مـن أجـل تصفيفـه؛ ابتسـم لي.

"هذه الحفلة، عندما عاد ماكسميليان أخيرًا من إنجلترا..."

سأل وتجرع رشفة: "من؟"

"ماكسميليان."

" حسنًا، يا أنّا."

" ما الأمر؟ يجب أن تكون متذكرًا هذا؟"

هـز رأسـه معترضًـا، كعادتـه عنـد طـرح هـذه الأسـئلة. أحيانًـا يخطـر ببـالي أنـه يعـاني مـن نـوع خـاص مـن الخـرف الـذي قـضى عـلى الجـزء الأكـبر مـن ذكريـات طفولتنـا وشـبابنا. ربمـا لأنـه كان يضـع سـماعات الأذن دائمًـا أو يغلـق أذنيـه إذا لم يرغـب في سـماع شيء. كنت أعتقد في السـابق أن هـذا كان مجـرد تمثيـل، لكـن اليـوم أعتقـد أنـه لا يتذكـر حقًـا إلا النصـف.

أخـرج علبـة التبـغ خاصتـه مـن جيـب البنطـال وبـدأ في لـف سـيجارة ببـطء وجديـة، لا أعـرف لمـاذا يتعـب نفسـه. يقـول إنـه عليـه معالجـة كل عقـب سـيجارة، وإلا سـيدخن أكـثر مـن الـلازم. يصنـع دائمًـا ماصـة رفيعـة معوجـة يخـرج منهـا التبـغ. غريـب أنهـا لا تحـدث هبّـة نـيران عندمـا يشـعلها.

يدخـن قليـلًا في الحقيقـة، أعتقـد أنـه لا يتذوقهـا حقًـا. يصنـع ملامـح وجـه مـع كل نفـس كـما لـو أنـه سيتسـمم.

قـال: " لم تنامـي مـرة أخـرى؟ يبـدو الأمـر هكـذا بعـض الـشيء. هـل تتقدمـين في روايتـك عـلى الأقـل...؟"

كذبت عليه:" نعم، بالطبع."

"هل يعجبك واق الشاشة؟"

"تقصد الغابات؟ نعم، جدًا."

هل رأيتيها، أي إنك لا تتقدمين."

" سخيف."

ابتسمنا لبعضنا.

احتسيت نصف زجاجة الجعة خاصتي في جرعتين. أزال أيكه رماد السيجارة ببطء، ثم أعاد السيجارة إلى فمه وأخذ نفسًا طويلًا عميقًا، ثم قال: "الآن سميتيه ماكسميليان؛ كان بالنسبة للآخرين بيكمان كلاجين."

"لا، برايتلينج؛ أراد أن يكون اسمه على اسم أبيه."

"ممكن، على كل حال كان وغدًا ومدعيًا بشعًا. ما اسم الشخص الذي كنت معه مؤخرًا؟"

"أتقصد فالك؟"

" فالك مانتي، بالضبط، هذان الفالك والبرايتلينج وناديهما اللعين للوجهاء، ماذا عنهما؟"

" لا شيء. تعرفت أمس على شخص وحاولت ان أصف له مدينة فيزبادن. أردت أن أحكي له عن حفل استقبال ماكسميليان، المنزل الضخم، السور المرتفع الكاميرات ورجال الأمن على بوابة الدخول، سيارات الجولف التي تقل الضيوف إلى حمام السباحة، للأسف هذا أول ما جال بخاطري."

" هل هو وغد إلى هذا الحد؟"

"من؟"

" صديقك الجديد."

"لا، الأمر لا يتعلق به."

" هذا جيد." تلك النغمة - تمامًا مثل أمي.

نظـرت إلى أيكـه، ضغـط سـيجارته بنفـس العنايـة التـي لفهـا بهـا. مدهـش أنـه لم يحـرق سـبابته " كان والـدا برايتلنـج وغديـن حقًـا، قاسـين وحاديـن، حتـى مـع الأخـت، تابيـا."

"أطلقـا عـلى محاولـة ماكسـميليان الانتحـار ابتـزازًا." امتعـض وجـه أيكـه، لـف رأسـه بعيـدًا. لا يريـد أن يسـمع شـيئًا عـن هـذا الأمـر. غريـب أنـه لم يغلـق أذنيـه مـرة أخـرى، سـأل: "قـد أتعاطـف مـع أي شـخص، لكـن مـع برايتلينـج؟" " آسـف، لا. كان هـو نفسـه ... لا يهـم، مـاذا أردت منـه، لا أفهـم هـذا حتـى اليـوم."

عندمـا عـاد ماكسـميليان مـن إنجلـترا صيـف عـام 1995، كانـت قـد مـرت سـت سـنوات عـلى عـدم رؤيتـي لـه. كان يمكـث في المدرسـة الداخليـة في كل العطـلات حتـى في أيـام الأعيـاد.

عرفـت بعودتـه بالصدفـة عندمـا سـمعت فتاتـين تتحدثـان عنـه في الحافلـة، قالـت إحداهـما: "مدرسـة داخليـة غاليـة هكـذا، عـلى الرغـم مـن ذلـك لم يحصـل عـلى شـهادة." أومـأت الأخـرى برأسـها قائلـة:" سـمعت أنـه حُـرِمَ مـن الامتحـان عـدة مـرات."

" ليس غريبًا، مع والدين مثل هؤلاء."

"والآن يعود إليهما، أقسم لك إن الأمور لن تسير على ما يرام."

بـدا أن كل فـرد يعـرف شـيئًا عـن ماكسـميليان فجـأة. كانـت حكايتـه عـن زوج أم شريـر وأم قاسـية القلـب معروفـة في المدينـة بأسرهـا. عـدد لا نهـائي مـن الإشـاعات المتتاليـة سـاهمت فيهـا تابيـا أيضًـا، كانـت تـزور نفـس المدرسـة التـي يـدرس بهـا أيكـه وكانـت تحـكي لـكل شـخص مـا يـود سـماعه. "مـن الممكـن أن يدفـع ماكـس ثمـن كل شيء، يرهبنـا نحـن أيضًـا باسـتمرار مـن إنجلـترا، يتسـبب دائمـا في إثـارة الغضـب، لا يريـد الحديـث معنـا أو رؤيتنـا. زرنـاه مرتـين. رحـلات الرعـب، كان الوغـد يهملنـا طـوال

الوقت ويشرب حتى الثمالة. في النهاية طردوه من المدرسة لأنه كان يرفع العلم الألماني في كل عيد قومي بريطاني."

على الرغم من ذلك كانت تابيا هي من دعت نصف المدينة إلى حفل استقبال ماكسميليان، وكذلك دعت أخي. كان ذراعاها وساقاها نحيلين للغاية، وجهها طويل وتبرز منه العظام ولها عينان كبيرتان وواسعتان. كانت تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، أصغر مني بعام. كان أيكه يطلق عليها اسم الجنية الصغيرة الغاضبة لأنها ممزقة بين الحب والغيرة، غضبت لأنه لم تتم دعوتي للحفلة.

قال أيكه:" اهدئي، ستأتين معي."

كان هناك صخب مثل ذلك الصادر عن صالة الديسكو في شارع منزل بيكمان كلاجين. اصطفت السيارات على جانبي الطريق وكانت الموسيقى تعلو من الحديقة. وقف الجيران في شرفاتهم وأمام أبواب منازلهم يراقبون ما كان يحدث في حيهم الذي كان هادئًا للغاية. كنت متوترة، حاولت أن أبدو أهدأ. كنت أصدم أيكه بودٍ في جانبه قائلة: "أتعتقد أننا سنقابل الآن حراسًا تمتلئُ وجوههم بالمساحيق وأميرات بلون وردي؟"

قال وقد بدا جادًا:" هراء." دفعني إلى المدخل ببطء. كانت ثمة سيدتان ترتديان فستانين قصيرين ضيقين بلون أسود وتتفقدان قائمة الضيوف. اللعنة! لم أرغب في أن أُطْرَدَ أمام كل تلك العيون. التففت، إلا أن أيكه أمسكني من ذراعي وأعادني إلى الصف. "هذا هو المعتاد لدى أسرة كلاجين بيكمان، كل شيء تمثيلية. مستحيل أن يعرفوا كل من دعوهم ومن لم تتم دعوتهم."

في الحقيقة تمت الإشارة إلينا بالدخول.

كانت هذه هي الفيلا، تعرفت على المكعب الأبيض بنوافذ عاكسة على شكل مزاغل مرة أخرى. الحديقة فقط هي التي تغيرت

في السنوات الماضية، لكنها تبدو الآن أكثر اصطناعية مساحات من الحشائش مستطيلة الشكل، لا توجد شجيرات أو أشجار أو أحواض. حتى نخيل الشرفة اختفى. تتأرجح سيارات الجولف على طرق تسير في شكل زاوية قائمة.

غمز أيكه بعينه وقال: "يحتاجون نظرة شاملة بالتأكيد. فَهُمْ يعانون حتمًا من هوس الملاحقة. جعلوا كل شيء هنا مسطحًا - كي لا يتسلل أي شخص خلسة إلى المنزل دون ملاحظته."

كانت الفيلا تبدو حقًا مثل نوع من المخابئ العالية المنيعة. تخيلت نفسي مثل غزال، أصدر أيكه صوت طقطقة بلسانه وقال: "أترغبين في الانطلاق بمفردك، أم ستظلين معلقة بي هكذا؟" دون انتظار إجابة، ذهب ناحية مجموعة من الفتيات اللاتي يعرفهن وحياهن بقبلات، لحقت به، ثم اكتشف أصدقاءً آخرين وتوجه ناحيتهم.

هناك مائدة طعام تصل لأمتار وبار عند حمام السباحة. كان اثنان من خادمي البار يعدان شراب الكوكتيل. إلى جانب ذلك كانت هناك سيارة رياضية بلون فضي ملصوق على لوح زجاجها الأمامي لافتة مفضضة مكتوب عليها: "أهلا بعودتك، يا ماكس! من ماما وهارالد." ربما كان المدعو هارالد هذا هو زوج أمه.

احتشد الناس في كل مكان، كانت الموسيقى عالية للغاية لدرجة أن الناس لا يمكن أن تتفاهم إلا بالصراخ. كانت موسيقى ألمانية، علاوة على أنها كانت ذات معاني سيئة، الأمر الذي بدا لي غريبًا.

رأيت فتاة صغيرة تتسول وسرقتني. رأيت السماء تبكي ولم أسأل لماذا، رأيت أنهارًا مليئة بالدموع وبحيرات مليئة بالألم، وبحيرة مليئة بالغباء، ما الذي أصاب هذا الزمن؟

ثم اكتشفت ماكسميليان، صار في طول أخي على الأقل لكنه أكثر نحافة منه. كان واقفًا في الشرفة يرتدي بدلة سوداء وقميصًا

أبيضَ، يحي الضيوف بإشارة من يده. كان شعره الفاتح الذي يقارب اللون الأبيض يصل إلى كتفه ومصففًا خلف أذنه.

ماذا حدث لنا، لا أستطيع أن أفهمنا. أعطني يدك، دعينا نحلم.

وقف الناس في صف لتحية ماكسيليان مثلما كانوا عند المدخل. على أحد جانبيه كان يقف رجل قصير برقبه ممتلئة مثل الثور مرتديًا بنطالًا ضيقًا من الجينز وسترة قصيرة خضراء اللون، هل هو نوع من الحراس الشخصيين أم حارس الباب؟

ليس ساحرًا ما أراه هنا: أرى رجال الشرطة يقتلون السود في لوس أنجلوس، أرى الحرب في يوغوسلافيا، الكراهية في وطننا، إذا أردتم تغيير شيء، فعليكم أن تبدأوا بأنفسكم.

قال أيكه:" ها هو، ألا تريدين أن تتوجهي إليه أنت أيضًا؟"

هذا هو إرثكم حتى ولو لم يعجبكم، وإذا صرتم أُناسًا أفضل فستحصلون على عالم أفضل.

لمست الخاتم الفضي الذي أرتديه في رابطة من الجلد حول رقبتي، قلت: "نعم، لكن ليس من دونك."

"أنت الآن في السادسة عشر ولم تعودي فتاة الخمس سنوات."

قلت: "عشر، كنت آنذاك في العاشرة من عمري." هز أيكه كتفيه وظل واقفًا إلى جواري، بينما كان يهز راحة قدميه بتوتر انزلقت نظرته عبر الحشد. بدا أنه كان يبحث عن شيء.

سألت: "ما نوع هذه الموسيقى؟" قال " فظيعة، أليس كذلك؟" ثم اعتدل في وقفته فجأة وقال:"حسنًا، انتظري، اكتشفت شخصًا ما هناك، سأعود على الفور." اختفى وسط الجموع، فجأة أصبحت أمام ماكسميليان، أخذ يدي. سمعت فتاة تصرخ، توقفت الموسيقى، في نفس اللحظة تقريبًا توقفت كل الأحاديث.

التففت حول نفسي.

كانت الشرفة مرتفعة قليلًا، تمكنت من رؤية حمام السباحة الكبير بيضاوي الشكل. كانت هناك حافة للقفز بارتفاع ثلاثة أمتار تقريبًا على أحد طرفي المسبح. كانت تابيا واقفة على أعلى درجة للسلم متشبثة بالسور بشكل غير ثابت. ثم ركعت على أطرافها الأربع وواصلت الزحف، كانت عارية. كان شعرها الطويل الأسود منسدلًا على وجهها. على الرغم من المسافة البعيدة تمكنت من رؤية جسدها النحيل، تكاد أن تكون هزيلة. تأرجح حاجز القفز، انتصبت تابيا بحرص، مدت ذراعيها جانبًا مثل لاعبة الأكروبات.

صرخت فتاة من مكان ما قائلة: لا تفعلي أي حماقات، انزلي." تقدمت تابيا إلى الأمام بخطوات قصيرة مهرولة. كانت تقفز للأمام وللخلف، تعثرت ثم عادت لتمشي على أطرافها الأربع، قالت باكية: "لا أحد يحبني." ضغط ماكسميليان بيده أكثر، صرخت: يا رفاق لمَ لا تحبونني؟ لا تبعدونني، أرجوكم، أرجوكم. لا أريد الذهاب إلى إنجلترا، أرجوكم، أرجوكم، سأقتل نفسي." حاولت الوقوف، ركعت على ركبتيها، تأرجح حاجز القفز، ثم عاد شخص للصراخ: " تابيا، تابيا، دعك من هذا، ألا تسمعين! انزلي!"

وقفت على قدميها، ضربت بيديها: "أترون النافذة؟ سأقفز منها الآن! سأقفز!" كان ماكسميليان لا يزال ممسكًا بيدي. قال في هدوء دون أن يحيد ببصره عن لوح القفز: "لا تستطيع السباحة." ابتسم الحارس المرتدي سترة قصيرة.

تعثرت تابيا مرة أخرى، لفت حول محورها ثم ارتطمت بجانبها من اللوح إلى الماء لأسفل. تسلق الناس الذين كانوا يسبحون خارجين من المسبح في فزع. بدأت تابيا في الصراخ عدة مرات هذه المرة صرخات أقصر ومتقطعة، طفت على سطح الماء، صرخت، ثم

غطست، أخذت تجدف بذراعيها في الماء، تخنفر وتصرخ. كنا جميعًا نشاهد ما يحدث، فجأة ترك ماكسميليان يدي ثم رفعها إلى فمه وصرخ: "ألن يخرجها أحد من هناك؟ لا تستطيع السباحة!"

في البداية لم يحرك أحدٌ ساكنًا. حتى أنا حدقت في حمام السباحة فحسب، لم أتحرك من مكاني. غطست تابيا، صعدت، ثم عادت لتغطس. في النهاية قفز شاب لمساعدتها، سبح تجاه تابيا بأنفاس سريعة متناسقة، كان أيكه!

وصل إليها بالفعل وحاول أن يمسكها من أسفل الذراعين لحملها، صارعا مع بعضهما بعضًا. جذبها إلى حافة المسبح نصف عائمًا والنصف الآخر يجدف بيديه. توقفت تابيا عن الصراخ لكنها دافعت عن نفسها بغضب.

تعين على عدد أكبر من الناس تقديم المساعدة لإخراجها من الماء.

عندما انتهى الأمر وجلس أخي على حافة المسبح تتساقط منه قطرات الماء هتف شخص ثم بدأ البعض في التصفيق. هز ماكسميليان رأسه، قال:"حمقاء، مضطربة تمامًا." ثم توجه إلى الضيف التالي خلفي في الصف.

لم يتعرف علي.

أفرغ أيكه زجاجة الجعة في جرعتين أو ثلاث جرعات كبيرة، ثم حك وجهه وفتح جهاز اللاب توب خاصتي. "يجب أن أتفقد رسائلي الإلكترونية من جهازك، تركت هاتفي الخلوي في مكان ما مرة أخرى."

تعجبت من أن أليس لم تتصل بعد، فهي لا تحب أن يتركها بمفردها. وإذا قال لها إنه لديَّ تشتكي قائلة:"أليس لأختك حياتها الخاصة؟" أستطيع أن أسمع هذا عبر الهاتف، لا أعرف ما الذي يجعلها ضدي، فأنا دائمًا من يجب عليه الانتقال من أجلها.

قـال أيكـه وهـو ينقـر عـلى هاتفـي الخلـوي الموضـوع بجـوار الـلاب تـوب:" ليـس لديـك حافظـة لهاتفـك الـذكي حتـى الآن" "مخـدوش بالكامل"

"لذا هو معي دائمًا ولا أضيعه باستمرار."

"جهازي ليس ضائعًا، بل نسيته، ربما في اجتماع الشركة."

"منذ متى وأنتم تلتقون أيام السبت؟"

"وردتني رسالة في النهاية."

وقفـت، لكـن قبـل أن أتمكـن مـن أن أمسـك هاتفـي الخلـوي كان هو قـد أخـذه. سريـع للغايـة فجـأة. "لا أعـرف الرقـم بالمـرة." رسـالة:"يجب أن أراك مـرة أخـرى، من هـذا الكونسـتي؟"

نزعتـه مـن يـده، جريـت إلى الحـمام، أغلقـت البـاب بـل أوصدتـه. ثـم جلسـت عـلى حافـة حـوض الاسـتحمام وقـرأت الرسـالة، وقـد جـاء بهـا: "يجـب أن أراكِ مـرة أخـرى!" كانـت حقًـا مـن كونسـتانتين. وصلـت قبـل أكـثر مـن سـاعة، ليتنـي لم أضـع الهاتـف الخلـوى عـلى "خاصيـة الصامـت". بمجـرد أن أردت الـرد عـلى الرسـالة أصـدر الهاتـف هـزة، رسـالة: "لا أسـتطيع الانتظـار فـترة أطـول، أمـام منزلـك يوجـد تاكـسي لا تفكـري طويـلا، حبيبتـي، تعـالي."

لا، لا أسـتطيع، لـن أفعـل، أو بـلى؟ كنـت أفكـر فيـه طـوال اليـوم، لكـن الآن ... أيجـب أن أذهـب إليـه؟ فجـأة راودني شـعور كـما لـو أن شـيئًا يسـير داخـلي ببـطء، كيـف حصـل عـلى عنـواني ورقـم هاتفـي؟ إنـه حتـى لا يعـرف لقـب عائلتـي.

عـدت إلى المطبـخ، كان أيكـه واقفًـا أمـام اللـوح الممغنـظ ويبـدو كـما لـو أنـه غـارق في تأمـل الصـور الفوتوغرافيـة التـي لم ينتبـه إليهـا أبـدًا مـن قبـل. تظهـر أمـي في إحـدى الصـور وهـي فتـاة في الحاديـة عـشرة مـن عمرهـا أمـام منـزل والديهـا. كانـت تجلـس عـلى حقيبـة مـن القـماش

صغيرة بخطوط عريضة وتضحك إلى كاميرا. ترتدي منديلًا حول رقبتها لرواد تيلمان. كانت تشبهني أكثر من أيكه بشعرها الناعم الطويل الذي يصل إلى ذقنها، ووجهها الشاحب، وسيقانها الرقيعة، وركبتيها العظميتين. ترجع الصورة لشهر يوليو عام 1961 قبل سفر أمي إلى معسكر الإجازة في جزيرة روجين. أرسلها والداها إلى هناك كي يبدو كل شيء طبيعيًا وكي لا تتم ملاحظة الاستعدادات للهروب. حكت لي أمي ذات مرة قائلة: "روجين رائعة، شاطئ وبحر الشرق وأيام طويلة مضيئة دافئة لمدة أسبوعين، ثم عدت إلى المنزل وعبرنا إلى الجانب الغربي."

سألني أيكه دون أن يحيد بصره عن الصور: "هل أنت على ما يرام، أختي."

"نعم، بالتأكيد." نظرت خارج النافذة، كانت سيارة تاكسي منتظرة حقًا على جانب الشارع.

"اللعنة، أنًا!"

نظرت حولي.

نقر أيكه على شعار"يونيفرسال شوز" الموضوع على اللوح الممغنط. "هذا يخصنا! هل سرقتيه؟"

" إنه لدي منذ شهور."

"إذا علم أحد بالأمر فسوف تفصلين!"

"حتى الآن لم يتفقده أحد."

"هوسك هذا بجمع الأشياء سيكلفك رأسك ذات مرة."

نظرت إلى الشارع مجددًا.

قال أيكه:" أنت لا تنتبهين لنفسك."

لا يزال التاكسي منتظرًا.

انظـري حولـك، أنّـا. الفـوضى العارمـة، لم تقومـي بتجهيـز الأثـاث. قبـل أن تحـضري شـيئًا جديـدًا، عليـك بترتيـب الأغـراض أولًا."

وصـل إلى نغمـة صـوت أمـي بالضبـط. " أود مسـاعدتك في هـذا. إذا أردت نسـتطيع أن نبـدأ الآن."

" أعتقد أنه يجب أن أذهب الآن."

ساد الصمت للحظة، ثم سأل:" إلى أين؟"

"إلى كونستانتين."

" هـل هـذا صديقـك الجديـد؟ بمنتهـى الجديـة، أنّـا، أفضـل أن تبقـي هنـا. تبديـن متعبـة للغايـة، شـاحبة كالأمـوات. الأفضـل أن ترقـدي في الفـراش، هـل يجـب أن أعـده لـك؟" أيـن المعـدات، أو إلى متـى توديـن النـوم عـلى المرتبـة عـلى الأرض؟"

"هل أستطيع أن استعير سترتك؟"

"ماذا؟"

"ضاعت سترتي بشكل ما، لم أتمكن من العثور عليها منذ أيام."

" ليس غريبًا، في مثل هذه الفوضى."

"من يقول هذا الرجل الذي أضاع هاتفه الخلوي."

"أتودين حقًا الذهاب؟"

كانـت السـاعة العـاشرة والربـع، ارتديـت سـترته التـي تشـبه سـترة الجيـش، كانـت فضفاضـة بالنسـبة لي، غرقـت بداخلهـا حرفيًـا. وفجـأة شـعرت أننـي أفضـل، شـعرت بأننـي اسـتعدت قـوتي. أصبحـت يقظـة تمامًـا مـرة أخـرى.

بسرعة الآن، وإلا سيرحل التاكسي!

ألقيت لأيكه قبلة بيدي، "أغلق النوافذ قبل أن تذهب."

اجري، اخرجي من الشقة!

اخرجي!

ناداني وهو يأتي خلفي: " ليست مفتوحة!" "أنّا"

قطعت نصف درجات السلم نزولًا بالفعل، رفعت بصري إلى أيكه لبرهة حيث كان محنيًا على السور، ابتسم؟ " فكري في إلقاء أحجار صغيرة على الأرض، حتى تتمكني من إيجاد طريق العودة سالمة."

لوحت له، وواصلت الجري. لحسن الحظ، خرجت من المنزل بعد رحيل التاكسي بثانية واحدة. تحرك التاكسي للتو، لوحت له بيدي، ضغط مكبح السيارة بشدة، وركبت.

(21)

صيـف 1995، ثلاثـة أيـام بعـد حفـل اسـتقبال ماكسـميليان. دخلـت أمـي إلى الغرفـة دون أن تطـرق البـاب. رمشـت بعينـي كأنني نائمـة.

قالـت: "هنـاك شـخص يريـدك." فتـاة تدعـي ميتـسي، ألم تسـمعي الجـرس؟"

سـمعته لكنـي ظننـت أن أيكـه لديـه ضيـف. أصـدر الفـراش الصغـير صريـرًا عندمـا عدلـت مـن نفـسي." ميتـسي؟ لا أعرفهـا؟"

كانـت أمـي قـد شرعـت في التوجـه إلى البـاب بالفعـل. رمقتنـي مـن فـوق كتفهـا بنظـرة عـدم فهـم قائلـة: "نقـول إنكـما عـلى موعـد للذهـاب إلى السـباحة."

هززت رأسي.

رفعـت أمـي حاجبيهـا. " لا ترسـليني إليهـا، إذا لم تكـن لديـك رغبـة." أغضبنـي أنهـا افترضـت عـلى الفـور انني أريـد التنصـل مـن المسـؤولية. "لا أعـرف فتـاة تُدعـى ميتـسي!"

تنهدت أمي باحتقار قائلة:" قولي لها هذا."

كانت بشرة ميتسي تميل إلى اللون البني المحمر، لها شعر طويل بلون أشقر فاتح وعينان بلون زرقة المياه. استطعت أن أتخيلها وهي مرتدية التنورة القصيرة البيضاء وذيل الحصان المنسدل المتأرجح في ملعب التنس. كانت حركاتها ناعمة ومرنة لكن وجهها تكسوه ملامح عنيدة. ذكرتني قليلًا بالحمقاء من مدرستي الابتدائية. كانت تلوك علكة في فمها المغلق، شممت رائحة النعناع.

سألتها: "هل أنت ميتسي؟"

أصدرت صوتًا: "مواء مواء" وأعادت شعرها بحركة من رأسها إلى الوراء فوق كتفها. كانت ترتدي فستانًا بفتحة رقبة واسعة، كان مخططًا باللونين الأبيض والأزرق يصل إلى مؤخرتها بمسافة قصيرة وكان من الأمام بفتحة رقبة واسعة حتى إنني تمكنت من رؤية الجزء العلوي من رداء البيكني ذا اللون البرتقالي.

كانت أمي واقفة عند الطرف الخلفي للممر وتراقبنا.

"يجب أن أصحبك." قالتها ميتسي وهي تشير بإصبع الإبهام خلفها صوب الشارع، حيث تقف سيارة جولف جي تي أي بزجاج داكن.

سألت أمي: "هل تعرفان بعضكما من المدرسة؟" هززت رأسي، أما ميتسي فأومأت برأسها، ومضغت العلكة.

قالت:" برايتلينج يريد أن يراك."

"ماكسميليان؟"

" لا أحد يناديه بهذا الاسم."

حسنًا. وأين هو؟"

" سأصحبك إليه."

"لماذا لم يأت بنفسه؟"

ضحكت أمي ومشت في الردهة تجاهي. " اذهبي معها." بدا صوتها هادئًا، يكاد أن يكون مبتهجًا، وأضافت: "سأبقى في البيت طوال اليوم، تستطيعين الاتصال بي إذا لم تعد لك رغبة وتريدين أن آتيَ لأصحبك."

ضمت ميتسي شفتيها، بدت للحظة كما لو أنها تريد أن تبصق علكتها في شجيرة الردندرة بجانب باب المنزل، لكنها مصتها بصوت طقطقة خلف أسنانها.

سألت:"ما الوضع الآن؟ هل ستأتين؟ برايتلينج لا يحب الانتظار."

"سأحضر أغراضي بسرعة."

بصقت ميتسي علكتها في الشارع قبل أن تستقل السيارة الجولف من جانب المقعد المجاور للسائق. انزلقت على المقعد الخلفي وأمسكت حقيبة السباحة خاصتي بذراعي الاثنين واضعة إياها على حجري. على مقعد القيادة كان يجلس صبي برقبة عريضة مرتديًا قبعة كرة البيسبول سوداء اللون وقميص تي شيرت أبيض ضيق، كان يمد ساعده مفتول العضلات ذي اللون البني على عجلة القيادة، ألم أرَه في حفل ماكسميليان؟

قال: "ميتسي، ميتسي، انتظرت طويلًا."

زمجرت قائلة:" ليس بسببي." أمسكها من مؤخرة رأسها وداعبها لفترة قصيرة، ثم التفت ناحيتي. نعم، إنه الرجل الذي كان يقف بجوار ماكسميليان في الحفل طوال الوقت مثل الحارس الشخصي. ابتسم لي، قال: "برايتلينج محق؛ أنت فتاة جميلة حقًّا، أتشوق لرؤيتك في ملابس البيكيني."

كانت أمي واقفة عند الباب وتلوح.

غـيَّر التاكـسي المسـار. تعـثر فـوق قضبـان الـترام وأحجـار رصـف الطريـق في ميـدان بيرزارينبلاتـس. انعطـف عنـد بوابـة فرانكفـورت، شـارع كارل ماكـرس آليـه. تقابلـت هنـا أنـا وكونسـتانتين أمـس. تعثرنـا ببعضنـا بعضًـا، كـما يقـال. مـر علينـا الطريـق الـذي مشـينا فيـه سـيرًا عـلى الأقـدام بسرعـة. كنـا في ميـدان شتراوسـبيرجر بلاتـس. مـترو أنفـاق شـارع شيلينجشتراسـيه. مررنـا إلى اليسـار عنـد أليكسـه، مولينـدام، شـارع لايبزيجـر شتراسـيه. دار التاكـسي للخلـف ثـم سـار مسـافة للـوراء ثـم دخـل إلى شـارع جانبـي. أبطـأ مـن حركتـه، أضـاءت لافتـة بفعـل مصابيـح السـيارة: طريـق خـاص؛ الطريـق يـؤدي إلى ممـر العـمارات العمـودي. كان كونسـتانتين يقـف أمـام أحـد المداخـل، مرتديًـا نفـس بنطـال الجينـز والكنـزة فضيـة اللـون التـي كان مرتديًـا إياهـا اليـوم صباحًـا. تسـبب الضـوء الخافـت القـادم مـن الإضـاءة الخارجيـة في جعـل بشرتـه تبـدو بيضـاء بلـون الثلـج. قبـل حتـى أن يقـف التاكـسي قفـز وفتـح البـاب قائـلًا "تجمـدت! تصـورت أنـك لـن تـأتي بالمـرة!" كنـت ملتصقـة بسـترة أيكـه ذات الطاقيـة ونزلـت. دفـع كونسـتانتين للسـائق ثـم حيـاني بقبلـة خاطفـة عـلى وجنتـي. سـأل: "مـا هـذه السـترة؟" لكنـه سرعـان مـا ابتعـد مـرة أخـرى وصعـد درجـات المدخـل.

"إنها لأخي."

فتـح البـاب بالمفتـاح، تركـه يتحـرك أمـام كتفـي وتوجـه إلى المصاعـد. مـاذا بـه، هـل هـو غاضـب منـي؟ لمـاذا إذن؟ ضغـط بإصبعـه عـلى زر المصعـد. "هـذا المصعـد اللعـين، يعلـق في مـكان مـا. بنايـة عملاقـة مثـل هـذه، يجـب أن يكـون بهـا أربعـة مصاعـد عـلى الأقـل، لكـن هنـا لـن نجـد إلا اثنـين بالطبـع، وكل هـذا أدفعـه مـن وقتـي."

سـألته: "هـل أنـت في عجلـة مـن أمـرك؟" "هـل تنـوي فعـل شيء اليـوم؟" ابتسـم باقتضـاب، فُتـح بـاب المصعـد. كانـت الكابينـة مكسـوة بألـواح مرايـا، أحدهـا كان بهـا كـسر يشـبه بيـت العنكبـوت، أحدثـت شـظايا الزجـاج صوتًـا أسـفل نعـل حـذائي، قـال كونسـتانتين: "لا تناسـبك السـترة بالمـرة." نظـر متفحصًـا في المـرآة السـليمة، أعـاد شـعره للـوراء بيديـه. "انظـري، لا يوجـد شـعرة بيضـاء واحـدة." التفـت ناحيتـي وأحنـى رأسـه كي أسـتطيع أن أرى هـذا.

أكـدت لـه بقـولي: " كلهـا أسـلاك نحاسـية." كـما لـو أنـه اسـتراح. تشـمم رائحـة مـن رقبتـي. " مـا هـذا؟ رائحتـك مثـل - مثـل رجـل."

"ربما معطر الحلاقة الخاص بأخي؟"

" نعم، لماذا ترتدين سترته؟"

"لأنني لم أتمكن من العثور على سترتي وأنا في عجلة من أمري."

" أعتقد أنك كنتِ بطيئة إلى حد ما."

سـلكت الطريـق الـذي أعرفـه، إلى غرفـة النـوم. وقفـت أمـام الفـراش وسـمعت كونسـتانين يضحـك خلفـي. "لسـت متعجـلًا لهـذا الحـد مـرة أخـرى. تعـال إلى غرفـة المعيشـة، جئـت لتـوي مـن السـباحة، بعـد ذلـك أصـير جائعًـا بشـدة، أتعرفـين؟ أعـددت لنـا طعـام سـوشي."

" أعددت؟ بنفسك؟"

"نعـم بالتأكيـد، هـذا يجعلنـي مرتاحًـا." للأسـف المطبـخ هنـا ليـس مجهـزًا عـلى الإطـلاق، انظـري." فجـأة أمسـك سـكينًا عملاقًـا، وقـف أمامـي مبـاشرة ورفعـه ببـطء، قـال: "مـن أجـل السـوشي، هـل يجـب أن أعـد كميـة إضافيـة. تسـتطيعين أن تأخذيهـا معـك فيـما بعـد، سـأهديها لـك. أسـافر بحقيبـة يـد فقـط، بسـبب الوقـت، تعرفـين، وغـير مسـموح بوضـع

سكاكين بها. لا يهم كم يبلغ ثمنها." في النهاية تركها تهوي لأسفل، ابتسم لي: "هيا، فلنأكل الآن، وإلا سأتضور جوعًا."

قلت:"أنا لا أحب السمك الميت."

نظر إليّ غير مصدقٍ. "لا يمكن، هل جربتيه؟ تعالي، حبيبتي، سأطعمك، سترين، سيعجبك مذاق السوشي الذي أعددته."

التفت، توجه إلى غرفة المعيشة بالسكين، نادى من فوق كتفه: " أكلت أسماك حية من قبل في رحلة عمل في الصين، مع شريك مُهم، دعاني للأكل في أحد مطاعم بكين الفاخرة، كانت تلك الأسماك صغيرة، أشياء مستطيلة بجلد لامع يميل إلى الزرقة. كان يتساقط منها قطرات الشنابس، يتسبب ذلك في إصابتها بحالة إغماء خفيفة لا تجعلها قادرة على القفز من الطبق ونستطيع أن نمسكها من ذيلها، ثم ابتلاعها مرة واحدة.

(22)

لم أخلـع ملابـسي، كنـت أرتـدي فـوق بنطـالي الجينـز قميصًـا رجاليًـا أبيـض فضفاضًـا سرقتـه مـن والـدي وعقدتـه فـوق حـزام البنطـال. كانـت ميتـسي تجلـس بجـواري عـلى الحشـائش في رداء البيكينـي ذي اللـون البرتقـالي. كان لهـا صـدر صغـير وثابـت وبطـن مسـطحة. لم أرتـد ملابـس البحـر خاصتـي. كـما أن عقـدة القميـص لم تعـد أنيقـة بالنسـبة لي بـل سـخيفة. حللـت العقـدة دون أن يلاحظنـي أحـد. كان القـماش مكرمشًـا كـما لـو أننـي كنـت نائمـة بالقميـص.

تمـددت ميتـسي تحـت أشـعة الشـمس، لم تنطـق بكلمـة واحـدة معـي في البدايـة وكانـت تتنهـد بعصبيـة في كل مـرة كنـت أقـول فيهـا شـيئًا، ثـم اشـترت نصـف درزينـة مـن شراب بيكولـوس مـن متجـر حـمام السـباحة وبـدأت تـشرب. بـدأت تتحـدث معـي بعـد الزجاجـة الصغـيرة الثالثـة. وعرفـت منهـا أنهـا أرادت السـفر إلى ميتشـجين بالولايـات المتحـدة لقضـاء عـام دراسي وحصلـت عـلى منحـة البرلمـان الألمـاني لذلـك. بفخـر أظهـرت لي خطابًـا مطويًـا يبلغهـا أنهـا تفوقـت عـلى كل المتقدمـين وأحـرزت أفضـل

أداء في اختبار الالتحاق. كان شعار النسر الاتحادي الغاضب المتباهي بقوته بارزًا على رأس الخطاب.

جذبت ميتسي كومة صغيرة لصور فوتوغرافية بالية من حقيبتها وأعطتها لي. يظهر في الصورة والداها الأمريكيان اللذان استضافاها هناك وأطفالهما الثلاثة، وقطتان، وكلب وبيت بشرفة.

قلت: "يبدو مريحًا." نظرت ميتسي إليَّ بعينين لامعتين وفتحت زجاجة أخرى من البيكولو.

يمتد المرج صوب شرفة مشمشة تتلألأ من أسفلها صفحة مياه حمام السباحة بلون أزرق صارخ. كانت مزارع العنب ممتدة تحت أشعة الشمس المتلألئة وتمتد المدينة في الوادي كما لو أنها تريد السريان أسفل السماء البيضاء الصافية. كانت غابات سلسلة جبال تاونوس مغطاة بالبخار المائل للزرقة على الجانب الآخر من الوادي.

على الرغم من أن حمام السباحة كان به عدد من الزوار لم يكن هناك شخص بالقرب منا. بدا الأمر كما لو أن ضيوف الحمام الآخرين يحافظون على مسافة بعيدًا عنا. تصببت عرقًا في ملابسي، جذبت ساقي وطوقتهما بذراعي، أنصتُّ إلى ميتسي. كان الحارس الشخصي واقفًا بجوارنا وهو يضم يديه، كان مطبقًا عينيه من الشمس وبدا أنه يبحث عن شخص. ينحني لأسفل لبرهة أحيانا ناحية ميتسي ويمسح على صدرها وبطنها وفخذها العلوي، وعندما تبدأ في الزمجرة يقول لها: "انتبهي، قطتي، وإلا سيصاب بنطالك ببقعة رطبة." وتبتسم.

سألتني ميتسي: "هل تحبين الولايات المتحدة الأمريكية؟"

هززت كتفي.

قال الحارس دون أن يلتفت حوله: "سألتك ميتسي شيئًا، ألا تعرفين أنه من غير اللائق عدم الإجابة؟"

لم أذهب إلى الولايات المتحدة من قبل لكن هناك بجوار حينا السكني حدود مستعمرات الجنود الأمريكان. كانوا يعيشون في بيوت لعدة أسر بلون الخوخ، تم تجهيز كل الشقق بداخلها بنفس التجهيزات. كنا نستطيع رؤية مصباح زجاجي بني اللون به زهور تقليدية برتقالية اللون خلف كل نافذة مطبخ. كان الأمريكان ودودين دومًا ويلقون التحية باللغة الإنجليزية عندما كانوا يتنزهون بكلابهم الضخمة مساءً خلال شوارعنا. كانت السيدات يصففن شعورهن بطريقة مدهشة، لكنهن كن يسرن مثل أطفالهن ببنطال قصير وتي شيرت أو ملابس رياضية. يفعلون كل شيء في غرفة المعيشة، كانت أمي تقول كثيرًا إنهم يفعلون كل شيء في غرفة المعيشة، وكان يشع منهم شيء حقًا - نوعٌ من الراحة والأمن الذاتي -، يبدو أنهم يشعرون أنهم في وطنهم في كل مكان. كانوا متواجدين لمدة سنتين أو ثلاث في ألمانيا ثم انتقلوا إلى نقطة دعم أخرى. كان الرجال يحلقون شعورهم بشدة، يرتدون أحذية بوت ثقيلة وأزياء رسمية بألوان مموهة، لكنهم كانوا يضحكون لأي شخص لدرجة أنه لا يمكن أن تصدق أنهم جنود حقًا. كانوا يقفون أحيانًا أمام منزلنا ويثرثرون مع أمي عندما كانت تنظف الدرج أو تروي أحواض النباتات في الحديقة الأمامية. ثم عشقوا ألمانيا ومدحوا كل شيء بنبرات عالية لم أسمعها من أحد من قبل. كانت أمي متحيرة، تضحك وتلوح رافضة بقولها:" لا، ألمانيا ليست جيدة في كل شيء، أنتم تعرفون تاريخنا، الحرب العالمية الثانية وخلافه، النظام الألماني وكل الفوضى المرعبة التي تسببنا فيها..." "Oh no, Germany is not all good, you know our history, World War II and so, German gründlichkeit and all that horrible mess we made . . ."

ثم تلعثمت واعتذرت على لغتها الإنجليزية السيئة، أمسكت خرطوم الحديقة أو واصلت تنظيف السلم.

في شهر أكتوبر كان الأمريكان يعلقون هيكلًا عظميًا من البلاستيك وخفافيش في الأشجار، كانوا يضعون ثمار القرع المجوفة ويحتفلون بعيد القديسين (الهالوين). لم يزينوا بيوتهم بل كانوا يملؤونها بالزينة اللامعة المفضضة في عيد الميلاد المجيد فقط. كان من الممكن رؤية الأضواء الملونة والأشياء اللامعة من بعيد. لم ينظموا حفلات شواء في الصيف، بل كانت هناك حفلات باربيكيو. كانوا يجمعون روث كلابهم في حقيبة من البلاستيك ويحملونها خلال حدائقنا الأمامية بتلقائية شديدة كي يتم فصلها في صناديق قمامتنا. لذا كتب بعض الجيران على الصناديق: من فضلك لا تلق روث الكلاب! ›No dog poop, please!‹ لكن لحسن الحظ كان والدي يصف هذا الأمر بأنه ضيق أفق. عندما كنت أنظر من النافذة وأرى جنديًا أمريكيًا مرتديًا الزي العسكري يمشي بكلبه العملاق خلال حديقتنا الأمامية كان يتملكني شعور عميق بالأمان. بالتأكيد لم يصطحبوا كلابهم إلى أي بلد ينتقلون إليه، كانوا يتركون حيوانتهم الأليفة. وجد أيكه سلحفتا ماء ميتتين في بركة المياة المجمدة بالمتنزه في أحد فصول الشتاء، هزّت أمي نفسها قائلة: "بالتأكيد فعل هذا الأمريكان."

قلت في النهاية لميتسي: " أحب شراب روت بير"

"روت بير؟"

" نعم أستطيع أن أشربها باستمرار. أهداني أحد الجنود زجاجة منها عندما كنت أقف عند سور الأسلاك الشائكة الذي كان يحيط بالمستعمرة الأمريكية، وكنت أشاهد أسرة في حفل باربيكيو.

أومأت ميتسي برأسها وبدا أنها كانت سعيدة بإجابتي، التفت الحارس لي ونظر إليّ قائلًا: "هل ترغبين في زجاجة روت بير؟"

قلت:" لا يوجد منها في ألمانيا."

ابتسم لبرهة وقال: "أستطيع أن أشتري لك واحدة، لقد استخرجت بطاقة هوية تسمح لي بدخول سوبر ماركت الأمريكان ومتاجر ملابسهم ودار السينما خاصتهم."

سألته:" وهل يسمحون لك بالدخول؟"

"بالتأكيد، كل ما عليك هو أن تدفعي الحساب بالدولار."

سألته: "ما اسمك؟" رمقني بنظرة مضطربة: "ألا تعرفين من أنا! أنا النسر، الطائر الجارح." ثم ابتسم ابتسامة عريضة ومد يده لي كما لو أننا التقينا للتو: "فالك مانتي، هذه ميتسي. قطتنا تعرفينها بالفعل، تعرفين ما هو البرايتلينج؟"

"بالتأكيد، سمكة الصابوغة، هل تعرف كل أسماء الحيوانات؟"

بدا مستمتعًا وابتسم مجددًا: "ليس لديك أي فكرة، ألم تسمعي عنا من قبل؟"

هل حكى لي أخي عنهم ذات مرة، وذكر أسماءهم في وقت ما؟ لا أستطيع تذكر أي شيء. "لا، للأسف، لكنني لا أستطيع الخروج كثيرًا في الفترة الأخيرة؛ لأنني أكتب روايتي."

سألتني ميتسي وهي تنظر لي نظرة شك تقريبًا: "ماذا تفعلين؟" لكن فالك أومأ برأسه على الفور وقال:" هل تكتبين؟ حقًا؟ رواية سميكة هكذا؟ حسنًا، هذا أمر رائع. قرأت رواية "ذئب البراري" بالمدرسة، أعجبتني للغاية، هل تعرفينها؟"

" قلت:"لا، للأسف." وحاولت أن أقدم له نفسي متعمقة في كتاب.

قال:" سأعطيها لك، قصة شائقة للغاية، يجب أن تقرئيها."

فجأة هبت ميتسي واقفة. مجموعة كبيرة من الشباب اقتحمت المرج، كانوا يحملون مناشف حول خصرهم والأجزاء العلوية من أجسامهم عارية وبها عضلات وكانوا إما قصيري الشعر وإما حليقي

الـرؤوس. لم يكـن ماكسـميليان معهـم، أشـار أحدهـم -شـاب ممتلـئ الجسـد بأنـف عريضـة تشـبه أنـف المصارعـين وشـفتين بارزتين-بإصبعـة إليّ: "لا أعرفهـا، هـل هـي نظيفـة؟ مـن أحضرهـا؟"

وضـع فالـك نفسـه أمامـي لحمايتـي، هكـذا بـدا لي الأمـر ولكمـه بلطـف في بطنـه قائـلًا: "رودي، هـذه دميـة برايتلينـج."

نظر رودي بغضب وقال: "حسنًا، ابنة القس، هل يحميها هو؟"

" بالتأكيـد، وإلا لمـا كانـت هنـا." رفـع رودي أنفـه لأعـلى وبصـق كتلـه مـن البلغـم عـلى الأرض، " مـا اسـمها؟"

"يسـميها دميـة." قـال رودي غاضبًـا: "هـذا الاسـم لا يناسـبنا عـلى الإطـلاق."

ابتسـمت ميتسـي، رمقهـا فالـك بنظـرة خاطفـة ثـم ابتسـم قائـلًا: "لـن تحصـل عـلى اسـم حيـوان، لأنهـا إنسـانة للغايـة كـما قـال برايتلينـج."

قـال رودي ضاحـكًا: "مضحـك جـدًا." لكنـه بعـد ذلـك مـد لي يـده، فأمسـكتها بارتيـاح. كانـت ضغطـة يـده دافئـة وقويـة جـدًا. "سـأقول لـك بـكل صراحـة، أيتهـا الدميـة. أنـت لا تناسـبينا لكـن إذا أراد رئيسـنا هـذا - حسـنا سـنرى مـا إذا كنـت ستسـتطيعين إثبـات نفسـك."

وزع أحـد رفاقـه زجاجـات الجعـة مـن صنـدوق تبريـد كبـير مـن البلاسـتيك. شـاب آخـر كان معـه جهـاز كاسـيت ورفـع صـوت الموسـيقى تمامًـا، ثـم مـد فالـك منشـفته بجانـب منشـفتي مباشرة وأمسـك بزجاجتين مـن الجعـة وفتحهـا بقدّاحـة أخرجهـا مـن رابطـة ملابسـه للسـباحة وأراد أن يعطينـي واحـدة، هـززت رأسي وأخـذت زجاجـة الليمـون مـن حقيبتـي.

قـرأ مـن عـلى اللاصقـة" ماتيلديـن - زيلـبر"" يبـدو الاسـم أن بـه نسـبة عاليـة مـن الكحـول" ضحـك وضرب زجاجتـه بزجاجتـي قائـلًا: "في صحتـك."

طوت ميتسي منشفتها ولفت حولنا وجلست بجانب فالك على الجانب الآخر. انبعثت موسيقى صاخبة تصم الأذن من سماعات جهاز الكاسيت. موسيقى ألمانية مرة أخرى، مثل التي كانت في الحفلة.

قبلات دموية، حبوب لاذعة، بطعم القدر، وثلاثة أميال في الساعة دائمًا.

جمع بعض ضيوف الحمام أغراضهم ورحلوا. ظهر مدير الحمام في الطرف السفلي للمرعى ونظر إلينا لأعلى. أظهر الشباب عضلاتهم وأداروا صوت الموسيقى لأعلى. أشرب نخب الأصدقاء الأخيار، الحب الضائع، الآلهة القديمة، الأهداف الجديدة، خرج صوت عال من السماعات. غنى الصبية معها بصوت عال. نمت قليلًا وشربت أكثر من اللازم، كانت آلام الرأس شعورًا مألوفًا.

اختفى مدير الحمام، ضحك الشباب. ظل رودي واقفًا أمامي. نظر إليَّ قائلًا:"هذه موسيقانا، ألا تعجبك؟" ثم نادى على صديقه: "يا صديقي، أعد تشغيل الأغنية، يبدو أن الدمية هنا من المعجبين بالعم فرانز."

استلقى فالك على ظهره، مسحت ميتسي على صدره على الفور. داعب مؤخرة رأسها مرة أخرى، رن هاتف في حقيبة ميتسي. قال فالك: "هذا برايتلنج بالتأكيد، أعطيني إياه." ناولته هاتفًا نقالًا رمادي اللون. رفع السلك الهوائي لأعلى ووقف، ابتعد عنا بضع خطوات كي يتحدث في هدوء. لم أكن أعرف شخصًا في عمرنا معه هاتف نقّال. حتى والديَّ لا يملكان جهازًا منه. أنهى فالك المكالمة ونظر إلينا: " الرئيس عالق في المدخل، هؤلاء الحمقى لا يريدون السماح لأحد منا بالدخول بعد الآن. سأذهب إلى هناك وأهتم بالأمر، أتريد الحضور معي، رودي؟"

"اهدأ، سأبقى هنا لأعتني بالفتيات." نظر إليَّ بغضب. نظرت إلى فالك باحثة منه عن مساعدة، لكنه كان قد تحرك بالفعل صوب

المدخـل. انزلقـت مسـافة للـوراء، بعيـدًا عـن رودي، ثـم وقفـت. تقـدم خطـوة تجاهـي: إلى أيـن تريديـن الذهـاب؟"

"إلى المنزل."

" انسي الأمر، لن تذهبي إلا إذا سمحت لك."

(23)

أقولها مرة أخرى: "أنا لا أحب السوشي." فيأخذ كونستانتين قطعة بعصاتين بلون الماهوجني التي اشتراها بالتأكيد مع السكاكين ويمدها لي قائلا: "جربي على الأقل!"

قطع صغيرة لونها أصفر وأخضر ملفوفة بجلد رمادي مفضض لامع. هززت رأسي قائلة: "لا، لا أريد." هل أكلت هذه الأسماك وهي حية في الصين حقًا؟"

يهب كونستانتين واقفًا ويلقى العصيان في طبقه. "ياإلهي. أنت سخيفة. لن آكل، سأذهب للاستحمام الآن." يخلع كنزته من فوق رأسه ويلقيها في ركن ويطرق باب الحمام خلفه بشدة. كأنه صبي صغير غاضب. لا، بل مثل جدي بنيدِكت. تعين علي أن أبتسم. كان يحب سمك الثعبان وسمك موسى والقد، كانت وليمة بالنسبة له، وكان يشعر بالضيق للغاية عندما لم أكن أرغب في تناول أي منها."تأتين من منطقة ساحلية ولا تأكلين سمكًا، ما هذه السخافة؟" كأنه نسيَ أن ولداي هما من ولدا عند بحر الشرق ولست أنا. مثله تمامًا، المواطن

البافاري، لم يحب أن يسمع أبدًا شيئًا عنها. كما أنه لا يتحدث باللهجة البافارية لكنه كان يستطيع الحديث بلهجة شمال ألمانيا، علمته جدتي إياها. كان يقول دائمًا إنه بدأ حياته عند خالته في مدينة لوبيك، لم يرد أن يكون له أي علاقة بهؤلاء الموجودين في بافاريا. كان مواطنًا من شمال ألمانيا، البحر، "نجمة الشاطئ خاصته" كانت تعني الحياة بالنسبة له وكل شيء حيوي وجيد يجب أن يكون من شمال ألمانيا.

غريب أنني أفكر في هذا الأمر الآن.

من أين جاء كونستانتين حقًا؟ ارتطم شيء على البلاط في الحمام، ربما إبزيم حزامه. ذهبت نحو باب الحمام وطرقته."أين ولدت، يا كونستانتين؟" فتح الماء ودخل إلى حوض الاستحمام. لا يوجد هنا دش للاستحمام. وضعت أذني على الباب، سمعت كيف يغسل جسمه بالصابون، حك وقرع على البشرة العارية. ذهبت إلى غرفة النوم وأشعلت سيجارة. كان هناك جهاز كمبيوتر ماك بوك على الطاولة، مغلقًا، إلى جانبه حافظة جلدية، تبرز منها بعض الأوراق. أعرف شعارات ورق الخطابات. أمسكت أحد الجوانب حتى تمكنت من رؤية شعار"يونيفرسال شوز". أبقيت السيجارة بين شفتي، أردت إخراج الصفحة، فجأة توقف صوت الماء في الحمام. حسنًا. لن أفعل. ربما سيلاحظ كونستانتين إذا غيرت شيئًا يخص مكان عمله. إنه هذا النمط من الرجال؛ منظم بشكل جيد، مرتب، وصارم -مع الأغراض. ربما لا يكون كذلك مع الناس، مثل أيكه أو أمي التي تلاحظ على الفور إذا اقتربت من عبوات الكريم والشامبو أو مرطبات الجسم خاصتها. كانت تغلق كل الأغطية بطريقة خاصة للغاية، حتى لا يتمكن أحد من الحصول على شيء.

"أكره أن يختفي كل شيء عندما تزورينا."" لم يعد لدي قدّاحة واحدة، وكنت تعبثين بعبوات الكريم مرة أخرى."

قبل الرحيل كنت أشتري دائمًا قسيمة لشراء العطور وألصق بها قدَّاحات، ثم تضحك وتقول: "لم أقصد هذا، أنت تأخذين كل شيء على محمل الجد."

سقط رماد من سيجارتي، تبعثر فوق الحافظة الجلدية. اللعنة. انحنيت ونفخته، في هذه اللحظة خرج كونستانتين من الحمام. بسرعة فتحت اللاب توب، ووضعت يدي على لوحة المفاتيح."هل يمكن أن أستخدم الإنترنت؟" على الفور كان كونستانتين بجواري، أنزل شاشة الجهاز لأسفل. "فيم تفكرين؟" كان وجهه غاضبًا بشدة، استنشق الهواء بصفير" لا تمسكي مرة أخرى ..." سعل بشدة ... نزع من يدي السيجارة قائلًا: "التدخين هنا ..." لهث، التهبت رئتاه، أخذ يتلوى ومسك صدره. تناول غرغرة، مثل الماء؛ ارتفع الماء لأعلى حنجرته، وفجأة هدأ. ساد الهدوء التام للحظة، ثم انتصب ببطء. كانت السيجارة لا تزال بين أصابعه، سقطت المنشفة التي كان يلفها حول خصره.

صار عاريًا أمامي، قال: " يا إلهي." ضحك بتردد وقال: "يا إلهي." هز رأسه، نظر إلي بتعجب - متعجبًا أم غير مصدق؟ ثم رفع السيجارة إلى شفتيه ومصها. أخذ نفسًا عميقًا إلى الرئتين التي خرج منهما هذا الالتهاب للتو.

" ليس مسموحٌ لك بالتدخين." أردت أن آخذ السيجارة من يده، لكنه رفعها فوق رأسه ونظر إليَّ في عيني: "لا تقتربي من أغراضي مرة أخرى."

هززت رأسي قائلة: "لا تهاجم هكذا، كونستانتين، لا يجب أن تكون حذرًا مني."

حدق بي للحظة ثم ابتسم وقال: هيا تعالي إلى الحمام معي، لنغتسل معًا؛ أنا مشتاق إليكِ." "ماذا عن عقب سيجارتي؟" أردت أن أمسك يده، وآخذ السيجارة. لكنه تفاداني بمهارة ورجع خطوة للوراء

وابتسـم مجددًا:"سـتجد مـن يدخنها فيـما بعـد." لمـع سـوار يـده الذهبـي عندمـا فتـح النافـذة وألقـى منهـا السـيجارة.

(24)

زمجـر رودي قائـلًا: "اجلـسي، سـنتحدث معًـا قليـلًا الآن." ابتسـم بسـخافة. لمحـت لـه بإشـارة أنـه معتـوه. أمسـكني مـن معصمـي، أردت ان أخلـص نفـسي، فـكال لي ضربـة في قفـصي الصـدري، سـقطت عـلى الأرض. بوثبـة واحـدة وجدتـه فوقـي.

دافعت عن نفسي: "دعني!"

ضغطتنـي في الأرض، ركلـت بذراعـي وسـاقي، أمسـك بمعصمـي. بـدا أن وزنـه سـيضغط عـليّ مخرجًـا كل الهـواء مـن قفـصي الصـدري. لهثـت، انحنـى بشـده ناحيـة وجهـي لدرجـة أننـي شـعرت بشـفتيه المبللتـين البارزتـين عـلى أذني، قـال:" أنـا لا أثـق بـك."

قاومتـه، حاولـت أن أركلـه، عندئـذ بـدأ يضحـك فجـأة وتركنـي. قفـز عـلى قدميـه ومـد لي يـده. أبعدتهـا، رفعـت نفـسي لأعـلى وأنـا أرتعـد.

ابتسم: أنت تدافعين عن نفسك، وهذا رائع."

"أنت مختل عقليًا."

"أنا لا أحب الضعفاء، ماذا بهم؟"

جـاء ماكسـميليان وفالـك يركضـان عـلى المرعـى. كانـا يلهثـان ويتصببـان عرقًـا، أمسـك ماكسـميليان بجانبـه وقـال: "دعونـا نرحـل، تسـود حالـة مـن الغضـب عنـد المدخـل."

بـدأ الجميـع يجمعـون أغراضهـم عـلى الفـور. وأغلقـوا الموسـيقى. كانـت شـفاه فالـك السـفلية مصابـة وتنـزف. مسـحها بضغطـة مـن يـده وأمسـك بمنشـفته. التـف ماكسـميليان تجاهـي، كان وجهـه يتصبـب عرقًا:"هـل سـتأتين معنـا؟"

"لقد هاجمني صديقك."

"مـن؟" ثـم نـادى: "رودي، أيهـا الوغـد!" ألقـى رودي منشـفته فـوق كتفـه وضحـك، قـال: "مـا الأمـر؟ صارعـت صغيرتـك بشـجاعة، هـي عـلى مـا يـرام حقًـا."

"تجد دائمًا سببًا لملامسة امرأة." نظر إليَّ قائلًا: "هل أنت بخير؟"

"تجاوزت الموقف."

"إنـه لا يقصـد شـيئًا سـيئًا، لكنـه فاقـد السـيطرة عـلى نفسـه. تعـالي، دعينـا نرحـل!"

"ما الأمر؟" تعبت من اللحاق بخطوته.

لحـق بـه الصبيـة الآخـرون وارتـدوا في أثنـاء الجـري القمصـان والتـي شـيرت، سـألته: "مـاذا فعلـت؟"

"لا شيء عـلى الإطـلاق. لكـن العامـلين الأوغـاد بالمسـبح اسـتدعوا الشرطـة."

تكوّن صف طويل أمام المدخل لأن كابينة تحصيل النقود كانت خاوية ولم يكن أي من مديري الحمام هناك. غادرنا حمام السباحة. كانت أصوات صفارة الشرطة قادمة من بعيد، توقف الصبية فجأة. كان الكل مرتديًا تي شيرت أو قميصًا. تم إخفاء جهاز الكاسيت والكحول في صندوق سيارة بي إم دبليو. حركت ميتسي أصابعها خلال شعرها وجمعته في ذيل حصان، بدت أشبه بلاعبة تنس شقراء ترتدي فستانًا قصيرًا.

قال ماكسميليان لها وهو يبتسم: "كم يمكنك أن تبدي بريئة." ثم مد لي ذراعه وقال: "تأبطي ذراعي، يا أنّا."

" لماذا ستأتي الشرطة؟"

"قلت، لم يحدث شيء على الإطلاق. لقد بالغ موظفو الحمام في ردة فعلهم، لكن لا تشغلي بالك. لن تقبض علينا الشرطة، يبحثون عن مثيري شغب حقيقين. مد لي يده عدة مرات: " تعالي، يا جميلتي، لن يبالوا لأمر عاشقين."

"هل تعرض أحد للإصابة؟"

"هل تريدين أن تتركيني هكذا معلقًا أم ماذا؟"

"لا!"

"ماذا تنتظرين إذن؟"

اقترب رجال الشرطة.

تأبطت ذراعه.

قال وهو يبتسم ابتسامة عريضة: "هكذا أشعر بالارتياح. تصورت أنك ستصرخين لتطلبي أبيك وأمك على الفور."

"هراء." دق قلبي بشدة.

سطع نور أزرق بين الأشجار، حمل فالك ميتسي على ظهره. لمست مؤخرة رأسه بوجنتها. كانت هناك سيارة إسعاف أمام مدخل حمام السباحة. انطلقنا، كنا قرابة اثني عشر شخصًا. بدا أن الشباب لم يعد في عجلة من أمره. جابوا خلال شارع الغابة الضيق المتعرج في تشكيلة غير مترابطة، توجهوا لأعلى إلى جبل نيروبيرج. تبعتهم أنا وماكسميليان يدًا بيد. تصدر إطارات السيارات أصوات طقطقة على الأسفلت من خلفنا، وترتطم حبات الحصى بالصفيح.

قال ماكسميليان بنغمة دردشة: "لا تلتفتيّ" وجذبني ناحيته أكثر." ابقي هادئة، هل تسمعين؟" كانت رائحته جيدة ومنعشة ونقية مثل الثلج المنعش، قال: "أشكرك لأنك كنت تكتبين لي وأنا في إنجلترا." حدقت به.

كان ثمة بوق سيارة من خلفنا. ارتعدت، لكن مجموعتنا توزعت بانسيابية - مثل ستارة مفتوحة -تحركت سيارة الشرطة ببطء. لا يزال الضوء الأزرق مضاءً، لكن الصفارة توقفت. أنزل رجال الشرطة زجاج النوافذ الجانبية وحدقوا بنا. أومأ ماكسميليان برأسه لهم. تدللت مقتربة منه، طوقت ميتسي رقبة فالك وضحكت بصوت عال: "اجري يا حصاني، اجري" جذب قبعته إلى جبينه بشدة وركل للأمام مصهلًا، ضحك الجميع. أسرعت سيارة الشرطة واختفت خلف المنعطف الثاني، قال أحد الصبية: "إذا كان هذا طريق سد، فسوف يعودون على الفور."

هز ماكسميليان كتفيه، انغلقت المجموعة مرة أخرى، وواصلت طريقها في الشارع لأعلى.

"ما زلت محتفظًا بالرسائل؛ كل رسالة. كانت حكايات رائعة. لقد رويت لي كل شيء، أعتقد لأنه لا يوجد شيء فعلتيه في السنوات الماضية لم أعرف عنه شيئًا. كما لو أننا لم ننفصل عن بعضنا قط."

" لم ترد أبدًا."

عـادت سـيارة الشرطـة، توقفـت في منتصـف الشـارع. عندمـا مشـينا مـرورًا بهـا يمينًـا ويسـارًا تحـدث أحـد رجـال الشرطـة مـع ماكسـميليان قائـلًا: "هـل أنتـم عائـدون مـن حـمام السـباحة؟"

" نعـم" ظـل ماكسـميلان واقفًـا، طوقـت خـصره بفـزع، لكنـه كان يبـدو هادئًـا للغايـة. " كان يوجـد شـجار عنيـف هنـاك، هـل رأيـت شـيئًا منـه؟"

"شـجار؟" في حـمام سـباحة أوبـل بـاد؟ مـن المؤكـد أنـك تقصـد أنـه لا يدخـل أي مشـاكس بأسـعار الدخـول تلـك؟ آمـل ألا يكـون أحـد قـد تعـرض للإصابـة؟"

" ليـس مسـموحٌ لي بقـول شيء حيـال هـذا، لكـن عـلى أيـة حـال اعتنـوا بالفتيـات! عيـد نيروبـيرج اليـوم مسـاءً، وهـو يجـذب دومًـا مثـل هـؤلاء الأشـخاص، طـاب مسـاؤك."

قـال ماكسـميلان وهـو ينظـر إلى سـيارة الشرطـة:" طـاب مسـاؤك" "هـؤلاء الأشـخاص؟ مـاذا قصـد بذلـك؟" ضحـك الآخـرون.

مجـرد أن ابتعـدت السـيارة عـن مجـال الرؤيـة، انزلقـت ميتـسي مـن عـلى ظهـر حصانهـا لأسـفل، عـاد أحـد الصبيـة إلى حـمام السـباحة كي يحـضر الخمـر وجهـاز الكاسـيت. ظـل ماكسـميليان متأبطًـا ذراعـي.

"جميل أن أراك مرة أخرى، يا أنّا."

ربـت عـلى قميـص والـدي الـذي كان ملتصقًـا عـلى ظهـري بسـبب العـرق مـن الخلـف ومكرمشًـا مـن الأمـام فـوق حـزام بنطـالي. "أصبحـت جميلـة حقًـا."

دفعـت يـده جانبًـا: "بالطبـع، ولذلـك لم تتعـرف عـليّ." نظـر إليّ مـن جانـب عينيـه بجبـين مقطـب وقـال: "مـاذا تقصديـن؟"

" كنت في حفلتك السبت الماضي."

"ماذا؟ لم لم تأت لتحيتي؟"

" أنت سخيف؟ كنت أمامك مباشرة."

"لا يمكـن، مـن المؤكـد أنـه كان ثمـة شيء في عينـي." صـارت نظرتـه رقيقـة. "أتتذكريـن؟ حكايـة ملكـة الثلـج؟ هـل قرأتينهـا؟ فجـأة اهتـزت المـرآة بشـكل مفـزع حتـى وقعـت عـلى الأرض وتهمشـت إلى قطـع، كان بعضهـا بحجـم ..."

" ... بحجـم حبـة رمـال ومـن تصبـه إحداهـا في عينـه، تظـل بداخلهـا. عندئـذ يـرى النـاس الأشـياء معكوسـة أو لا يـرون إلا المعكـوس في أي شيء. بالطبـع قرأتهـا."

ضحـك ماكسـميليان بصـوت عـالٍ لدرجـة أن الآخريـن التفتـوا لنـا. أشـار إليهـم بحركـة رأس لمواصلـة المـشي، ثـم توقـف وجذبنـي إليـه وضغـط بشـفتيه عـلى فمـي.

(25)

„كُفي عن ذلك فلا طائل منه." تزيح رأسي جانبًا. أشعر بمذاق مستحلب اللثة على لساني فأمسحه عن فمي بظهر يدي. تسحب أنت الغطاء إلى حجرك وتضم ساقيك معًا فيبدو فخذاك أشبه بفخذي صبي صغير.

أسألك: "ماذا بك؟"

„أه، لا شيء. لا بد وأن ذلك بسبب الواقي الذكري، لا أستطيع الأداء في وجوده أحيانًا." يبدو صوتك ثائرًا ولكن هناك شيء آخر، ربما خجل. أضع يدي على ظهرك عندما تستدير مبتعدًا عني. أجده مليئًا بالشامات كما لو كان ملطخًا ببقع الحبر. أداعب عمودك الفقري وألمس خلف عنقك وأذنك، بشرة وجنتك الدافئة الحليقة بنعومة. إلا أنك تزيح يدي وتقول: „دعك من هذا، لن يفلح الأمر حقًا، يؤسفني ذلك."

„هل أنا السبب؟"

„لا. بالطبع لا." ترفع تنهيدتك جناحي كتفيك بعض الشيء حتى تتلاقى بقع الشامات مع بعضها، ثم تسألني: „هل تتناولين أقراص منع الحمل؟"

„لا."

تنظر إلي من فوق كتفك، تُرى لأنك لم تتفهم ذلك أم أنك مندهش؟

تسأل: "لا؟ ألا تتناول كل النساء أقراص منع الحمل؟"

تعين علي الضحك وقلت: "أشك في ذلك، أنا لا أتناولها على أية حال."

تستدير لترقد على ظهرك وتنظر إليّ في عيني: "ولِمَ لا؟"

„ما هذا السؤال؟" ألجأ إلى سجائري وأشعل إحداها. „لأن - لأنني لا أرافق أحدًا؟ ولأني لا أمارس الجنس مع رجال أغراب في العادة؟"

تعقد ذراعيك خلف رأسك وترمقني بنظرة. ربما يكون الدخان هو ما يحرق عينيك. "رجال أغراب؟ نحن نعرف بعضنا."

„لا، لا نعرف بعضنا."

„لقد حكيتِ لي قصة حياتك كاملة."

„لم أتمالك نفسي من الضحك ثانية: „لم تكن تلك سوى نصف القصة على أقصى تقدير."

„لكنكِ وثقتِ بي كي تحكيها لي."

„هل منفضة السجائر في الشرفة ثانيةً؟

„أنتِ تتهربين مني. لا هي ليست في الشرفة، لقد وضعتها لكِ على الكومودينو."

أمسـك بهـا وأزيـح الرمـاد جانبًـا، تتنحنـح أنـت، فأطفـئ السـيجارة عـلى الفـور خشـية حـدوث نوبـة سـعال أخـرى.

تسألني قائلًا: "هلا حاولنا ببعض >الحذر<؟"

أعيد منفضدة السجائر إلى موضعها على الكومودينو ثانية.

„هل تعني دون واق ذكري؟"

„لكـم أرغـب في الشـعور بـك بشـكل صحيـح. وأنـا ليـس بي شيء إذا كنـتِ قلقـة بهـذا الصـدد. فقـد زرت الطبيـب الأسـبوع المـاضي ففحصنـي مـن قمـة رأسي حتـى أخمـص قدمـي وصـورني بالأشـعة. وكان كل شيء عـلى مـا يـرام."

تمد يدك نحوي حينما أنهض.

„ابقــي هنــا! كانــت تلــك مجــرد فكــرة؛ لأننــي أرغــب بشــدة في مضاجعتــك، إلى أيــن تهربــين؟"

„سـأذهب إلى دورة الميـاة فقـط. كل شيء عـلى مـا يـرام! سـأعود عـلى الفور."

أغلـق البـاب ورائي بالمـزلاج، ثـم أخفـض قاعـدة المرحـاض وأجلـس عليهـا وقـد رفعـت ركبتـاي عليهـا وضممتهـما إلي. أخـذ قلبـي يـدق بسرعة شـديدة وبقـوة حتـى آلمنـي.

فتـح ماكسـميليان زجاجـة الجعـة بقداحتـه وأعطاهـا لي، كنـت أُفضـل نبيـذ التفـاح، ولم أكـن قـد احتسـيت الجعـة مـن الزجاجـة مبـاشرة. لـذا أنزلتهـا بسرعـة شـديدة حتـى انبعـث منهـا الزَبَـد وتناثـر منهـا الـرذاذا عـلى وجهـي. أخـذ ماكسـميليان الزجاجـة مـن يـدي وأطبـق شـفتيه عـلى فتحتهـا وامتـص الزَبَـد.

صاح فالك: "برايتلينج، دعك من ذلك، لا ترشف ذلك!"

بصـق ماكسـميليان الزبـد وهـو يضحـك وأعـاد إلي الزجاجـة. "لا تحلـق فوقـي مثـل الصقـر أيهـا الصقـر. أنـا جسـدي خـال مـن الكحـول وسـأظل هكـذا." قبلنـي بـبرود عـلى فمـي وقـال: "اشربي ببـطء يـا دميتـي، لديـكِ مزيـد مـن الحماسـة، احـرصي ألا تضطـري للتقيـؤ."

„لن أضطر لذلك، فأنا أقدر على أكثر مما تظن."

وضـع ذراعـه حـولي وهـو يبتسـم وتابـع دفعـي. كنـا قـد قضينـا اليـوم بطولـة عـلى جبـل نيروبـيرج. حيـث احتسـينا الجعـة ونبيـذ التفـاح وتناولنـا البيتـزا التـي طلبهـا ماكسـميليان مسـتخدمًا هاتفـه المحمـول. كـما أنـه دفـع الحسـاب للجميـع.

حـل الظـلام الآن وأصبـح مهرجـان نيروبـيرج عـلى أشـده. إذ تزاحـم مئـات الأشـخاص بـين النضـد التـي تضـم أعـمال فنيـة أو أطعمـة أو خشـبة عـرض موسـيقي وقفـت عليهـا سـيدة ترتـدي ثوبًـا طويـلًا ملونًـا وتغنـي أغنيـة كنـت أعرفهـا مـن المذيـاع.

قـال شـخص يُسـمى كوبـرا: "يـا لهـا مـن هيبيـز لعينـة وهـراء يسـاري." وصـدم ماكسـميليان بطريقـة فظـة كـما لـو كانـوا رفقـة وقـال: "أعتقـد أننـي في الفيلـم الخطـأ، ألا تريـدون أن نذهـب إلى مـكان آخـر؟"

„لا، لدينا هنا ما ننجزه بعد."

"ماذا إذن؟"

كنـا جميعًـا سـكارى عـدا ماكسـميليان. فاحـت رائحـة العـرق منـا فضـلًا عـن رائحـة الجعـة وكريـم الواقـي مـن الشـمس. فكـرت في نفسـي أن هـذه هـي تحديـدًا الرائحـة التـي يجـب أن يكـون عليهـا الصيـف. رأيـت كل شيء رائعًـا كنـت أحتـسي مـن كأس الجعـة خاصتـي بحـذر وأسـتمتع بشـعور أشـبه بالسـير فـوق القطـن. عندمـا أتأرجـح كان ماكسـميليان يمسـكني بقـوة ويضمنـي إليـه ويلكـم باليـد الخاويـة نحـو رودي الـذي كان يزجـرني كي أبقـى ثابتـة دائمًـا.

تذمرت ميتسي قائلة: "أعتقد أن المكان هنا بشع. الموسيقى مزعجة والجميع كبار في السن ويتسمون بالقبح وضيق الأفق. إنها آخر أمسية لي في ألمانيا، غدًا في نفس هذا التوقيت سأكون في الولايات المتحدة، لم أتخيل أن يكون وداعي هكذا."

قال ماكسميليان: "سنغادر الحقل خلال نصف ساعة. ولكني أريد أن أرى أبي قبل ذلك." وأشار إلى ملصق دعائي يحمل أسماءً لفرق موسيقية كان معلق على لوح من خشب الأبلكاش فوق جذع شجرة كستناء قديمة، كما لو أن الشجرة ترتدي مريلة أطفال. ضحكت بخبث فوكزني ماكسميليان وقال: "هل أصابك العمى أم ماذا؟ كنت أعتقد أنك تستطيعين القراءة الآن. هل تعرفون أن دميتي كانت أمية تمامًا عندما تعرفت عليها؟"

بدأت وجنتاي في التوهج إلا أن ماكسميليان ضحك ونقر بإصبعه على اسم من أسماء الفرق لم أكن قد تمكنت من رؤيته بين كل الأسماء الأخرى: ميتشي برايتلينج والكتب المُغنية.

قالت ميتسي: "أه، اللعنة ما هذا الاسم المُحرج لفريق غنائي؟" ثم سأل فالك: "هل تريد أن تُغضب والدك العجوز مرة أخرى؟ إنه لا يستحق ذلك."

„لا تزعج نفسك بذلك، سندعه هنا يزمر في هدوء. أريد فقط أن يراني هنا مع أنّا."

سألته: "ولماذا إذن؟"

مد ماكسميليان يده ببطء، ولامس فتحة صدري والخاتم الذي ربطته برباط من الجلد حول عنقي برقة متناهية. كان صوته رقيقًا للغاية ودافئًا مثل لمسة إصبعه على بشرتي. "لقد أنقذ والدك حياتي قديمًا، أما والدي فقد فشل تمامًا. إنه شخص ضعيف للغاية مما كاد أن يكلفني حياتي. في كل مرة أُذكّره بهذا يكاد قلبه أن ينفطر، وإذا

رآني اليوم هنا مع الآنسة ابنة القِس..." ضحك، أزحت يده جانبًا. "مشاعر الانتقام مقززة."

ضاقت عيناه وقال: "هل يعلمونك مثل هذه الأمور في المدرسة الشاملة؟"

„هذا مذكور في الإنجيل؛ العهد الجديد."

„ربما أعجبتينني أكثر وأنت لا تستطيعين القراءة بعد."

أردت أن أنعته بأنه أحمق لكنني فجأة لم أنطق كلمة واحدة ثانية. مثل الأمر برمته عبئًا عليّ حتى إنني ظننت أني على وشك البكاء. يبدو أن ماكسميليان شعر بذلك فجذبني وضمني بين ذراعيه بقوة. فدفنت وجهي في صدره وهمست قائلة: "أنا آسفة، لم أكن صديقة جيدة عندما رأيتك اليوم وأنت تجلس أمام مكتب المدير، وحيدًا... لم يكن جدير بي أن أنصرف.... ثم رسالتك..."

أسكتني ماكسميليان قائلًا: „هشش! أنت أفضل صديقة عرفتها في حياتي. وإذا كنت أكثر دقة فأنت الوحيدة." داعب وجنتي وعندما ضحكت قال: نعم، بالضبط، اضحكي ثانيةً ودعي الماضي يبقى ماضيًا. لقد نجوت رغم كل هذا، لقد زادني هذا قوة. كنا مجرد أطفال آنذاك ولم يكن لدينا فرصة كي ندافع عن أنفسنا. ولكن هذا انتهى وها نحن الآن قد جاء دورنا كي نمسك بزمام الأمور ونقود القارب ثم نلقي بكل من عذبونا من على متنه."

„علينا أن نبدأ أولًا بالسيدة روزنموللر، كم كنت أكرهها حقًا."

ضحك من بين شعري، وشعرت بأنفاسه الدافئة على جلد رأسي. "طبعًا، إذا كانت هذه رغبتك فسوف نغرق هذه البقرة السمينة أولًا."

„وعجل القمر" قلتها وأنا أقهقه.

„بالضبط، والخائنة اللعينة أيضًا."

فجأة بدأت ميتسي تصيح: "كل شيء يدور! كل شيء يدور حولي!"

قفزت وماكسميليان فزعين لنتنحى جانبًا عندما سقطت بظهرها وسط النجيل وأخذت تجدف بذراعيها مثل الحيوان البري وتقول: "انظروا إلى النجوم!"

قال فالك وقد قلص ملامح وجهه مشمئزًا: "بحق السماء يا ميتسي، أنت ثملة تمامًا." فانفجر ماكسميليان ضاحكًا وأمسك بخصري ثم شدني نحو ميتسي فوق النجيل وصاح قائلًا:"انظروا إلى النجوم! كم تبدو وكأنها تركب أرجوحة دوارة، أريد مرافقتها! خذوني معكم!"

حاولت التملص في البداية ولكن ماكسميليان ظل ممسكًا بي حتى لا أتمكن من النهوض، وكان الناس يسيرون ملتفين حولنا أو يصطدمون بنا أو يتعثرون فوق سيقاننا. التفتّ وقلت له: "اتركني، سيدهسوننا تحت أقدامهم!"

ضغط ماكسميليان شفتيه عند أذني لوهلة وقال: "استرخي، لم يعد باستطاعة أحد أن يضرنا!" ثم انفجر ضاحكًا وعاود النظر إلى السماء. نعزف هذه الأغنية لكم خصيصًا لأنكم انتصرتم على أنفسكم ولم يعد هذا البلد مجالًا للمتعة.

التفت ماكسميليان بوجهه نحوي وقال: "فلتنظري إلى هذه النجوم، كيف تتلألأ وتلمع - هكذا أريد أنا أيضًا أن أكون. يجب أن ينظر الناس إليّ ويتطلعوا إليّ بإعجاب، بينما أنا لا أراهم ولا أعيرهم انتباهًا ولم أعد بحاجة إليهم على الإطلاق." ثم شرع يصرخ ثانيةً: خذوني معكم، اصطحبوني إليكم!"

عندما عدت إلى البيت صباح اليوم التالي كان صوتي قد بُح تمامًا، وأبت هذه الأغنية البشعة أن تفارق ذهني، تلك التي كان فالك يديرها مرارًا وتكرارًا: يوم سعيد! أنا الحرية. ها أنتم تعرفون ثمني اليوم. إلا أنكم للأسف لا تستطيعون دفعه حتى وإن أصبحتم الآن مواطنين من ألمانيا الاتحادية.

ظلت أمي تنتظرني طول الليل، وكانت حين أتيت تقف في البهو فتوجهت إليّ وأمسكت بوجهي ثم أخذت تنظر في عيني. تكسونا الآن نفس الألوان ولكن هل نحن حقًا سواسية؟ هل تريدون استعادة السور؟ أم ترغبون في اتخاذ مملكة هلموت وطنًا؟ "هل تشعرين بالغثيان؟" عندما أومأت برأسي أخذتني إلى الحمّام، لكني لم أفلح في الوصول إلى المرحاض. نعزف هذه الأغنية لكم خصيصًا لأنكم انتصرتم على أنفسكم ولم يعد هذا البلد مجالًا للمتعة، كانت أمي تربت على ظهري بينما أتقيأ في المغطس.

يطرق كونستانتين على باب الحمّام ويسأل: "أنّا؟ لماذا تغلقين على نفسك بالداخل؟"

ما زلت أقبع فوق غطاء المرحاض بساقين معقودتين. أنا عارية، وأشعر بالبرد.

حمّام ضيق، دون نوافذ، ليس به سوى فتحة للتهوية فوق الباب.

يعاود كونستانتين الطرق على الباب.

أصيح قائلة: "سأستحم." ثم أمد يدي نحو الصنبور من فوق المغطس وأرفع يد الصنبور لأعلى. يبدأ الماء ينساب مُحدثًا صوت خرير.

يصمت صوت كونستانتين، ثم يسأل: "كم عمرك؟"

أسند ذقني على ركبتي وأقول: "تسع وعشرون، لماذا؟"

„وليس لديكِ صديق بعد؟"

„لا، بالطبع لا." أرفع بصري فأرى بلاط القيشاني بلون خضرة الطحالب. هناك مسند أسفل المرآة عليه حاملان لفرش الأسنان، كلاهما فارغ. „لم أكن ل..... أنا لا أخون أحدًا." ولكن ربما يكون لدى كونستانتين صديقة؟ أو حتى زوجة؟ لا، فهو لا يرتدي خاتم الزواج. هناك أحد-محتمل أمي-هناك من حكى لي ذات مرة أن بعض الرجال يخلعون الخاتم عندما يسافرون.

ماذا عنك ياكونستانتين؟ هل أنت مرتبط؟"

„لا، كنت متزوجًا. ولكن هذا قبل زمن طويل. أتعرفين أنني أكبرك بعشرين عامًا؟ سأبلغ العام القادم الثانية والخمسين، هل يزعجك هذا؟"

كانت هناك حقيبة صغيرة لأغراض العناية الشخصية، قابلة للطي من الجلد الأسود مُعلقة على أسياج المدفأة، بداخلها زجاجات صغيرة الحجم على غرار الأنابيب، مثل تلك التي نجدها في الفنادق. شامبو، كريم للجسم، صابون استحمام للجسم، معهم أنبوبة في حجم إصبع الإبهام بها جِل لتثبيت الشعر من محل أدوات التجميل، مشط أسود اللون، قصافة أظافر، أربعة أعواد لتنظيف الأذن، ماكينة حلاقة كهربائية.

„أنّا، هل يزعجك ذلك؟ هل ظننتِ أنني أصغر سنًا؟"

أقول له: "إن سنك لا يشكل فارقًا بالنسبة لي على الإطلاق."

„هل صادقتِ رجلًا أكبر منك سنًا ذات مرة؟"

أكبر سنًا، يبدو وقع هذه الكلمة كما لو أنني أضاجع جدي.

„لا." أقولها متعجبة من أن منسوب المياة لا يرتفع في المغطس. ألم أضع السدادة في مكانها الصحيح.... هاهي ملقاة على حافة المغطس.

الحبل المُكون من حبات لؤلؤ فضية المثبت بها مطوي بعناية. يبدو كما لو كان قوقعة الحلزون.

يقول: "إنه حقًا الواقي الذكري فقط، يمكن أن يحدث ذلك أحيانًا."

„طبعًا." أقولها وأنهض كي أضغط السدادة على الجارور. „ليس الأمر بهذا السوء، لا تتوتر هكذا."

أسمعه يضحك ويقول: "التوتر هو اسمي الثاني."

„ما اسم عائلتك بالمناسبة؟"

يدق كونستانتين الباب ثانية ويقول: "افتحي الباب، دعيني أدخل."

„نعم، حالًا." أُخرج أنبوبة جل الاستحمام من حقيبة أغراضه الشخصية وأضغط عليها كي أُفرغ محتوياتها كاملة في ماء الاستحمام. تتصاعد على الفور جبال من الرغوة البيضاء اللامعة. أُلقي الأنبوبة الفارغة في سلة المهملات، ما هذا؟ إنه جهاز استنشاق صغير الحجم بالداخل. أخرجه من الحقيبة وأفحصه وأتشمم الجزء المخصص للفم والمسحوب لأعلى. ثم أسأله قائلة: „هل تنتابك نوبات ضيق تنفس ياكونستانتين؟

„هل تعبثين في أغراضي ثانية؟" يقولها وهو ينقر على الباب.

أفتح قفل الباب وأقول: "أعبث فقط في سلة مهملاتك، لماذا لا تقول ذلك؟ أنت ينبغي ألّا تدخن على الإطلاق، وأنا أيضًا ينبغي ألّا أدخن في وجودك."

يأخذ جهاز الاستنشاق مني ويرميه بعيدًا: "أنا لا أسمح لأحد بأن يُملي عليَّ ما أفعل وما لا أفعل، كل شيء يخضع للاشتراطات الصحيحة." يجذبني إليه ويقبل عنقي. "دعينا نكون حذرين، اتفقنا؟"

تتجـول شـفتاه بسرعـة فـوق صـدري ونهـداي ويضـم حلمـة ثديـي اليسري بقـوة، ثـم يهمـس قائـلًا: "أنـا جيـد جـدًا في الحـذر."

„أما أنا فلا."

„اسـترخي فحسـب! أريـد أن أتغلغـل داخلـك بعمـق وأشـعر بـكل خلجـة فيـكِ، اسـمحي بذلـك، ثقـي بي يـا أنّـا!"

„إلى متى ستبقى في برلين؟"

يتنهد ويقول: "هل يشكل ذلك فارقًا؟"

„ولا أية فارق."

يضغـط وجهـه في نهـدي ويمتـص بـشرتي بـين شـفتية برفـق ويقـول: "غـدًا في الصبـاح الباكـر يجـب أن أطـير عائـدًا، ولكنـي في الفـترة القادمـة سـيكون لـدي بعـض الأعـمال في برلـين بانتظـام." يمسـك بعنقـي ويدلكـه برقـة: "كـم أنـتِ متوتـرة يـا محبوبتـي الصغـيرة، انظـري لقـد امتـلأ المغطـس الآن. دعينـا نسـتحم معًـا ثـم نـرى مـا يـأتي لاحقًـا."

(26)

أتعـرف، إن أمـي ليسـت متحاملـة عـلى الرجـال. إلا أنهـا لا تثـق بهـم فحسـب بـأي أحـد. إذ تقـف حيطتهـا الشـديدة حيـال ذلـك؛ أو بالأحـرى ذلـك الشـك الـذي لطالمـا عرفتـه، والـذي ترعـرت عليـه. وهـو يداهمـك غالبًـا بشـكل مسـالم تمامًـا، ليـس سـوى اسـتدارة عـين، تقطيـب جبـين، ابتسـامة تآمريـة تلقيهـا تجاهـي. إذا حـدث وشـاهدت ذلـك ذات يـوم - لا، فأنـت بالطبـع رجـل، لـذا فهـي سـتكتفي بمعاينتـك باختصـار ثـم تطـرح عليـك عـدة أسـئلة مورطـة. ومـن المحتمـل أنـك لـن تلحـظ تقـضي عليـك لتوهـا.

وهـي نـادرًا مـا تعـبر بشـكل أكـثر وضوحًـا، لا سـيما عندمـا يسـيئ أي رجـل السـلوك وتوقـع بـه في أثنـاء ذلـك، سـواء كان هـذا الرجـل أبي أو طبيبًـا أو سياسـيًا، حيـث تقـول: "انظـري إليـه، فهـذا سـلوك نمطـي. إذ إنهـم يكذبـون عليـكِ في وجهـك مباشرةً ولكنهـم يندمـون في النهايـة رغـم ذلـك لأنهـم لم يقولـوا سـوى الحقيقـة."

لكنها تضحك في أثناء ذلك وتلوح بيدها أو ترفع حاجبيها وتدس سيجارة بين شفتيها ثم تستند بأريحية على مقعدها كما لو كانت تتابع مسرحية تجذب انتباهها، تبعث عليها الملل وتسليها في الوقت نفسه. "انظري إلى هذا الرجل."

ما زلت أذكر بالضبط أنني أبديت أمامها إعجابي ذات مرة بأحد أقراني في الفصل، وكنت حينها في الرابعة عشر أو الخامسة عشر. فقاطعتني بفظاظة وقالت إنها لا تبالي بمثل تلك الغراميات المزعجة على الإطلاق، إذ يجب أن نرى الرجال كما هم، وإلا سنتعرض لخيبة أمل مرة.

كما أنها كثيرًا ما تقول إنها "لا ترى أيًّا من الرجال في مكانة عالية"، وبناءً عليه تعين عليَّ أن أفكر دائمًا في صور البورتريهات المتربة قليلًا لرجال متقدمين في السن وعابسين، تلك الصور المعلقة في ردهات المدارس والمصالح الحكومية أو ردهات مباني البلدية: مديرون، نُظّار مدارس، عُمد أو قساوسة - جميعهم متوفون، ولكنهم خالدو الذكر. عندما ترى أمي تلك الصور تقول: "انظري إلى هؤلاء الأبطال: ناجحون وظيفيًا، ولكن كم منهم تعتقدين أنه فاشل تمامًا على صعيد الحياة الخاصة؟ كم منهم خدع زوجته وخان عائلته؟" ثم تهز رأسها وتقول: "أكاد أشعر بالرغبة في صفعهم ولكن أتعرفين؟ إنهم حتى لا يستحقون ذلك."

يكره أخي الأمر عندما تشرع أمي في هذا الحديث، لذا فهو يقول حتى يومنا هذا: "كفي عن ذلك يا أمي، دعكِ من هذا!" إلا أنني في طفولتي كنت مبهورة بذلك. ربما لأن هناك شيئًا ما بداخلي كنت أستطيع أن أشعر به بوضوح، نعم، بل وأحيانًا أراه إلا أنني لم أتمكن مطلقًا من إدراكه. مثل رائحة تذكرك بشيء-تُرى بِماذا؟ نغمة، تبدو لك معروفة دون أن تعرف تصنيفًا لها. حكاية تريد أن تحكيها،

لكنك لا تستطيع أن تستجمعها ثانيةً بينما يسيطر على عقلك السؤال، كيف كانت؟ اللعنة كيف آل الأمر إلى ذلك؟

أتعرف، أنا لم أبدأ في فهم هذا كله إلا حينما عثرت على الخال جورج ميتًا في شقته. وهو ما لم يمر عليه وقت طويل، ليس سوى عدة أشهر، اتصلت بأمي.

سألتني: "ماذا حدث؟"

حكيت لها ما حدث بصوت مرتعش، بينما لم أتمالك نفسي من البكاء باستمرار. فجأة صاحت في قائلة:"وماذا في ذلك؟ فلتكفي عن النحيب! كان أخي فاشلًا؛ شخص ضعيف ومُذرٍ. لم يكن يرغب إلا في الرحيل، الرحيل، الرحيل. ولم يدرك مفهومًا هنا والآن، لقد مات مثلما عاش. أنا أكرهه، كنت أكرهه."

فصرخت فيها وقد غلبت عليَّ نبرة أخي: "ولكن يا أمي، كُفِّي عن ذلك!"

صاحت: "لا، لطالما كرهته دائمًا. لو عرفتِ كيف حول حياتنا إلى جحيم، آنذاك - إذ كنا قد أتينا لتونا إلى الغرب، وإذا به يريد العودة إلى الديار لا محالة. العودة! أريد أن أعود أدراجي، أريد العودة إلى الديار ثانيةً، وأخذ ينتحب، العودة، العودة، أرجوكم، أريد العودة إلى الديار ثانيةً! حينها كان في الخامسة عشر وأنا في الحادية عشر. العودة، العودة، العودة. أخذ يبكي وينتحب ويقول كان يجب أن تقولوا لي، كان يجب أن تقولوا لي إنكم لن تعودوا إلى الديار، وإنها ليست مجرد إجازة. لو كنتم قلتم لي-هل كانت كريستينا تعرف ذلك؟ هل أفشوا لكِ هذا السر؟ كان ينتحب ثم يمسك بي ويهزني بعنف، كم كان طويل القامة وقويًا، وأنا لم أتجاوز الحادية عشرة؛ اضطر أبي للحيل بيننا وضرب جورج-رغم أن أبي كان رجلًا رقيقًا حقًا ولم يحدث مطلقًا وأن ضرب أيًا منا من قبل. وبعدها كان يجب أن يوضح

لجورج أننا جميعًا لسنا على ما يرام، وأنه ليس الوحيد الذي فقد بيته. إلا أنه لم يقتنع وواصل النحيب وأخذ يحكي دائمًا عن حيواناته الي تركناها في روستوك، الأرنب خاصته وقطته، التي كانت قد أنجبت صغارها قبل فرارنا بقليل. وقال إنهم سيموتون جوعًا الآن لأنه لم يعد موجودًا. وظل يؤنبني ليلًا في الفراش إذا ما كنت أعرف كيف هي ميتة مؤلمة ويسألني إذا ما كان الأمر لا يشكل لي فارقًا أم أنني لا أتذكر ذات مرة أنني ربت على فرائها المخملي أو أذكر وقع حوافرها. كان يقول مرارًا وتكرارًا لقد بدأت حياتهم لتوها، والآن...

كان الأمر أشبه بكابوس لم أتمكن من الخروج منه، إذ أبقاني أخي حبيسة داخله. علمًا بأن حيواناته كانت محل رعاية، إذ اهتم أبي وأمي بهذا الأمر بالطبع وكتبا وريقة لجارتنا وفق ما أكداه لنا بل وأقسما عليه بأغلظ الأيمانات، ولكن جورج لم يصدق ذلك. وقال إنهما كذبا علينا ذات مرة حينما أخفيا علينا أمر الفرار، وأنّى له أن يعرف ما إذا كانا يقولان الحقيقة الآن؟ وعاد ليصف لي بأدق التفاصيل كيف أن ثديي القطة الأم سيجفان تمامًا عندما لا تحصل على ما تأكله لذا لن يدر ثديها اللبن وأن الصغار سوف.... أه، رجاءً أنّا كُفِّي عن البكاء لم يكن سوى فتى تعس وقذر."

أتعرف ياكونستانتين، أنا لم أعرفه حقًا، إذ كنت ألتقيه أحيانًا مصادفة عند زيارتي للجدة لورا بينما يمر هو عليها ليحضر إليها شيئًا؛ أشياء خاصة، أتذكر ذلك: فاكهة معلبة، عبوات مسحوق الحساء، ليمون، مجلات وجرائد ممزقة، جرائد محلية ولكنها ليست أخبار لوبيك التي كانت الجدة لورا تقرأها، بل جريدة بحر البلطيق، جريدة ولاية ميكلنبورج الشعبية، وكانت هذه الجرائد في العادة قديمة وصادرة قبل أيام وأحيانًا أشهر.

كان شكل الخال جورج مختلف تمامًا عن أمي. إذ كانت هي قصيرة ونحيفة داكنة الشعر، تبدو صلبة وطيعة في الوقت نفسه. أما

هـو فـكان طويـل القامـة وعريـض المنكبـين وأشـقر. بالنسـبة لي أنـا ابنـة هيسـن، قاطنـة فيسـبادن -زونينبـيرج كان يبـدو مـن سـكان الشـمال. كـما كان للرجـل ذقـن عريـض وحـاد الزوايـا بينـما عينـاه ذاتـا اللـون الأزرق الرمـادي غائرتـان. وكان لـون عينـي أمـي أخـضر ذهبـي. فقـط الأنـف وحـده هـو مـا ورثـاه كلاهـما عـن أبيهـما عـلى حـد قـول أمـي دائمًـا، ذلـك الأنـف الـذي أورثتـه بدورهـا لأخـي إلا أنـه مـر بي مـرور الكـرام. كانـت أمـي تطلـق عليهـا اسـم المنخـار، ولكنهـا في حقيقـة الأمـر ليسـت منخـار؛ إذ أنهـا ليسـت كبـيرة أو معوجـة، بـل هي-أتعـرف هنـاك سـيارات تبـدو مثـل السـيارات ومنـازل تبـدو مثـل المنـازل وهـي لا توحـي أو تزعـم أنهـا شيء آخـر. فهـي ليسـت سـوى مـا هـي عليـه وهـي لا تعـد بالكثـير ولا تنـزوي في تواضـع لتنكـر مـا خُلقـت لأجلـه ومـا تصلـح لـه. وإذا صـح مـا يقولـه النـاس، لا سـيما أن بعـض النـاس يعتمـدون عـلى أنوفهـم أي حدسـهم ويتبعونـه كالعميـان فـلا بـد وأنهـم يقصـدون تلـك الأنـوف التـي تتمتـع بهـا عائلـة أمـي، والتـي يبـدو أنهـا لم تفلـح مـع خـالي وحـده.

أتذكـر أنـه لم يكـن يرتـدي دائمًـا سـوى القمصـان السـوداء أو ذات اللـون الرمـادي الداكـن عـلى بنطـال جينـز ماركـة "رانجلـر" أزرق داكـن أيضًـا، أو ربمـا ماركـة "لي"؛ عـلى أيـة حـال فقـد لفـت نظـري أنـه لم يكـن ماركـة ليفايـز 501، تلـك الماركـة الوحيـدة التـي كان الجميـع يرتدونهـا والوحيـدة التـي عرفتهـا أنـا.

كان الخـال جـورج يـأتي دائمًـا فجـأة وعـلى عجـل. فـما يـكاد يقـف في غرفـة المعيشـة حتـى يقـول: "يجـب أن أنـصرف عـلى الفـور." إلا أن حركاتـه كانـت تتسـم بالهـدوء وكان يقتصـد فيهـا للغايـة كـما لـو أنـه يخـشى أن يبقـى عالقًـا في مـكان مـا أو أن يزحـزح شـيئًا مـن مكانـه أو ينتزعـه إذا لم يتوخـى الحـذر، فـكان يتعامـل بحـرص مـع بطاقـات البريـد الكائنـة في صفـوف طويلـة عـلى رف الكتـب، ومـن خلفهـا ظهـر مجلـدات الكتـب خـضراء اللـون ذات الشريـط الذهبـي لأعـمال كارل مـاي الكاملـة؛

أو مـع الصـورة المُعلقـة فـوق مائـدة الطعـام والتـي تُبـين ميـدان السـوق في مدينــة روســتوك. وكان هنــاك شيء مــا غــير طبيعــي في تلــك الصــورة، ربمـا المنظـور. لطالمـا طالعتهـا ولم أفطـن مطلقًـا لسـبب اعوجـاج المظـلات المخططـة، وسـبب تباعـد البيـوت الملونـة والقراميـد. إذ كانـت الأشـكال تتخـذ انبعاجـات غريبـة وتتسـم بعـدم الوضـوح عنـد تدقيـق النظـر فيهـا.

لاحقًـا، عندمـا كـدت أن أصبـح بالغـة، أعتقـد دائمًـا أن ذلـك كان بعـد فـترة التحـول السـياسي مبـاشرة، ولكنـه لابـد وأن يكـون بعـد ذلـك بسـنوات عـدة في الحقيقـة. أعتقـد أننـي كنـت آنـذاك في الثانويـة العامـة- في وقـت مـا اسـتبدلت الجـدة لـورا صـورة سـوق روسـتوك بلوحـة زيتيـة أخـرى، كانـت مزينـة بإطـار ذهبـي بدورهـا وتبـين: طريـق، وحقـل ذرة محصـود تعلوهـما السـماء الصافيـة.

عندمـا رأت أمـي الصـورة لأول مـرة سـألتها: "لمـاذا تعلقـين صـورة طريـق ملطـخ بالطـين عـلى الحائـط؟" عـلى خـلاف أخيهـا الـذي كان يتحـرك بحـذر في بيـت أمـه، كانـت هـي تتقافـز هنـا وهنـاك كـما لـو أن كل لمسـة صغـيرة لمقبـض بـاب أو مسـند مقعـد أو حائـط ستسـبب لهـا صاعقـة كهربائيـة. كانـت الجـدة لـورا التـي تتصنـع دائمًـا بأنهـا لم تلحـظ ذلـك تسـأل: "مـا رأيـك في سـتائري الجديـدة يـا تينـا الصغـيرة؟"

„اسمي كريستينا، والستائر تبدو بشعة."

لم أكـن قـد دخلـت الشـقة التـي عـثرت فيهـا عـلى جـورج مـن قبـل مطلقًـا. إذ كنـت في زيـارة لـدى جـدتي لـورا، وكان قـد مـضى عليـه وقـت طويـل دون أن يمـر بهـا ويجلـب لهـا أكيـاس الحسـاء المجفـف والجرائـد، فبـدأ القلـق يسـاورها بشـأنه. لا أتذكـر مـا إذ كانـت لم ترغـب في أن ترافقنـي أم أننـي قلـت لهـا أني سـأذهب وحـدي أولاً. أعطتنـي عنوانـه وخارطـة ومفتـاح شـقته المثبـت في ميداليـة عـلى شـكل كـف أرنـب.

„هل هي حقيقية يا جدتي؟"

„ألا تعرفين أن هذا يجلب الحظ؟"

„كم هذا مقزز."

كسا الغضب وجه جدتي وقالت: "تشبهين أمك في ذلك!"

حرصت على أن أذهب إلى هناك بسيارة وليس على دراجة مثل الأطفال. قادني جهاز الملاحة إلى منطقة العمارات الشاهقة واسمها البقرة الملونة ولم تكن سوى صحراء أبنية خرسانية في ألمانيا الشرقية سابقًا. كانت شقة جورج ذات الحجرة الواحدة في الطابق التاسع بأحد الأبنية الضخمة المكسية باللون الليلكي. كانت هناك نافذة واحدة فقط بدت وكأنها تزحزحت قليلاً أسفل سقف الحجرة، مثل نافذة القبو التي تضطر لأن تشب على أطراف الأصابع لتنظر منها. تسلل ضوء الشمس من خلالها إلى الداخل، لا، بل إلى أسفل. ورغم أن الحجرة كانت مُدفأة إلا أنها بدت باردة وبيضاء مثل ضوء النيون أخذت الأرضية الفينيل متيبسة من فرط القذارة.

كانت كل قطع الأثاث من عند الجدة لورا: خزانة حائطية ضخمة من خشب البلوط لها أبواب زجاجية، أريكة زرقاء مزركشة بالورود، أباجورة تشبه الشمعدان مظللة بقماش مخملي له إطار ذهبي وشراشيب. استطعت أن أتذكر بعض الصور من طفولتي: أرتدي الحفاضات وأجلس على حجر جدتي، والأباجورة في الخلفية. أنا وأخي نرتدي البيجامات أمام خزانة الحائط الكائن بداخلها البيت المصنوع من قطع الليجو والذي كنا نضعه أمام الكاميرا بكل فخر.

كانت تلك هي أولى قطع الأثاث التي اقتنتها الجدة لورا في ألمانيا الغربية. إذ كانت قد قضت فترة طويلة بين الصناديق والحقائب وظلت توفر كي تتمكن من سداد ثمنها. وهي لم ترغب في اقتناء قطعة جديدة وراء الأخرى، كما لم ترغب في التوسع ببطء، بل أرادت أن تشتري كل شيء دفعة واحدة وظلت تسدد الأقساط طوال ستة

أعـوام. كانـت تقـول إن كل شيء يجـب أن يتناسـق مـع بعضـه، بحسـب مـا روتـه لي أمـي. لازال بإمـكاني سـماع دوي احتقارهـا لهـذه الفكـرة حـين كانـت تقـول: "كـما لـو أن أي شيء لدينـا كان يتوافـق مـع غـيره." لا، ليـس هـذا صحيحًـا، لم تتفـوه بمثـل تلـك العبـارة. بـل كانـت تقـول أشـياءَ مثـل: "لـن أسـمح مطلقًـا بوجـود خزانـة حائطيـة في منـزلي. لا ينبغـي أن تُعلـق الصـور لتتوسـط الحائـط فـوق السريـر أو الأريكـة، سـوف نقتنـي قطـع الأثـاث الواحـدة وراء الأخـرى، لا بـد وأن ينمـو تأثيـث المـكان معنـا وإلا لمـا كان لـه تأثـير عضـوي.

وهـي لا تحتمـل البيـت الـذي تقطنـه جـدتي بـين صـف مـن البيـوت المتجـاورة مطلقًـا لهـذا السـبب تحديـدًا.

لا أعتقـد أن الخـال جـورج قـد شـغل بالـه ذات مـرة بمثـل هـذه الأفـكار. فهـو لم يمتلـك سريـرًا مـرة واحـدة، إذ يبـدو أنـه كان ينـام عـلى الأريكـة ثنائيـة المقاعـد، بينـما كان هـو طويـل القامـة. فقـد رأيـت مـلاءة السريـر مفروشـة عليهـا، تلـك التـي تحمـل شـعار نـادي هانـزا روسـتوك لكـرة القـدم. كان الـدولاب الحائطـي ممتلئًـا عـن آخـره: ملفـات حفـظ مسـتندات وكتـب وعلـب مـن الـورق المقـوى وأكيـاس بلاسـتيكية وجرائـد ومجـلات وأكـوام مـن صناديـق الكرتـون بينهـا قطـط صغـيرة أو أرانـب؟ مـن البورسـلين. لم تعـد أبـواب الـدولاب تنغلـق، حيـث كانـت بقايـا أقمشـة تـبرز منهـا، جـوارب فرديـة وقمصـان وجـوال بطاطـس فـارغ. وفي المطبـخ الصغـير للغايـة امتـلأ المـكان بأكيـاس قمامـة منتفخـة، كـما تكدسـت الأطبـاق المتسـخة في الحـوض حتـى امتـدت إلى أرضيـة الـدولاب المُعلـق. الجـدران وحدهـا هـي المـكان الـذي سـاده شيء مـن النظـام. حيـث اصطـف عليهـا أولًا قميـص كشـافة أزرق مثبـت بالمسـامير عنـد ذراعيـه المفرودتـين، ومـن بعـده الآخـر علـم بالألـوان الأسـود والأحمـر والذهبـي يعتليـه رمـز المطرقـة والدائـرة، وعلـم أحمـر عليـه رمـز المطرقـة

والمنجـل، وقميـص فريـق كـرة القـدم هانـزا روسـتوك واللوحـة الزيتيـة النـادرة التـي تضـم المظـلات المعوجـة والقراميـد المهتـز والمنـازل المتباعـدة.

كان خـالي مسـتلقيًا عـلى الأرضيـة. للوهلـة الأولى بـدا الأمـر كـما لـو أنـه انزلـق مـن فـوق الأريكـة وهـو نائمًـا وظـل هكـذا عـلى الأرض. كان يرتـدي تي شـيرت أبيـض عـلى ملابسـه الداخليـة. كان شـعره مشـعثًا وعينـاه مغمضتـين، بـزغ الشـعر الرمـادي القصـير مـن وجنتيـه غـير الحليقتـين. كان إحـدى ذراعيـه ممتـدًا مـن فـوق رأسـه نحـو الطاولـة الصغـيرة، التـي كان فوقهـا هاتـف لونـه بيـج، هاتـف قديـم ذو قـرص وسـلك ملفـوف. كانـت سـماعته مُـدلاة لأسـفل، بينـما أمسـكت أصابـع جـورج بحافـة الأريكـة وضمتهـا.

لا أعـرف لمـاذا ومـن أيـن واتتنـي تلـك الجـرأة، ولكننـي انحنيـت نحـوه ومسـحت عـلى شـعره لأزيحـه عـن جبهتـه. كان جسـده مثلجًـا، فـترددت قليـلًا ثـم أمسـكت بـه مـن أسـفل ذراعيـه كي أسـحبه فـوق الأريكـه. ينبغـي ألّا يبقـى عـلى الأرض. كنـت أريـده أن ينعـم بالراحـة، أو هكـذا ظننـت. عندئـذٍ انحنـت الطاولـة ولكنهـا لم تقـع لأن يـد جـورج كانـت جامـدة ولم تـترك حافتهـا، بـل ظلـت متمسـكة بهـا؛ وحـده الهاتـف الـذي سـقط وأحـدث صخبًـا.

(27)

تنـام، أسـمعك تتنفـس محدثًـا صـوتَ صفـيرٍ منخفـضٍ وأشـم الرائحـة الحميمـة الطيبـة المنبعثـة مـن بشرتـك؛ فـما أتمالـك أن أفكـر مجـددًا في خشـب الأرز، لا أسـتطيع أن أنـام. أنهـض في حـذر، لـكي أدخـن سـيجارة في شُرفـة غرفـة المعيشـة. مـا زال هنـاك نـور مضـاء في الحـمّام، صفيحـة القمامـة مقلوبـة. انتُزعـت العـصي الداعمـة للمناشـف فأسـقطتها إلى أسـفل، تسـقط بدورهـا محتويـات حقيبـة الأغـراض الشـخصية الخاصـة بـك مبعـثرة عـلى الأرض. يبـدو الأمـر، كـما لـو أن قتـالًا قـد دار هنـا. أجلـس عـلى حافـة حـوض الاسـتحمام وأحـرّك يـدي عـبر المـاء، الـذي لا يـزال دافئًـا.

تبقـي مهلـة انتهـاء عقـد الشـقة لمـدة تتجـاوز وفـاة مـن اسـتأجرها، كنـت أرى هـذا ضربًـا مـن الجنـون. دار بذهنـي، عندمـا سـمعت عـن هـذا الأمـر، أنـه شـأن ألمـاني نمطـي. وبنـاءً عـلى ذلـك تبقّـى أمامنـا ثلاثـة أشـهر لإخـلاء شـقة الخـال جـورج، بيـد أن أمـي كانـت تريـد بالطبـع أن تـشرع في إخـلاء الشـقة فـورًا. رافقناهـا أنـا وأيكـه، عنـد ذهابهـا إلى الشـقة، سـبقتنا

أمـي في هبـوط الدهليـز الطويـل المعتـم حاملـةً المفتـاحَ في يدهـا. كانـت أمـي قـد مزّقـت قبـل ذلـك قـدم الأرنـب وألقـت بهـا لجـدتي لـورا عـلى منضـدة الطعـام قائلـة لهـا: "يـا أمـي، إن هـذا مقيـت للغايـة."

ظلّت أمي واقفة بباب شقة جورج وتساءَلت: "ما هذه الرائحة؟"

تشـمّمت المـكان، لكننـي لم أجـد ثمّـة رائحـة. كـما هـزّ أيكـه رأسـه مؤيـدًا لي.

قالـت أمـي: "بـلى، هنـاك رائحـة مـا تنبعـث هنـا." وأضافـت: "ألا تشـمّان تلـك الرائحـة؟ مـا هـذا؟" لطمـت بيدهـا أمـام فمهـا "ألم يكـن لديـه قطـة؟ هـل خطـرت القطـة ببـال أحـد؟"

"لقـد قالـت جـدتي إنّ القطـة لم تعـد لديـه؛ لأنهـا ماتـت قبـل سـنوات."

"آه، هكـذا هـو الأمـر! إنـه لأمـر جيـد بالتأكيـد، كنـت أخـال أن .... ولكـن مـا الرائحـة التـي تنبعـث هنـا إذًا؟"

"لا رائحـة تنبعـث هنـا." أخـذت المفتـاح مـن يدهـا. "تعـالي، هيـا بنـا ندخـل الآن!" لكنهـا استندت بظهرهـا إلى البـاب وأشـعلت سـيجارة. غـدت أمـي تدخـن باسـتمرار منـذ دفـن خـالي. كانـت تدخـن، حتـى أكـثر منـي، لم أكـن أعهـد فيهـا هـذا أبـدًا.

أمسـك أيكـه ببكـرتي أكيـاس القمامـة، التـي كنـا قـد اشـتريناها لتوّنـا مـن محـل بيـع أدوات النظافـة. كنـت قـد قلـت لتـوّي إنّ هـذه الأكيـاس لـن تكفـي. بـدا أن أيكـه وأمـي لا يسـتطيعان أن يتخيـلا، كيـف يبـدو حـال الشـقة، نقـل أيكـه باضطـراب ثقـل جسـده مـن قـدم لأخـرى.

"تعـالي!" ردّدْتهـا مـرة أخـرى، هـزّت أمـي رأسـها وركضـت إلى الـوراء حيـث المصاعـد. "هـذه ليسـت وظيفتنـا." دوّى صوتهـا فجـأة بمـرح، يـكاد يقـارب الابتهـاج. "هـل تعرفـان، سـوف أرسـل في طلـب شركـة تفريـغ

الأماكن مما فيها من أغراض زائدة عن الحاجة. لم يخطر ذلك الأمر ببالي من قبل، بإمكان من سيأتون من عاملي تلك الشركة حينها أن يأخذوا معهم كل الأغراض؛ فأنا لا أريد أن أرى أيًّا منها! هل سيصل بي الأمر لدرجة أن أزيل القاذورات التي خلّفها أخي!"

كان هذا رأي أمي، على الرغم من أنها كانت قد قالت صباح اليوم إنّها لن تتهوّر وتعطي أحدًا مالًا كي يؤدي لها أعمال الترتيب والتنظيم. وأنها تستطيع أن تفعل ذلك بنفسها، ضغطت أمي على زر المصعد، وداست في أثناء ذلك على سيجارتها في طفاية السجائر ذات الشكل الأسطواني، كي تطفئها. "يا إلهي! أنا أدخن أكثر مما يجب، هل ستأتيان معي يا أولاد؟ علينا حقًّا ألّا نودي بأنفسنا إلى التهلكة على هذا النحو! سنسافر الآن إلى الشاطئ وليهب الهواء علينا متخللًا أجسادنا بعمق. لعلّني أتخلص حينئذ أيضًا من تلك الرائحة الكريهة العالقة بأنفي! كم هو أمر حلو أنكما لم تشما تلك الرائحة العفنة، آهٍ! كم كانت مثيرة للاشمئزاز!"

فاجأني أيكه بقوله: "يا أمي، أريد أن أتفرج على الشقة!"، هتف بها وهو يقف خلفها.

"لا لا، هلم الآن! سنمضي!"

قال لها: "سنلحق بكِ على الفور!"

"لقد جننتما! آآخ، فلتفعلا، ما يروق لكما! ولكن الويل لكما، إذا جلبتما معكما بعض الأغراض. لا أريد أن أحتفظ بشيء من محتوياته. يجب أن تتخلصا من كل شيء، كل شيء! انفتح باب المصعد ودخلت أمي إلى كابينة المصعد دون أن تلتفت لتنظر خلفها مرة أخرى."

قال أيكه بصوت أخنف: "إذًا سأنصرف وأجلب علب الكرتون اللازمة لنقل المتاع إلى مكان آخر."، وقف في منتصف الغرفة ورفع منكبيه إلى أعلى ودسّ يديه في الجيوب الواقعة في منتصف البلوفر

الـذي يرتديـه؛ عسـاه فقـط ألا يلامـس أي شيءٍ هنـا. كان يتنفـس مـن فمـه، انبعثـت في الشـقة حقًـا رائحـة مـا، رائحـة هـواء غـير نقـي ومـواد غذائيـة فاسـدة. عندمـا فتحـت النافـذة، ارتجـف أيكـه كـما لـو أنني قـد أصـاب بوبـاء بمجـرد ملامسـتي للرافعـة.

"لا أحتاج لأي علب كرتون."

قـال لي بصـوت أخنـف: "أعرفـكِ جيـدًا؛ أنـتِ تريديـن بالتأكيـد أن تأخـذي شـيئًا مـا معـكِ." وأضـاف قائـلًا: "لكـن لا تظنـي أننـي سـوف ألمـس شـيئًا هنـا، فهـذا يسـتلزم ارتـداء ملابـس واقيـة، لماذا لم نجلـب معنـا قفـازات يـد مطاطيـة؟ أيـن كان جـورج يرقـد؟"

"يمكننـي أيضًـا أن أحـزم الأغـراض في أكيـاس قمامـة صغـيرة." قلتهـا لـه وأومـأت بذقنـي إلى الأريكـة. "لقـد وجدتـه هنـا، كان يبـدو كـما لـو أنـه نائـم، كانـت يـده...."

"سـوف أدبـر لـك أمـر علـب الكرتـون." قالهـا وركـض خارجًـا مـن الشـقة.

وضعـت عـلى بـاب الشـقة كل مـا أود أن آخـذه معـي: المصبـاح التماثيـل التـي تتّخـذُ شـكل الحيوانـات والمصنوعـة مـن البورسـلين وبعـض الملفـات التـي تحـوي وثائـق شـخصية وبكـرتي أفـلام كبيرتـين مـن نمـط سـوبر 8، لكننـي لم أجـد للأسـف جهـاز بروجكتـور لعرضهـا. اكتشـفت كذلـك في الأسـفل تمامًـا بأحـد الأدراج حزمـة مـن الصـور الأبيـض والأسـود: ظهـرت فيهـا أمـي ترتـدي مريلـة وجـوارب تصـل حتـى الركبتـين، تسـتند إلى يـد جـدتي لـورا، التـي كانـت ترتـدي عـلى رأسـها قبعـة صغـيرة مائلـة. كانـت أمـي وجـورج يرتديـان ملابـس العيـد ويلتصقـان ببعضهـما بعضًـا أمـام شـجرة عيـد الميـلاد المزيّنـة عـلى نحـوٍ بديـعٍ. صـورة للعائلـة بأكملهـا في إحـدى منصّـات المشـاهدة في الجبـال. فوجئـت باكتشـاف أن جـدتي لـورا كانـت أطـول مـن جـدي قليـلًا. لم يسـبق لي أن رأيتـه في أي صـورة

قـط، كان وجهـه غضًـا مسـتديرًا وكان غائـر الذقـن، غـير أن كان يفـرق شـعره مـن الجانـب، كأنـه قـد فرقـه بسـكين. قلبـت الصـورة، كان مكتـوبٌ عـلى ظهرهـا: "لـورا والأطفـال وأنـا، رحلـة إلى جبـال هارتـس. في سـبتمبر 1959." تعرّفـت عـلى الفـور عـلى الخـط المُعـرَّج ذي الحجـم الصغـير الـذي كتبـه جـدي بمِـدادٍ باهـتٍ لونـه أزرق - كان الخـط ذاتـه المكتـوب في كتاب القصـص الخرافيـة الخـاص بأمـي: إهـداء لكريسـتينا، مـن بابـا. كانـت أمـي تقـول دائمًـا إن هـذا كان الـشيء الوحيـد الـذي تبقّـى لهـا مـن أبيهـا.

أسـمع صـوت صريـر منخفـضٍ يصـدر مـن السريـر، ثـم تصيـح قائـلًا: "أنّـا؟ مـاذا تفعلـين؟ أتريديـن أن ترحـلي؟"

"لا، لا، أنا هنا، في غرفة المعيشة."

قبـل أن أتمكـن مـن القـدوم إليـك، كنـت تقـف بالفعـل بالبـاب وتحـك معصمـك الأيـسر، الـذي ترتـدي فيـه السـاعة، في سـاعدك الأيمـن، كـما لـو أنـك تريـد أن تحتـك بالسـاعة ذات السـوار، الـذي يتخـذ شـكل سلسـلة، تتسـاءل قائـلًا: "مـاذا حـدث؟".

"لاشيء؛ كنت فقط أدخن سيجارة."

"فلتعـودي سريعًـا إلى السريـر." تقولهـا وتدفـع إصبعك أسـفل سـدّادة سـوار السـاعة، تفتحهـا وتغلقهـا عـلى الفـور مـرة أخـرى، "فلتـأتي إذًا، تعالي! فأنـا أشـعر بالـبرودة مـن دونـك."

(28)

تبدأ الآن، في الصباح، في الحكي. "لديّ ابن." تقولها وتنزلق بجسدك في معطفك. "عمره سبعة أعوام، قارب أن يبلغ الثامنة، اسمه بنيامين."

أجذب إلى أعلى سحّابُ سترتي - لا سترة أيكه - ذات الطاقية والمصنوعة من الفراء.

أقول لك: "الأصغر؟"

"ماذا؟" تتحكّم في تصفيفة شعرك أمام المرآة الموضوعة بجوار شماعة حفظ المعاطف والقبعات. لقد صففت شعرك إلى الخلف بإحكام شديد، كما أن وجنتيك ناعمتان جدًا من أثر الحلاقة، لدرجة أنهما تلمعان، استطعنا بالكاد أن نقف إلى جوار بعضنا بعضًا في الدهليز الضيق. أفتح باب الشقة. "الأصغر، هذا معنى اسمه" نخرج إلى الخارج.

"حقًّا؟" تغلق الباب بالمفتاح، "هو على كل حال ابني الوحيد، ابني الأكبر والأصغر." تضحك، نسير بجوار بعضنا بعضًا متّجهين

صوبَ المصاعد. "والدته؛ أي زوجتي السابقة، اسمها صوفي، هل هذا الاسم له معنى أيضًا؟"

"لا أدري، هل ينبغي أن أبحث عنه في موقع جوجل؟"

تلوح لي بالرفض، "فلتكتفي بهذا الحد. أتعرفين! في السابق كانت تلك الصورة تلوح أمام عيني دومًا: صوفي وأنا على كتلة جليد طافية في البحر، ولا شيء حولنا سوى أفق متسع، وأسفلنا، أي أسفل مؤخرتَيْنا مباشرة -وبالمناسبة كانت مؤخرتها جذاّبة - جزء صغير من عالمنا المبارك."

"يثير هذا في نفسي وقع أقرب إلى القطب الشماليّ المتجمّد والعصر الجليديّ."

"أهكذا؟ هل ترين ذلك؟ ربما يكون الأمر كذلك، إن كان لي أن أشرح، لماذا لم يتم الأمر، سأقول إن السبب أنني أبغض البرودة."

"لماذا وقع الانفصال بينكما؟"

تهز كتفيك؛ "لماذا ينفصل الناس عن بعضهم؟ لو كان العالم يتسم بالكمال، لظللنا معًا، لكن بعد ذلك وُلِد بنيامين - حسنًا، يقال إن زيجات قليلة جدًا تستمر في ظل وجود طفل."

يأتي المصعد فندخل، أحمل فوق كتفي حقيبتك التي تضع بها جهاز الكمبيوتر المحمول. تجر خلفك حقيبة سفرك وتسير بمحاذاة صناديق البريد الواقعة في ردهة المدخل: "هل ترين أين يقع صندوق بريد مكتب التأجير؟ آه، إنه هناك." تلقي بالمفاتيح في الصندوق، تنقر بأنامل أصابعك على الصندوق كأنك تنقر على خشب، وتقول: "ربما يجلب الصفيح أيضًا الحظ."

"هل أنت بحاجة إلى الحظ؟"

تضحك وتفتح لي الباب وتمسك به، ثم تغلق عينيك فجأة وتهزّ رأسك، كما لو أن ألمًا قد اعتراك، "بالرغم من أن الأمر لم يتم، إلا أنه ما زال يتسبب في بعض الأحيان في ..."

"هل هَجَرَتك؟"

"ما هذا الهراء!" فجأة يعود صوتك حادًا كسابق عهده -لكنك تنتبه إلى ذلك على الفور وتنتفض وتواصل حديثك على نحوٍ أكثر هدوءًا بقولك: "إن صوفي إنسانة تنشد الكمال: أب وأم وابن، هكذا ترى الأسرة المباركة. لا شيء آخر يصح أو يرد في عالمها البتّة. كانت متشبثة بذلك التصور لدرجة أنها انهارت تمامًا، عندما -كنت أعتقد أنا نفسي، أن هذا الأمر سيستمر أبد الدهر. وفجأة انقضي الأمر، لم يعد أحدنا يُكِن ثمة مشاعر للآخر. لم يكن الأمر يشق عليها وحدها، فقد عانيت أنا أيضًا، لكِ أن تؤمني بما أقول."

"أنا أؤمن بالله، ولا شيء سواه." أقولها وما أتمالك أن أضحك، عندما تنظر إليّ بارتباك.

"إنها مقولة قالها أبي."

"آه، فهمت."

يمر التاكسي، الذي سوف تستقله أمامنا، يحمل السائق عنك حقيبة السفر. أعطيك حقيبتك، التي تضع بها جهاز الكمبيوتر المحمول.

"لم يسبق قط أن حملت لي امرأة متاعي."

"لك أن تشعر بالسعادة، أنك استرددت الحقيبة، فمن المعتاد أن أُبقي معي دائمًا شيئًا ما، أجمع الأشياء على سبيل التذكار."

"لكن ليس جهاز ماك بوك المحمول الخاص بي، فهذا قد يودي بحياتي. ويحك، يا للهول! لقد أخذتِ مني سكين تقطيع السوشي،

هـذا يعـد الآن..." تريـد الذهـاب إلى حقيبـة السـيارة، أمسـك بـك مـن ذراعـك. "فلتـدع هـذا. لسـت بحاجـة إلى ذلـك، هـل سـتتصل بي، عندمـا تكـون في برلـين مـرة أخـرى؟"

"تبًـا!" تقولهـا وتضـع يـدك عـلى وجنتـي. "لا أريـد أن أنفصـل عنـكِ، هـل ترافقينـي عنـد ذهـابي إلى المطـار؟"

أنزلـق بجـوارك عـلى المقعـد الخلفـي، يصـدر هاتفـك المحمـول صـوت طنـين. مـرة، مرتـان، ثـلاث مـرات، تَـرِدُ لـك في خـلال دقيقـة واحـدة اثنتـا عـشرة رسـالة هاتفيـة. تقـول لي: "معـذرة" وتضيـف قائـلًا: "لكـن يجـب عـليّ أن أفحـص الرسـائل سريعًـا، آه! يـا لهـا مـن لعنـة! لقـد أصبـح اليـوم بأكملـه يسـير عـلى هـذا المنـوال." تمـد يـدك إلى يـدي لوهلـة. "قضيـت وقتًـا جميـلًا معـك." ثـم تسـحب الهاتـف المحمـول إلى الخـارج؛ تقـرأ الرسـائل النصّيـة القصـيرة وتـرد عليهـا وتشـغل جهـاز الكمبيوتـر المحمـول. مـا زال الظـلام مخيّـمًا بالخـارج. يبـدو لـون وجهـك مائـلًا إلى الزرقـة إثـر انعـكاس الضـوء المنبعـث مـن الشاشـة عليـه، الشـوارع خاويـة. تمـرر رسـائل بريـدك الإلكـتروني وتفتـح أحـد المرفقـات بهـا وتقـول دون أن ترفـع نظـرك: "عائلـة سـعيدة صغيرة، ربمـا رزقنـا بطفـلٍ ثـانٍ، منـزل خـاص بنـا، كان هـذا ليصبـح أمـرًا جميـلًا أيضًـا." تحلّـق أصابعـك لوهلـة فـوق لوحـة المفاتيـح. "لكـن العـالم لا يتسـم بالكـمال حقًـا، وأنـا لا أتسـم بالكـمال." تواصـل الكتابـة عـلى لوحـة المفاتيـح. تـك، تـك، تـك، كلاك، كلاك، كلاك، تكتـب بقـوة وسرعـة. "أحيانًـا كنـت أود أن أكـون كذلـك."

"هل استمر زواجكما طويلًا؟"

"استمر ست سنوات وسبعة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا."

"أنت تعرف هذا بدقة."

تتسمّر أصابعك "يجب على الإنسان أن يتذكّر دائمًا بدقة تاريخ الفشل الذي مرّ به." تواصل الكتابة على لوحة المفاتيح، وتقول بصوت مثل الفحيح: "رعاع.". أرتجف، "ماذا حدث؟ هل تلّقيت أخبارًا سيئة؟"

تبتسم، دون أن ترفع نظرك. "لا. لا أعاني أبدًا من مشاكل على المستوى المهنيّ. فكل الأمور المهنية تسير على ما يرام. أتعرفين أنني على وشك عقد الصفقة الكبرى التي كنت في وقت من الأوقات ...ما هذا إذًا؟" ترد رسالة بريد إلكتروني جديدة، تمر بعينيك مرورًا سريعًا عليها. "آه، يا للعنة! ما بال هؤلاء الكسولين؟ لا بُدَّ أن أفعل كل شيءٍ بنفسي" تبدأ من جديد في الكتابة على لوحة المفاتيح. "تعال، أيها السافل! فلتذهب إلى الجحيم!"

"لكنك لم تكتب ذلك!" أقولها وما أتمالك أن أضحك.

"ليس كذلك، ولكني آمل مع ذلك أن تصل رسالتي إليهم." تواصل الكتابة على لوحة المفاتيح. لماذا اصطحبتني معك بالأساس، إن كنت ستكتفي بالجلوس أمام جهاز الكمبيوتر المحمول؟ بدأ المطر يهطل ودفع الريح ذات الاتجاه المعاكس، التي نشأت من سرعة السيارة، قطرات المطر بصورة أفقية أعلى النافذة التي أجلس بجوارها.

"أتعرفين، أين تعرّفت عليها؟"

"تقصد صوفي؟"

"في المدرسة، كنت أطاردها منذ الصف الثامن لسنواتٍ طوال، لكنها لم تكن تكترث بي أبدًا. كان شعري طويلًا، وكنت من الهيبز المنتشرين في الضواحي وكنت أود دراسة الموسيقى في ميونيخ، حيث كنت أعزف على آلة الساكسوفون."

"اتمنى أن أسمعك تعزف عليها ذات مرة."

ترفع بصرك لوهلة وتبتسم لي "كنت كذلك المغني الرئيس في إحدى الفرق الغنائية. كان اسم فرقتي "الأعاصير الباكية"؛ كنا نقدم عروضنا الفنية في الحانات وفي بضع احتفاليات صغيرة؛ هكذا كان حالي. لم يكن هذا كافيًا حتى للالتحاق بالمعهد العالي للموسيقى." تحدق في شاشة جهاز الكمبيوتر المحمول. يعلن صوت "بلنج" عن ورود رسالة بريد إلكتروني جديدة. تغلق جهاز الكمبيوتر المحمول مبتسمًا بتهكم. "هكذا، فلتنتظروا الآن قليلًا، أيها الحمقى!" تمد ذراعك نحوي وتضمني إليك. "وبعد ذلك غيّرت مجال دراستي ودرست علم المعلومات الخاصة بالحاسب الآلي، وأسّست إلى جانب ذلك شركتي الأولى. كانت تلك الأوقات آنذاك بمثابة فترات حققت فيها نجاحات كبيرة، حينئذٍ التقيت بصوفي مرة أخرى في مطار فرانكفورت. كان يجب عليها أن تسافر إلى هامبورج لأغراض مهنيّة، بينما كنت عائدًا لتويّ من جنيف. كانت صوفي في أثناء دراستها في المدرسة صعبة المِراس، والآن غدت تبدو بمظهر سيدة أعمال مراوغة. ونقلت مكتب السمسرة العقارية الخاص بوالدها لملكيتها، يمتد مجال عملها إلى عقارات، في أرجاء مختلفة من العالم." يصدر هاتفك المحمول من جديد صوت طنين. تُقَبّل عنقي. "لديها حقيبة مستندات صغيرة حمراء، فاقع لونها، من جلد الثعبان، وحذاء مناسب للحقيبة." تدُس يدك بين ساقاي. "شدّتني إلى مرحاض السيدات." تضغط بإصبعك ما بين فخذيّ. "كانت تريد مني أن أمارس معها الحب. قبل الصعود إلى الطائرة بدقيقة واحدة، أعلن النداء الداخلي في المطار ثلاث مرات بضرورة التقدم نحو البوابة رقم ثمانية. كنت أمارس معها الحب، كانت تغلب عليها شهوتها لدرجة أنها لم تلحق فعلًا بالطائرة، التي كانت قد حجزت فيها رحلتها." يصدر هاتفك المحمول مرة أخرى صوت طنين، تسحب يدك وتنظر سريعًا للشاشة، وتهزّ رأسك، لكنك لا تنحِّ الهاتف مرة أخرى جانبًا. "بعد ذلك بأسبوع وقفت صوفي على نحو مفاجئ أمام باب منزلي مضطربة تمامًا، كما لو أن والدها

أو ابنها قد لقيا حتفهما. كان بكاؤها بصوتٍ عالٍ يوحي بذلك. لقد اعترفت لخطيبها بكل شيء، فرحل عنها بعد ذلك بالطبع." تتنهّد فيرتفع صدرك لأعلى، تغلق عينيك وتُرجِع رأسك إلى الوراء، تقول لي بتلذّذ: "عندئذٍ مارست معها الحب مرة أخرى." وتردف قائلًا: "أقدمت على ذلك بقسوة؛ بلا رحمة، كانت نفسها تهفو إلى ذلك، لم تبتل حقًا، إلا عندما ..."

ماذا هنالك؟ لماذا تحكي لي هذا؟ لأننا لم نوفق في ذلك الأمر مرة أخرى صباح اليوم؟ ولم نوفق أيضًا دون ارتداء الواقي الذكري. بي جرح، لكنه لم ينتج عن ممارسة الحب، لقد حاولت أن تولج عضوك بداخلي، لكنه كان مرتخيًا، وحاولت مرة أخرى. عاندت، أوشكت أن تشعر بالغضب. "مصي، العقي، اربتي على خصيتي، انحني في وضع الركوع، أظهري مؤخرتك." كما لو أن حياتك متوقفة على ذلك، استطعت في النهاية أن تبلغ الذروة، لكنك كنت تصرخ في أثناء ذلك، كأنك تعاني من ألم. والآن أتريد أن تفعل ذلك مرة أخرى؟ في المطار؟ في مرحاض السيدات؟ حتى يرتفع صوت النداء الداخلي بالمطار وينقذك بقول: من فضلك توجه إلى البوابة المخصصة لك، أيها السيد "الناجح دائمًا على المستوى المهنيّ" سوف تدس في سروالي الداخلي أجرة التاكسي، التي سأدفعها، عندما أقطع طريق العودة.

تصمت! أشعر أنك تتفحصني، "أنّا؟ هل كل شيء على ما يرام؟" ترفع ذقني بإصبعك وتنظر في عيناي "هل تجاوزت كثيرًا؟" أحدثت ابتسامتك أثرًا أقرب إلى القنوط "لا مشكلة، أعتقد، أنني لا أفضل فقط ببساطة أن أستمع، كيف أنك ..."

تضحك "معذرة! لم أقصد الإساءة، لقد فقدت السيطرة على نفسي، أتعرفين؟" تربت على يدي.

"ماذا؟"

"إنني لا أنجح دائمًا في الواقع في إتمام العلاقة الحميمة سوى لليلة واحدة فقط، وإلا فلتجلبي لي حالًا فتاة ليل، لكن بالأمس - كان يجب أن أراكِ أنتِ، حتمًا، كان الأمر كأنه أمر قهري."

تنحنح سائق التاكسي متسائلًا: "أي شركة طيران؟" كان وقع سؤاله يوحي ببعض الاستثارة، ربما يكون قد سألنا هذا السؤال مرة قبل ذلك، وصلنا تقريبًا إلى المطار.

تقول له: " الخطوط الجوية الفرنسية (إير فرانس)" وتضيف: "أنا مسافر إلى باريس."

"من أين حصلت بالضبط على رقم هاتفي؟"

تضحك "هل نسيتِ، في أي مجالٍ أعمل؟ لديّ زميلة تخترق كل أجهزة الكمبيوتر وتستطيع بعد الاختراق أن ترى صاحب الجهاز عبر كاميرا الجهاز. ذات مرة ظللنا طوال المساء نخترق أجهزة أناس مختلفين. ستندهشين، لو علمتِ، أن الناس يحملون معهم أجهزة الكمبيوتر المحمول الخاصة بهم في كل مكان، حتى عند ذهابهم للتغوّط يمسحون مؤخراتهم ويدندنون في أثناء ذلك بأغنية صغيرة، لقد ضحكنا آنذاك بشدة."

لم يكن تصّور هذا بالأمر الجميل، أشحتُ بوجهي منزعجةً. "وهل حصلت على رقم هاتفي من هذه السيدة كذلك؟"

"لا، لقد حصلت عليه من أحد الموظفين في قسم شئون العاملين، حيثما تعملين. ألم أقل لكِ، إنني أعرف بعضَ من يعملون في "يونيفرسال شوز". لقد كلّفني الحصول على رقم هاتفك زجاجتي ويسكي."

"حسنًا، لقد كنت موفقًا في الإفلات من هذا الأمر. لا أجده أمرًا مقبولًا، أن ..." تجذبني نحوك ضاحكًا "فلتكونى ممتنةً له؛ فربما لم نكن لنلتقي مرة أخرى أبدًا دون ما فعله، أتعرفين." تهمس بها في أذني

وتضيـف قائـلًا: "إننـا لا نعـرف عـن بعضنـا سـوى القليـل، ومـن المحتمـل أنـكِ تعتبرينـني مجنونًـا، لكننـى شـعرت بالسـعادة معـك سـعادة بالغـة."

يتوقـف التاكـسي الـذي نسـتقلّه أمـام صالـة الوصـول، ثـم تدفـع الأجـرة للسـائق. يعطيـك السـائق حقيبتـك، لكنـك تُخـرِج منهـا الآن العلبـة. "هـذه لـكِ، لتضميهـا لمجموعـة الأشـياء التـي تجمعيهـا عـلى سـبيل التـذكار."

سـكين تقطيـع السـوشي "في الحقيقـة أنـا أنتقـي بنفـسي دائمًـا الأشـياء التـي أحتفـظ بهـا عـلى سـبيل التـذكار."

"حسـنًا، تعـالي لتأخذيهـا، خسـارة لأنـه يجـوز أخذهـا عـلى مـتن الطائـرة." تلقـي نظـرة إلى السـاعة "فلتأخذيهـا الآن، فأنـا مضطـر أن أُسرِع." تضـع العلبـة في يـدي وتقبّـل وجنتـي وتعـدو راكضًـا نحـو البـاب الـدوّار.

"هل ستتصل؟"

"بالطبع." تصيح بها من وراء كتفك وتختفي في صالة الوصول.

(30)

كان "متجر برايتلينج لبيع الكتب" مكتبة مخصصة لبيع الكتب القديمة، تقع في الجزء القديم من المدينة وكانت تلك الغرفة المظلمة تمتد مثل خرطوم في الأعماق لمساحة معتمة خلف واجهة العرض، وهي لم تكن ممتلئة بالكتب فقط، بل تكتظ أيضًا بتماثيل عرض الأزياء وتماثيل الزينة الصغيرة؛ هنا لطالما التقى "الرجال المحترمون".

عندما اصطحبني ماكسميليان معه للمرة الأولى إلى المكتبة، ضغط برايتلينج على شفتيه ومرّ علينا دون أن يلقي علينا التحية وأدار اللافتة المُعَلّقة في سلسلة صغيرة على باب المحل نحو الجانب الآخر لتظهر على باب المحل لافتة "مُغلَق". كان برايتلينج رجلًا طويلَ القامة أشقرَ، يرتدي نظارة بلا إطار وبنطال جينز باهتًا وحذاءً مصنوعًا من قماش الشراع. كان الشبه الواضح بين الأب وابنه أمرًا مثيرًا للذهول والدهشة.

أخذ ماكسميليان يتمشّى في الجزء الخلفي من المتجر، حيث يوجد مطبخ صغير لإعداد الشاي والمشروبات وكذلك أريكة عتيقة

مصنوعة من قماش القطيفة المضلعة وبعض الكراسي. ركض السيد برايتلينج خلفه قائلًا: "عليكما أن تلتقيا في مكان آخر غير هذا المكان، لقد سبق أن قلت لك ذلك."

نظر ماكسميليان بداخل الثلاجة قائلًا: "ألم تملأ الثلاجة بالمخزون اللازم من الطعام والشراب يا أبي؟"

"فلتكف عن هذا! لا تدعوني هكذا!"

"نحتاج المزيد من البيرة." قالها ماكسميليان وأصرّ على أن يقول: "أبي - نحتاج علاوة على ذلك إلى زجاجتين أو ثلاثة من الويسكي لأجل ميتسي."

التفت السيد برايتلينج ونظر نحوي.

"أنا لست ميتسي، اسمي أنّا."

قال لي: "أعرفكِ، أنتِ ابنة القس."

أغلق ماكسميليان باب الثّلاجة بعنف "الآخرون على وشك الوصول يا أبي، هل لك أن تدبر لنا شيئًا لنشربه؟"

"لتنتهي من ذلك الآن! إن أمك تستشيط غضبًا من جديد ...."

وقف أمامه ماكسميليان قائلًا: "هل تخاف منها؟" واستطرد: "أمْ أنّ زوجها اللعين يبعث في نفسك الشعور بالاحترام؟"

"لا تتحدث هكذا عن ..."

"دونه كنت ستضطر للإنفاق عليّ؛ لذا فإنك تخضع له ذليلًا."

"آه منك يا ماكسميليان." رفع السيد برايتلينج يديه، كان جبينه يتصبّب عرقًا. "لم يكن الأمر يسير على هذا النحو، لم أكن لأستطيع أن أدفع لك مالًا البتّة. لتنظر حولك هنا، لم تكن أمك لتحصل مني على مليم. عليك أن تشعر بالسعادة يا رجل أنّ زوجها قد تبنّاك! إن

حالتك الآن جيدة جدًا. لم أكن قط في حالٍ جيدٍ هكذا، إنك حتى سوف ترثه يومًا ما. لا أتمنّى لك سوى أفضل شئ. فلتفهم هذا إذًا! لم أكن لأصبح أبًا صالحًا لك. من فضلك عد الآن إلى المنزل، كي لا تجعل أمك تشعر بالحزن، وقل لأصدقائك..."

اشرَأَبّ ماكسميليان بذقنه بصورةٍ عدوانية. "بإمكانك أن تستدعي رجال الشرطة، إن كنت تريد أن تتخلّص منا."

أمسك السيد برايتلينج برأسه " لن استحثّ الشرطة ضد ...، آآخ يا ماكس." بدا، كما لو أنه سيبدأ على الفور في النحيب. "ماذا تفعل إذًا يا ماكس؟ ماذا تفعل دائمًا من سخافات؟" أشاح بوجهه ومسح بيده داخل شعره متخللًا إياه، ثم صعد الدرج بتثاقل وكتفيه متدليان، ومن المحتمل أن يكون قد صعد إلى شقته. رمقني ماكسميليان بنظرة متسائلًا: "فيم تحدقين هكذا؟"

"هل يجدر بنا أن ننصرف مرة أخرى؟"

نفخ ماكسميليان من الغيظ "لن أسمح لأحد بعد ذلك أن يطردني إلى الخارج، حتى وإن كان أبي؛ لقد ولّى هذا الزمن. علاوة على ذلك فإن أبي يثير الجلبة وحسب، وفي كل مرة يجعلنا ندخل مرة أخرى. تعالي، فلنتفحص المخزن بالأسفل. فأبي قد وضع بعض البيرة في مأمن هناك."

انفتح باب المتجر، ارتطمت اللافتة التي تحمل كلمة "مغلق" باللوح الزجاجي له، محدثةً صوت صلصلة. دخل فالك وكوبرا ورودي إلى داخل المتجر، مدّ رودي يده نحوي مبتسمًا باستخفاف "هممم، يؤسفني ما حدث مؤخرًا. آمل أن تقبلي اعتذاري." هززت يده بغتة " أجل بالطبع، لا مشكلة."

قبّل فالك كلتا وجنتيّ. "إنه لأمر جميل أن أراكِ، هل كل شيء على ما يرام؟"

جاءت ميتسي بعد ذلك. كانت ثَمِلَة للغاية وترتدي فستانًا أسود اللون طويلًا يصل حتى الأرض. كانت تتعثّر باستمرار في طرف الفستان، وكانت تلوّح في يدها اليمنى بزجاجة ويسكي. ابتعد فالك عنها "هلاّ سلّمت عليّ بهدوء أيها الأحمق." قالتها بصوت مثل الفحيح وأضافت: "حتى وإن كنت لم تعد تريد ممارسة الحب معي، فنحن ما زلنا متشابهين في الطباع، أليس كذلك؟"

قال لها ماكسميليان: "هيا، يا ميتسي، هدئي من روعك." تركته يقودها إلى أحد الكراسي وغاصت فيه متنهّدة. " هل هناك مزيد من الويسكي؟"

"سأحضرها لكِ حالًا."

في تتابعٍ سريع أخذ المزيد والمزيد من الناس يصلون، وكان الغالبية العظمى منهم شبابًا ذوي شعر قصير. كان الجميع يرتدون حُللًا داكنة اللون وقمصان بيضاء، تاركين أعلى زر بها مفتوحًا. كان ماكسميليان الوحيد الذي يرتدي جينز وسُترة رياضية؛ لأنه كان يريد، بعد قضاء بعض الوقت مع أصدقائه، أن يرسم بعض الرسوم الجدارية عن طريق رش سبراي بالألوان على الجدران. لم أكن قد شاهدت رسومه الجداريّة بعد. لكنه وعدني بأن يطلعني عليها، لقد قال لي، إنها أعمال فنية أصيلة، ليست مُلَطّخة. يلُّوح لي ماكسميليان الآن. "تعالي وأحضري البيرة يا أنّا!"

كان المخزن يقع في القبو، الذي كان يتمثّل في حجرة للتخزين مساحتها أكبر بعض الشيء، لكنها تقع في مستوى منخفض، وبها جدران كثيرة مائلة. كانت تنبعث منه رائحة تراب وعفن وورق مبتل.

"أليس أبي أبًا من الطراز الرفيع؟" قالها ماكسميليان مشيرًا إلى صناديق البيرة المتكدّسة أمام أحد أرفف الكتب.

"كنت أظن أن ميتسي بالفعل في أمريكا." قلتها وأخذت زجاجات الويسكي الأربعة، التي كانت موضوعة في الجهة العلوية.

أمسك ماكسميليان بأحد صناديق البيرة. "لم توفق في ذلك."

"كيف حدث هذا؟ لقد قالت في نيوبرج، أن هذا آخر مساء تقضيه في ألمانيا."

"إنها تقول هذا دائمًا."

"هل تقصد، أنها كانت تنسج أوهامًا، عندما قالت ذلك؟"

"لا. لا أقصد هذا بكل تأكيد. ليس بيننا من ينسج أوهامًا، إنما تمر أمورها فقط على نحوٍ غير جيد. فقد تعرضت لخيانة، شأنها في ذلك شأننا جميعًا." وضع صندوق البيرة مرة أخرى. واستند بظهره إلى الرف، كما لو أن قواه قد خارت فجأة. بيد أن عينيه كانتا لامعتين. نظر إليّ بتحدٍّ. "الكل، حقًّا الكل من أعضاء رفقتنا، مرّ بأمر مقزز كهذا، لقد تعرّضنا جميعًا للخداع، كلٌّ بطريقته. وكان من نصيب ميتسي هذه أن تتعرض ل "الصواب السياسيّ" هل تعرفين، ما المقصود بهذا؟"

"بالطبع!"

"فعلًا؟ ما المقصود بها إذًا؟ فلتخبريني!"

"حسنًا، معناها أن الإنسان لا ..."

"هذا هراء. إنهم يريدون بذلك أن يكمِّمُوا أفواهنا، لكن لا أحد منا هنا سيشارك ثانيةً في ذلك. نحن نُعرِب بصوتٍ عالٍ، عما يحدث حقًّا في هذا البلد، في هذه الدولة القذرة، التي تتظاهر دائمًا هكذا بطيبة القلب وتخون أبنائها. إنهم يروجون لنا الأكاذيب باستمرار. إنهم يلّحون علينا بالحديث عن هذه الكلمات اللعينة: التعدّدية الثقافيّة والتسامح والعالم المبارك. وعندما تحدث مشاكل، يقولون:

فلنتحدّث عن هذا بهدوء. يمكن مناقشة هذا الأمر باستفاضة. يتعيّن علينا أن نقترع على ذلك. لن ندع أحدًا يتخلّف عن ركبنا. نحن نرحب بالجميع بيننا. غير أنه عندما يصبح الأمر ملموسًا، عندما تحتاج شخصًا ما منهم حقًا، تحتاجه بشدّة، فإنهم يخذلونك، أولئك المتشدقون بالبطولة، دون أن يهتز لهم جفن. أعرف هذا، لقد ظننت طويلًا، طويلًا جدًا، أن هذا لم يحدث سوى لي وحدي، مع أن مثل تلك الأشياء تحدث باستمرار. هذا يندرج من الناحية العملية ضمن النظام. لا، هذا هو النظام، نظام يعج بالجبناء، والكسالى، والمتغاضين عن نجدة الآخرين. ميتسي وفالك وروده وكوبرا، لقد مرّوا جميعًا بتجربة ما يحدث للإنسان، عندما يطلق عليه أحد هنا الرصاص. عندما يرقد الإنسان في الوحل مصابًا بجروح. عندئذٍ لا يوجد من يسحبك من ميدان القتال. فهنا لا توجد ميادين قتال البتّة، لا يوجد سوى أناس طيبين، يتعاملون جميعًا مع بعضهم بعضًا بلطف بالغ، يقال إنّ الجميع يعيشون في كنف النظام، وإنّ الجميع سواسية في التمتع بقيمة كبيرة. إننا حتى نفرض رقابة على لغتنا ونتنبه لكل كلمة، لكي لا نجرح أحدًا. حتى وإن شعرتِ أنتِ بجرح." أشار ماكسميليان بإصبعه نحوي قائلًا: "فحينها لا بُد أن تكوني أنتِ المسئولة عن ذلك. حينها تكونين غير موفقة في أمر ما، حينها تكونين قد فهمتِ أو فعلتِ شيئًا خاطئًا تمامًا، حينها يقولون لكِ ببساطة: لقد جننتِ".

عندما رفعت كتفاي، أحدثت زجاجات الويسكي، التي كنت احتضنها بين ذراعاي، صوت رجرجة. "يؤسفني ... لم أكن أقصد بالطبع ... أنا لا أعرف ميتسي على الإطلاق."

"الأمر لا يتعلّق بميتسي وحدها." ابتعد عن الرف وأراد أن يرفع صندوق البيرة لأعلى من جديد.

سألته: "ما موضوع أمريكا إذًا؟" ظل متسمّرًا لوهلة، ثم اعتدل على مهل وسحب لفافة سجائر مضغوطة من الجانبين من جيب

بنطاله. "هل تريدين سجائر؟" هززت رأسين أشعل سيجارة، تحرّكت خيوط من دخان مائل إلى الزُرقة في الهواء المُغبَّر بالأتربة. "أنتِ لا تعرفين، كم تكلفة الحصول على منحة كهذه لمدة عام. عشرة آلاف مارك من أجل فقط استخراج التأشيرة وتذاكر الطيران وتنظيم السفر. هذا المبلغ لا يشمل بالطبع مصروف الجيب، ما كان هذا ليمثل مشكلة لأسرتي، أما والدا ميتسي فليس في وسعهما أن يقوما بذلك، أو حتى أن يفكرا فيه مُطلقًا."

"ولكن كانت هناك أسرة على استعداد لاستضافتها، لقد أطلعتني على صورٍ لتلك الأسرة في أثناء وجودنا في حمام السباحة."

"لأنها حصلت على منحة دراسية من البرلمان الاتحادي الألماني." مسح ماكسميليان رماد السيجارة في ظهر كتاب ضخم عتيق. "يتقدم مئات عدة للحصول على منحةٍ واحدةٍ، ويحتاج المتقّدم للمنحة حينئذٍ للتزكية من آخرين ويجب عليه أن يقوم بفترات تدريب عمليّ وأن يكون ملتزمًا اجتماعيًا ويخوض عشرات الاختبارات، شفهية وتحريرية؛ إنه ماراثون بحق."

"أعرف، فقد حكت لي ميتسي هذا."

أومأ برأسه "لقد أنجزت ميتسي هذا الأمر، واستحقت بصدق الحصول على المنحة. استحقتها بسبب ولعها بالتفوق وانضباطها وفي المقام الأول لأنها خاضت منافسة شريفة للحصول على المنحة. حصلت على تذاكر السفر والتأشيرة ومكان للدراسة في المدرسة العليا وأصبحت هناك أسرة مستعدة لاستضافتها، وكان من المتعيّن أن تسافر إلى أمريكا بعد ذلك بثلاثة أسابيع."

"ولكن؟"

"لكن هؤلاء اللعناء في البرلمان الاتحادي الألماني غيّروا رأيهم فجأة وفضّلوا إهداء منحة ميتسي لإحدي الكازاخيات. كانت تلك الكازاخية

قـد أتـت لتوهـا إلى ألمانيـا. لقـد كابـدت طفولـة صعبـة ومصير مأسـويّ، فكانــت تلــك المنحــة بمثابــة هديــة جميلــة للترحــاب بتلــك الطفلــة المسـكينة وبمثابـة ضجـة إعلاميّـة قويّـة للمتبرعـين النبـلاء. وفي المقابـل لم يكـترث أحـد بالطبـع بأمـر ميتـسي، فهـي ليسـت سـوى فتـاة ألمانيـة. لم يكـن بوسـعها أن تُطلِعـك عـلى الخطـاب الـذي ورد فيـه أنهـا بالتأكيـد تتفهّـم ذلـك وأنهـا، بعـد أن تتجـاوز شـعورها للوهلـة الأولى بالإحبـاط، الــذي ربمــا يعتريهــا الآن، ستسـتطيع أن تشـارك الكازاخيـة فرحتهـا؛ لأن هـذا الخطـاب بحـوذتي." تـرك السـيجارة تهـوي وداسـها بقدمـه. "أجمـع مثـل تلـك الحكايـات؛ فهـي تمنحنـي القـوة التـي أحتاجهـا لمواصلـة الحيـاة؛ حتـى لا أفقـد الأمـل مـرة أخـرى."

"أفهم ذلك."

"أعـرف." أخـذ الصنـدوق وسـحبه إلى سـلّم القبـو لأعـلى، سرت خلفـه حاملـةً زجاجـات الويسـكي بـين ذراعـاي.

دفـع أحـد مـن الداخـل البـاب، الـذي يفصـل بـئر السـلم عـن المحـل، لينفتـح وخـرج فالـك منـه "أيـن سـتبقيان إذًا؟ لقـد ظننـت أنكـما تفعـلان شـيئًا آخـر هنـا بالأسـفل."

دلــف ماكســميليان مــرورًا بفالــك، اعــترض فالــك ســبيلي وأراد أن يحمــل عنــي زجاجــات الويســكي.

قلت له: "لكنني أستطيع أن أحملها."

"لكنــك لســت مُلزَمــة بذلــك." ابتســم ابتســامة عريضــة. "أنــا رجــل مهـذب، تعـالي ودعينـي أحملهـم. لقـد أحـضرت لـكِ معـي أيضًـا الكتـاب، أتعرفينـه؟ إنـه كتـاب "ثعلـب الصحـراء"، ربمـا ينـال إعجابـك."

(30)

في السنوات الثلاثة الأولى من دراستي بالمدرسة الشاملة لم نحصل على درجات، بل كنا نخضع لعمليات "تقييم". لا سيما فيما يتعلّق بسلوكنا الاجتماعي. وكانت مُدرسة الفصل السيدة شيفر-ميشائيلي تدونها بخط يدها. عندما كنا نتلقّى الحصة المفتوحة - أو ما نُسَميه ب "التعليم المفتوح" - كانت تراقبنا من المنصة، التى تعتليها، وتلّف القلم الحبر السائل بين إصبع الإبهام وإصبع السبابة. لم تكن تكتب أبدًا بالقلم الحبر الجاف، فقد كانت تمقت الكتابة به، تمامًا مثل الكتابة على الكمبيوتر، لأن كلاهما يفسد خط اليد، حسبما كانت تقول.

كان ينبعث صوت صلصلة خفيض، عندما تسحب السيدة شيفر-ميشائيلي غطاء القلم الحبر السائل وتبدأ في الكتابة ببطء، ببطء شديد، كما لو أنها مضطرة إلى إمعان التفكير بدقة في كل كلمة. كانت في بعض الأحيان ترفع بصرها فجأةً وترنو لأحد التلاميذ قائلَةً: "أظن أن ذلك التقييم يرسم صورة جميلة لك. إنه لأمر طبيعي تمامًا، حتى

وإن كان في الصورة زوايا وحواف إلا أن تلك الزوايا والحواف تندرج ضمن الصورة. أشعر أن تلك الصورة ستكون منصفة لك للغاية."

كنت أحب السيدة شيفرميشائيلي، لكن أمي قالت لي إنه يجب عليّ أن أحترس منها فلا يمكن لأحدٍ أبدًا أن يثق في المدرسين، لا سيّما أولئك الذين يزعمون أنهم ينوون الخير للجميع.

سألتها: "لماذا؟"

"لأنهم يشعرون بشكلٍ شبه دائمٍ أنهم يتعرضون لمعاملة سيئة؛ إن أولئك غادرون تمامًا. صدقيني."

لم أستطع أن أجد في مُدرستي أي أثرٍ لغدر، وبالرغم من ذلك لم أعد أنجح في أن أتعامل معها دون حذر.

كانت هناك إلى يسار السبّورة ست صور مُلوّنة، مُثبتة على الحائط تظهر فيها حديقة، وتشرح تصور الدراسة في المدرسة الشاملة: حيث تبدأ الصور ببذرة غير لافتة للنظر، وفي نهايتها يمكن رؤية زهرة حمراء في أوجّ ازدهارها. ظننتها لوقتٍ طويلٍ زهرةَ الجربارة. حتى رأيت في أحد متاجر بيع مستلزمات الحدائق أنه يجب إدخال عُصيّ معدنية صغيرة في السيقان الطويلة للزهرة، حتى لا تتهّشم. غير أننا، خلافًا لتلك الزهرة، ينبغي لنا أن ننمو معتمدين على قوتنا الذاتيّة وأن نقف منتصبين. لا نحتاج سوى لتربة وشمس وأمطار، لا نحتاج إلى بستانيّ، ولا نحتاج بتاتًا إلى عُصيّ معدنية صغيرة تدعمنا. لذا لا يمكن أن تكون تلك الزهرة من فصيلة الجربارة.

كانت مديرة مدرستنا تقول في كل المناسبات إنه من المفترض أن تكون المدرسة الشاملة أكثر إنصافًا للعالم بعض الشئ. وأن تقسيم المدارس إلى مدارس متوسطة ومدارس أساسيّة ومدارس ثانويّة لم يعد أمرًا مرغوبًا. وأنه لا ينبغي إقصاء أحد ولا يجوز أن يُحَدّد في نهاية الصف الدراسي الرابع مسار مدرسيّ، يتدرج التلاميذ فيه. كما يتعيّن

أن يتعلّم الأقوياء والضعفاء من بعضهم بعضًا دون فصل بينهم؛ كي "يستنهضوا هِمم بعضهم بعضًا"، كما يُقال. وفي خضم ذلك لم يرد على لسان أحد من يندرج ضمن "الأقوياء" ومن يندرج ضمن "الضعفاء". وبالرغم من ذلك كان الجميع يعرفون، إلى أي تصنيف ينتمون. فذلك أمر يستشعره الإنسان ببساطة.

تعين علينا مرة في الأسبوع أن نتحدث عن سلوكنا الاجتماعي ونحن جالسين في كراسي، تتخذ شكل دائرة وأن نعطي بعضنا إرشادات بشأن ما يجب أن يتحسّن في سلوكنا الاجتماعي. كان يُطلق على هذا: "عملية نقد بناء لبعضنا بعضًا" وكانت السيدة شيفر-ميشائيلي تردد الجملة الأثيرة لديها: "علينا أن نناقش هذا باستفاضة."

وفي الختام كان ينبغي علينا أن نكتب على بطاقات الفهرسة التي كانت تُعلّق على الحائط بجوار الشكل البياني المُكوّن من صور الزهور، عبارات يحمل مضمونها مقاصد طيبة، بحيث تبقى تلك العبارات دائمًا نصب أعيننا، فكانت مديرة مدرستنا تقول: "إن مكامن قوتنا تنبع من مواطن ضعفنا."

لم أعد أتذكر على وجه الدقة أول مرة اتّضح لي فيها أن كل شيء في حقيقة الأمر محددٌ سلفًا منذ وقتٍ طويلٍ وأنه لا مجال لأن يتمتع أحدٌ فعليًا بحق الاشتراك في اتخاذ القرار. ربما تكون معرفتي بذلك قد بدأت في اليوم الذي طلبت فيه زميلتي ماريللا، التي كانت تجلس في المنضدة المجاورة لي في الفصل، بألا تضطر للمشاركة في حصة الأشغال اليدوية. ومنذ التحاقنا بالصف الخامس كنا جميعًا نتعلم اللغة الإنجليزية معًا. وفي الصف السابع كان يحق لأغلبنا أن يتلقى دروسًا في لغة أجنبية ثانية. كانت ماريللا تشعر بميلٍ لفرنسا وكانت تسافر دائمًا في الإجازات الصيفية مع والديها إلى إقليم الأرديش، كما كانت تعتزم أن تتعلّم الفرنسية. لكن السيدة شيفرميشائيلي هزّت رأسها في أسى حينئذٍ قائلة لها: "هذا لا يتوافق مع قدراتك يا ماريللا، يمكنني

بكل سرور أن أتلو رغبتك مرة أخرى على أعضاء هيئة التدريس، غير أنني أعتقد أن جميع المدرسين متفقون في كون حصة الأشغال اليدوية مناسبة لكِ، سوف يفيدك تعلم تلك الأشغال اليدوية في حياتك أكثر بكثير من تعلم اللغة الفرنسيّة."

لم أعد استمرئ الجلوس مع زملائي في الكراسي التي تتخذ شكل دائرة لنمارس النقد البنّاء. كنت أفضّل في "حصة التعليم المفتوح" أن أنظم شعرًا أكثر من أن أتدرّب على حل مسائل الرياضيات؛ غير أن الخطة الدراسية للمدرسة الشاملة لم يكن بها بالطبع مجال لهذا. هناك قصيدة لهاينريش هاينه، كنت أحبها حبًا جمًّا، حيث إن جدي بنديكت كان قد لقّنني إياها. فلتحقق لي رجائي يا أخي بأنني إن مِت الآن، تحمل جثتي معك إلى فرنسا، فلتدفنني في أرض فرنسا. لقد مسّت تلك الأسطر شَغَاف قلبي فاعتزمت أن ألقي القصيدة كاملة في حصة اللغة الألمانية إلا أن السيدة شيفرميشائيلي ارتأت، أننا لسنا متأهبين على الإطلاق لاستيعاب موضوع قصيدة كتلكِ، وأنه من الأجدر بجَدي أن يقرأ معي ما يتناسب مع مرحلتي العمرية. كما أنه لا يمكن دراسة أعمال هاينه إلا ببلوغ الصف الحادي عشر. بالإضافة إلى أن دراسة تلك القصيدة على وجه الخصوص تستلزم منا أن ندرس كل شيء عن الثورة الفرنسية وعن فترة الانتفاضة الشعبية في ألمانيا، حتى نستطيع أن نضعها في السياق الصحيح لها.

بدأت أنسلّ دون أن يلاحظ أحد وانتهزت كل فرصة، كي لا أشارك في الحصة. كان يجب عليّ بالطبع أن أفعل هذا بدهاء، بحيث لا يتمكّن أحد من أن يلقي عليّ بلائمة أنني أسلك سلوكًا غير اجتماعي أو أنني أفتقر إلى روح العمل الجماعي. فأصبحت أولًا المتحدثة باسم تلاميذ الفصل ثم المتحدّثة باسم تلاميذ الصف الدراسي كله. وكان هذا يعني أن أحضر اجتماع التلاميذ على الأقل مرة واحدة أسبوعيًا، ومن ثم كنت أُعْفى من حضور الحصة كي أتمكن من المشاركة فيه.

فكتبـت السـيدة شيفرميشـائيلي في التقييـم الخـاص بي قائلـة: "تتحمّـل المسـئولية وتلتـزم بمصالـح المجموعـة."

كـما اجتهـدت كذلـك في آداء خدمـة التنظيـف، حيـث كنـا ننظـف الفصـل الـذي نـدرس فيـه بأنفسـنا. فقـد قيـل لنـا إن هـذا يعـزز مـن إحساسـنا بالمسـئولية، وكان كل يـوم يشـارك في أعـمال التنظيـف تلميـذان أو ثلاثـة.

كنـت أتطـوّع دائمًـا بمحـض إرادتي للمشـاركة في أعـمال التنظيـف، وبينـما كان الآخـرون يذهبـون لحضـور حصـة الرياضـة البدنيّـة أو الموسـيقى، كنـت أشـفط الـتراب وأمسـح المناضـد وأفـرّغ صنـدوق القمامـة وأفـرز مـن جديـد الأدوات المسـتخدمة في الأشـغال اليدويـة.

كُتِـبَ في تقييمـي: "إنهـا تحـرص عـلى تحقيـق النظـام في حجرتهـا الدراسـية وفي الحجـرات، التـي تـدرس بهـا مجموعـات التلاميـذ." كانـت أمـي تندهـش مـن ذلـك التقييـم دائمًـا، فقـد كانـت معتـادة عـلى أننـي أهـوى جمـع الأشـياء وتكديسـها؛ فقـد ضبطتنـي أمـي ذات مـرة في اليـوم الأخـير مـن إحـدى العطـلات الصيفيـة، عندمـا كنـت أفـرغ محتويـات حقيبـة السـفر الخاصـة بي مـرة أخـرى وأحـشر ملابـسي أسـفل السريـر، وبـدلًا مـن الملابـس مـلأت الحقيبـة بقواقـع وأحجـار وأكيـاس بلاسـتيكية صغـيرة ممتلئـة برمـال الشـاطئ.

طوابـع البريـد وأغطيـة الزجاجـات والمـواد اللاصقـة وقطـع الفِـل التـي توضـع تحـت كـوؤس البـيرة شـخوص الهدايـا المخبـأة في بيضـة المفاجـآت، لا يـكاد يوجـد ثمّـة شيء لم أهـوى جمعـه. تمثّلـت القطعـة الأحـب إلى قلبـي في علبـة مشروبـات معدنيـة، كانـت تبـدو مثـل مكعـب صغـير رفيـع مـن مكعبـات لعبـة البنـاء، مثـل عمـود صغـير. لا يوجـد هـذا النـوع مـن العُلـب المعدنيـة سـوى في الطائـرات. عـثرت عـلى العُلبـة في شـجيرة نبـات الردنـدرة الموجـودة بجـوار بـاب المنـزل، كـما لـو أن تلـك العُلبـة قـد

سقطت لي خصيصًا من السماء. كانت إحدى عُلَب مشروب الروت بير وهو مشروب، لم أكن حينئذٍ قد عرفته بعد. وكانت هناك بقايا من عصير بنيّ اللون ملتصقة بفوهة العُلبة.

غسلت العُلبة وجفّفتها بعناية ووضعتها على الكومودينو الخاص بي.

كنت أخال في بعض الأحيان، أن كل الأشياء تحمل بين طياتها حنينًا، يمسني برقة، حنينًا لا يستطيع أحد سواي أن يسمع صوته. هبّتْ رياح خفيفة، همس، ابتهال بصوتٍ منخفضٍ، يهاجمني ولا أستطيع أن أتجاهله. عندما كنت أرى أحدًا يلقي بشيء ما، كان لزامًا عليّ أن ألتقطه. علبة بيتزا فارغة مصنوعة من الكارتون، كرسي تالف، شقفات الفخار الناتجة عن تحطم كأس، سقط من يد أمي، كنت أود أن أحتفظ بكل تلك الأشياء، وأن أبدأ بذلك شيئًا ما لم أتأكد أبدًا من ماهيته.

ذات يوم انفتح باب غرفتي ودخل إلى الغرفة أمي وأبي وأيكه وجدي بنديكت، الذي أتى لزيارتنا والمكوث عندنا بضعة أيام.

"يا إلهي! ما هذا إذًا؟" قالها أبي متسائلًا، حيث إنه لم يكن قد دخل غرفتي منذ وقتٍ طويلٍ. "كم تبدو الغرفة سيئة؟"

بقي أبي واقفًا بالباب، بدا جدي بجواره ضئيل الجسد وواهنًا، استدارت أمي نحوهم قائلة: "إنها الأشياء، التي تجمعها."

سارت أمي بمحاذاة الأرفف.

"كم يبلغ عدد العُلب، التي جمعتيها، الآن؟" قالتها متسائلة وأضافت: "خمسون أم ستون؟ فلتلقوا نظرة على تلك العلب الكرتونية فحسب! على الكؤوس والرقائق و... هنا ..." أخرجت صندوق "... كل شيء يمتلئ بالشقفات."

ظل وجهها خاليًا من أي تعبير، بيد أن كتفيها كانا مشدودين.

جلس أيكه على سريري، مستندًا بمرفقيه على ركبتيه ومطأطِئًا رأسه، ووضع يديه على أذنيه.

ظلت أمي واقفة أمام عُلب المشروبات، التي كانت متكدسة على هيئة أهرامات فوق أحد الأرفف.

"لا يمكن أن تكون قد عثرت على هذا كله.". كانت تتحدث، كما لو أنني لست متواجدة هناك البتّة. "من أين أتت بهذه الأشياء؟ هل كانت تجوب المدينة وتفتش صفائح القمامة؟ مثلما يفعل... المتسكعون؟ - لماذا تفعل هذا؟"

مرَّرتُ لساني فوق شفتيَّ؛ كانتا جافتين للغاية؛ كانتا كأنهما متفلقتان.

نظر إليّ أبي نظرة ضيق وألم بالغين، لدرجة أنني نكّست رأسي في خجل، سألني أبي كذلك: "ماذا تريدين أن تفعلي بكل تلك الحاجيات؟"

أجبته، دون أن أرفع بصري قائلة: "هناك حياة كامنة في كل شيء من تلك الأشياء."

قالت أمي محتدة: "هناك حياة كامنة! من أين جاءت بهذا؟".

أكدت حديثي قائلة: "لكل شيء صوته الخاص." وأردفت قائلة: "أنتِ تعتبرينها قمامة، لكن هناك أناس وفنانون يستطيعون أن يبدعوا منها شيئًا ما، يستطيعون على سبيل المثال أن يصنعوا منها صورًا أو تماثيل."

تساءل أبي: "هل أصبح لديكم مُعَلِّمة جديدة تُدَرِّس الفنون؟" كان صوت أبي ذا وقعٍ أقرب ما يكون إلى الارتياح، حتى إنه ضحك وبسط يده وضمَّ ذقني ورفع رأسي برفق، حتى أنظر إليه في عينيه. "بعض الفنانين" قالها لي وأضاف: "يصنعون أعمالهم الفنية كذلك من الزبد الفاسد أو يلقون بالفضلات على شاشة العرض بالسينما." ضحكت

حينئـذ أمـي أيضًـا وحتـى أيكـه ضحـك ضحكـة مكتومـة. يبـدو أنـه كان يصغـي إلينـا. بيـد أن جـدي نظـر إليّ بعينـين نصـف مغلقتـين ودون أن ينبـس ببنـت شـفه، وعندمـا رمقتـه بنظـرة اسـتعطاف، ابتسـم، لكنـه لم يتفـوّه أيضًـا بكلمـة.

أخـرج أبي زجاجـة لـبن فارغـة مـن الـرف وتسـاءل: "هـل لهـذه الزجاجـة أيضًـا صـوت؟ وأراد أبي أن يمسـك بهـا ويضعهـا عـلى أذني، لكننـي أدرت رأسي بعيـدًا. عندئـذ وضعهـا أبي عـلى أذنـه. "لا أسـمع شـيئًا." قالهـا وناولهـا لأمـي، التـي بـدأت تلفهـا بـين يديهـا.

"إنهـا ليسـت بأشـياء تُجمـع عـلى سـبيل الهوايـة، بـل كومـة لعينـة مـن القمامـة."

هززت رأسي ببطء وقلت: "أنتم لا تفهمون هذا."

تدخّـل جـدي في الحديـث بقولـه: "لكـن هـذا مُصَنّـف عـلى نحـوٍ أفضـل بكثـير مـن اعتبـاره كـوم قمامـة."

التفـت أبي نحوهـا" تطعنـي في ظهـري الآن، أم أنـك كنـت مـن أقنعتها بهـذا السـلوك الأحمق؟"

ظـل جـدي محتفظًـا بهدوئـه. "بـأي وجـه تصفـه بالسـلوك الأحمـق؟ إن البنـت ببسـاطة تُعمِـل عقلهـا."

حمـل أبي جـدي عـلى الصمـت بحركـة غاضبـة مـن يـده. "كان يتعـيّن عليـك أن تقـول هـذا لي، عندمـا كنـت في مثـل عمرهـا، لكنـك لم تبـدِ ثمـة تفهـمًا لمثـل هـذا الهـراء. والحقيقـة أنـك كنـت محقًّا تمامًـا في هذا، حسـبما أعـرف الآن." نظـر أبي إليّ راسـمًا ابتسـامة مصطنعـة عـلى وجهـه وقـال: "إن كـوم القمامـة يبقـي كومًـا مـن القمامـة يبقـى كومًـا مـن القمامـة ولا شيء آخـر، أخرجـي هـذا مـن هنـا، أخرجيـه اليـوم."

"ابنتك لديها خيال خصب." قالها جدي وأضاف: "ينبغي لك أن تأخذها على محمل الجد وأن تفخر بها."

تنهّد أبي بانفعال "نحن فخورون بها، ولهذا تحديدًا لا نريد أن تنزوي في جبل من القمامة وأن تسمع الزجاجات تتحدث. ينبغي لها أن تخرج من هنا وأن تدلي بدلوها في الحياة وأن تسعى لبناء علاقات صداقة."

وضعت لي أمي زجاجات اللبن في يدي "لكن عليها أن ترتب غرفتها أولًا."

عندما غادر والداي الغرفة، ربت جدي على كتفي قائلًا: "ألقي الأشياء بأكملها بالخارج، بما فيها الأثاث، واشتري لنفسك سريرًا نقّالًا. وهكذا تفعلين، ما ترغب به أمك. وأنت تحتفظين على كل حال بكل شيء في رأسك، ولست بحاجة إلى هذه الأشياء على الإطلاق."

مرة أخرى ضحك أيكه، وهو لا يزال جالسًا على السرير، ضحكة مكتومة. "هل تحتفظ بالقمامة أيضًا في رأسها؟ يا للهول! لو سمعت ماما هذا، ستضطر أنّا أيضًا أن تفتح جمجمتها وتفرغ ما بها." قالها وقفز وصفّق بيديه. "إذًا هيّا! هلم بنا نجمع تلك الأشياء، سأساعدك في حزمها يا شقيقتي الصغيرة."

(31)

لا أدري، لماذا لم أذهب ببساطة إلى المنزل، ماذا أريد من البقاء هنا الآن؟

أرتشف القهوة من كوب من الفِلّين، اشتريته لتوّي، وأتجول بين مباني المطار. تبدو لي العنابر مثل أكواخ. هل سافرت أمي وأسرتها بالطائرة من تيجل إلى هامبورج؟ لا، أعتقد أنهم سافروا من مطار تمبلهوف.

كنت قد شاهدت في لوبيك بعد وفاة جورج المنزل الذي عاشت فيه ابنة عم جدتي لورا.

حيث اتخذوا من منزلها مأوى لهم بعد هروبهم.

روت لي أمي، أن ابنة عم جدتي كانت تسكن غرفتين في الطابق الثالث وكانت تنام على الأريكة وتترك سريرها لأفراد أسرتها. لم تعد تسكن في المنزل. وانقطعت الصلة بين جدتي لورا وأمي وبينها منذ وقتٍ طويلٍ. مشيت بامتداد الشارع، الذي لعبت فيه أمي لعبة

"الجنة والنار"، عندما اختفى أبوها، كيف يتأتى لإنسان أن يختفي ببساطة؟

ألقي بالكوب جانبًا، دون أن أكون قد احتسيت ما به عن آخره، وأشعل سيجارة. ثم أواصل التجوُّل هائمة على وجهي. بدأ ضوء الصباح يسطع شيئًا فشيئًا؛ لتتلون السماء بألوان هادئة وتبدو الشمس مثل برتقالة منزوعة القشرة.

تتحرك طائرة على عجلاتها بامتداد ممر الإقلاع، الذي أستطيع رؤيته عبر فجوة تقع بين مبنيين. أبقى واقفة، تصبح حركة الطائرة أسرع وأسرع وأسرع، لا يمكن تخيُّل أن هذا المارد الضخم ثقيل الوزن، الذي يبرق بلون فضيّ، لكن عندئذ ترتفع الطائرة ويُخيَّل لي، كما لو أنني أستطيع أن أراك تعتلي ظهر الطائرة، بين طيات أجنحتها، وترتفع معها بقوة إلى أعلى لتشق عنان السماء.

يستلقي سكين تقطيع السوشي في علبة كرتون مسطحة سوداء اللون، ذات غطاء شفّاف، يكاد طولها أن يتساوى مع طول ساعدي. نصل السكين رفيع ومشحوذ من كلا الجانبين، ومحفور عليه الكلمات التالية "روكويل درجة الحِدّة 60 °" ما معنى هذا؟ أشتري تذكرة الأتوبيس السريع المتجه إلى تيجل لأعود أدراجي إلى المدينة.

كل شيء في الحي، الذي أقطن به، لا يزال ساكنًا. غير أن محل بيع المواد الغذائية الصغير الواقع في شارع شتراسمان يفتح أبوابه لتوّه. تنفرد المظلّة فوقه ويرتب وأحد الفيتناميين صناديق بها فاكهة وخضروات ويضعها في الشارع أمام واجهة العرض. أتوجه إلى المحل، وأشتري لأيكه عبوة بها ست زجاجات من البيرة، على الرغم من أنه لا بد وأن يكون قد ذهب بالتأكيد إلى منزله. هناك دلو بلاستيكي بجوار الخزينة، يمتلئ بورود حمراء اللون ذات سيقان طويلة. آخذها كلها،

أفتـح بـاب الشـقة، أظـل واقفـة. مـا هـذه الرائحـة المنبعثـة هنـا؟ يهـبّ باتجاهـي مزيـج عفـن مـن رائحـة الـتراب والخشـب المضغـوط، أغلـق البـاب خلفـي وأضـع سلسـلة البـاب.

كان هنـاك في غرفـة النـوم نصـف دسـتة مـن علـب الكرتـون المسـتخدمة في نقـل المتـاع كلهـا مفتوحـة وحقيبـة بهـا أدوات الشـغل وسـلّم. لقـد ركّـب أيكـه الأرفـف ودولاب الملابـس والسريـر. غـير معقـول، لا بـد وأنـه قـد واصـل العمـل شـطرًا طويـلًا مـن الليـل.

همهـم صـوت أحـد الأشـخاص بقولـه: "لقـد تأخـرتِ." ارتجفـت ورأيـت أخـي يجلـس في الكـرسي الهـزاز، خلفـي، بجـوار البـاب مبـاشرة. بسـط أخـي غطـاءً فـوق ركبتيـه ودسّ وسـادة خلـف رأسـه. لم يكـن لأيكـه قـط أن يسـتلقي ببسـاطة في سريـري؛ فقـد كان يـرى هـذا أمـرًا بـه تجـاوز.

"يا إلهي! لقد أفزعتني."

يضحـك، ثـم يتثـاءب بقـوة محدثًـا صوتًـا. كانـت عـلى الأرض زجاجات بـيرة فارغـة مُصَنّعـة في مدينـة يفـير وموضوعـة عـلى نحـو مرتـب. أضـع إلى جانبهـم السـت زجاجـات، وأقـول: "إنها إمـدادات."

"وماذا عن الورود؟"

"جميلة، أليس كذلك؟ لقد اشتريتها لنفسي."

"اشـتريتيها لنَفْسِـك؟" يطـوّق ذراعيـه وراء رأسـه ويبتسـم متهكـمًا. "هـل شـعرتِ بالاسـتمتاع؟ هـل كان كونسـتانتين هـذا لطيفًـا معـك؟"

أقـول لـه: "لا تسـأل أسـئلة سـخيفة كهـذه!" وأضـع الـورود عـلى السريـر وأحـرص عـلى أن تحجـب الـورود العلبـة التـي تحتـوي عـلى السـكين، مـاذا قـد يكـون رأي أيكـه في هديـة كهـذه؟ يعتـدل أيكـه في جلسـته عـلى نحـوٍ مفاجـئ "ا للعنـة! كـم السـاعة؟"

"لقد شارفت على السابعة والنصف."

"آه، سُحقًا! سوف تعنّفني أليس! لم أخبرها بذلك. لعلّها حاولت الاتصال بي عبر هاتفي المحمول مئة مرة، غير أن هاتفي المحمول لا يزال في المكتب أو في مكان آخر." وثب تقريبًا لأعلى "أين حذائي؟ هل رأيتِ حذائي اللعين؟" ركض عبر الغرفة، كمن أصابته طعنة.

الحذاء تحت السلم.

أنظر إلى أعلى باتجاه السقف، هنا مصباح الخال جورج، أربع أذرع من النحاس الأصفر وشموع بلاستيكية ولمبات كهربائية لونها مائل للاصفرار والمصباح مغطى بالكامل بغطاء صغير بنيّ اللون ذي إطار ذهبي وتتدّلى منه أهداب، سألته: "أين وجدته إذًا؟".

"في صندوق ما، عندما كنت أبحث عن أدوات العمل يبدو رائعًا ذا طراز قديم تمامًا، أليس كذلك؟" كان شعره الأشقر متفرقًا في كل الاتجاهات، حاول أن يُسوّيه بيديه وقلّب بصره في الغرفة مرة أخرى، هل نسي شيئًا؟ "حقًّا! لقد نسيت التبغ، الذي أشربه! لكن من الأفضل أن أتركه هنا؛ لأوفر على نفسي الاستماع لموعظة عن الحفاظ على صحتي. أنتِ، هل ستردين لي سترتي ثانيةً؟" خلعت السترة ذات غطاء الرأس المصنوع من الفراء وأعطيتها لأيكه. لوّح لي أيكه بيده وركض باتجاه الباب خارجًا وعاد مرة أخرى. التقط من الأرض بكرتي أفلام كبيرتين. انظري، كانتا في العلبة الكرتون مع المصباح، هل يخصان كذلك خالنا جورج؟"

"أجل، كنت أريد منذ وقت طويل مضى أن أشاهد ما بهما، لكنني ليس لديّ جهاز عرض، وأنت أيضًا ليس لديك جهاز، أليس كذلك؟"

"لا. لكن، إن أردتِ، سوف أحول لكِ ما بهما إلى صورة رقمية."

"سيكون هذا أمرًا رائعًا."

"لا مشكلة، وبالمناسبة: ورودك بحاجة لأن تروى بالماء، اعتني بها جيدًا. آمل أن يكون صديقك الجديد ذا نفع."

"أجل بالطبع! أنا حذرة هذه المرة." أرافق أيكه حتى الباب، أغلق الباب بعد خروجه بالمفتاح وأضع سلسلة الباب مرة أخرى.

لعلك في هذه الأثناء قد هبطت بالطائرة في باريس، لم يسبق لي قط أن ذهبت إلى هناك.

تنظر إليّ أمي من الحائط المغنط، وأنا فتاة صغيرة ممتلئة الوجنات، تجلس في عربة أطفال منخفضة ومصنوعة من الخوص. يظهر في صورة أخرى الشارع الطويل في روستوك، والذي تحفه من الجانبين البيوت الاشتراكية البارزة، التي شارك جدي كارل في بنائها. كما يظهر في الصورة طفلان يقفان في وسط هذا الشارع ويمسكان بيد بعضهما بعضًا. كانا صغيرين كأنهما دبابيس إبرة موضوعة بين المنازل الضخمة. لقد كتب كارل على ظهر الصورة "شارعي، في أبريل 1961". كان هذان الطفلان بالتأكيد خالي جورج وأمي. كنت كلما تأملت الصورة، أسأل نفسي، عما إذا كانت تبوح بشئ ما يخص جدي حيث كان طفلاه يظهران في الصورة ضئيلان للغاية، كما أنه لم يدون اسميهما على ظهر الصورة. عندما كنت أسأل جدتي لورا في السابق عنه، كانت دائمًا ما تقول: "من تلك، التي تحتاج إلى وجود رجل، إن كان لديها حفيدة مثلِك؟" أو: "ألا ترين، أننا ندبّر أمورنا بدونه أيضًا على نحو جيد للغاية؟"

"لكن إلى أين ذهب؟ لا يمكن لأحد أن يتبخّر في الهواء!"

"هل من الممكن أن تقشري البطاطس؟ حتى أطهو لنا بطاطس محمرة لنتناولها في وجبة الغذاء."

"يا جدتي! فلتفصحي الآن! ما ظنك فيما حدث آنذاك؟"

مـدّت يدهـا إلى مغرفـة الطعـام وضربتنـي بهـا عـلى سـبيل المـزاح. "فلتسـاعديني في تقشـير البطاطـس أو فلتغـربي عـن وجهـي."

كنـت أعـرف، أنهـا كانـت تـضرب جـورج وأمـي بصـورةٍ منتظمـة، بعـد أن اختفـى جـدي وأصبحـت فجـأة تعولهـما بمفردها.

"لماذا لا تحكين، ما الذي حدث؟ تقول ماما أيضًا..."

"إذًا فلتسأليها."

"هيـا! مـا أول فكـرة خطـرت ببالـك آنـذاك؟ هـل بحثتـم عنـه؟ هـل ذهبتـم إلى الشرطـة؟ مـاذا..."

ارتمـت عـلى المقعـد الصغـير في المطبـخ وتحسّسـت موضـع قلبهـا. "يـا إلهـي! أيتهـا الفتـاة، لمـاذا يجـب أن تعذبيننـي عـلى هـذا النحـو؟ أنـا لا أعـرف شـيئًا حقًـا. ببسـاطة لقـد اختفـى، لا تعذبيننـي هكـذا."

لم تبُـح أبـدًا بمـا يكمـن في قـرارة نفسـها، كانـت تتحـاشى الإجابـة عـن كل الأسـئلة المتعلقـة بجـدي. مـع أنهـا كانـت منـذ البدايـة عـلى درايـة دائمـة بمـا حـدث.

عندمـا عرضـت عـلى أمـي الصـور، التـي أخذتهـا مـن شـقة خـالي جـورج، هـزّت رأسـها في اضطـراب. "أو مـا زالـت تلـك الصـور موجـودة! أسـتطيع أن اتذكرهـا جيـدًا! لقـد أرسـلها أبي قبـل فرارنـا إلى غـرب ألمانيـا. إلى كل مـن أمكـن لـه أن يرسـلها إليهـم مـن النـاس، إلى أقـارب أمـي وإلى صديـق، التحـق معـه بالدراسـة في المعهـد العـالي لدراسـة فـن العـمارة، وإلى رفاقـه في الحـرب. لم يرسـلها بالطبـع دفعًـة واحـدة، بـل أرسـلها بالتدريـج، كي لا يلفـت أي شـئ انتبـاه أحدهـم في قطـاع التفتيـش بالبريـد. كنـت أعتقـد دائمًـا - بعـد أن اختفـي أبي ... لقـد قالـت مامـا أنهـا أضرمـت النـيران في الصـور. في الصـور كلهـا. وأننـا ينبغـي لنـا أن نبـدأ مـن جديـد تمامًـا وألا نتشـبث بالمـاضي. كانـت أمـي تقـول إن أبي كان رجـلًا صالحًـا وأنـه كان يحبنـا حبًـا يفـوق كل حـدّ - لكـن عليكـم الآن ألا تفكـروا فيـه

ثانيـة، ألا تنظـروا إلى الـوراء. كان هـذا أمـرًا ينطـوي عـلى فصـام بالـغ. كانـت أمـي تولـول باكيّـة ليـالٍ طـوال، بيـد أنـه لم يكـن مسـموحٌ لنـا أن نتحـدث عنـه. انظـري، تظهـر في الصـورة هنـا قطـط جـورج الصغـيرة." قلبـت الصـورة نحـو ظهرهـا وقـرأت التاريـخ المكتـوب عليـه: "أجـل، يوليـو 1961. بالضبـط، كان هـذا قبـل بضعـة أسـابيع فقـط مـن فرارنـا." جعلـت الصـورة تهبـط إلى أسـفل ونظـرت إليّ قائلـة: "مـاذا تنويـن أن تفعـلي بالصـور يـا أنّـا؟"

"هل تريدين أن تأخذيها؟"

"لا" ردتّهـا إليّ وهبّـت واقفـة. "بإمكانـك لأجـل خاطـري أن تتخلـصي منهـا."

"لكـن لِـمَ أفعـل ذلـك إذًا؟ فأنـت مـا زلـت تحتفظـين بكتـاب القصـص الخرافية."

بقيت واقفة بالباب "إن الكتاب يخصني أيضًا."

"شأنه في ذلك شأن الصور بالضبط."

جلسـت أمـي مـرة أخـرى وأرادت أن تشـعل سـيجارة، لكـن عُلبتهـا كانـت خاويـة. دفعـت إليهـا بعُلبتـي، أدارت العُلبـة بـين يديهـا.

"أتعرفـين، مـا أول شيء فعلـه أبي في لوبيـك؟ لقـد اقـترض دراجـة وأخـذ يجـوب بهـا المنطقـة لأيـامٍ متواليـة لمسـافة أميـال. طـاف بـكل الأشـخاص، الذيـن أرسـل لهـم صـورًا.

كان يرجـع كل مسـاء حامـلًا معـه حزمـة جديـدة. كان يفرشـها عـلى السريـر وحـواف النافـذة والأرضيـة، أي ببسـاطة في كل مـكان. ويـا لـلألم، كنـا ندوسـها سـهوًا. فـكان يتـصرّف عندئـذ، كـما لـو أننـا وطئنـا وطنـه بأقدامنـا. – كنـا نُعَسـكِر نحـن الأربعـة في حجـرة صغـيرة جـدًا ونرتـدي ملابـس تـأتي إلينـا مـن الصليـب الأحمـر. كنـا نلتمـس المسـاعدات، ولم يعـد

لدينـا أي شيء، غـير أن أبي كان يقـول: انظـري هنـا، إنـه منزلنـا. انظـري هنـاك، إنهـا قططـك الصغـيرة. انظـروا، كـم يبـدو منزلنـا جميـلًا في الربيـع."

أخرجـت أمـي سـيجارة مـن العُلبـة بـأن نقـرت عليهـا وأشـعلت السـيجارة.

"كان أخـي مثلـه تمامًـا. لم يكـن يعبـأ بالمكان أو بالوقـت الراهـن. لم يكـن يـرى سـوى مـا فقدنـاه. أتعرفـين، في السـابق كنـت أتخيّـل أحيانًـا - أننـي أسـتيقظ مـن النـوم صباحًـا وفجـأة تندلـع حـرب. كنـت دائمًـا عـلى يقـين، مـن أننـي سـوف أنجـو منهـا. كنـت حينئـذ سـأعرف، كيـف يختبـئ النـاس وكيـف يخوضـون القتـال وكيـف يوفـرون بعـض الطعـام. حتـى إننـي مـن الممكـن أن أرتكـب جريمـة قتـل، مـن أجـل أن أبقـى عـلى قيـد الحيـاة. غـير أن أخـي - كان أقـرب لأن يكـون مثـل قنفـذ، يتكـوّر في وسـط الشـارع رافعًـا أشـواكه نحـو الخـارج، عندمـا تـأتي سـيارة. وبعـد ذلـك يتـألم في صمـت، إن صدمتـه السـيارة. يليـق بـه أن يحتفـظ بالصـور."

ضحكَت بصوت منخفض.

"كان أخـي يريـد دائمًـا أن يعـرف حقيقـة مـا حـدث لأبينـا. كادت تلـك الفكـرة أن تأخـذ كل مأخـذ. حتـى أنـه توجّـه ذات مـرة إلى مبنـى التليفزيـون والتمـس المسـاعدة مـن أحـد الصحفيـين - غـير أن أمـي لم تكـن تريـد أن تعـرف شـيئًا عـن أمـر كهـذا."

"ولما لا؟"

رفعت كتفيها.

"وماذا عنك؟"

"أنـا؟ كنـت ببسـاطة أريـد أن أحيـا، أن اتقـدم إلى الأمـام، أن أرتـب لنفـسي شـيئًا مـا مـن جديـد. بيـد أن فكـرة الاسـتعانة بالصحفـي حدثـت بالفعـل في وقـت لاحـق، في مطلـع السـبعينيات أو شيء مـن هـذا القبيـل.

كنت أجدها فكرة جيدة، وكنت حتى أساند جورج في ذلك. لكن الأمر لم ينجح؛ فقد أوقفت أمي الأمر برُمّته، لقد قاطعت كل شيء. ومع ذلك تمسّك جورج بموقفه. أعتقد، أنه قد قضى كل دقيقة، لا يعمل فيها، في ذلك الأمر. لم يتوقف أخيراً عن الانشغال بهذا الأمر سوى قبل بضع سنوات، لكن عندئذٍ كان الأوان قد فات، لأن يتمكن من أن يحيا حياة خاصة به."

"لماذا فقد الأمل؟"

"حدث هذا بعد تحول ألمانيا إلى دولة موحدة وانهيار سور برلين بوقتٍ قليل. ظل أخي لبعض الوقت مداومًا على الذهاب إلى روستوك. وسمعت، أنه سافر إلى برلين أيضًا بضع مرات. لم نعد نتحدث معًا. أظن أنه قام بالبحث في بعض السجلات." مسحت أمي بيدها على الصور، لدرجة أنها توزعت متفرّقة كأنها أوراق لعبة الكوتشينة. "عندئذ كان الأوان قد فات، لأن يتمكن من أن يحيا حياة خاصة به." قالتها أمي مرّة أخرى، ثم رفعت بصرها ثم حملقت في قائلة: "ألقي الصور بعيدًا يا أنّا!"

أحمل بعض علب الكرتون المستخدمة في نقل المتاع إلى غرفة النوم وأرتّب الكتب في الأرفف. يصيبني التعب، فأتوقف في وسط العمل، ولم أعد أريد سوى أن أذهب إلى الفراش، حيث توجد الورود، التي ذبلت في تلك الأثناء بعض الشيء. أزيحها جانبًا وأتأمل العلبة، التي تحوي سكين تقطيع السوشي وأتخيّل كيف أنني أخرجها ذات مرة في وقتٍ لاحقٍ، ربما في إحدى الحفلات، من أحد الأدراج، وأعرضها لمن حولي قائلةً: أتريدون أن تعرفوا، كيف آل بي الأمر إلى ذلك؟ سأحكي لكم الحكاية، التي تُسَمّى: انفصال حاد، أو: الرجل، الذي يعطي السكاكين كمقابل.

أذهب بالورود إلى المطبخ، كي أشذبها وأضعها في الزهرية. أجذب الدرج وأخرج منه أحد سكاكيني والمصقول من جانب واحد فقط ويخلو من كتابة أي شئ يعبر عن " درجة حدة روكويل". إنه غير مناسب بالتأكيد لتقطيع السوشي، لكنه يكفي لتشذيب الورود. غير أنني ما تمالكت بعد ذلك أن شذبت الورود بصورة جميلة للغاية. أجرب الاستعانة بسكين تقطيع السوشي في تشذيب الورود. ينزلق نصل السكين متخللًا سيقان الورود بدون عناءٍ أو مشقة. لم يكن ذلك بالأمر السيئ.

أضع الورود بجوار سريري، ألقي نظرة على هاتفي المحمول. لا رسائل جديدة، لكن ما هذا؟ تبرز قصاصة ورق من العلبة، المدسوس بها السكين. ليست تلك القصاصة سوى شهادة ضمان. مكتوب عليها "ضمان جودة لمدة عامين". أكرمش القصاصة وألقيها بعيدًا.

(32)

خيّم الظلام بالخارج منذ وقتٍ طويل. جلست في الكرسي الهزّاز مُدثّرة بغطاء. وعلى الرغم من أنّ النوافذ مفتوحة على آخرها، لم يتسلل أي صوت من الشارع إلى داخل المنزل ومنذ ما يربو على الساعة لم تمر سيارة في الشارع. ودائمًا لا يغرد ليلًا في الحديقة العامة الواقعة قبالتي سوى بلبلان. لم أكن أعرف شيئًا عن البلابل - قبل أن أنتقل إلى السكن في هذه الشقة - سوى ما سمعته عنهم من حكايات. ولم أكن مدركة في الليلة الأولى، لماذا يغرد البلبلان وكنت أحسب، أن هناك شيئًا قد أصابهما بالفزع.

"لم يسبق لكِ قط أن سمعتِ شيئًا عن البلابل؟" قالها أيكه، عندما حكيت له ذلك الأمر أثناء تواجدي في العمل في اليوم التالي.

ظل البلبلان هناك طوال الصيف بأكمله. كانا يبدأن في التغريد، بمجرد أن يحل الظلام. لكنهما صامتان الآن. ربما يكونا قد هاجرا إلى الجنوب. أثناء الليلتين، اللتان قضيتهما لدى كونستانتين. أتدثر على

نحـو أكـثر إحكامًـا بالغطـاء وأدفـع نفـسي بإيقـاع منظّـم مسـتخدمة أطـراف أصابعـي. يصـدر عـن الكـرسي الهـزّاز صـوت طقطقـة. كان الكـرسي في السـابق ملـكًا لجـدي بنديكـت. وكان جـدي دائمًـا مـا يقـول، أنـه لا يسـتطيع أن يدخـل في سـبات عميـق سـوى عندمـا يكـون في هـذا الكـرسي. بيـد أن النـوم في هـذا الكـرسي لم يكـن مريحًـا لي.

انتهيـت مـن ترتيـب الكتـب عـن آخرهـا. الآن تصطـف الكتـب بالأرفـف عـلى هيئـة صفـين. ومـن بـين تلـك الكتـب أيضًـا كتـاب "ثعلـب الـبراري"، الـذي أقرضـه لي فالـك آنـذاك. أعـرف أيضًـا، أنـه قـد مـرّ عـلى كافـة المواضـع المفضلـة لديـه في الكتـاب بقلـم تحديـد مـن النيـون لونـه أخـضر أو وضـع بجوارهـا علامـة تعجـب كبـيرة. كنـت أضيـف علامـة تعجـب باللـون الأحمـر، إذا أثـارت تلـك المواضـع إعجـابي مثلـه. لقـد تمّكـن منـا الكتـاب ومـسّ أعماقنـا وشـعر كلانـا أن هـذا الكتـاب يفهـم مـا يـدور في رؤوسـنا. مـا زلـت أسـتطيع اليـوم أن أتلـو بعـض الفقـرات، التـي كنـا نحفظهـا سـويًا عـن ظهـر قلـب: تشـتعل مـن ثـم بداخـلي شـهوة جامحـة تجـاه المشـاعر القويـة والأحـداث المثـيرة، ويعترينـي غضـب مـن هـذه الحيـاة الباهتـة والخاضعـة للمعايـير والعقيمـة وتجتاحنـي رغبـة جنونيـة في أن أحطـم شـيئًا مـا، أحطـم متجـرًا أو قلعـة أو أحطـم نفـسي. مـا زلـت أذكـر، كـم شـعرت بالإحبـاط، عندمـا حكيـت لجـدي بنديكـت عـن اكتشـافي وقـال لي ضاحـكًا: "إن هـذا لأمـر مبتـذل. هـذا الإنسـان تعتريـه المشـاعر فقـط دون أن يفهـم شـيئًا. غـير أنـه في المقـام الأول غـير متمكـن مـن الكتابـة." إن الحيـاة، كـما أظنهـا، لابـد وأن تكـون في النهايـة دائمًـا عـلى حـق وإن سـخرت الحيـاة مـن أحلامـي الجميلـة، فكـما أظـن، فـإن أحلامـي كانـت لتصبـح أحلامًـا سـخيفة وليسـت عـلى حـق.

السـاعة الآن الرابعـة. يجـب عـلىّ أن أنهـض مـن الفـراش مـرّة أخـرى بعـد ثـلاث سـاعات. أصـدر هاتفـي المحمـول صـوت طنـين. بقيـت للحظـة جالسـة دون حـراك، فقـد كان أبي ليقـول في السـابق، أن تلقـي اتصـال

هاتفـي في مثـل هـذا الوقـت لا يبـشّر بالخـير. وفي معظـم الأحيـان يكـون الاتصـال هـذا مفـاده أن أحـدًا يـشرف عـلى المـوت. لكـن هـذا الصـوت كان صـادرًا عـن رسـالة أرسـلها كونسـتانتين يقـول فيهـا: ألا زلـتِ مسـتيقظة أم أنـك نائمـة؟

كـم لهـذا السـؤال مـن وقـعٍ جميـل؟ أيرجـع هـذا الـكلام لإحـدى القصـص الخرافيـة؟ ابتعـدت وواصلـت التأرجـح بخفـة وأجبتـه: لمـاذا لم تنـم بعـد؟

أفكر فيكِ.

أما زلت في باريس؟

هل يمكننا التواصل عبر موقع سكايب، يا محبوبتي؟

أحـضِر جهـاز الكمبيوتـر المحمـول مـن المطبـخ وأجلـس في الكـرسي الهـزّاز حاملـّة إيـاه.

تجلـس عـلى سريـرٍ أبيـض عريـض وتـدس الوسـادة وراء ظهـرك ولم تـزح الغطـاء الخفيـف. لقـد حلقـت شـعرك واسـتحممت لتـوّك. تبـدو شـاحبًا للغايـة، وقـد مشّـطت خصـلات شـعرك المبلـل ذا اللـون النحـاسي للخلـف. يجـب عليـك أن تتوّجـه إلى المطـار مـن جديـد في غضـون سـاعة وتواصـل السـفر إلى مدينـة تولـوز. "هـل تريديـن أن تتنـاولي وجبـة الإفطـار؟" هكـذا تسـألني وتضيـف: "إذًا سـأطلب لنـا بعـض الطعـام."

"في الساعة الرابعة صباحًا؟"

"ماذا تريدين؟"

"قهوة باللبن ومخبوزات الكرواسون."

تمـد يـدك مبتسـمًا إلى الهاتـف الموضـوع جانبًـا وتتحـدث باللغـة الفرنسـية طالبًـا إحضـار إفطـار لشـخصين في الغرفـة رقـم 411.

يقـع محـل " يونيفرسـال شـوز" في مقـر إحـدى المطابـع سـابقًا بحـي فيدنـج. مبـاني مـن الطـوب المحـروق صفـراء اللـون وبوابـات محاطـة بسـياجات مرتفعـة وسـاحات لا حـصر لهـا، تتداخـل فيـما بينهـا وممـرات ومسـارات. كل خطـوة لهـا دوي وكذلـك كل كلمـة.

عندمـا كنـت أقيـم عنـد أيكـه، كنـا نذهـب دائمًـا إلى العمـل سـويًا. نلتقـي الآن كل صبـاح في المدخـل، كى ندخـن معًـا سـيجارة، قبـل بـدء العمـل.

إنـه صبـاح بـارد وضبـابي. أغلـق أيكـه سـحّاب سـترته ذات غطـاء الـرأس والمصنوعـة مـن الفـراء حتـى أسـفل ذقنـه وجـذب غطـاء الـرأس نحـو وجهـه بشـدة. انحـشرت بـين شـفتيه سـيجارة مقوسـة رفيعـة، كان قـد لفهّـا بنفسـه.

سألته: "هل ستمر مساء اليوم؟"

تمتم قائلًا: "غير ممكن." وأضاف: "لدىّ جلسة في مجلس العمال."

"جلسة أخرى؟ ألم تكن في جلسة هناك يوم السبت؟"

"هنـاك شـائعة منتـشرة حيـث يزعـم البعـض بيـع "يونيفرسـال"، مـما أصـاب زمـلائي بانزعـاج بالـغ."

"وماذا عنك؟ هل تعتقد، أن هذا الكلام صحيح؟"

"لا أدري."

ينفـث دخـان سـيجارته مـرّة أخـرى، ثـم يجعـل عُقـب السـيجارة يهـوي ويطـأه بقدمـه. نسـير عـبر مدخـل البوابـة ونمـر بسـاحتين وصـولًا إلى مجمـع المبـاني رقـم (ج). يعمـل المصـورون الفوتوغرافيـون هنـاك في صالـة مسـاحتها ثلاثمائـة مـتر مربـع، ومقسّـمة إلى عـشرات مـن نطاقـات العمـل المنعزلـة. كانـت مجموعـة عمـل أيكـه تقـع عنـد واجهـة النافـذة،

والتي تمتد من الأرض حتى أسفل السقف، وهو لأمر جميل، لا سيما في الصيف. يقول أيكه دائمًا، أن هذا يخلف إحساسًا، كما لو أنه يعمل في الهواء الطلق.

نعبر الصالة ونمر راكضين بمكتب مسئول توصيفات المنتجات وهو عبارة عن غرفة طويلة على هيئة خرطوم، ذكرتني بعض الشئ ب "متجر برايتلينج لبيع الكتب".

يمكن بوضوح تام إدراك قيمة عملنا: فالصورة تسبق النص. أو "الصورة البصرية" تسبق "المضمون"، حسبما يقال هنا.

ألوّح بيدي لاثنتين من الزميلات وأسير خلف أخي متجهة إلى المخزن، حيثما ينتقي المنتجات، التي سوف يلتقط لها اليوم صورًا فوتوغرافية. اصطفت في صفوفٍ طويلة أرفف خشبية عالية قديمة، لعلّها كانت تخص المطبعة في السابق. كانت الأرفف ممتلئة بعلب كرتونية، توضع فيها الأحذية، وقوارير عطور وحقائب سفر وحقائب شخصية وحقائب ظهر وصناديق من الورق المقوى مستطيلة الشكل وبها وشاحات من الحرير أو مناديل توضع في جيوب صدر البذلات. وعلى شماعات الملابس معلق معاطف وسترات ملفوفة في رقائق شفافة. غير أن رائحة الأوراق وحبر الطباعة لا تزال عالقة في الهواء. بدا لي المخزن كمزيج من متجر ومكتبة. ينبعث من مسارات الأرفف الطويلة صوت صرير منخفض، تُصدِره عربات اليد، التي يُحَملّها المصورون الفوتوغرافيون بصناديق بلاستيكية كبيرة متينة ومليئة ببضائع ويقودونها عدة مرات يوميًا ذهابًا ومجيئًا بين المخزن والاستوديو.

يملأ أيكه الصناديق المُحمّلة على عربته بسرعة وبخبرة بعُلب كرتونية بها أحذية، كانت كلها تقريبًا أحذية رياضيّة أو أحذية ركض، وبضعة حقائب ظهر، كان يراها جيدة. كان أيكه يفضل بدرجة كبيرة أن يصوّر المنتجات الرياضية وملابس الخروج، بينما يمقت تصوير

الوشاحات الحريرية ومحافظ النقود والمناديل، التي توضع في جيوب صدر البذلات.

"لكنك حكيت لي بنفسك مؤخرًا، أن الأمور تسير في المحل هنا على نحوٍ لا بأس به." قلتها له، بينما أمشي معه جنبًا إلى جنب. "لماذا يتعيّن بيعه إذًا؟"

يهزّ كتفيه فحسب ويقول: "لا أدري. بمجرد أن أعرف أي شئ، ستكونين أول من أخبره بذلك." يبتسم لي ويردف قائلًا: "لا تقلقي يا شقيقتي الصغيرة. سوف تسير كل الأمور على ما يرام."

"ماذا يُفتَرض أن يحدث إذًا؟"

يقول: "ربما لا يعدو الأمر كونه شائعة."

كتبت حتى فترة الراحة في الظهيرة سبعة وخمسين وصفًا للمنتجات. تفوّق عليّ أيكه بأن التقط صورًا فوتوغرافية لثلاثة وستين زوجًا من الأحذية من كل الجهات في الوقت ذاته.

كنا نخوض كل يوم هذا السباق. ومن يخسر السباق، عليه أن يدفع ثمن وجبة الغذاء للآخر. في الطريق إلى محل الوجبات الأسيوية السريعة، الذي نتناول فيه طعامنا، سألت أيكه مجددًا، عما سوف يحدث، إن باعوا المحل حقًا. "سيواصل المحل هنا عندئذ نشاطه على الرغم من ذلك، أليس كذلك؟ لكننا لن نتوقف ببساطة عن العمل. هذا غير ممكن."

"لا، على الأرجح لا. لكن سيتم تخفيض أماكن العمل. وهذا يعني أن يخضع معظمنا لقانون هارتس 4.(1) إن ثلاثة أرباع العاملين في محلنا تقريبًا يعتبرون عاملون مستقلون ويؤدون عملهم في محل "يونيفرسال" وحده."

---

(1) قانون هارتس 4 قانون في ألمانيا لدعم العاطلين عن العمل. (المترجم)

"أنا أيضًا."

"أعـرف هـذا يـا شـقيقتي الصغـيرة. هـذا هـراء بالطبـع. يرقـى لأن يكـون حتـى بمثابـة الخـداع. إن مثـل هـذا الأمـر يُسّـمى اسـتقلالية صوريّة. نتفـاوض منـذ شـهور عـلى أن يتـم تنظيـم هـذا بصـورة مضبوطـة وأن يحصـل الجميـع عـلى عقـود عمـل ثابتـة. لكـن إن باعـوا محلنـا الآن..." هـزّ كتفيـه وأمسـك لي بـاب محـل الوجبـات السريعـة لأدخـل إليـه.

أنهيـت جملتـه بقـولي: " عندئـذ سـينتهي المطـاف بأغلبنـا إلى اللجـوء إلى هيئـة الشـئون الاجتماعيـة." وأضفـت قائلـةً: "ومـن المحتمـل أن أصبـح أنـا أيضًـا كذلـك."

يقـول أيكـه: "ينتهـي بـكِ المطـاف عنـد <مكتـب التوظيـف>" وأضاف قائـلًا: "هكـذا يُدعـى الآن. للأسـف لا توجـد وظائـف شـاغرة في برلـين." ابتسـم لي وقـال: "أرجـوكِ، حـاولي ألا تشـغلي بالـك. أنـتِ الآن لا تنامـين نومًـا هانئًـا وتبديـن خائـرة القـوى تمامًـا."

"لم يسبق لي أن نمت نومًا هانئًا قط."

ركّـز عينيـه عـلىّ وقـال: "لا أبـالي، بمـا يحـدث. سـننتهي مـن هـذا بـأي شـكلٍ كان، يـا شـقيقتي الصغـيرة. فلتبتهجـي!"

"أجل!" قلتها وأضفت: "كل الأمور على ما يرام، لست قلقة."

"كيف حال ورودك؟"

لم أدر في البدايـة، مـاذا يقصـد. ثـم قلـت لـه بعـد ذلـك "إنهـا يانعـة." وابتسمت.

(33)

أنهيت في صيف عام 1995 دراستي بالمدرسة الشاملة. وفي حفل التخرج دعتني المديرة لاعتلاء خشبة المسرح وهنأتني. وقالت لي: "كنا نريد في واقع الأمر أن ننقص منك درجة في كل مادة بسبب فترات تغيبك الكثيرة عن المدرسة، لا سيّما تغيبّك عن أول حصتين صباحًا." وأردفت قائلةً: "لكن حينئذ روت معلمتك في الفصل أنكِ كنتِ تقضين كل ليلة في تأليف إحدى الروايات. أنت تودين أن تصبحي كاتبة، حسنًا، ونحن نعتزم أن نغض الطرف عن فترات غيابك كل صباح. لا ينبغي على أحد أن يفرض عقابًا على الفنانين، وإلا سيعاقبونه هم. ويكفي هنا أن أتذكّر الرسوم الكاريكاتورية عن المدرسين لتوماس مان."

لم نتناول في حصة اللغة الألمانية توماس مان بالدراسة قط. من المحتمل أننا سوف ندرسه، عند انتقالنا إلى صفوفٍ دراسية أعلى. شأنه في ذلك شأن هاينريش هاينه.

سلّمتني المديرة شهادتي وهي تبتسم. حصلت على شهادة المرحلة المتوسطة بأفضل درجات، تحققت في هذا العام الدراسي. لأنتهي بذلك

مـن مرحلـة الدراسـة في المدرسـة ولم أتصـوّر نفـسي سـوى وأنـا أجلـس علـى كمبيوتـر أبي وأكتـب، غـير أن والـداي ألحّـا علـي كي ألتحـق بشـهادة الأبيتـور وأدرجـا اسـمي في المرحلـة العليـا مـن المدرسـة الثانويـة.

كانـت بعـض الحصـص الدراسـية تُلغـى كل يـوم تقريبًـا في المدرسـة الثانويـة. فلـم يكـن هنـاك عـدد كافٍ مـن المدرسـين. أو أن هنـاك عـددًا كبـيرًا أكـثر مـما ينبغـي مـن المدرسـين، الذيـن كانـوا يعانـون باسـتمرار مـن المـرض. أمـا بقيّـة المدرسـين فكانـوا ينهـون الحصـة الدراسـية في رزانـةٍ، بـدت لي مثـل صـوت قعقعـة رتيـب صـادر مـن أحـد القطـارات. كان السـيد موللـر وحـده مـن يهتـم أحيانًـا بإجـراء قليـل مـن التغيـير في الحصـة المدرسـية. إذ كان يُـدرّس لي الفـن ويعـاني مـن جنـون الاضطهـاد. فـكان كثـيراً مـا يلـف نفسـه مـن قمـة رأسـه إلى أخمـص قدميـه في رقائـق مـن الألومنيـوم، كي يحمـي نفسـه مـن التعـرض لهجـمات إشـعاعية خطيرة، وهكـذا كان يقـف في ركـن مـن حجـرة الدراسـة ويحـدّق فينـا عـبر فتحـة صغـيرة يـري مـن خلالهـا.

كانـت إسـتر تقـول تقريبًـا بعـد كل حصـة نـدرس فيهـا مـادة الفـن: "مـن الممكـن حقًّـا أن يجعلنـا السـيد موللـر هـذا نشـعر بالأسـف."

وكنـت أقـول: "لكنـه محظـوظ، حيـث إنـه لا يمكـن فصلـه مـن العمل. لـو كان يعمـل في كل مـكان آخـر، لكانـوا قـد طـردوه منـذ وقـتٍ طويل."

سـألت إسـتر بحـدة: "هـل تتمنـين لـه ذلـك؟". فضحكـت أنـا وقلـت: "هــذا هــراء، بالطبـع لا، لكننــي أود أن نتلقــى حصــة الفــن بطريقــة معقولـة."

قالــت إســتر: "لا أكــترث للمدرســين البتّــة." وأضافــت: "يمكنهــم أن يرقصــوا عــراة عــلى مقاعــد الدراســة وأن يتجشــئوا ويخرجــوا ريحًــا في غضــون ذلـك. المهــم، أن أحصــل عــلى شــهادة الأبيتــور."

لعل والداي كانا يريان الأمر على نحوٍ مشابه.

وللأسـف كانـت حصـة اللغـة الألمانيـة كذلـك تمثـل كارثـة. إذ كان السـيد تانتـوس رجـلًا عملاقـًا، يرتـدي نظـارة سـوداء مـن العـاج، وشـعره أسـود يصـل حتـى خـصره وكان لديـه سـترة مـن الجينـز باليـة ورائحتهـا عفنـة، كان يرتديهـا دائمًـا. كانـت السـترة مغطـاة بشـكلٍ كامـل برقـع مـن القمـاش تحمـل شـعارات فـرق موسـيقى الـروك.

كان السـيد تانتـوس يتحـدث في كل حصـة وهـو يسـب ويلعـن، كيـف أنـه ضـاق ذرعًـا مـن أن يتنـاول بالـشرح كل عـام نفـس المـادة مـع بُلهـاء جـدد، لا يعبئـون بتاتًـا باللغـة الألمانيـة. لم يكـن مـزاج السـيد تانتـوس يعتـدل سـوى عندمـا يحـضر في عطلـة نهايـة الأسـبوع حفلـةً لموسـيقى الـروك ويُطلعنـا عـلى كافـة التفاصيـل عـن الحفلـة طـوال إحـدى الحصـص المزدوجـة.

كنـت أتخيّـل في بعـض الأحيـان، أن هنـاك منافـذَ هـواء كتلـك الموجـودة بالطائـرة مثبّتـة في السـقف المنخفـض الـذي يعلـو مقعـدي وموضعهـا تحديـدًا بـين مصباحـي النيـون المحاطـين بالقضبـان. عـدت بـرأسي إلى الخلـف. شـعرت بتيـار الهـواء. ذلـك الأوكسـجين المنعـش. امتصصتـه في أعماقـي.

وكـزت إسـتر جانـب جسـمي بمرفـق يدهـا قائلَـة: "يـا أنـتِ، لمـاذا تحملقـين مـرة أخـرى في السـقف؟"

"أشعر هنا بالاختناق."

"إذًا فهيا بنا ندخن سيجارة بالخارج."

أخـذ فـترة راحـة مـن الحصـة لتدخـين السـجائر وإجـراء مكالمـة تليفونيـة وحتـى الذهـاب إلى الماكينـة للحصـول عـلى القهـوة، كل هـذا لم يكـن يُمثّـل ثمّـة مشـكلة. وحتـى أيضًـا في حـالات التغيـب لفـترات أطـول نـادرًا مـا كان يطالبنـا أحـد بتقديـم تفسـير لذلـك التغيـب. كانـت إسـتر تقـول أحيانًـا "لا أفهـم لمـاذا لا يسـلموننا شـهادة الأبيتـور ببسـاطة

هكذا؟" وتضيف: "عندئذ قد يستطيعون أيضًا ألا يعملوا وأن يعودوا إلى منازلهم."

كان ماكسميليان يمرّ عليّ في فترة ما بعد الظهيرة ليأخذني من المدرسة بسيارته طراز بي إم دبليو z3 ذات اللون الفضي. كنت كثيراً ما أستطيع أن أسمع صوت هدير محرك السيارة، عند نزولي في الدهليز.

وكان المتواجدون في فناء المدرسة يتنحّون يمينًا ويسارًا، كي يفسحوا الطريق للسيارة.

ذات مرة اعترض السيد تانتوس سبيل السيارة مطوقًا ذراعيه. تظاهر، بأنه لا يسمع إطلاقًا صوت السيارة، التي أخذت تقترب من الخلف شيئًا فشيئًا. ولم يبدِ السيد تانتوس كذلك أي رد فعل على صوت نفير السيارة، ثم تنحّى جانبًا تحديدًا في اللحظة التي مرّ فيها ماكسميليان بجواره من جهة اليمين. كاد أن يقع حادث لولا أن فصلتهما مسافة ميليمترات قليلة. ومع ذلك فقد تعثر تانتوس في خطاه، على الرغم من أن السيارة لم تمسّه البتّة. ربما يعزى سبب ذلك إلى شعوره بالفزع. وعندما استعاد هدوءه مرة أخرى، لم يلتفت إلى الخلف ليرى السيارة طراز بي إم دبليو، بل نظر إليّ مباشرّة. ركضت إلى الجهة الأخرى وفتحت باب الراكب المجاور للسائق على مصراعيه وقفزت إلى داخل السيارة. رجع ماكسميليان إلى الوراء بالسيارة وانطلق مُسرِعًا في الشارع، بينما تصدر إطارات السيارة صوتًا كالصرير.

صرخت فيه قائلة: "هل جُننت؟" وأردفت: "كان من الممكن أن تودي بحياته."

سألني ماكسميليان: "هل كان ليستحق ذلك؟"

"بالطبع لا."

في اليوم التالي عُلِقّت إفادة على بوابة المدرسة، وعندما أتى ماكسميليان ليأخذني، أريته إياها.

قال ماكسميليان: "هممم. وعليها غلاف أيضًا!" وقرأ بصوتٍ عالٍ: "نرجو من سيادتكم أن تمتنعوا عن قيادة السيارات الخاصة في فناء المدرسة -، كلب شرس جدًا. عقور حقًا." نزع ماكسميليان اللافتة. وضحكنا. انخفض قدري منذ ذلك الحين لدى السيد تانتوس. حتى أنه ذهب إلى مدير المدرسة واتخذ الترتيبات كي التحق بدورةٍ دراسية أخرى. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الزوجة السابقة للسيد تانتوس، تدرس لي اللغة الألمانية، والتي كانت تحكي لنا على نحوٍ متكرر، كم كان زواجها بذلك الرجل، الذي قالت عنه أنه رجل سطحي مغرور متغطرس، ينتمي لجماعة من الشباب ممن يرتدون الملابس السوداء ويقودون دراجات بخارية ثقيلة، أمرًا شنيعًا. غير أن كليهما كانا يتحدان في النفور مني. لم أحصل على درجات سيئة في أي مادة، مثل الدرجات، التي حصلت عليها في مادة اللغة الألمانية.

كنا أنا وماكسميليان بعد انتهاء اليوم الدراسي كثيراً ما نجوب المدينة يمينًا ويسارًا لعدة ساعات متعاقبة أو ننطلق بسرعة فائقة في الطريق السريع متجهين إلى فرانكفورت ودارمشتات وأوفنباخ وفولدا. حتى أننا كنا نصل في بعض الأحيان إلى هايدلبرج أو كولونيا. بيد أننا لم نعرج على أي مكان منها. وعندما اضطررت لقضاء حاجتي ذات مرة، توقف ماكسميليان في الخط الجانبي للطريق السريع وقبعت خلف الحاجز المروري.

كان لدى ماكسميليان في منزله حجرتان كبيرتان متداخلتان مع بعضهما البعض. كانت جدران كلتا الحجرتين مغطاة بالكامل برسوماته الجدارية، التي كان يرسمها عن طريق رش سبراي بالألوان على الجدران. وكان هناك سجاد عجمي ثقيل ملفوف في الجوانب بينما كانت الأرضية المغطاة بالرخام الأبيض ملطخة بالألوان. لم يكن هناك في الحجرتين أثاث، بل مرتبة واحدة وقرص طويل من الخشب الرقائقي موضوع على حاملات معدنية وخزانتان، يمكن غلقهما

بالمفتاح، تستخدمان لحفظ الوثائق، واللتان كان يحتفظ ماكسميليان فيهما بأقراصه المدمجة وشرائط تسجيل الكاسيت وبضعة ملفات ومسدس به ذخيرة. كان ماكسميليان شأنه شأن فالكه ورودي عضوًا في نادي حماة الرياضة.

كانت ملابسه مبعثرة في كل مكان وحواف النوافذ ممتلئة بعلب الاسبراي المتراكمة وكانت المدخنة المفتوحة يملئوها جهاز ضخم للموسيقي المجسمة، يرتبط باثني عشر صندوقًا في كلتا الحجرتين. يجب توخي الحذر، حتى لا تتعثَّر خطى أحد في سلك التوصيل.

علّق ماكسميليان في كلتا الثريتين - كانتا مثل الثريتين المعلقتين في محل عائلة بيكمان-كلاجنز- كل ما يمكن تعليقه من أشياء: شرائط ملتوية ملوّنة وبالونات متجعدة وزجاجات خمر فارغة ونموذجين مصغرين تالفين لطائرتين ودُمي ألعاب مفتولة العضلات لشخصيات فيلم "سادة الكون"(1) كان لدى أخي أيضًا مثل تلك الدُمي، عندما كان طفلًا. كانت الدُمي تتدلى من خيوط من النايلون وترتطم ببعضها بعضًا مع كل هبة رياح محدثة صوت طقطقة.

أحببت حجرة ماكسميليان ووجدت أن رائحته تنبعث منها وأنها تتنفسه. لكننا لم نقض هناك سوى القليل من الوقت، لأنه لم يكن يفضل البقاء في المنزل - في القصر الثلجي، كما كان يقول دائمًا.

عندما كنا نسير بالسيارة في الطريق، لم نكن ننقطع عن تدخين السجائر والتسامر لساعات متعاقبة حول السياسة والكتب والفرق الموسيقية وتصورنا عن الحياة، التي تعقب الموت. كان ماكسميليان يحكي لي في بعض الأحيان أيضًا حكايات، ترجع لفترة طفولته، حكايات على سبيل المثال عن ريتا، التي كانت تعمل في السابق مديرة منزل

---

(1) فيلم سادة الكون فيلم خيال علمي أمريكي عُرِض لأول مرة عام 1987 وحظي بشهرة واسعة. (المترجم)

لـدي عائلـة بيكمان-كلاجنـز وكانـت تمثـل لـه مـا يشـبه أمًـا بديلـة. حـكي لي ماكسـميليان قائـلًا: "كانـت أمـي وزوجهـا اللعـين يبقيـان دائمًـا خـارج المنـزل." وأضـاف: "في العمـل، في حفـلات، في إجـازة." كان لـدى تابيـا مربيّـة خاصـة بهـا، أمـا ريتـا فكانـت هـي مـن يضعنـي دائمًـا في الفـراش. كانـت تقـرأ لي شـيئًا وتصـلي معـي وتضـع الغطـاء فوقـي. وكنـت كلـما خرجـت ريتـا مـن الحجـرة، لا أتمالـك نفـسي مـن البـكاء. لأننـي كنـت أعـرف، أنهـا سـتغادر المنـزل الآن ولـن تعـود ثانيَـة إلا في الصبـاح. كنـت أسـتجديها وأتوسّـل إليهـا وأتشـبث بهـا. طالبًـا منهـا أن تبقـى أو عـلى الأقـل أن تأخـذني معهـا. ذات مـرة سرت خِلسَّـة خلفهـا. ركضـت حـافي القدمـين، مرتديًـا لبـاس النـوم، مجتـازًا المدينـة، وصـولًا إلى شـقتها. ظللـت لعـدة سـاعات في الطريـق وتنفسـت الصعـداء، عندمـا وقفـت أخـيرًا أمـام بـاب شـقتها. كانـت شـقتها أكـثر شـقة مريحـة، أراهـا. كان كل مـا في الشـقة مرتبًـا ومبهجًـا وفي كل مـكان فيهـا توجـد دببـة مـن القـماش. لكـن لم يكـن مسـموحٌ لي بالطبـع أن أبقـى هنـاك. أحضرتنـي ريتـا عـلى الفـور مـرة أخـرى إلى المنـزل وتنفسـت الصعـداء، أن أمـي لم تكـن قـد عـادت بعـد إلى المنـزل. اسـتحلفتني ريتـا مـرارًا وتكـرارًا قائلَـة: أرجـوك، أرجـوك، أرجـوك لا تحـكي لأمـك أي شيء عـن جولتـك تلـك.. مـع أننـي لم أكـن، عـلى كل حـال، لأفعـل ذلـك أبـدًا. وبعـد مـا حـدث أصبحـت ريتـا دائمًـا مـا تغلـق بـاب حجـرتي، عنـد خلـودي إلى النـوم مسـاءًا. كانـت ترافقنـي حتـى أذهـب إلى الفـراش وتقبّلنـي قبلـة قبـل النـوم. يجـب عـلي ريتـا الآن أن تعـود إلى منزلهـا، أنـت تـدرك هـذا يـا ماكـس. عندمـا تسـتيقظ مـن نومـك، سـأكون قـد عـدت إلى هنـا مـرة أخـرى - كانـت تخـرج بعـد ذلـك سريعًـا جـدًا مـن حجـرتي و - تـك - تديـر المفتـاح في البـاب. يـرن في أذني حتـى اليـوم صـوت طقطقـة المفتـاح هـذا في كالـون البـاب وكيـف كان صـوت خطواتهـا في بـئر السـلم ينخفـض شـيئًا فشـيئًا. اعـتراني اليـأس، لدرجـة أننـي عقـدت ذات ليلـة كل مـا أمكننـي عقـده مـن ملابـس ومـلاءة السريـر وأغطيـة الوسـائد معًـا وصنعـت منهـا حبـلًا تدليـت عليـه إلى الخـارج مـن الطابـق الثـاني؛

كنت حينئذ تقريبًا في السادسة أو السابعة من عمري. غير أن رجال الشرطة ضبطوني، بعد أن بلغت بضعة شوارع وأعادوني إلى المنزل مرة أخرى. كانت أمي قد عادت لتوّها من إحدى الحفلات واستشاطت غضبًا، عندما أرادت أن تعيدني إلى الحجرة ورأت أن الباب مُغلَق من الخارج بالمفتاح. وفي اليوم التالي فورًا طردت أمي ريتا من العمل: ولدي الصغير المسكين، لقد سجنتك هذه المرأة الشريرة. يا حبيبي الصغير الغالي اللطيف. لقد كاد عنقك أن ينكسر بسببها، يا صغيري ماكس. ألوم نفسي لومًا شديدًا؛ كان لابد وأن يسترعي انتباهي، كم أنها شخصية سيئة الخلق.

لم تفطن أمي على الإطلاق إلى أنني أحببت ريتا. بعد طرد ريتا بعدة أيام أحضرت أمي بدلًا من ريتا إمرأة صارمة ذات شعر رمادي اللون، تنبعث من فمها رائحة كريهة. كانت تلك المرأة تكتفي دائمًا بالطرق ليلًا على ميناء ساعتها وهي تنظر إليّ بازدراء قائلة: حان وقت النوم!

لم أتمالك نفسي وضحكت، عندما قلّد ماكسميليان نبرة صوتها، التي تدوي كالنباح.

"حان وقت النوم! كأنها تقول لي: محكوم عليك بالإعدام! سأحقنك بالسم! سأقطع رأسك!" ضحك ماكسميليان كذلك ومسح براحتي يديه على عجلة القيادة المصنوعة من الجلد وقاد السيارة واضعًا ركبتيه على عجلة القيادة.

في بعض الأحيان عندما كنا نبقي عند ماكسميليان في المنزل، كنت أقابل تابيا أيضًا. وذات مرة كانت تابيا تهبط الدرج، بينما كنا نصعده لتوّنا، فلوّحت لنا بيدها، دون أن تنبس ببنت شفه. رد لها ماكسميليان تحيتها ملوحًا لها وقال لها، عندما ابتعدت عن نطاق سماع ما يقوله: "اتمنى لك يومًا جميلًا كذلك."

وفي مـرةٍ أخـرى رأيتهـا، عندمـا كنـت في حجرتـه، ترتـدي معطفًـا شـتويًا وحـذاءًا شـتويًا طويـل الرقبـة مضـاد للثلـوج، ذا لـون أحمـر، وتتمـشي بامتـداد حـمام السـباحة. وعـلى الرغـم مـن أنـه كان أحـد أيـام شـهر سـبتمبر، يسـوده طقـس لطيـف، إلا أنهـا كانـت ترتـدي قفـازًا بـدون أصابـع وكوفيـة وقلنسـوة مبطنـة بالفـرو. لم يكـن المـاء قـد صُرِّف بعـد مـن حـمام السـباحة. وكانـت أوراق الأشـجار وفـروع صغـيرة مـن الأشـجار تطفـو فـوق المـاء. أخـذت تابيـا تـدور حـول حـمام السـباحة. وكانـت في كل مـرة، تـدور فيهـا، تقـترب أكـثر مـن حافـة الحـوض. ناديـت عـلى ماكسـميليان، الـذي كان يجثـو عـلى ركبتيـه أمـام إحـدى خزانـات ملفاتـه، باحثًـا عـن شـئ مـا. نهـض ماكسـميليان وتوجّـه ببـطء نحـو النافـذة ونظـر إلى الخـارج. وقـال: "لقـد أصابهـا الجنـون" وأردف قائـلًا: "سـتموت غرقًـا في يـوم مـن الأيـام. إن لم تكـن قـد ماتـت قبـل ذلـك جوعًـا. أتعرفـين أنهـا مصابـة بمـرض فقـدان الشـهية؟ لا أفهمهـا، إنهـا تفتقـر لأي روح قتاليـة."

سـألته: "أليـس مـن الأفضـل أن ننـزل إلى أسـفل ونحضرهـا إلى الداخـل؟"

هـزّ ماكسـميليان كتفيـه، ولكنـه أدرك الأمـر بعـد ذلـك وقـال: "لعلـك محقـة. سـأطمئن عليهـا وأعـود عـلى الفـور ثانيـةً، ثـم نفـرّ منصرفـين. يحـل بعـد نصـف سـاعة موعـد إغـلاق المحـلات، ومـن ثـم نسـتطيع الذهـاب إلى متجـر بيـع الكتـب، التـي يمتلكـه بابـا."

(34)

أجلس في المطبخ أمام شاشة جهاز الكمبيوتر المحمول. تجاوزت الساعة الرابعة صباحًا بقليل. تضحك لي، كلانا مستيقظ ومنتبه تمامًا.

أسألك: "هل أنت الآن في تولوز؟"

"لا، لقد واصلت بعد الظهر السفر بالطائرة إلى بلدية باو."

"أين تقع هذه البلدية؟"

"في جبال البرانس، قريبة نوعًا ما من المحيط الأطلنطي. لقد اكتشفت هذا الفندق، الذي أقيم فيه هنا، على أحد المواقع على شبكة الإنترنت عن طريق الصدفة. يقع الفندق في مكان بعيد بعض الشيء، إلا أن الأمر يستحق عناء القدوم إلى هنا، غرفة باهرة. يا لها من خسارة، أن أضطر إلى مواصلة السفر مرة أخرى."

تحمل جهاز الكمبيوتر المحمول متجولًا في الغرفة، كما لو أنك تطلعني على الغرفة. توّجه الكاميرا صوب كومودينو عتيق لونه أحمر غامق يميل إلى البني مثل لون خشب المهاجوني وكرسي مكسو بالحرير

وسرير، لم يستخدم، ومغطى بالكامل بوسائد ذهبية اللون. مُعلّق فوق السرير لوحة زيتية تتخلّلها فجوات رفيعة. تقول: "قضيت ليلة اليوم مع هذه المرأة." كانت الصورة لامرأة تمتطي جوادًا أسود اللون، على جسده قطرات عرق متلألئة، واضعة قدميها في أحد جانبي الجواد، الذي لديه رغوة أمام فمه. تمسك المرأة اللجام في يدها وترفع ذقنها على نحوٍ يقارب التحدي والعناد. كان رداؤها الطويل ذا فتحة صدر غائرة ومربوط من الخصر بصورةٍ مبالغ بها.

"ألا تبدو شرسة؟"

"آه، أجل." أضحك، تقترب الكاميرا من إحدى النوافذ ذات مصارع مطلية باللون الأبيض ومفتوحة عن آخرها. "هنا بالخلف تقع جبال البرانس، تبدو الجبال نهارًا مثل موجةٍ ضخمة لونها أزرق داكن."

إنها ليلة حالكة السواد. كما لو أن أحدًا قد شيّد جدارًا عاليًا أمام النافذة مباشرة. تتحرك الكاميرا إلى الخلف في الغرفة وتتأرجح تأرجحًا خفيفًا. الفارسة، الكرسي، ياقة قميصك، وميض ساعة يدك. تجلس على السرير ممسكًا بجهاز الكمبيوتر المحمول. لقد شمّرت أكمام القميص لأعلى وفتحت زر ياقة القميص.

تسألني: "أيعجبك هذا كذلك؟"

"ماذا تقصد؟"

"غرفتي"

"أجل، للغاية."

"هل تتحدثين الفرنسية؟"

"لا، أعني بالكاد."

"إذًا قد تجدين صعوبة حقًا في البقاء هنا. هذا يمثّل العيب الوحيد في القدوم إلى هنا، فلا أحد هنا يتحدّث الإنجليزية أو الألمانية."

"كم أن هذا أمر مريح! حيئنذ قد أشعر بالراحة."

"لـن أدعـكِ وشـأنك." تقولهـا وتضحـك. "سـأحرمك مـن النـوم كل ليلـة."

"أنت لا تحرمني من النوم."

"أنـا أيضًـا لا أحتـاج إلى قسـطٍ كبـير مـن النـوم. هـل تسـتطيعين أن تفهمـي أولئـك الذيـن يشـعرون بالسـعادة عنـد الخلـود إلى النـوم؟ أولئـك يفوتهـم كل شيء، أتعرفـين؟ أرتبـط في نهايـة شـهر أكتوبـر بموعـدٍ في برلـين، أريـد حينهـا أن أراكِ، أن أراكِ حقًـا، لا أن أراكِ فقـط عـبر هـذه الشاشـة السـخيفة." تنقـر بمفصـل إصبعـك عـلى الكامـيرا.

أقول لك: "أكتوبر؟ ما أطول الوقت حتى بلوغ ذلك الموعد!"

"سأرسل لك مرة أخرى سيارة أجرة، اتفقنا؟"

"أين سنلتقي؟"

"لسـت متأكـدًا بعـد مـن مـكان لقائنـا، لكننـي لـن أخـوض هـذه المـرة أي تجربـة وسـأبحث عـن مـكان جميـل، لنـا وحدنـا، هـل توافقـين؟"

"بالطبع، أنت تجعلني أشعر بالسعادة."

"للأسف يجب أن أمضي الآن."

الساعة الرابعة وثمان وثلاثين دقيقة.

"أتمنـى لـكِ يومًـا طيبًـا." تقولهـا لي وتحيينـي بقبلـة يـد، ترسـلها لي في الهواء.

منـذ وفـاة جـدي بنديكـت لم أعـد أجـد مـن أسـتطيع أن أتحـدّث معـه ليـلًا.

(35)

كان الجميع يعتقدون، أنني وماكسميليان زوجان، لأنني كنت أرافقه بصفةٍ دائمة. كِدت أنا أيضًا أن أصدّق هذا. بيد أنه لم يلمسني قط. صحيح أنه لمس شعري ويدي ووجنتي، لكنه لم يلمس أبدًا نهداي أو أردافي، لم يمارس معي الحب أبدًا. وعندما كان يُقبّلني، كان يضم شفتيه، كان يضغط فمه بقوة على فمي. قبلة طفولية، هكذا كان ماكسميليان يسمي هذا. وكان يقول إنه لا يوجد ما هو مُفعم بالحب والإخلاص أكثر من هذا. وكان كثيراً ما يقول أيضًا مثل ملكة الثلج(1): "من الآن فصاعدًا لن أقبلك ثانية، وإلا ستموتين." كنت بعدها أنظر إليه، أحدّق فيه، حتى يغدو لا يطيق ذلك وينظر بعيدًا.

---

(1) ملكة الثلج: قصة خرافية شهيرة كتبها الكاتب الدانماركي هانس كريستيان أندرسن في عام 1844 وقد حظيت هذه القصة بشهرة كبيرة، لا سيما في أوساط الأطفال. (المترجمة)

عندما كنا نخرج مع رجال الطبقة الراقية، في حانة أو في بار يقدم المشروبات الكحولية المخلوطة أو في صالة ديسكو، كان ماكسميليان كثيرًا ما يتركني ببساطة واقفة ويختفي مع فتاة، لم يتعرّف عليها إلا لتوّه. دائمًا ما كان فالك من يقدم لي بعد ذلك مشروبًا كحوليًا ويجذبني إلى ساحة الرقص أو يبدأ في الإلحاح عليّ بالقول ملوحًا بيديه بعنف، كما لو أنه مضطر إلى أن يصرف انتباهي عن غياب ماكسميليان. كانت ثورته من ماكسميليان تفوق ثورتي منه، فكان أحيانًا ما يهمس في أذني قائلًا: "ما عليكِ سوى أن تعطيني إشارة، ما عليكِ سوى أن تغمزي بعينيك، وسوف أحطم فك ذلك الوغد."

كنت أضحك وأفتح عيناي عن آخرها، كي لا أغمز بها وأقول: "لن تفعل هذا، فأنت في النهاية مثل حارسه الشخصي، كما أنكما أصدقاء."

فيجيبني بجدية قائلًا: "إن المال والنساء ينهيان علاقة الصداقة." ويضيف: "وعلاوة على ذلك أنتِ لا يمكنك أن تخدعيني أبدًا. يا أنّا، أنت تتظاهرين بأنكِ لا تبالين، لكنني أرى أنكِ تعانين."

"هذا هراء." قلتها له وتوّجهت إلى البار "أحتاج إلى أن أشرب شيئًا آخر."

لم يكن ماكسميليان يطيل الاختفاء أبدًا؛ فغالبًا ما كانت فترة ابتعاده لا تمتد سوى لعشرين أو ثلاثين دقيقة، كنت أخالها كأنها ساعات. كان بعد عودته يحتضنني ويقبّلني في فمي بعنف. كنت حينها أستشعر نظرة فالك لي مثل يدٍ قوية تمتد إلى مؤخرة رأسي، كما لو أنه يريد أن يمسك بي بشدة كأنني قطة صغيرة وينأى بي بعيدًا.

في ليالٍ أخرى كان ماكسميليان ينطلق وحده بعيدًا ويرسم رسوماته الجدارية عن طريق رش الإسبراي على جسور الطريق السريع وجدران المنازل. كان رجال الطبقة الراقية يرون هذا بمثابة

"فنًا يساريًا". إن "حشرات القُرادة" و"الآفات البشرية" وحدهم من يلطخون ممتلكات أناس آخرين بشعاراتهم.

عندما كنت أنا وماكسميليان نتجوّل، كان يريني في بعض الأحيان أعماله، التي كانت تماثل تلك الأعمال المرسومة في حجرته: حيث تصور أشخاصًا ضخمة من أبطال القصص الخرافية، ملكة الثلج وبياض الثلج والفتاة بائعة الكبريت(1) وحمرة الورد ذات الشفاه المكتنزة والأرداف العريضة والأثداء الكبيرة وكذلك الأقزام والقط والملوك ذوي الوجوه البدينة والأنوف المغطاة بالبثور والمؤخرات العارية والأعضاء الذكرية المنتفخة. دائمًا ما كانت توجد أسفل الرسومات العبارة ذاتها والمتمثّلة في سطر مأخوذ عن مقطوعة موسيقية تنتمي لموسيقى التكنو، التي كان ماكسميليان يحبها، ألا وهي جملة "الانتحار هو المخرج الوحيد." كنا لا نسمع موسيقى التكنو سوى عند تواجدنا في السيارة أو عنده في المنزل، فقد كان الرجال المحترمون يعدونها تغييبًا لوعي الناس تحت ستار تحقيق اللذة. عندما كنا نتقابل معهم، كنا لا نسمع سوى الموسيقى الألمانية. كما أن الرجال المهذبين كانوا ليفضلون أن يسموا القطعان بالرجال المحترمين وكان رودي يشرع في ذلك مرارًا وتكرارًا، غير أن ماكسميليان لم يكن يود أن يعرف شيئًا عن هذا. كان ماكسميليان على دراية بنوادي تجمع رجال الطبقة الراقية في إنجلترا وكان نفسه عضوًا في أحدها، حيث كانوا يلتقون هناك في أحد الأكواخ المبنيّة فوق الماء لتغطية القوارب وحمايتها ويتبادلون النقاشات لياٍل طوال وهم يجلسون مطلين على المياه فضية اللون التي تجري في إحدى قنوات المياه، ويدخنون السيجار الرفيع، ويحتسون النبيذ الإسباني الأبيض والويسكي. دائمًا ما كان ماكسميليان يحكي أن النادي

---

(1) الفتاة بائعة الكبريت: قصة قصيرة من تأليف الأديب الدنماركي هانس كريستيان أندرسن، صدرت عام 1845وتم تجسيدها في افلام ورسوم متحركة عديدة. (المترجمة).

أصبح يمثّل له في الغربة مأوى ثانيًا وأنه أصبح الشيء الوحيد الذي يبقيه في إنجلترا على قيد الحياة.

كانت كلمة "الانتحار" كلمة سحرية لدى ماكسميليان. تفتح في نفسه أبوابًا موصدة وتطلق العنان له ليبصر المزيد وتجعله يتنفس على نحو أكثر يسرًا. كان ماكسميليان يقول: "ليس معنى هذا أنني أريد ان أموت" ويضيف: "أنا لا أريد أن أموت. إلا أن إمكانية أن يقتل الإنسان نفسه وأن ينهي حياته - هذا يجعل كل شئ يتجلّى على نحوٍ مختلف. فيتمتع الإنسان بالحرية، هل تفهمينني، لأنه ليس مجبراً على فعل شيء، بل اتخذ قرارًا عن وعيٍ منه. لديّ حرية الاختيار؛ إن هذا لشعور طيب."

وذات مرة، عندما اشتكيت من أحد المدرسين، أعطاني ماكسميليان مسدسًا ورغب في أن آخذه معي في المدرسة، وقال لي: "ببساطة أطلقي النار عليه إن بدا لكِ مرة أخرى غبيًا." وضحك، "لعلّك لن تفعلي ذلك فيما بعد. إن الإنسان عندما يستطيع أن يكون صاحب الحل والربط في الحياة والموت، فإنه يرى فجأة أن الكثير من الأمور لم تعد محدودة النطاق هكذا، كما أن هذا يجعل الناس يتغاضون عن بعض الأمور على نحوٍ أكثر بساطة."

كان ماكسميليان مُحقًّا، ظللت أحمل المسدس طوال اليوم في حقيبتي وفي كل مرة، عندما كنت أغتاظ من أحد، كان يجول بخاطري: سأقتلك.

لكم وددت أن أستهل عملية القتل بالسيد تانتوس المتغطرس والمنتمي لجماعة من الشباب ممن يرتدون الملابس السوداء ويقودون دراجات بخارية ثقيلة. يا له من شعورٍ غريب أن أطالع وجهه وأمر بجواره وأعرف أنني كنت من سمح له بالبقاء على قيد الحياة. لقد وهبت له في الواقع حياته وعندما سمعت عن طريق الصدفة

بعد ذلك بأعوام أنه مات متأثرًا باصابته بسرطان المعدة، موتًا موجعًا وبطيئًا، اعتراني شعور مخيف بأنه كان سيصبح من الأفضل أن أقتله. على أقل تقدير كنت سأرحمه من هذا الشقاء.

عندما أعدت المسدس لماكسميليان في اليوم التالي، كنت كأنني ثَمِلة، كنت قد جلست الليلة بأكملها في فراشي، أضغط مرارًا وتكرارًا بالمسدس على صدغي. كان أمري لينتهي بسرعة فائقة، ببساطة شديدة. لكم وددت جل ما وددت أن أحتفظ بالمسدس.

أخذ ماكسميليان المسدس وفك عنصر تأمين الإطلاق به، ثم صوّب المسدس تجاهي.

همس قائلًا: "أتختارين الحياة أم الموت؟" وأردف: "هل اتخذتِ القرار الصائب؟"

اعتراني الخوف فجأة.

قال لي بصوتٍ هامس: "هل أنتِ متأكدة، أنكِ لا تريدين أن تموتي؟" واستطرد: "هل تريدين حقًا أن تبقي على قيد الحياة؟"

"أجل"

"تحدثي بصوتٍ أعلى! لا أستطيع أن أسمعك!"

هتفت قائلة: "أريد أن أحيا!"

"ارفعي صوتكِ أكثر!"

صرخت قائلة: "أريد أن أحيا!"

ترك ماكسميليان المسدس ينخفض لأسفل شيئًا فشيئًا.

قال لي: "حسنًا" وأضاف "لا تنسي هذا أبدًا مرة أخرى."

(36)

تكتب لي كل ليلة تقريبًا بين الساعة الثالثة والرابعة رسالة مفادها: " هل ما زلتِ مستيقظة أم أنكِ نائمة؟"

أجيبك قائلة: "أنا مستيقظة." ثم نتواصل عبر موقع سكايب.

تحتاج بالكاد إلى النوم وتقول إنك السيد الآمر الناهي عليه؛ بإمكانك أن تستدعيه وبإمكانك أن تصرفه، كيفما يروق لك تمامًا. تقول إنها موهبة، يرغب الكثيرون في عالمنا أن يمتلكونها وتجعلك عرضة لحسد الكثيرين. أظن، أنك في حقيقة الأمر، لا تشعر بالراحة، مثلي تمامًا، عندما يعمّ السكون كل ما حولك؛ فحينئذ يتربّص شئ ما بك ويبعث الخوف في نفسك. أستشعر هذا بوضوح. ما هذا؟ عندما أسألك، تنأى بنفسك فورًا عن أن تجيبني وتقول: "صدقيني يا أنّا، أنا أحكم قبضتي على حياتي."

كنا نرسل لبعضنا بعضًا في أثناء النهار رسائل نصية قصيرة لا حصر لها. تجعلني أشاركك كل شيء، أشاركك فيما تفعله. تكاتبني

وأنت في المطار، وأنت في الفندق، وأنت في الطريق، وأنت في فترة استراحة بين موعدين. وترسل لي صورًا: لبوابة المطار ولشروق الشمس أعلى السحاب وللافتة ترشد إلى الطريق ولبهو أحد الفنادق ولأحد المطاعم، أُعلِن عنه للتوّ ونصحك أحد شركائك في العمل بالذهاب إليه وكذلك ترسل صورة لوعاء عميق به حساء الكستناء بجوز الهند، الذي طلبته كأحد المشهيات، والذي يسبح فيه دود صغير، لونه مثل لون البشرة، ربما يكون جمبري. من الصعب التعرّف على ماهية ما يوجد في الحساء.

عندما أريد أن أطمئن عن حالك، ترسل لي صورًا وأنت في السرير وأنت تنظف أسنانك وأنت تجلس في مقعدك بالطائرة. تظهر عيناك في تلك الصور وقد أصابتهما حُمَرة وفمك تحيط به تجاعيد غائرة. إنها صور التقطتها ذاتيًا بكاميرا الهاتف المحمول، أطبع كل صورة منها على حدة وأحفظ جميع رسائلنا فى هاتفي المحمول.

أكتب لك رسالة مفادها: "عندما تعود، لا بد أن تحضر لي شيئًا ما معك."

"فيم ترغبين؟"

"أريد منك أن تكسر من أجلي أول فرع شجرة، تمر به وأنت في طريقك للعودة إلى البيت."

"هل تعنين ما تقولين؟"

"أجل!"

" آه يا محبوبتي، ما الذي يجعل مثل تلك الأمور تخطر ببالكِ؟"

"هل ستفعل ما قلته لك؟"

"طبعًا! سأفعل!"

تنتقـل للسـكن في فنـادق مختلفـة، تنتقيهـا جميعًـا بعنايـة. دائمًـا مـا تريـد أن تعـرف عـلى نحـو مسـبق، أي سريـر وأي بياضـات سريـر سـتجدها في الفنـدق وتسـتعلم عـن جـودة مرتبـة السريـر ومـا نـوع المصابيـح الموجـودة في غـرف الفنـدق، تميـل إلى الإضـاءة غـير المبـاشرة وتبغـض اللمبـات الموفّـرة للطاقـة: "لا أطيـق الضـوء."

لا بـد وأن تحتـوي دورة الميـاه عـلى حـوض اسـتحمام، كـما أنـك تحتـاج حتـمًا إلى روب للحـمّام: "لا أريـد أن أكابـد سريعًـا إخفاقًـا مـرة أخـرى مثلـما حـدث لي في شـقة برلـين يـا محبوبتـي."

وفي بعـض الأحيـان تُجـري اتصـالًا هاتفيًـا بي، بعـد أن تسـجل وصولـك في الفنـدق مبـاشرة وتقـول لي: "لقـد اتخـذت قـرارًا صائبًـا. كل شيء هنـا يتسـم بالكـمال."

والعكـس صحيـح حيـث يعتريـك الغضـب وتكـون أقـرب إلى أن تفقـد أعصابـك، عندمـا يحـدث ذات مـرة شئ يختلـف عـما تتوقعـه. هنـا يزعجـك صـوت جهـاز تكييـف الهـواء وهنـاك تزعجـك رائحـة مسـحوق الغسـيل. تـارة تـرى أن الوسـائد طريّـة أكـثر مـما ينبغـي وتـارة أخـرى تراهـا صلبـة أكـثر مـما ينبغـي. ذات مـرة اعـتراك الغضـب، لأن بـار الفنـدق لم يظـل مفتوحًـا طـوال أربـع وعشريـن سـاعة. "مـع أن موقـع الفنـدق عـلى شـبكة المعلومـات ذكـر أن البـار يفتـح ليـلًا أيضًـا! تبًـا!" تقولهـا وأنـت تقولهـا لي في الهاتـف صائحًـا بصـوتٍ كالزئـير، كـما لـو أننـي مسـئولة الاسـتقبال في الفنـدق، التـي يجـب عليهـا أن تفـي بالوعـد، الـذي يقدمـه الفنـدق، بحـل أي مشـكلة في غضـون نصـف سـاعة. "أتعرفـين كـم تبلـغ تكلفـة الغرفـة هنـا؟ يأخـذون أمـوالي ويبـددون وقتـي، أجـل، هـل يحيـط بي حقًـا الحمقـى دون سـواهم؟ حسـنًا، سـأعلّمكم معنـى تقديـم الخدمـة للنـزلاء!"

أصيح قائلة: "كونستانتين!" وأضيف: "تخلّ عن الانفعال! فلتهدأ!"

"يا للعنة! توقفي عن الحديث إليّ هكذا! كم مرة قلت لكِ ...!"

"هلّا تكرّمت وتمالكت أعصابك الآن!"

تصمت لوهلة، ثم تضحك فجأة ضحكة مكتومة.

"لا يتحدث معي أحد بهذه الطريقة سواكِ، لو كنت رئيسكِ في العمل، لطردتك منه!"

"لقد جننت! أليس في غرفتك ثلاجة صغيرة؟"

تضحك مُجدّدًا وتقول: "إنها نصيحة عملية تروق لي، لقد عيّنتك في العمل ثانيَة."

وتواصل البحث عن فندق لا تشوبه شائبة، عن مكان أفضل، تبحث في شبكة المعلومات وترسل لي الصور التي التقطتها لشاشة جهازك وتريني صورًا لغرف وبارات وردهات الفنادق ومناطق الاعتناء بالصحة والجسد في الفنادق، الملحق بها حمامات سباحة، والتي تمثل لك أهمية خاصة، على الرغم من أنك لا ترتادها أبدًا. وعندما تعمل بنصيحة أحد شركائك في العمل وتصاب بالإحباط بسبب ذلك، تقول: "من الواضح أننا لسنا على نفس المستوى. لن أُلحِق هذا الأذى بنفسي ثانية. إن أذواق بعض الناس سيئة بصورة فجّة، لقد انتهى أمر هذا الشخص بالنسبة لي."

لقد نصحك أحد الأشخاص كذلك باستئجار شقة برلين المفروشة، نصحتك بها إحدى المتدربات. "فندق أوستالجي(1)"، هذا هو الاسم، الذي تحمله سلسلة الفنادق، التي تتولى إدارة بعض الفنادق في جميع أرجاء الولايات الجديدة وتعرض للإيجار شققًا مفروشة مؤثثة وفقًا

(1) Ostalgie: مصطلح ألماني يعد مزيج من كلمتي Nostalgie والتي تعني الحنين إلى الماضي وكلمة Ost أي الشرق. يقصد بهذا المصطلح الحنين إلى جمهورية شرق ألماني سابقًا. وقد ظهر المصطلح عامي 1991 و1992. (المترجم)

للطراز النمطي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية (سابقًا) إبان السبعينيات من القرن العشرين. "كان هذا أمرًا شنيعًا." تقولها وتضيف: "لكن المتدرّبة ما زالت صغيرة في السن إلى حدٍ كبير لا يمكن معه أن آخذ عليها أي مأخذ. هناك ما يمنعني عن أن أتسبب لها في ألم شديد."

تسألني دائمًا، أين أنا بالضبط، ومع من أعمل، وبم أشتغل، ومتى تبدأ راحة فترة الظهيرة، ومتى تنتهي، وكم مرة أنهض لأترك حجرة المكتب من أجل أن أدخن، وكم عدد توصيفات المنتجات التي انتهيت منها، وكم الوقت الذي يستغرقه ذلك، وما المزاج السائد بين الزملاء، وهل نحسب وقت العمل على نحوٍ مضبوط، وهل نستخدم البطاقات المسجل عليها ساعات العمل بطريقةٍ صحيحة.

"إن هذا يبدو مثل كوكب غريب." تقولها لي، عندما نتواصل ليلًا مع بعضنا البعض عبر موقع سكايب وأريد أن أعرف منك، لماذا تثير كل هذه الأمور اهتمامك على هذا النحو. "إن العالم، الذي تجولين بداخله، لعالم مختلف تمامًا. لا أدري، عما إذا كنت قد أستطيع فعل ذلك. ألا أعمل لأجلي أنا، ألا أنجز شيئًا خاصًا بي، أن أدع الآخرين يستغلونني، -اعذريني، لكن الأجر الذي تتقاضينه يعد مُزحة، فأنتِ تبيعين وقتكِ بثمنٍ بخس. لا، حقًا، لا أستطيع أن أفعل هذا."

تشاهد توصيفات المنتجات في شبكة المعلومات وتستطيع سريعًا أن تعرف، أي من تلك النصوص كتبتها أنا وأي منها كتبها زملائي."

"هذا ليس بالأمر العسير، إن لكِ أسلوبًا خاصًا في الكتابة يا أنّا."

ما أتمالك نفسي أن أضحك في كل مرة، تقرأ لي فيها التوصيفات، التي كتبتها لمنتجات الجلود والمنتجات التي تلقى رواجًا كبيرًا والأحذية ذات الكعوب العالية. لكنك تثني عليّ بقولك: "أنتِ ماهرة. لقد أقنعتيني، سأشتري الحذاء الشتوي طويل الرقبة. أحب النصوص القصيرة، التي

تكتبينها، إنها نصوص تثير شهوة القارئ للشراء. كم من الوقت تستغرقينه في كتابتها؟ كم نص تنتهين من كتابته في الساعة؟ هل الأمر يستحق حقيقة المجهود الذي تبذلينه، هل تظنين أنك تؤدين عملًا من الناحية الاقتصادية؟"

أقول لك: "يكفيني هذا."

تقهقه. "كوكب آخر، لم أقصدك أنتِ."

أسألك: "من تقصد إذًا؟"

ترفع حاجبك، ثم تمد ذراعيك نحو الكاميرا مبتسمًا: "أنتِ لطيفة جدًا، بريئة جدًا، يا محبوبتي. أريد أن أمسك بكِ، بإحكامٍ شديد ولا أطلق سراحكِ ثانية أبدًا."

"بريئة؟ ما هذا العبث، الذي تتفوه به؟ إن كلامك هذا له وقعٌ سخيفٌ تمامًا!"

ترتسم على وجهك ملامح جادة وتقول بصوتٍ مداعبٍ: "أنتِ لم ترثي عن السيدة والدتك بكل تأكيد ما تتسم به من حذر."

أطوّق ذراعاي أمام صدري وأمدّ ذقني "إنني لسعيدة لأجل هذا."

"أنا أيضًا." تقولها مبتسمًا بتهكم وتضيف: "وبالمناسبة لقد اشتريت روايتك."

تتوقف نبضات قلبي للحظة. "وماذا؟ هل حازت على إعجابك؟"

"إنها رواية حزينة."

"هل هذا أمر جيد أم سيئ؟"

تقول لي: "لقد لمست الرواية شغاف قلبي." تنظر في ساعتك، لا بُد أن تتوجه إلى المطار. "أنتِ تداعبين إحساسي بشدة. إن وجودك في

حياتي، لأمر يسعدني. تمنّيت أن نستطيع الآن مواصلة حديثنا إلا أنني متأخر بالفعل عن موعدي." تضع إصبعين على شفتيك وتغلق عينيك لوهلة، ثم تنظر إليّ وترسل لي قبلة بفمك."

يكون لديك في بعض الأحيان متسع من الوقت؛ وحينها نتواصل معًا عبر موقع سكايب لساعتين أو ثلاثة حتى يحل الصباح وأصل إلى العمل متأخرة عن موعدي أكثر مما ينبغي.

ذات مرة كان أيكه يقف في محطة الترام، عند نزولي منه. لعلّه انتظرني، كالمعتاد، عند مدخل "يونيفرسال شوز" وركض، عندما لم أصل.

كان صباحًا باردًا، في نهاية شهر سبتمبر، بيدَ أن الشمس، التي لاحت لي، كانت ذات أشعة قوية ودافئة. من المحتمل أن ترتفع درجات الحرارة ثانيَّة على مدار اليوم.

دفن أيكه يديه في جيوب سترته المصنوعة من الفراء. "تبدين وقد أخذتِ قسطًا كافيًا من النوم، يا أنّا، تبدين مُستريحة حقًا."

هذا ما أشعر به بالضبط، غير أنه كان ينظر إليّ بصورة غريبة نوعًا ما، ربما كان لا يقصد ما قاله سوى على نحوٍ ساخر.

لذا قلت له: "لا يمكن أن يكون الأمر كذلك." وضحكت "لقد واصلنا العمل طوال الليل، دون توقف."

"هل كان هذا الشخص عندك؟"

"لا، كنا نتواصل عبر موقع سكايب."

"ماذا يفعل إذًا؟ لماذا لا يأتي إلى هنا أبدًا؟"

"اسمه كونستانتين يا أيكه."

"ولماذا لا ينام ليلًا؟"

أشبك ذراعي بذراعه، يبدو متوترًا ومتصلبًا.

أضم رأسي إلى كتفه "ماذا هنالك؟ هل أنت غاضب؟"

"أنـا؟ عليـكِ أن تكـوني أكـثر حـذرًا. مـرة أخـرى تتأخريـن أكـثر مـما ينبغـي، لم تعـودي تهتمـين بعملـك."

"أجـل، أجـل. أعـرف، إن لحديثـك وقعًـا يشـبه حقًـا وقـعَ حديـث مامـا. مـن يسـتطيع أن يأخـذ إجـازة، يسـتطيع كذلـك أن يذهـب إلى المدرسـة، أتعـرف؟ كانـت مامـا دائمًـا مـا تقـول ذلـك في السـابق."

"ربما!"

"ليـس: ربمـا." قلتهـا وسـحبت يـدي مـن يـده. "كان الأمـر هكـذا، هكـذا بالضبـط. ليـس معنـى أنـك لم تعـد تتذكـر أي شيء أن هـذا الأمـر لم يحـدث لا تدّعـي أن هـذا لم يحـدث. يبـدو كلامـك دائمًـا، كـما لـو أننـي أهـذي، كـما لـو أننـي أختلـق كل هـذا!"

دفـع يديـه في جيـوب سـترته أكـثر نحـو الداخـل وخطـى نحـو الأمـام رافعًـا كتفيـه لأعـلى. "كنـتِ دائمًـا تعيشـين في عالمـك الخـاص، يـا أنّـا. بمنطقـك الخـاص، أنـا لا أثـق بـكِ. باقـة ضخمـة مـن الـورود الحمـراء - تقولـين إنـكِ اشـتريتيها لنفسـك. لمـاذا لم يشـترها لـكِ الشـخص الـذي تربطـك بـه علاقـة؟ هـذا أمـر لا يُعقَـل، هـل يوجـد في حياتـك حقيقـة ذلـك الشـخص المدعـو كونسـتانتين؟"

ظللت واقفة "فلتقل لي، هل جُننت الآن؟"

يواصـل أيكـه السـير وينظـر للخلـف مـن فـوق كتفيـه "ببسـاطة أنـا لا أثـق بـكِ أبـدًا؛ أنـت تريـن أشـياءَ - لا يراهـا أحـد سـواكِ عـلى هـذا النحـو. عندمـا كنـت طفـلًا، لم أكـن أعـرف - هـل تعرفـين مـاااء، مـااء، مثـل العنـزة المذكـورة في القصـة الخرافيـة؟ كنـتِ دائمًـا مـا تقولـين لي هـذا.

وكنتِ في غضون ذلك تحكين كل شيء بصورة خاطئة تمامًا، بصورةٍ مغايرة لما حدث في الواقع."

"هل تستطيع أن تتذكّر هذا؟" أهتف بها وأنا أتبعه وأضيف: "أتذكر هذا، على الرغم من أنك تنسى كل شيء؟"

ينعطف في زاوية الشارع، حتى إنني أضطر إلى أن أركض، كي ألحق به.

عندما وصلت إلى جانبه ثانية، قال لي: "إن ذاكرتي على ما يرام، فأنا لا أنسى شيئًا؛ تبًا! على الأقل لا أنسى الأمور المهمة. لكنكِ تتذكرين دائمًا كل الأشياء، كانت الأمور تسير هكذا في السابق. كنا نمسك في أيدينا بالبذرة نفسها، لكنها كانت تنمو في يدكِ لتصبح شجرة مختلفة عن تلك التي تنمو في يدي."

"أنت لا تنظر إلى الأمور بعين الصواب." وأضيف: "البذرة لا تثير اهتمامك."

ترتسم على وجهه ملامح قاسية وتقول: "إنها صورة رديئة."

أقول له بصوت كالفحيح: "إنها صورتك."

"إذًا، فهي جميلة." ظل واقفًا وقال: "والآن عليكِ أن تصغي إليّ جيدًا لمرة واحدة، يا شقيقتي الصغيرة."

"أنا أصغي إليك دائمًا."

"اخرسي!" كان صوته يرتعش. كان في أوج غضبه، لكنه كان يحاول أن يملك زمام نفسه. "عندما أرى الشجرة" تقولها وتضيف: "أعرف البذرة التي أثمرت عنها؛ فدائمًا لا يمكن أن ينمو من بذرة واحدة سوى نوع واحد من الأشجار. إن هذا لأمر جليّ؛ يجب عليكِ رؤية هذا بنفسك. ومن أجل ذلك علينا ألا ننقب بحثًا عن أمور قد يسيئنا معرفتها. دعي الماضي يمضي وشأنه. انظري لنفسك، كيف أصبحتِ،

كيف نمت شخصيتك. لا تنظري على الدوام إلى الوراء، إن هذا يصيبني بغثيان بالغ. وفي بعض الأحيان تكونين أنتِ السبب في إصابتي بغثيان بالغ؛ لأنكِ ببساطة لا ترين الأمور الظاهرة للعيان."

على بعد مسافة صغيرة من الشارع المتجه نحو الأعلى ظلت سيدة، ممسكة بعربة أطفال، واقفة تراقبنا. لاحظ أيكه كذلك وجودها، وأشار لها غاضبًا بإصبعه الأوسط.

واصلت السيدة السير.

أقول له: "لا أدري حقًا، عم تتحدث."

"أنتِ تنقبين دائمًا بحثًا عن أمور قد يسيئك معرفتها.

"ما الذي أثار غضبك على هذا النحو؟ كونستانتين؟ هل تشعر بالغيرة؟"

"دائمًا ما تجذبين نحوك هؤلاء الأشخاص المتعبين، مثل أولئك الأنذال."

" كونستانتين ليس بنذل، أنت لا تعرفه بتاتًا."

يستند أيكه بظهره إلى أحد جدران المنزل ويرجع رأسه إلى الخلف، ويقول لي: "أنا أعرفك." وأضاف: "في كل مرة تحدث الحكاية نفسها."

"ظننت أن هذا لن يحدث هذه المرة." قلتها مزمجرة "ألا أحكي كل شيء دائمًا على نحوٍ مغالطٍ؟"

"أنتِ ترجعين لنقطة البداية وتبدئين مرة أخرى وتعيدين الأمور، تريدين بكل ما أوتيتِ من قوة أن تتشبثي بشيء، لا يتأتى الإمساك به."

"هل تتحدث عن كونستانتين؟"

"أنـت تضللـين نفسـك. تتبعـين أيـة حكايـات وتقتفـي آثـار الغـير وتحيديـن عـن طريقـك. لا تنتبهـين لنفسـك أبـدًا، آه يـا شـقيقتي الصغـيرة! ألا تلاحظـين ذلـك؟"

مـا تمالكـت أن ضحكـت "آه! يـا شـقيقي الصغـير، لا تقلـق! سـأجدل لـك حبـلًا مـن الأعشـاب وأحيـا معـك في كـوخ في الغابـة، وعندمـا يـأتي الملـك ويريـد أن يتزوجنـي ..."

يبتعد أيكه عن الجدار وواصل السير.

قلْ لي: "لا توجد مياه مسحورة، توجد فقط قرارات خاطئة."

"والآن هيّـا، فلتهـدئي!" أمسـكت بذراعـه وأردت أن أشـبك ذراعـي بذراعـه مـرة أخـرى، لكـن أيكـه تفـاداني. أصـدر هاتفـي المحمـول صـوت طنـين، ظللـت واقفـة لـكي أقـرأ الرسـالة الـواردة منـك. لقـد كتبـت لي فيهـا: "كنـت أفكّـر فيـكِ لتـوّي."

"كنا نتحدث عنك لتوّنا."

"من تقصدين ب "كنا"؟"

"أخي وأنا."

"وماذا قلتما؟"

"لم نتحدث عنك سوى بكل أمر طيب طبعًا."

أنتظـر لحظـة، دون أن يصـل لي منـك أي رد آخـر. ولم يصـدر هاتفـي المحمـول صـوت طنـين مـن جديـد، إلا عندمـا جلسـت في مـكان عمـلي وأردت أن أطفـئ هاتفـي المحمـول.

كتبت لي تقول: "أنا أنتسبُ للطيبين."

(37)

ذات ليلة أوصلني ماكسيميليان إلى المنزل، كان ذلك في مارس عام 1977. كنا لديه في المنزل وكان الأمل يخالجني أن أتمكن أيضًا من المبيت لديه؛ غير أنه قرر فجأة أن يذهب لرسم الرسومات الجدارية برش الإسبراي. لم يكن مسموحٌ لي أبدًا أن أرافقه في ذلك.

كان في الآونة الأخيرة كثيراً ما ينطلق وحيدًا وأصبح أيضًا من النادر أن يمرّ عليّ بعد الظهر ليصطحبني من المدرسة. وعندما كنت أسأله، ماذا حدث وهل لا يحب رؤيتي مرة ثانية، كان في كل مرة ينظر إليّ مذعورًا ويجيبني بأنه لا يحق لي حتى أن أتصوّر مثل هذا الأمر، وأنه يحبّني حبًا جمًّا، لدرجة أن مجرد تخيّل أنني قد أختفي من حياته، ربما يقضي عليه. فنحن متقاربان روحيًا ولا يوجد في العالم بأسره أحد، يشعر بأنه أقرب له مني، حتى لو لم أكن أستشعر ذلك. عند سماعي لهذه العبارات اعتراني ألم، لم يسبق لي حتى الآن أن شعرت بمثله قط؛ ألمٌ أخذ يزداد قوة على نحوٍ متصاعد. أجل، ألمٌ أشعر بوخزه

كلما زادت عبارات ماكسميليان إطنابًا وحماسًا، حيث كان يقول إنه لا يوجد شيء يمكنه أن يفرق بيننا ثانية في أي وقت كان.

عندما توقفنا أمام منزلي، جذبني نحوه فجأة بقوة وقبّلني بعنف في فمي وقال لي: "نلتقي غدًا." لم ينزل حتى من سيارته، بل ترك محرك السيارة يهدر وانطلق بالسيارة، بمجرد أن أصبحت واقفة في الشارع. كنت لا أزال ممسكة بباب السيارة، فقفزت إلى الخلف مفزوعة ورأيت كيف جذب الباب إلى الداخل منحنيًا فوق المقعد المجاور للسائق، ثم انطفأت الإضاءة الداخلية بالسيارة. ظللت واقفة في الشارع، حتى اختفت أضواء السيارة الخلفية ذات اللون الأحمر مع انعطاف السيارة في المنعطف التالي.

كانت أمي ما زالت مستيقظة، مع أنني كنت قد قلت لها إنني ربما لا أعود إلى المنزل اليوم ليلًا. هل انتظرتني مرة أخرى على الرغم من ذلك؟ خلعت ببطء حذائي الشتوي طويل الرقبة ووضعته بجوار حذاء أيكه الرياضي. كان الباب المؤدي إلى الخزانة الموجودة في البهو مواربًا فقط. كانت إحدى حقيبتي السفر الصغيرتين غير موجودة. قد يموت شخص ما، من المحتمل أن يحدث هذا في هذه الليلة. اعتراني شعور، كما لو أنني سأموت هذه الليلة. حاولت، أن أهدئ من روعي، أن أواسي نفسي قائلة لنفسي: إنه يُحبُكِ. لا شيء يمكنه أن يفرق بيننا، لقد قال لكِ هذا بنفسه، لماذا لا تثقين به؟ لماذا لا تستطيعين تصديق ذلك؟ دائمًا ما ينتابك سوء الظن هذا.

علّقت معطفي في الخزانة الموجود في البهو، انبعثت من باب غرفة المعيشة رائحة سجائر في الدهليز. خيوط رمادية اللون تميل إلى الزرقة، كانت تتخذ شكلًا متعرجًا باتجاهي وتتفرّق منقشعة بعد ذلك، فلا يتبقّى منها سوى الرائحة.

تسلّلت إلى الـدرج، غـير أنني عندمـا وطـأت بقدمـي أول درجـة منـه، نادتنـي أمـي مـن خلفـي بقولهـا: "يـا أنّـا، ألـن تقـولي لي أهـلًا؟"

كانـت تجلـس عـلى مكتبهـا في غرفـة المعيشـة، كان عبـارة عـن مكتـب صغـير، أهدتـه لنفسـها بمناسـبة الاحتفـال بأعيـاد الميـلاد الماضيـة، مثلـما أهـدت لنفسـها العـام المـاضي كومودينـو مرتفعًـا وعريضًـا. منـذ بضعـة سـنوات دائمًـا مـا يوجـد أسـفل شـجرة عيـد الميـلاد شيء اشـترته أمـي لنفسـها. إنهـا عـادة، أقلقـت أبي بصـورةٍ رهيبـة لأنـه كان يظـن أن هدايـاه لهـا لا تكفيهـا، لا سـيّما أنهـا في كل مـرة تتظاهـر بأنهـا تفاجـأت بالهديـة التـي اشـترتها لنفسـها: "يـا إلهـي، يـا لـه مـن كومودينـو جميـل! ألم يكـن لدينـا في روسـتك كومودينـو مثلـه؟ مـن أتى لي بـه؟" ثـم تتوجّـه نحونـا ضاحكـةً وتقـول: "إنـه يبـدو حقًـا بالضبـط تمامًـا، مثـل ذلـك الكومودينـو، الـذي كان لدينـا آنـذاك، والآن لا تنظـروا إليّ هكـذا! ألا يحـق لي أيضًـا أن أطلـق العنـان لعاطفتـي، حتـى ولـو بقـدرٍ بسـيطٍ؟ عـلى الأقـل مـرة واحـدة في العـام؟"

الآن تمتـد الوثائـق عـلى المكتـب الصغـير. كانـت أمـي تجلـس منحنيـة فـوق أحـد الملفـات وتدخـن السـجائر "من أيـن تأتـين؟" قالتها لي متسـائلة، لكنهـا لم تلتفـت للـوراء لتنظـر إليّ، كانـت بجوارهـا طفايـة سـجائر فضيـة اللـون، يمكـن قفلهـا بإحـكام وحملهـا في حقيبـة اليـد.

قت لها: "من عند ماكسميليان، أنتِ تعرفين ذلك."

"ألم ترغبي في قضاء الليل هناك؟"

"سوف أدرس غدًا الرياضيات؛ لذا من الأفضل أن أنام هنا."

"هل كل الأمور بينكما تسير على ما يرام؟"

"طبعًا"

أطفأت أمي السيجارة، لا، لقد أدارتها مثل مسمار بريمة في داخل طفاية السجائر الصغيرة. "لم ترسل لي جدتي بعد المستندات التي طلبت منها بإلحاح أن ترسلها لي."

تحاول أمي منذ بعض الوقت أن تسترد منزل والديها في روستوك واستعانت من أجل ذلك بأحد المحامين.

تنهّدت أمي وتلفّتت حينها إلى الوراء لتنظر إلي"أعرف، أنها منذ البداية لم تكن تهتم اهتمامًا كبيرًا بالأمر، إلا أنني أخذت شيئًا فشيئًا أشعر أنها تقاطعني بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ماكسميليان وأنتِ، هل مارستما الحب حقًا؟"

ارتجفت وقلت لها: "وما شأنكِ أنتِ بهذا؟"

"كنت أعرف هذا." ابتسمت أمي ابتسامة باهتة وأضافت: "سيتضح على الفور، كيف يفكر ويتصرف هذا الشخص. إنه رجل من النوع الذي، يمنيكِ بكل شيء ويتجاهلك بعد ذلك. هؤلاء الرجال لا يتغيّرون أبدًا، كلهم جبناء وتافهون وسيئون وضعفاء وحقيرون، لكنهم للأسف يتسمون بذلك بالخطورة على نحوٍ خاص. من الأفضل أن تتخلّصي منه قبل أن تقضي تلك العلاقة عليكِ."

صرخت قائلة: "لقد جننتِ." وأردفت: "عمَ تتحدثين بالضبط؟ أنتِ لا تعرفين ماكسميليان معرفة جيدة على هذا النحو بتاتًا!"

"أشم رائحة صنف الرجال على بعد أميال." قالتها والتفتت مرة أخرى نحو الملفات الموضوعة على مكتبها "إنْ تمادت جدتك في مسلكها هذا، لن أسترد المنزل أبدًا."

بدأت عطلة عيد الفصح بعد ذلك بفترة قصيرة. تعيّن عليّ أن أسافر إلى جدي وجدتي في زيركسدورف وأن أعاونهما بمناسبة بداية موسم العيد في محل "نجمة الشاطئ". انتظرت ماكسميليان في مساء يوم سفري، حيث أنه سبق ووعدني أن يمر عليّ مرة أخرى. جلست

على الدرج أمام المنزل ونزعت أوراق من شجيرة نبات الردندرة. كانت الأنوار الخارجية تُضاء، كلما كنت أتحرك.

كنا في شهر أبريل، تسلّلت البرودة أسفل جلدي، ظللت جالسة على الدرج، حتى نادتني أمي، لكي أدخل إلى المنزل.

كانت تريد أن تتحدث معي عن أمتعتي "هل تودين أن تنتقلي للإقامة عند جدك وجدتك؟ ألن تعودي ثانية؟ أنتِ تأخذين معك الكثير جدًا من الأمتعة، يا أنّا."

كنت على يقين، من أنني احتاج إلى كل، ما حزمته في الأمتعة. وكنت استبعد تمامًا أن تتفحّص حقيبتي مُرّة أخرى.

صاحت أمي في وجهي قائلة: "أنتِ مجنونة فعلًا!"

"دعيني وشأني لمرة واحدة!"

قالت لي بصوت كالفحيح: "إذًا فلتذهبي إلى الجحيم."

انتفضت واقفة وركضت إلى الهاتف الموجود في غرفة المعيشة وحاولت الاتصال بماكسميليان في المنزل وعبر هاتفه المحمول، غير أنه لم يتلقَ المكالمة.

(38)

اعتـاد جـدي عـلى إرسـال سـيارة أجـرة لتقلنـي من محطـة قطـار لوبيـك الرئيسـة إلى قريـة زيركسـدورف. كنـت أُنـزل نافـذتي وأستنشـق الهـواء المملـح الرطـب بعمـق.

تمكنـت مـن بعيـد مـن رؤيـة كـرات الشـاطيء الملونـة والمرتبـات الهوائيـة التـي تهتـز عـلى خطّـاف جـدار المنـزل أمـام متجر"نجمـة الشـاطيء" ذهابًـا وإيابًـا بفعـل الريـاح. لـن أنـسَ هـذا المنظـر قـط والشـعور الـذي يجتاحنـي كل مـرة عندمـا أعـود إلى وطنـي.

عندمـا نزلـت مـن سـيارة الأجـرة كان جـدي واقفًـا عنـد بـاب المتجـر بشـعره الرمـادي الفاتـح وعينيـه الزرقاويـن البراقتـين وسـيجارة في جانـب فمـه. دفـع أجـرة السـائق مسـبقًا. إذ كان يقـول دائمًـا: "مـن ذا الـذي يريـد أن يعطلـه هـذا عنـد معـاودة اللقـاء أخـيرًا."

سقطت بين ذراعيه.

صاحت جدتي من الداخل: "هيا، تعالا. لن ينته العمل من تلقاء نفسه."

ثم رفعت إبريق القهوة الزجاجي الكبير من فوق لوح التسخين وملأت ثلاثة أكواب من الورق المقوى وأعطتني أحدها. كان شعرها الأشقر الفاتح مصففًا على جانب بعناية وخلف أذنيها في تموجات كبيرة كانت تسميها أمي تسريحة كلب البودل. أما أنا فكنت أرى أن جدتي تشبه بطريقة مدهشة أزهار معجون اللوز المغلفة في سحب من السوليفان الكائنة في باقة كبيرة على منضدة البيع. الورق السوليفان مربوط من أعلى بأشرطة لولبية الشكل بلون وردي ومكتوب أسفلها على لاصق صغير ذهبي اللون: مع أطيب التحية من زيركسدورف.

كان المتجر عبارة عن مبنى ملحق يشبه صندوق طويل ممتد على طول واجهة منزل جدي وجدتي. كان يبدو وكأن تم إلحاقه بالمبنى في وقت لاحق. لذا كان معكوسًا وكان المنزل خارجًا منه.

كان الوصول إلى غرف المسكن يتم مرورًا بمكان البيع مباشرة. ومن كان يريد شراء شيء من المتجر بعد غلق المتجر كان عليه أن يطرق على نافذة العرض. حيث يقف جدي وجدتي مطلين من طاولة العشاء ويفتحوا له. لم يراودني أبدًا الشعور أنهما كانا يعتبران هذا الأمر بمثابة العبء.

لكن أحيانًا كان بعض الأشخاص يظلون واقفين عند الممشى ويهزون رؤوسهم. ويقول البعض بصوت عال: البناء الملحق يفسد البيت بأكمله.

عندما كنت أسمع هذا كنت أود الخروج كي ألف رقابهم وكما كانت تقول جدتي "أعلمهم الأخلاق" لكن جدي كان يضحك ويقول:

"دعيهـم يتحدثـون. المهـم أننـا نعـرف مـا نتمتـع بـه في متجـر "نجمـة الشـاطئ".

كان اليـوم يبـدأ صباحًـا في تمـام الرابعـة، ثـم يضـع البائـع الجرائـد اليوميـة داخـل الصنـدوق الصفيـح الموضـوع أمـام البـاب مـما يجعلـه يصلصـل. ثـم يتـم توريـد قطـع الخبـز للبيـع، وتفتـح جـدتي بـاب المتجـر في تمـام السادسـة. إذا لم تكـن السـماء تمطـر يدفـع جـدي حامـل البطاقـات للخـارج ويعلـق المرتبـات الهوائيـة وكـرات الشـاطئ وشـباك الصيـد وشـبكات ألعـاب الشـاطئ عـلى الجـدار الخارجـي.

كان هنـاك أمـام المتجـر سـور للحمايـة مـن ميـاه المـد يصـل ارتفاعـه حتـى الركبـة ويمتـد عـلى طـول الممـشى وليـس بـه فتحـات سـوى أمـام أبـواب المنـازل. كانـت الفتحـات تُغلـق بألـواح معدنيـة في حـالات الخطـر. لكـن جـدي وجـدتي كانـا يفعـلان هـذا كل مسـاء. قبـل أعوام فاجأتهـم موجـة مـد في أثنـاء النـوم.

كل مـرة كان يضـع جـدي بهـا اللـوح ويغلـق الحاجـز يجتاحني شـعور هائـل بالطمأنينة.

سـألني جـدي عندمـا لاحـظ أننـي أسـتند عـلى جـدار المنـزل وأراقبـه: "إلى أيـن تريديـن الذهـاب في هـذا الوقـت المتأخـر؟"

هبت رياح ثلجية.

"إلى صندوق البريد فحسب."

"أما زلت تكتبين له؟"

أومـأت بـرأسي، كنـت أرسـل إلى ماكسـميليان بطاقـات بريديـة كل يوم ثلاثـاء أو أربعـاء مـرة واحـدة.

قـال جـدي: "لـو كان رجـلًا بحـق لمـا جلـس بحماقـة وانتظـر حتـى تعوديـن. كان عليـه أن يكـون هنـا منـذ وقـت طويـل حتـى يعيـدك."

جذبت طاقيتي فوق رأسي وربطت الوشاح بقوة.

قلت: "ليس ماكسميليان هذا الرجل."

"إذن أمك محققة، هو لا يصلح لشيء."

تسلقت سور الحماية من مياه المد على الممشى وسرت عكس الرياح. توجهت ناحية اليمين -إلى مخرج المكان. كان ثمة صندوق بريد وكابينة هاتف. نادى عليّ جدي بشيء لكن صوته تلاشى ولم أتمكن من فهمه.

عندما ألقيت البطاقات البريدية في الصندوق جلست في قاع كابينة الهاتف وأشعلت سيجارة، انتشر رذاذ زبد البحر على الألواح وأصدرت العاصفة أصواتًا وحركت الباب. هبت الرمال والطحالب فوق الممشى في الخارج وصعدت في دوامات رمادية إلى الضوء المتأرجح للمصابيح. كم كنت أتمنى أن أحكي لماكسميليان عن هذا. أسمع صوته.

تخيلته في غرفته، كان جالسًا على اللوح الخشبي الرقائقي المفصول من الأرضية وقد انحنى على رسم جرافيتي جديد. رفع رأسه عندما رن الهاتف.

دهست سيجارتي على الأرضية الرملية لكابينة الهاتف، حيث كان يوجد الكثير من أعقاب السجائر التي تخصني.

تصورت ليلة تلو الأخرى أن أتصل بماكسميليان لكنني لم أفعل، لم أجرؤ. خفت ألا يرد على الهاتف أكثر من خوفي مما سيقوله، لكنني تصورت أنني طالما أكتب له فلن يستطيع أن يقطع ما ربطنا بالكامل. كانت بطاقاتي تصله ولم يكن في وسعه تجاهلها، وكنت أهدأ عندما أتصور أنها مكدسة على مكتبه، كان جدي يقول كثيرًا: "الكتابة تعني التمسك".

عندما عدت كانت جدتي جالسة على طاولة المطبخ لتحصي إيراد اليوم قبل أن تضعه في الخزينة. كان جدي يحصي إيراد اليوم بسرعة وبشكل روتيني أما هي فكانت تأخذ وقتًا، كانت تلعق أصبع الإبهام عند تقليب الأوراق البنكية وتكدس العملات المعدنية في أبراج صغيرة مثل لعبة النقود. أحيانا كانت تناولني حزمة من الأوراق النقدية وهي تضحك وتقول: " إذا استطعت أن تقولي لي في نظرة واحدة كم عدد النقود التي معي هنا فيمكنك الاحتفاظ بها."

كنت أمكث بجوارها دائمًا الأمر الذي دفعها لمزيد من الضحك. بينما كانت تعد كان جدي يقرأ عليها من الروايات البوليسية أو قصص الحب أو روايات المغامرات التي كان يجلبها معه من المتجر. كان يحرص دومًا على ألا يثني أطراف الأوراق أو تتكسر لأن الكتب كان يتم إعادتها بعد قراءتها إلى الحامل الدوّار وبيعها. إذا أعجبني إحداها كان يهديه لي.

سبق أن قلت لوالدي أنهما يجب عليهما ألا يصطحباني من محطة القطار. كان ماكسميليان يعرف متى سأصل، كتبت له.

عندما وصل القطار إلى فيسبادن أغلقت عيني لفترة قصيرة وفكرت به بشدة.

في نهاية رصيف المحطة كان فالك واقفًا. تقدم ناحيتي وأخذ مني الحقيبة. رفع بصره في حيرة ويكاد أن يكون مفزوعًا وقال" ماذا تضعين بها؟ صخورًا؟"

قلت:" " كتبًا، أين ماكسميليان؟"

" في المنزل، أعتقد هذا."

تبعته في صمت خلال صالة المحطة إلى الخارج. أوقف سيارته الجولف السوداء ماركة GTI في مكان ممنوع تمامًا لوقوف السيارات. كان يطلق على هذا الأمر تحدي الحظ.

دس أمتعتـي في صنـدوق السـيارة. كانـت البطاقـات البريديـة التـي سـبق أن كتبتهـا لماكسـميليان موضوعـة عـلى المقعـد المجـاور للسـائق.

"من أين جئت بها؟"

قـال فالـك وهـو يفتـح لي بـاب السـيارة: "لم يردهـا، لم يسـتحقها هـذا الوغـد بالمـرة." انحنـى تجاهـي ناحيـة السـيارة وأبعـد البطاقـات مـن عـلى المقعـد. "تعـالي، اركبـي، سـأصحبك إلى المنـزل."

كـم كنـت واقفـة في جمـود، تسـبب لـه هـذا في حـيرة لدرجـة أنـه ضرب بقدميـه ونظـر إلى الأرض. لم يسـتطع أن ينظـر إليّ في عينـي، في النهايـة قـال: "يؤسـفني، يـا آنّـا؛ الحقيقـة أن الوضـع لـن يتغـير. وتصـوري أنـك واقفـة هنـا وتنتظـري ... كان يجـب عـليّ .... لم أتمكـن. مـن فضلـك دعينـي أصحبـك إلى المنـزل، وإذا كنـتِ لا تريديـن رؤيتـي مـرة أخـرى ..."

شـعرت بهـذا الألم الشـديد عـدة مـرات. شـعرت بـبرودة شـديدة. قلـت: "لا أريـد الذهـاب إلى المنـزل. أريـد ..." فكـرت أن مـا أريـده هـو المـوت. لم أعـد أرغـب في الشـعور بـأي شيء أو سـماع أو رؤيـة أي شيء. عـلى الإطـلاق.

لمـس فالـك ذراعـي بلطـف، قـال:" تعـالي، اركبـي الآن، يـا آنّـا. أعـرف إلى أيـن سـنذهب."

كان لغرفتـه شرفـة صغـيرة، هنـاك جلسـنا داخـل أغطيـة سـميكة عـلى مقعديـن غـير ثابتـين مـن البلاسـتيك. كان يوجـد بيننـا عربـة الخدمـة المصنوعـة مـن الزجـاج العاكـس وتتـلألأ مقابضهـا الفضيـة الأنيقـة بلـون أزرق في الضـوء الضعيـف القـادم إلينـا مـن بـاب الشرفـة، كانـت العربـة مليئـة بالزجاجـات والـدلاة وأكـواب عمـل كوكتيـلات. كان فالـك يسـمي هـذه العربـة فرقـة عمليـات متحركـة. بـار كوكتيـلات مجهـز عـلى أكمـل وجـه.

اعتـاد شرب الويسـكي دون إضافـات لكنـه خلـط مـن أجـلي مشروبـات حلـوة بيضـاء ذات رغـاوٍ، شربـت الواحـد تلـو الآخـر. كل مـرة كان فالـك يعطينـي ماصـة جديـدة ويضـع قطعـة أنانـاس عـلى حـرف الـكأس، ثـم يعيـد لنفسـه مـلء كأس الويسـكي.

لم نكـن نتحـدث لبعضنـا بعضًـا إلا قليـلًا، الأمـر الـذي لم يسـبب لي إزعاجًـا. بـل عـلى العكـس، فصمتنـا بـدا لي كافيًـا ومهدئًـا كـما لـو أننـا أمضينـا حياتنـا بأكملهـا معًـا بالفعـل.

قـال ذات مـرة: "أتعرفـين، آنـذاك في مسـبح أوبلبـاد؟ في البدايـة لم تريـدي أن تـشربي حتـى بـيرة ولم تـشربي سـوى شراب الليمـون العجيـب ذاك الملقـب باسـم ماتيلديـن."

" أتتذكر هذا الأمر؟"

أومأ برأسه.

لذنا بالصمت مرة أخرى.

مـرة أخـرى كان يجـب عـلى فالـك طـرق الكـؤوس ببعضهـا، غمغمـت قائلـة: "في صحتـك" وضحكنـا. في النهايـة قـال بصوت متثاقـل:" آنّـا، أنـا آسـف حقـا. لكـن أعتقـد أننـي شربـت كثـيراً الآن، ولـن أتمكـن مـن أن أصحبـك إلى المنـزل اليـوم."

أومأت برأسي فحسب.

" أليس مناسبًا أن تنامي هنا؟"

هـززت رأسي. ارتطمـت الزجاجـات ببعضهـا البعـض في هـدوء عندمـا مـد لي فالـك يـده. كانـت ثابتـة ودافئـة. قـال:" أنـت بـاردة للغايـة. هـل يجـب أن ندخـل؟"

(39)

تقول وأنت مبتسم للكاميرا: " ثم تبادلتما الغزل واللمسات."

أجيبك إجابة ممدوة:" لا." بل مارسنا الحب. كانت أول مرة لي."

"هل كان الأمر جيدًا؟"

" أعتقد، لكننا كنا مخمورين إلى حد ما."

تضحـك بهـدوء وتضـع يـدك أمـام فمـك كـما لـو أنـه يجـب عليـك السـعال. أنتظـر حتـى يصـير الأمـر عـلى مايـرام. ثـم أسـألك: "كيـف كان الأمـر بالنسـبة لـك، أول مـرة؟"

" أعتقد شيئًا مشابهًا. كنت مخمورًا أيضًا."

تقـف أمـام جهـاز الـلاب تـوب وتتحـرك خـلال مطبـخ كبـير عـصري لم أره جيـدًا إلا للتـو. جـدران بيضـاء، ألـواح مـن الجرانيـت الداكـن وكثـير مـن الصلـب الثمـين. لا يوجـد شيء موضـوع في أي مـكان. تأخـذ كأسًـا مـن الخزانـة وتملأهـا مـن الصنبـور. تشربهـا دفعـة واحـدة. تفتـح غسـالة الأطبـاق وتضـع الـكأس بهـا ثـم تعـود إلى جهـاز الـلاب تـوب.

" أين أنت حقًا؟"

تبتسم، وتقول: "اعتقدت أنكِ لن تسألي أبدًا."

" لِـم؟ مـا الأمـر إذن؟ فجـأة أصـدرت بطنـي صوتًـا. " هـل أنـت في برلـين بالفعـل؟"

"لا، وإلا لجئـت إليـك منـذ وقـت طويـل ومـا كنـت تحدثـت معـك عـن طريـق السـكايب. أنـا في كولونيـا. في المنـزل. هـذا هـو طابقـي العلـوي." تسـعل مـرة أخـرى. ثـم تقـول: "اشـتريته منـذ وقـت قصـير. هـل يجـب أن أصحبـك في جولـة؟ هـل تريديـن رؤيتـه؟"

أنظـر إلى مـؤشر الوقـت عـلى جانـب الشاشـة، سـأصل إلى العمـل متأخـرة مـرة أخـرى. عـلى الرغـم مـن ذلـك سـأؤدي عمـلي وأكتـب أسرع مـن ذي قبـل. عـلى الرغـم مـن ذلـك يتذمـر أيكـه دائمًـا ويقـول إننـي لا آخـذ عمـلي عـلى محمـل الجـد، الأوقـات تتغـير ويجـب أن أكـون حريصـة الآن عـلى وجـه الخصـوص ويجـب ألّا أبـدو سـلبية بـأي حـال مـن الأحـوال.

لكنـك عندمـا أحـكي لـك عـن ذلـك الأمـر تعلـق دائمًـا بقولـك: "هـراء! المهـم أنـك تعملـين بفاعليـة."

"حسـنًا، هـذا مـا أفعلـه، أنـت تجعلنـي سـعيدة جـدًا وهـذا الأمـر يثـير حـماسي حقًـا."

"إذن يجب ألّا تقلقي."

مدفـأة كهربائيـة، طاولـة زجاجيـة موضـوع عليهـا ثـلاث مجـلات مفتوحـة وأريكـة سـوداء مـن الجلـد أمـام شاشـة مسـطحة عملاقـة. لا يوجـد أي سـجاجيد أو سـتائر بـل سـتائر معدنيـة خارجيـة بيضـاء اللـون تنفتـح شرائطهـا وتنغلـق بالضغـط عـلى زر مصـدرة صـوت أزيـز. تبـين لي ذلـك. الضـوء سـاطع في الخـارج. تذهـب إلى غرفـة النـوم مـرة أخـرى. معلـق فـوق الفـراش آلـة سـاكس بلـون فـضي.

أسألك: "هل ستعزف لي قليلًا؟"

تضحك قائلًا:" ينقصني النفس اليوم لفعل ذلك." خزانة ملابس مدهشة. بدلة بجوار الأخرى، القمصان محفوظة في أغطية، الأحذية الرجالي موضوعة على رفين بداخلها حاملات الأحذية.

تُريني الحمّام. إلى جانبه حمّام البخار، تعود إلى غرفة المعيشة. على رف جانبي يوجد صورة فوتوغرافية داخل إطار لطفل صغير يتزلج، ربما يبلغ من العمر عامين. وجنتاه حمراوتان من البرودة وأسفل قلنسوته المبطنة بالفرو لسترته تبرز لفائف شعره الحريرية باللون نحاسي.

" هل هذا ابنك؟"

"نعم، هذا بنيامين." تضع الصورة أمام الكاميرا. " كان يومًا جميلاً آنذاك. تزلجنا على الجليد لساعات طوال. لم يشعر بالتعب لكنه في وقت ما عندما كنا أعلى الجبل راح في النوم على ذراعي. "

يبدو أنه كان لا يزال صغيراً، أعتقد أنه صار أكبر."

"بالفعل. سيتم عامه الثامن الأسبوع القادم. للأسف ليس لدي أي فكرة عما يجب أن أقدمه له كهدية. بالأمس اتصلت بصوفي في مكالمة قصيرة وسألتها لكن ما فعلته هو أنها ألقت على مسامعي مرة أخرى أنني لا أفسح له الوقت الكاف. وإلا لعرفت ما كان يحبه. لا تستطيع أن تفوت الفرصة حتى تهاجمني، تلك البقرة البائسة الشقراء."

" كم مرة تراه إذن؟"

"لا أتمنى سوى أن تجد لنفسها أي رجل كي يطارحها الغرام. عندئذ ربما تدعني وشأني."

في غضون ذلك أصبحت أعرف أنك تشعر بأنك مجهد ومحبط عندما تطلق سهامك هكذا على شخص، مثل رجل الاستقبال أو مضيفة فاشلة تمامًا أو نادل بدين أو متشرد يتوسل إليك بلا توقف بدلًا من أن يعمل. حسنًا، لكنك عنفته ووبخته جيدًا.

أعتقد أنك لم تقصد هذا أبدًا، فقط أنك يجب أن تعنف شخصًا ما وتوبخه كي تعود على ما يرام. وكما يقول فالك البحث عن ضحية، لكن عندما قلت لك ذلك نظرت إليّ بانزعاج قائلًا:" هل أنا سيئ لهذه الدرجة؟ يؤسفني هذا!" وفي اليوم التالي عرضت عليّ مجموعة من الأسطوانات المدمجة التي اشتريتها من موسيقي متجول "كتكفير عن الذنب، هل صالحتيني الآن؟"

تعاود دائمًا الهجوم على زوجتك السابقة، حيث تقول: "تعرفين أنها لم تعد للعمل بعد ولادة بينيامين، لم تحرك إصبعًا واحدًا، لم تكسب مالًا خاصًا بها أبدًا. هذا أمر حسن بالتأكيد، يجب أن تؤدي دور الأم المثالية بهدوء من أجلي. لا أقول شيئًا عن هذا مطلقًا، لكن قليل من العرفان بالجميل سيكون مناسبًا - فهي تأخذ نقودي في النهاية، ليس قليلًا ما أعطيه إليها شهرًا تلو الآخر."

أقول بود: "كونستانين، الأمر على مايرام الآن، لا تنفعل مرة أخرى."

"أكره عندما تحدثيني بهذه الطريقة." فجأة تشهق، تأخذ نفسًا صفيريًا وتغلق جهاز اللاب توب. عندئذ لم أعد أرى سوى بقعة بيضاء. الحائط، لم تتحرك الكاميرا. سمعت همسة كما لو أن زجاجة مياة فوارة تفتح. بخاخة الربو! تأخذ نفسًا عميقًا، ثم بدا الصوت مثل النواح. ثم رنَّ شيء فوق الأرضية الحجرية، جهاز الاستنشاق ربما. كرهت هذا الشيء، تلقيه بعيدًا بغضب كل مرة عندما تعود لاستخدامه.

تتأرجح الكاميرا خلال المكان، تجلس على الأريكة، وتضع اللاب توب على ركبتيك، فأتمكن من رؤيتك مرة أخرى، عينيك المتعبتين المحمرتين. التجاعيد العميقة، مثل حرف ›U‹ معكوس بين جانبي الأنف وجانبي الفم. تميل برأسك وتبتسم، وتقول:"حسنًا؟ هل تعجبك الشقة؟" كأن شيئًا لم يكن بالمرة.

أقول: "بدا الصوت سيئًا، هل أنت على ما يرام مرة أخرى؟"

"نعم، بالتأكيد سيطرت على الوضع."

"منذ متى وأنت تعاني من هذا الأمر؟"

"منذ سنوات، بعد مولد بنيامين بفترة قصيرة. كنت قد أسست شركتي الجديدة للتو، كان يجب عليّ العمل كثيرًا للغاية، لكنني كنت أود فعل هذا، كنت أحب خوض شيء جديد وتأسيس شيء جديد، أحصل على دفعة من هذا الشيء، يدفعني قدمًا. لكن بعد ذلك - احتفلنا بتعميد بينيامين، احتفالًا كبيرًا، قبلها كان لدي اجتماع مهم، خلصت نفسي في الوقت المناسب من أجل القداس، وفجأة انهرت. لم أعد أحصل على الهواء، أزمة قلبية على ما أعتقد. لكن عندما استعدت الوعي تحدث الأطباء معي عن مرض مناعي ذاتي، ساركويد، متلازمة لوفجرين"

"لم أسمع عنه من قبل، ما هذا المرض؟"

تصورت أنا أيضًا في البداية أنهم يخدعونني. مرض مناعة ذاتية، هذا الهراء والعبث، ليس مناسبًا لي بالمرة. ومرض الساركويد، يبدو مثل غطاء النعش، أصابني الجنون عندما سمعت التشخيص. يجعل الجهاز المناعي مجنونًا، يهاجم الجلد والعينين والكبد والعقد الليمفاوية والمفاصل وكذلك الرئة. قال لي أحد الأطباء: " يفترسون بعضهم بعضًا بشكل عملي." لن أنسى أبدًا، تصورت دائمًا أن هذا الشخص ليس أنا. لا يمكن، مستحيل أنهم يقصدونني.

لكن صارت الأمور أكثر سوءًا معي. حصلت على جرعات زائدة من الكورتيزون، لم يفلح هذا معي. كل نفس كان يؤلمني، لم أعد قادرًا على النهوض، وصارت مفاصل أصابعي سميكة للغاية لدرجة أن كل شيء كان يقع من يدي. لم أعد قادرًا على الشراب بمفردي. لكن أتعرفين ما هو الشيء الأكثر سوءًا؟ أنني شعرت أنني غير مستقل فجأة وعالق في هذه الآلة بالمشفى وكل هؤلاء الأطباء المتغطرسين وتحت رحمة الممرضات المتذمرات. زيدي على هذا صوفي التي جلست تنتحب بجوار فراشي وأرادت أن أعدها بأنني سأبذل من تلك اللحظة أقل الجهد. وأبيع الشركة. وقالت إن لدينا مالًا كافيًا، كي ننسحب لفترة ثم نرى ما سيكون. يا للهول، تصورت أنني أحتضر. وتحدثت عن الاقتصاد والابتعاد والتخلي، تصورت أنني من الممكن أن أقتل نفسي. فجأة فهمت أنهم جميعًا يهذون ولا يفهمون على الإطلاق ما الأمر حقًا. لم يفهموا، لم يستطع أي منهم أن يفعل شيئًا من أجلي حقًا -أنا فقط من استطاع. فقدت السيطرة، الآن كان عليّ استعادتها. وهذا بالضبط ما فعلته. سحبت نفسي إلى المكتب وبدأت العمل. أطلق الأطباء على هذا جنونًا. وفقدت صوفي السيطرة على نفسها بالطبع وأرادت أن تعيدني إلى المشفى مرة أخرى، كدت أن أنتحر، كادت أن تموت من القلق. أعددت أغراضي وصعدت الطائرة التالية. كان لدي اجتماع في لشبونة. طقس جميل، هواء دافئ معتدل تنفسته بعمق، أتعرفين؟ منذ ذلك الوقت تحسنت حالتي. قال الأطباء إنه شفاء تلقائي وهذه معجزة صغيرة. لم ينجح زواجي، وبقت هذه النوبات الغبية التي تشبه الربو. عدا ذلك صارت الأمور على ما يرام." تبتسم لي، ثم تستطرد قائلًا: "جيدة جدًا. منذ أن قابلتك. غدًا في مثل هذا الوقت سأكون في الطائرة وأكون في طريقي إليك، لم يعد في وسعي الانتظار، انتظري، لدي شيء من أجلك."

تقــف، فــأرى الأريكــة والطاولــة الزجاجيــة بالمجــلات المفتوحــة، أســمعك تمــشي خــلال الغرفــة. تعــود وأنــت تمســك بفــرع إبــري رفيــع وتضعــه أمــام الكامــيرا.

أسأل على الفور: " شجرة الأرز؟"

"شــجرة الصنوبــر اليابانيــة للزينــة، ألا تعرفيهنــا؟ أشــجار جميلــة. لكــن للأســف ليســت مناسـبة لدوائــر العــرض هــذه. وضعــت إحداهــا في شرفتــي. عندمــا أعــود إلى منــزلي أذهــب لأتفحصهــا أول شيء. يجــب أن يتــم تقليمهــا بانتظــام ووضعهــا داخــل المنــزل في حالــة الصقيــع. كان هــذا الفــرع أول شيء ألمســه عنــد عــودتي."

لم أعــرف مــا يجــب أن أقــول. وددت أن أدخــل مــن الشاشــة و... نظــرت في ســاعة معصمــك الذهبيــة. ســألت:" ألا يجــب أن تعمــلي اليــوم؟ صــار الوقــت الثامنــة والنصــف."

" وأنت؟"

" ســأمكث في البيــت اليــوم." تبتســم مــرة أخــرى. " بعــد ذلــك لــدي موعــد مــع الطبيــب، فحــص دوري محــض. أنــا أقــوم بفحوصــات بانتظــام للاحتيــاط."

ألقــي إليــك قبلــة الــوداع. أغلــق الــلاب تــوب وأقــف مــن أمــام المكتــب. كانــت قهــوتي موضوعــة بجانــب حــوض المطبــخ، ســكبتها، أمــر مثــير للاشــمئزاز! أضــع يــدي أمــام فمــي، أردت الجــري إلى الحــمام. فــات الوقــت. تقيــأت في حــوض المطبــخ. اللعنــة! هــل أصابنــي بــرد؟ قبــل وصولــك إلى برلــين بيــوم واحــد؟ لا يمكــن أن يكــون هــذا حقيقيًــا. أفتــح صنبــور المــاء وأضــع وجهــي في المــاء البــارد؛ تقلصــت معــدتي عــدة مــرات، وتقيــأت مجــددًا.

منــذ أن عملــت في "يونيفرســال شــوز" لم أتغيــب يومًــا واحــدًا. حتــى إننــي كنــت أذهــب للعمــل وأنــا أعــاني مــن ارتفــاع الحــرارة. أيكــه محــق،

مـن الممكـن أن يتـم اسـتبدالنا. لكننـي اتصلـت هاتفيًـا بالعمـل وأخبرتهـم بأننـي مريضـة، شـعرت بتعـب شـديد. هويـت في فـراشي وأغلقـت عينـي ورحــت في النـوم عـلى الفـور.

(40)

ماذا كنت أتوقع؟ ليس هذا في أي حال من الأحوال. بدا ماكسميليان وكأنه لم يعد يراني، وكأنه ليس مهتمًا بأنني صرت أنا وفالك معًا. عندما تقابلنا جميعًا في متجر الكتب نظر إليّ ماكسميليان نظرة عابرة. ألقيت عليه التحية، على الرغم من أنه قد ابتسم كما لو أنه لا يعرف سوى أننا مجرد معرفة، إلا أنه لم يتذكر من أين. أخذ يدي وهزها لفترة قصيرة ثم ابتعد وأشعل لنفسه سيجارة وأعاد ملأ كأس النبيذ لنفسه مرة أخرى. لأنه عاد لتناول الخمر حتى ولو باعتدال، حيث ادعى أنه يسيطر على الأمر الآن، وأنه انتصر على الإدمان والآن يستطيع الاستمتاع أخيراً.

في البداية كنا نلح عليه كي يقلع، خاصة ميتسي وفالك ظلا مصرين لفترة طويلة وحاولا أخذ كأس النبيذ منه واقترحا أن يمتنع كل الرجال المحترمين عن شرب الكحول الفترة التي يحتاجها هو حتى يتعافى تمامًا من إدمان الخمر. في وقت ما توقفوا هم أيضًا وتركوه. ربما لأنه لم يفقد الوعي تمامًا مطلقًا. بل ظل يحتسي كأسًا واحدًا

مـن النبيـذ ولا يتجـاوز بتنـاول نسـبة عاليـة مـن الكحـول. بـدا حقـا أنـه مسيطر عـلى نفسـه. أو ربمـا لا؟ مـاذا بـه؟ حدقـت بـه. وارتعـدت عندمـا طوقني فالـك بذراعـه وجذبنـي ناحيته وضغـط بشـفتيه عـلى رقبتـي ومـص بهـا بقـوة. صـار لـدي لدعـات جنسـية في كل مـكان.

سبق أن قالـت أمـي: "لا يمكـن إغفـال أنـه مـارس الحـب معـك مـن قبـل." لكـن كان يبـدو أنهـا لم تكـن سـعيدة بهـذا. حتـى فالـك لم يعجبهـا حيـث لم يـثر لديهـا سـوى عـدم الثقـة خاصـة صمتـه. لكنـه كان مهذبًـا للغايـة عـلى الـدوام. عندمـا كان يصطحبنـي مـن المنـزل كان يدخـل لفـترة قصـيرة ويحيـي والـدي، كان يعـرف أبي حيـث درس لديـه حصـة تعميـد. كان فالـك يثرثـر دائمًـا مـع الاثنـين قليـلًا لكنـه لم يسـمح لنفسـه أبـدًا بـأن يتـورط في حديـث مطـول معهـما، عـلى الرغـم مـن أن أمـي كانـت تحـاول معـه كثـيرًا، لكنـه كان يبتسـم لهـا فحسـب. ذات مـرة عندمـا تحدثـت معـه في أمـر سـياسي عـن الانتخابـات البرلمانيـة القادمـة أعتقـد أنـه هـز كتفيـه وادعـى أنـه لا يهتـم بالسياسـة. وقـال إنـه لا يقـرأ سـوى الجـزء الخاص بالاقتصاد.

قالـت أمـي بسـخرية:" قـد تكـون الرياضـة أسـوأ." أجـاب مبتسـمًا: "حسـنا، أقرأهـا بالطبـع أيضًـا."

لم يطيقـا بعضهـما بعضًـا وكذلـك لم يكـن فالـك يطيـق أمـي، هـذا مـا شـعرت بـه بوضـوح عـلى الرغـم مـن أنـه كان ينفـي دائمًـا عندمـا كنـت أحادثـه في هـذا الأمـر قائـلًا: "لا أعـرف مـاذا تقصديـن، آنّـا. والدتـك امـرأة خلابـة حقًـا."

قلت ضاحكة:" هي كل شيء عدا أنت تكون خلابة بالتأكيد."

كان أصـل والـد فالـك يعـود إلى أسرة عريقـة مـن فيسـبادن كانـوا مـن أصحـاب الـشركات التـي وضعـت كل ثروتهـا بدايـة التسـعينيات في مشروعـات عقاريـة بألمانيـا الشرقيـة وخسرتهـا.

تمكـن رودولـف مانتـي مـن اسـتعادة شـتات نفسـه سريعًـا. عـلى الرغـم مـن أنـه كان بعيـدًا كل البعـد عـن رفاهيتـه القديمـة. لكنـه بعـد مـرور عـام واحـد اشـترى منـزلاً بالفعـل مـرة أخـرى وخـرج مـن الفيـلا المقامـة في مجمـع سـكني التـي كان يقـول عنهـا فالـك دائمـا أنهـا كانـت أكـثر الفـترات المظلمـة في حياتـه. كان المنـزل عبـارة عـن قلعـة صغـيرة مـن فـترة الثلاثينيـات مشـيدة مـن الطـوب أصفـر اللـون والنوافـذ الضخمـة وبـاب ضخـم مـن خشـب البلـوط. كانـت الشرفـة الصغـيرة التـي كنـت أجلـس بهـا مـع فالـك كثـيرًا موجـودة في السـطح أسـفل الجملـون تقريبًـا.

أمـا الجـراج الـذي كان مبنيًـا بجـوار المنـزل كان عبـارة عـن مخـزن ومكتـب لشركـة السـيد مانتـي الجديـدة. حيـث كان يتاجـر في مـواد التنظيـف للطائـرات والدبابـات والأسـلحة وكان الجيـش الألماني أكـبر عملائـه.

وُلـدت جوليـا مانتـي في إيطاليـا وجـاءت إلى ألمانيـا وهـي طفلـة مـع والديهـا. حتـى وفـاة والدهـا كان محـل" دولـسي فيتـا" ملـكًا لـه، وهـو عبـارة عـن محـل لبيـع المثلجـات في منطقـة المشـاة. كانـت السـيدة مانتـي تتحـدث الألمانيـة بلكنـة خفيفـة إلا أنهـا كانـت تنفعـل بشـدة عندمـا يتحـدث معهـا أحـد عـن هـذا الأمـر حيـث كانـت تقـول: "لا، لسـت إيطاليـة. مافيـا، كلهـم مافيـا. ابتـزوا والـدي، كانـوا يأخـذون نصـف الإيـراد كل أسـبوع. أنـا أملـك جـواز سـفر ألمـاني ولم أعـد إيطاليـة."

كانـت قصـيرة القامـة ولهـا شـعر داكـن، كانـت ممتلئـة بعـض الـشيء لكنهـا لم تكـن سـمينة، كانـت تربـط شـعرها في عقـدة ثابتـة في مؤخـرة رأسـها وترتـدي كنـزات طويلـة ناعمـة ووشـاحات متطايـرة مـن الحريـر وأحذيـة باليرينـا كانـت تخطـو بهـا بـلا أي صـوت فـوق السـجاجيد فاتحـة اللـون المفروشـة في كل الغـرف. لم يكـن مسـموحٌ لنـا بالمـشي فوقهـا إلا بالجـوارب، وكنـا نخلـع أحذيتنـا أمـام البـاب.

كانت السيدة مانتي لديها حذاءان باليرينا، أحدها لداخل المنزل والآخر لخارجه.

ورث فالك البشرة الداكنة من أمه والعينين الرماديتين والشعر الأشقر الفاتح من والده. كانت أنفه الصغيرة المدببة بها التواء خفيف ناحية أليسر حيث تعرضت أنفه للكسر عدة مرات. عندما كنت ألمسها وأمسح بإصبعي فوق ظهر الأنف الناتيء كان يضحك قائلًا: "عليّ أن أتشاجر قريبًا مرة أخرى وأحظى بلكمة قوية في أنفي الملتوية بالفعل حتى لا تبقى ملتوية ناحية أليسر بعد الآن على الأقل."

الكل يعرف أن أنفه لم ينكسر بسبب شجار بل لأنه اصطدم بإطار باب وهو مخمور. على الرغم من ذلك كان يحمله مثل وسام عسكري. عندما كنا نخرج كان يحب أن يقول:"هيا، هيا إلى المعركة، الآن هناك حرب." أي أنه يريد أن يثمل بحماقة. كما كان ممنوعًا من دخول كثير من الحانات لأنه لطالما أثار الشغب هناك.

كان يطلق على صديقتي لوسي وإستر اسم "الفئران أليسرية" أو " "حشرات بشرية ضارة". عندما كنت ألقاهما كان يقول: "هل كان لديك اليوم اتصالا بالأعداء؟" لم يكن يثق بأبي. كما لم يطلق عليه صفة "خلاب"

كان يقول: "شخص مثله يجب ألّا يشاهد بلا رد فعل فحسب كيف تحولت ابنته نحو معكسر اليمين، ماذا يريد أن يعرف عنا؟ هل يستخلص منك المعلومات عن مجموعة الرجال المحترمين؟ أتعتقدين أنه يفتش في أغراضك؟"

قلت:" هراء، علاوة على أنني لست يمينية."

مدّ فالك إصبعه السبابة في وجهي وقال:" إذا انكشف أمرنا، عندما يكون هناك مداهمة أعرف إذن أين تكمن الثغرة الأمنية."

"مداهمة؟ لكننا لا نفعل شيئًا لأحد. أنت مجنون بالشك."

"وأنت ساذجة. أنصحك بشدة أن تكوني أكثر حرصًا."

ثمة حكاية تناقلها الناس والدي تقول: علامة ثقته بالرب تتمثل في أنه تركني وأنا طفلة صغيرة أوازن نفسي على شرفة الأرغون العلوية. قال لن تسقط، لن تسقط. سيحميها الرب. الرب يحمينا.

لاقت هذه الحكاية استحسان فالك. كان يعرفها من حصة التعميد وكثيرا ما كان يرويها، أغلب الوقت، عندما كان يراني أحد أعضاء مجموعة المحترمين مع لوسي وإستر ويغضب من ذلك.

قال فالك:" تشعر أنها في أمان، محمية، ليس في وسعها فعل شيء حيال ذلك."

في الحقيقة كانت الحكاية تدور حول قس والدي وهو رجل معمداني عجوز يصير أكثر إيمانًا وتعصبًا مع كل كأس شنابس.

اقفز، اقفز. إذا كان الرب أباك فسوف يلتقطك، ألا تثق به؟

الشيطان فقط هو من يتحدى الرب. أو مجنون.

كانت تلك رسالة والدي، لكن فالك لم يفهمها، وأنا أبقيت هذا الأمر لأنني كنت أحب طريقة نظرته إليّ عندما كان يروي الحكاية: كما لو أنني فتاة صغيرة تتوازن على شفا جرف دون أن تكون في خطر؛ لأنها محمية من قوة أعلى.

كانت خطط فالك المستقبلية تشبه السيرة الذاتية المنسقة في شكل جداول: أولا شهادة الثانوية. ثم الخدمة العسكرية في وحدة من وحدات النخبة. ثم دراسة إدارة الأعمال في جامعة خاصة في راينجاو. اجتاز اختبار القبول بالفعل وقام بعمل التدريب الميداني أكثر من مرة بالفعل في أحد البنوك الاستثمارية. كان يقول إنه يريد أن يجمع كثير من الأموال. وكذلك يريد بيتًا خاصًا وكلبًا وأطفالًا، ومن أجلي

غرفة مكتب صغيرة يضع بها مقعده الوثير كي يتمكن من النظر إليّ وأنا اكتب عندما يعود إلى المنزل مساءً.

كانت رواية "ذئب البراري" هي الكتاب الوحيد الذي كان قد قرأه باهتمام، بل بشغف. وكان يقيس حكاياتي عليه عندما كنت أعرضها عليه. ثم قال:" أبهرني هيسه بشكل ما أكثر."

أحيانا عندما كنا نثمل جميعًا، كنا نطلق على فالك اسم عازف البوق الصغير بسبب الأغنية الشيوعية. كان فالك يزعم دائمًا أن الأكياس أليسرية تستطيع عمل الموسيقى.

كنا نصيح قائلين: كنا نتسامر في سعادة بالغة، في ليلة عاصفة للغاية كان يسعدنا بأغانيه عن الحرية بشدة. وكان فالك يشد كتفيه، ويمد ركبته لأعلى ويعزف البوق ثم يمسك فجأة بقلبه ويهوى على الأرض.

فجأة جاءت طلقة مميتة، سقط عازفنا الصغير للبوق بضحكة مرحة في لعبة مبهجة مثل تلك. كان فالك قصيرًا حقًا، لم يتجاوز المتر والخمسة وسبعين سنتيمترًا لكنه كان مفتول العضلات. كان يؤدي تمرينات قوة لمدة ساعتين كل يوم. ثم أخذنا الفأس والمجراف وحفرنا له قبرًا في الصباح. وأكثر من أحبوه أنزلوه في هدوء لقبره. ارقد في سلام، أيها العازف الصغير للبوق. كنت أطول منه بكثير خاصة عندما كنت أرتدي حذاء البوت بكعب عال، إلا أن هذا الأمر لم يضايق فالك، بل على العكس. لم تكن الكعوب عالية بالقدر الكاف آنذاك. وهو على خلاف ماكسميليان كان يأخذني معه في كل مكان، وإلى محلات بيع الأسطوانات أيضًا في حي بانهوفسفيرتل بفرانكفورت التي كان يباع فيها أشرطة كاسيت لموسيقي يمينية بأسعار باهظة من أسفل نضد المتجر. عندما عدنا إلى فيسبادن أدار جهاز الإستريو على أعلى صوت في السيارة وأنزل نافذات السيارة لدرجة أن الناس في الشارع

توقفـوا وحدقـوا بنـا. كان يسـتمتع بهـذا. قال:"يـودون إطـلاق الرصـاص علينـا، لكنهـم لـن ينالـوا منـا. نحـن نتـوازن بدقـة متناهيـة عـلى حـد الحق والقانـون، لكننـا لـن نتجـاوزه. نحـن نسـتفز العـدو، لكننـا لـن نلعـب بـين يديـه." كان مـن الممكـن أن يصـير متحدثًـا في مثـل تلـك اللحظـات، كان يحـب عندمـا أعارضـه ويتمكـن مـن قصفـي بسـيل مـن الإحصائيـات عـن البطالـة المتزايـدة واسـتعداد الأجانـب للعنـف أو العـدد المتضخـم لطلبـات اللجـوء في ألمانيـا. عندمـا يصـل الحـد إلى الخـلاف كان يرغـب في مصالحتـي عـلى الفـور، حيـث كان يقـول: "تعرفـين عندمـا أفلـس والـديّ سـار كل شيء بسرعـة كبـيرة. في الحـال وقفـت البنـوك ووزارة الماليـة ومسـؤولو التنفيـذ الإجبـاري أمـام بيتنـا. عبثـوا بأغراضنـا، حـصروا كل شيء وجمعـوه. لكـن عندمـا يـضرب أحـد الأتـراك شـخصًا مـا أو يقتلـه لا يحـدث أي شيء. لا يمكـن إعادتـه إلى بلـده لأن لدينـا آلاف القوانـين التـي تحميـه. لم نفعـل شـيئًا لأحـد وليـس لدينـا سـوى ديـون لـدي وزارة الماليـة بالطبـع - وهـذا يعـد جريمـة في بلدنـا لأنـه لم يعـد لدينـا شـيئًا ليحمينـا. أتعرفـين أن والـدي ظـل في الحبـس الاحتياطـي ثلاثـة أشـهر بسـبب ديـون الضرائـب والخطـر المزعـوم بإفسـاد الأدلـة؟ وفي النهايـة أطلقـوا سراحـه. لكـن كيـف برأيـك مـر هـذا الوقـت عـليّ أنـا وأمـي؟ أنـا آسـف، يـا آنّـا، لا أتمنـى الـشر لأحـد لكننـي أكـره هـذا البلـد."

قلت: " أفهم." أخذ فالك يدي وجذبها إلى فمه وقبلها.

عندمـا مارسـنا الحـب لأول مـرة تعجـب بشـدة أننـي كنـت لا أزال عـذراء. قـال:" لا أفهـم هـذا. أنـت وبرايتلنـج، ألم تمارسـا الحـب سـويًا أبـدًا؟" ثـم جذبنـي ناحيتـه وعبـث بشـعري بيديـه وغمـرني بقبـلات.

كان يقول دائمًا:" أحبك. لم أحب أحدًا هكذا مثلك."

إلا أنه لم يكن في وسعي التوقف أبدًا عن التفكير في ماكسميليان.

(41)

في خريــف عــام 1997 كنــت قــد انتهيــت مــن تجربتــي الروائيــة الثانيــة وأهديتهــا إلى ماكســيميليان.

قرأت منها على جدي بنديكت في الهاتف، راقته الحكاية.

قــال:" لديــكِ شــغف وروح قتاليــة، لا تتخــلي عنهــما؛ هــذا أمــر جيــد. اســتمري دائمًــا، اكتبــي، فالكتابــة مثــل الجــري يجــب أن تتــدربي عــلى النفــس الطويــل."

نحنحــة جافــة بهــا بحــة، نقــر القدّاحــة، صــوت مضــغ خفيــف عندمــا كان يستنشــق. الصــوت الــذي كانــت يصــدر مــن تقليــب صفحــات نــص روايتــي مثــل رش مــاء عميــق. مثــل مــاء يرتطــم بأعمــدة حجريــة لجــسر في موجــات صغــيرة. صــوت ســعال جــدي المجلجــل.

عندمــا انتهيــت مــن حديثنــا الهاتفــي دخــل والــدي. تســلل خــلال البــاب مثــل قطــة طويلــة نحيفــة. إلى غرفــة المعيشــة حيــث يوجــد الهاتــف موضــوع عــلى مكتــب أمــي الصغــير. هــل تنصــت علينــا؟ مــد يــده ناحيــة

النص. ضغطته عند صدري، لم أرد أن أعطيه إياه. " قال:" لم تسمعي كلامي، مازلتِ تكتبين."

"ليس بوسعي فعل شيء آخر."

" لم لا؟"

"لأنني أفشل فيما سواها." ومررت بجواره، أمسكني من ذراعي.

قال:" هذا لن يفيد، هذا لن يفيد، أعطيني هذا الشيء."

لم أتحرك، جذب النص من ذراعي ولفه مثل جريدة وذهب.

عندما وقعت أمي في حب أبي كانا لا يزالان في المدرسة. كانا في مدرسة كاتارينيوم، مدرسة ثانوية عتيقة في مدينة لوبيك. كانت أمي مهتمة بالعلوم الطبيعية، كانت هادئة وطموحة وأرادت دراسة الطب ولم تكن تتعامل مع زملائها في المدرسة إلا قليلاً.

روت أنه صار واضحا لها آنذاك ما ستصير عليه الحياة، خاصة لأنها امرأة: إتمام الشهادة المدرسية بنجاح، دراسة، وظيفة تستطيع أن تعول بها أسرة. ومن دون رجل أيضًا.

كانت أمها، جدتي لورا، تساعد في عيادة طبيب. لو لم تحصل على التعويض مقابل منزلها في روستوك لظلت مقيمة لدى الأقارب مع الخال جورج وأمي. كان التعويض عشرين ألف مارك، اشترت من هذا المبلغ البيت وليس الأرض التي تدفع لها إيجارًا سنويًا. تمكنت أيضًا من شراء الأثاث الذي انتقل فيما بعد لشقة الخال جورج. لو لم تساعدها أسرتها التي أمدتها لسنوات بعد الهرب بالملابس والسلع الغذائية والأثاث المنزلي لما تمكنت من الاستمرار.

كان والدي تلميذًا متوسط المستوى الدراسي. لم يكن مهتمًا بالعلوم الطبيعية على الإطلاق. كان ينبغي أن يكون تاجرًا ويتحمل مسؤولية سلسلة محلات جدي وجدتي، لكن عندما أراد جدي بنديكت أن

يعلمة المحاسبة في أثناء الإجازة سرق والدي المال من الخزينة واختفى لأيام. كان ينام عند أصدقائه أو في خيمة لشخص واحد كان يضعها في غابة بالقرب من نهر ترافيه؛ هناك كان يكتب روايته.

كما كان قد أسس فرقة مسرحية مع مجموعة من الأصدقاء. قدموا مسرحياته وأفلاما قصيرة باللون الأبيض والأسود كانت تُعرض في ساحة المدرسة. كان أبي يصور الأفلام ويحمضها ويقوم بعمل المونتاج لها بنفسه. أهداه جدي معدات التصوير وتجهيزات معمله في عيد ميلاده. ربما على أمل أن يثنيه تصوير الأفلام عن الكتابة.

كان أبي آنذاك رجلًا طويلًا ونحيلًا يرتدي نظارة بلا إطار وله لحية سوداء شعثاء وشعر أسود طويل. كان يتجول بدفتر ملاحظاته في كل مكان، وكاميرا أو كاميرا السينما الكبيرة الثقيلة. كان لديه أيضًا جهاز تسجيل وهو عبارة عن مسجل أسود ضخم عليه ميكرفون ممكن نزعه. كان يحمله على حزام فوق كتفه ويجوب به في الحفلات على أناس غرباء ويسجل أحاديثهم خلسة.

ذات مرة فُصل في المدرسة لأنه سجل خطبة لاذعة لأحد المعلمين وركّب تحتها صورًا من خطبة جوبيل وعرضها في قاعة المدرسة.

لم تلحظه أمي قط حتى رأته يتقدم تجاهها ذات يوم، أعتقد في صيف عام 1966 بالقرب من قرية زيركسدورف. كان يحمل أحمالًا ثقيلة ويجر نفسه تحت شمس الظهيرة بحقيبة ظهر وحقيبة خيمة وكيس للنوم وحقيبة مشتروات وحقيبة صغيرة رمادية من القماش الصناعي.

عند مرور كل سيارة تجاهه كان يسرع بإنزال الحقيبة على الأرض والإشارة لها بإصبع السبابة. لكن كل السيارات كانت تمر عليه دون أن تتوقف. كانت أمي في طريقها إلى الشاطئ وقابلت والدي وهي مستقلة الدراجة البخارية الصغيرة المستعارة، فتوقفت بجواره.

"إلى أين تريد الذهاب؟ هل ستهاجر؟"

كان شعره مبللًا من العرق ووجهه محترقًا من الشمس.

"لا، أنـا ذاهـب إلى الغابـة حيـث أسـتطيع الكتابـة في هـدوء، لا يسـمحون لي بذلـك في المنـزل."

"ماذا تكتب؟"

"رواية."

"حسنًا."

" هل تجدين ذلك حماقة؟"

ابتسمت، ثم سألت: "ما وجه اعتراض والديك؟"

"كان والـدي يكتـب في المـاضي، ولأنـه فشـل في روايتـه يجـب ألّا أبـدأ في عمـل هـذا." رفـع الحقيبـة الرماديـة الصغـيرة، ثـم قـال:" أراد أن يأخـذ منـي آلتـي الكاتبـة للسـفر، الأحمـق."

قالـت أمـي: "أود أن أقـول لـك اركـب، لكـن مـع كل هـذه الأمتعـة لـن يجـدي هـذا."

ابتسـم لهـا وقـال: "حسـنًا خـذي معـك الأغـراض فقـط، وأنـا سأسـير إلى جـوارك."

" هل أنت متأكد أنك ستحتاج كل هذه الأشياء حقًا؟"

رفع كتفيه، وقال:" أخذت الضروريات فقط."

هـزت رأسـها ثـم نزلـت مـن دراجتهـا البخاريـة ووضعـت أمتعـة والـدي.

بعـد مـرور ساعة واحـدة حيـث كانـا قـد أوشـكا الوصـول إلى الغابـة لاحـظ أبي أنـه تـرك الآلـة الكاتبـة عـلى جانـب الشـاطئ.

عندما سألت جدي بنديكت ذات مرة لماذا يتركني أكتب في حين أنه أنكر ذلك على والدي، قال: "عندما يريد شخص شيئًا، يريده حقًّا، لا يمكن أن يحيده شخص عنه."

أخذت أحوم حول والدي لأسابيع، هل قرأ روايتي؟ هل رماها؟ أم خبأها - مثل الصفحات القليلة لروايته في خزانة مكتبه؟ مع كتاب شجرة عائلتنا، وجوازات سفرنا والعملات الذهبية التي كان يحصل عليها من والديه في كل عيد ميلاد له وحُلي أمي؟ لم أجرؤ على سؤال والدي وطلبت من بنديكت ألا يفعل، كان جدي يستشيط غضبًا.

ثم تسلمت رسالة، رسالة مكتوبة بخط باهت مكتوب على الآلة الكاتبة على ورق رمادي خفيف. كتب لي رجل يدعى فايلاند أن جدي أعطاه روايتي، هو، فايلاند الذي أسس برنامجًا لدعم الكتاب الشبان، قرأ الرواية بسرعة و"ببعض الحماس".

تسارعت ضربات قلبي.

كتب فايلاند: "يجب أن نتقابل ذات مرة ونتحدث عن هذا الأمر."دعاني لتناول طعام الغذاء في أحد المطاعم الإيطالية.

لم أتمكن من الذهاب، أردت لكنني لم أتمكن، لم أجرؤ. استلقيت على الفراش الصغير أسفل ميل السقف. حدقت في المنبه الموضوع على طاولة الفراش. كان موعدي مع فايلاند في تمام الساعة الثالثة عصرًا، والآن الساعة الثالثة والنصف عصرًا.

قرأت الخطاب مرة أخرى، أغلقت عيني. فايلاند مع روايتي. قرأها، استمع لي، الرابعة إلا ربع.

ليس جدي الذي أحبني، لا، بل شخص غريب، لو كانت أمي هي من تتحدث لقالت عنه شخص من خارج المشهد. لم يرفضني على الفور ولم يرفضني بخطاب رسمي كما فعلت دو رالنشر. رفض. لا، ليس لي، بل لروايتي بالطبع. لكن بدا الأمر كما لو أنهم كانوا

يقصدونني أنا. ليس فقط الرواية بل رفضوني أنا أيضًا مثل خط بالطباشير على السبورة. لم يفعل فايلاند هذا.

الرابعة وعشر دقائق. رن الهاتف. سمعت أمي تتوجه إلى غرفة المعيشة وتأخذ السمّاعة. بعد لحظة نادت عليَّ.

جلست في غرفة المعيشة عند مكتب أمي. استندت على مرفقي ووضعت سماعة الهاتف بين أذني وكتفي وضغط بقبضتيّ يدي على فمي. ليتني طرقت بقدمي داخل الأرض حتى تنشق وتبتلعني.

تحدث فايلاند بسرعة هامسًا: "لا يجب أن أقابلك بالمرة كي أعرف من أنت. أنت تعتقدين أنك متفردة، لكنني أعرف عشرات أمثالك. غير مسموح لك باللعب في فناء المدرسة، أليس كذلك؟ تشعرين أنك منبوذة في كل مكان ودائمًا مستبعدة، تصنعين دراما كبيرة من الأمر، العالم عدوك، كبير وشرير، لن أضيع وقتي مع واحدة مثلك."

رددت: "يؤسفني ذلك، كان يجب أن أرفض."

"ترفضين؟ ترفضين؟ فات الوقت لذلك، لقد قرأت كتابك لفترة طويلة، واستثمرت فيه وقتًا بالفعل، أهدرت وقتًا!"

"آسفة"

قال: " لا، أعرف بالضبط بم تشعرين: لعله ارتياح. لأنك لم تخرجي اليوم. لم تأتِ إلى هنا، تريدين مهاجمة العالم، تهاجمين بدورك، تقولين شيئًا أخيرًا. أن يكون لكِ وجود أخيرًا، لكن من موقع الكتابة. لكن لا تطئي بقدمك خارج الباب."

أبعدت قبضتي يدي عن فمي، سألته:"هل أعجبك كتابي؟"

قال هامسًا:" أعجبني؟ أعجبني؟

فجأة ساد الصمت، هل وضع السماعة؟ ثم قال: "طلبت كأسًا من النبيذ للتو، إذا جئت إلى هنا قبل أن أشربه، فيمكننا الحديث."

لم يكـن ثمـة شـخص، بـدا المطعـم خاويًـا. لا، خلـف النضـد كان ثمـة شـخص واقفًـا: رجـل سـمين بلحيـة، يجفـف الكـؤوس بمنشـفة الأطبـاق الكاروهـات، رفـع رأسـه عندمـا دخلـت.

سألته بتردد: "هل لدي موعد هنا مع السيد فايلاند؟"

مـدّ ذقنـه دون أن ينطـق بكلمـة مشـيرًا إلى ركـن النافـذة المتـواري في نهايـة المـكان، هنـاك كان يجلـس رجـل قصـير بشـعر أحمـر بجبهـة مقطبـة وحاجبـين كثيفـين، قـال هامسًـا: "هـل تمكنـت الآن؟" ورفـع كأسـه الفارغـة، ثـم قال:"عـلى كل حـال شربـت ببـطء."

كان نـص روايتـي موضوعًـا عـلى الطاولـة المخدوشـة. أومـأ لي فايلانـد قائـلًا: "تسـتطيعين الجلـوس."

" شكرًا"

"جئـت متأخـرة للغايـة عـلى موعـد الطعـام، أغلـق المطبـخ أبوابـه قبـل سـاعة بالفعـل."

على كلٍ لما كنت أكلت منه لقمة واحدة.

قـال وقـد جـذب نـصي ناحيتـه: "إذن نسـتطيع البـدء في العمـل عـلى الفـور." كان لـه غطـاء جميـل ولا يوجـد خـط بالقلـم الرصـاص مثـل المـرة الأولى بـل مقصوصـات صـور تظهـر جرافيتـي ماكسـميليان. جبـت لأسـابيع خـلال المدينـة في كل دقيقـة فـراغ مـن أجـل هـذه الصـور ومشـيت بمحـاذاة الطريـق السريـع وصـورت كل الأشـكال الخرافيـة المخيفـة مـن عـلى جـدران المنـازل والسـور ومناطـق عبـور المشـاة.

قلـب فايلانـد صفحـة الغـلاف جانـًا بـلا أي اهتـمام. وضـع نظارتـه الصغـيرة الذهبيـة وعلـق مقدمـة إصبعـة وقلـب الأوراق. كان يرتـدي سـترة مـن الكتـان مجعـدة وبلـون أخـضر صـارخ وقميـص بلـون بنفسـجي زاهـي ورابطـة عنـق رفيعـة سـوداء مـن الجلـد. الغريـب أنـه بـدا عـلى الرغـم

من ذلك مخيفًا. ربما بسبب هيئته وظهره المنحني وكتفيه المفرودين ورأسه الممتدة للأمام كما لو أنه مستعد للقفز. كما لو أنه مستعد للهجوم لو كان ضم قبضتيه إضافة لما سبق.

همس قائلًا: "تعبت من متابعة كل شيء؛ جملةً جملةً. أتمنى أن تقدري المجهود." نظر لأعلى لبرهة ثم أخفض بصره برضا عندما أومأت برأسي. استطرد قائلا: "أقصد أنه كان يستحق. وجدت بعض الجمل الجيدة. جمل جميلة." واصل تقليب الأوراق. ومشى بإصبعه على السطور، هز رأسه. يبدو أنه كان يبحث عن شيء لم يجده. أغلق النص مرة أخرى، ثم أدخل يده في جيب السترة اليمين، وفتش عن شيء، أخرج ورقة مطوية.

همس قائلًا: "دونتها هنا." ثم دفعها ناحيت، ثم فتحتها فإذْ بها أربع جمل فقط، جمل قصيرة.

خلع فايلاند نظارته، طوى أول ذراع ببطء ثم الثاني وترك النظارة تنزلق داخل جيب سترته.

قال: "لا تجهشي بالبكاء الآن، أنا موجود هنا لأساعدك. خذي هذه الجمل واصنعي منها حكاية، ثلاث صفحات على الأكثر. نلتقي الأسبوع القادم مرة أخرى."

(42)

عندما استيقظت شعرت بتحسن، لعلني لن أمرض وما أصابني هو مجرد إرهاق. ألقي نظرة على الساعة. أوشكت على السابعة. متى كانت آخر مرة نمت فيها لمدة تسع ساعات متواصلة؟ أنا مدعوة لدى أيكه وأليس في تمام الثامنة. يريد أخي أن يطبخ طعامًا هنديًا. هل سأحتمل هذا؟ بالطبع، فيبدو أن معدتي صارت على مايرام مرة أخرى. أصدرت صوت قرقرة عال، إنتابني جوع شديد فجأة. والبرّاد فارغ كالعادة. أخذت بملء يدي حفنة من الحبوب المقرمشة وتناولتها. انتابتني رغبة في تناول شيء حلو المذاق، رغبة جامحة، فتشت كل الخزانات وبحث في صناديق نقل الأمتعة حتى وجدت قطعة قديمة من الشيوكولاتة على شكل رجل عيد الميلاد.

ترددت قليلا. أنا في العادة لا أتمكن من تناول مثل هذه الأشياء عن آخرها، لا ألمس حلوى أرانب عيد الفصح أبدًا ربما لأن لها وجوه. كانت أمي تقول لي دائمًا: "بسرعة وبلا ألم، ولن تشعر بشيء." اقضمي الرأس أولا." فتحت الورقة المفضضة والتهمت رجل عيد الميلاد.

لم أشاهد الرسائل التي وصلتني منك على الهاتف الخلوي إلا وأنا في الترام. عشرات. كلها متعلقة بموعدك عند الطبيب. كتبت لي أن نتيجة الفحص الدوري على خير ما يرام وضغط الدم جيد ولايوجد أي أصوات غير عادية في الرئتين ولا توجد تغيرات جلدية. على الرغم من أن نتائج صورة الدم لم تظهر بعد لكن وفقًا لإحساسك فالأمور كلها مطمئنة. الآن أردت أن تقطع حمام السباحة بضعة مرات جيئة وذهابًا في البداية ثم الركض في المساء. قلت إنك في أفضل حال. خاصة عندما تفكر في أننا سنرى بعضنا غدًا. سألتني هل كل أموري على مايرام. قلت أيضًا أنك لم تشعر بهذه اللياقة منذ فترة طويلة.

بدا لي كما لو أنك تشعر بطمأنينة مبالغ بها في أن كل شيء على مايرام. هل يُخيفك شيئ ما حقًا؟ كانت الرسالة الأخيرة منك قد وصلتني قبل ثلاث ساعات، لكن عندما كنت أهمّ بالرد جاءتني رسالة أخرى: "ما الأمر؟ لماذا لا تردين؟ أتمنى ألا أكون قد أفزعتك بقصة مرضي؟"

إذن هذا الذي يقلقك. هراء. أنهيت رسالتي لك بالجملة التالية: "آلاف القبلات. آنا." وأرسلتها. لم تمر دقيقة حتى اتصلت بي وأخذت تتحدث وصوتك يتسارع مع أنفاسك: "أتعرفين ماحدث لي؟ ليس في مارسيليا ولا في روما ولا في أحد هذه المستنقعات الإجرامية التي نضعها فيها مثل هذه الأمور في الحسبان، بل هنا في كولونيا. في الشارع وفي وضح النهار. تمت سرقتي بالإكراه وأنا أمارس رياضة الجري. شخصان من روسيا أو رومانيا - أو لا أعرف من أين جاء هؤلاء الغوغاء-دفعاني إلى أحد الشوارع الضيقة وهدداني بسكين."

" اللعنة، يا كونستانتين، هل جُرحت؟"

"لا لكنهما نزعا مني الساعة. وضعا أعينهما عليها."

"يجب أن تتصل بالشرطة."

"فعلت هذا منذ وقت طويل. لكنكِ يمكنك أن تلقيهم في المرحاض. هؤلاء الكسالى والفاشلين! أشعر بالغثيان."

"لماذا؟"

"هناك كان يجلس رجل بدين بزي رسمي يتصبب عرقًا وغير حليق على جهاز كمبيوتر من العصر الحجري، نظر إليَّ ببلاهة وسألني كيف لي أن أخرج للجري مرتديًا ساعة باهظة الثمن مثل هذه، هذا جنون. ساعة مثل تلك مكانها خزينة وليس معصم اليد. وسألني عن محل سكني؟ هل أنا المذنب عندما تتم سرقتي. هل أنا من استفززت العصابة لأنني أرتدي ساعة تعجبني واقتنيتها مما تقاضيته من عملي الشريف؟"

" بالطبع لا، هذا هراء!"

"لن تفعل الشرطة أي شيء، لا شيء على الإطلاق." فحوادث السطو تلك تحدث كل يوم. إنها عصابات. جريمة منظمة. ليس لنا حول أو قوة حيالها. علاوة على ذلك قال لي الرجل أن الساعة لابد وأنها مؤمن عليها بكل تأكيد. نطلق على هذا الشخص شرطيًا! من الواضح أنه يحصل على راتبه دون حتى أن يحرك ساكنًا على العكس منا نحن. ويجب أن أدفع الضرائب من أجل ذلك!" فجأة أخفضت الصوت وهمست بقولك: "أتعرفين من هو الحاكم الخفي في هذه الدولة، الرجل الأقوى؟"

"من؟"

"وزارة المالية، يا آنّا، لكنني أنا أقوى. إذ لم يحصلوا مني على سنت واحد منذ سنوات. وتأكد لي للتو مرة أخرى أنني لست في حاجة للشعور بتأنيب ضمير. هذا البلد بائس! الفاشلون والعجزة من ناحية والعصابات الإجرامية من ناحية أخرى."

"أتريد أن تقول إنك لا تدفع الضرائب؟"

فجأة تتغير نبرة الصوت وتصير أهدأ وأكثر سيطرة وحرصًا في نفس الوقت. حيث تقول:" أرجو ألا نسيء فهم بعضنا. أنا لا أتورط في أعمال نصب. كل ما أملكه بعض المستشارين ذوي الكفاءة. كل شيء قانوني."

أضحك قائلة: "حسنًا، هذا واضح. هل يمكنهم أن يقدموا لي أنا أيضًا المشورة؟" فأنا يجب أن أدفع مبلغًا كبيرًا وأنا لا أكسب الكثير."

"حسنًا يا حبيبتي سأقول لك الخطأ الذي ترتكبينه، دون أن تكوني في حاجة إلى مستشار أتعابه عالية."

" الآن أصبحت متشوقة."

" ألم يشرح لكِ أحد حقًا هذا الأمر من قبل؟ كي تعيشي جيدًا في ألمانيا فإما أن تكوني ثرية وتحصلي على استشارة جيدة. وإما أن تعيشي فقيرة للغاية لدرجة أن الدولة تأخذ منك كل شيء حصلتِ عليه، وإذا علقتِ بين الحالتين يُحصّلون منكِ الأموال بلا رحمة. ثم تصيرين ضائعة. اللعنة أشعر بالأسى على الساعة. لن أراها مرة أخرى."

"المهم أنك بخير."

بغض النظر عن كوني أريد الهجرة وأبحث عن قاتل محترف كي يقتل الروس فأنا على ما يرام. ماذا عنكِ؟ لماذا لم تردي عليَّ طوال اليوم. قلقت عليكِ."

"أنا على مايرام. كنت متعبة قليلا."

غمرتني رائحة الكمون والثوم. يقف أيكه عند الموقد وأليس تعد المائدة. تزينها بزينة الخريف بنبات القرع ومنشفات عيد الهلع وشموع صغيرة بلون برتقالي. يبدو الجو صيفيًا على الرغم من أننا

في نهاية شهر أكتوبر. يقول أيكه أن درجات الحرارة في فترة ما بعد الظهيرة ارتفعت إلى ما يزيد عن عشرين درجة. كما أن الشمس تسببت في سخونة استوديو الصور في "يونيفيرسال شوز" لدرجة أنهم توجب عليهم فتح كل النوافذ.

يسأل بنبرة بدا فيها بوضوح أنه يعتقد كما لو أنني تغيبت عن العمل بلا سبب: "هل صرت على ما يرام؟"

"نعم. لكنني شعرت بأنني لست بخير فجأة صباح اليوم. فجأة كان يجب عليَّ التقيؤ بشدة ولا أعرف ماذا ألم بي."

تنحنحت أليس. ربما الموضوع لا يناسبها وكذلك طريقتي في التعبير.

يسألني أيكه: "هل من الأفضل أن أقدم لك كسرة خبز مجفف وشاي؟" لكن عندما أخرجت له لساني ابتسم وملأ صحني بطبق أرز بلون أصفر صارخ.

تقول أليس:" الأخ الصغير والأخت الصغيرة مثل قلب وروح دائمًا."

أضحك وأقول: "مؤخرة ومرحاض، هكذا كانت تقول أمنا دائمًا." تلوي أليس وجهها مشمئزة كما لو أنها قضمت ليمونة وتضع منشفة المائدة بجوار طبقها على الرغم من أنها كانت مطوية بشكل متقن.

وقع أيكه في حب أليس دون أن يتحدث معها بكلمة واحدة. رآها العام الماضي فقط في حفلة وعلى الفور طار عقله. لكنه لا يبادر بالخطوة الأولى أبدًا مع النساء، كان خجولا في الماضي حتى وإن أخفى هذا الأمر بشكل جيد دائمًا. كان يتملكه الخوف مع كل صديقة من صديقاته من أن يفعل شيئًا خاطئًا. كان يقول لي كثيراً:" أختاه، أعتقد أنني أفسدت الأمر، لم أفكر جيدًا فيما أردت أن أقوله. لذا نظرت إليَّ باستغراب، بطريقة مختلفة تمامًا عن ذي قبل، هل ستتركني؟ ما رأيك؟ أعتقد أنني غامرت مرة أخرى."

ظل يراقب أليس في الحفل طوال المساء، لكن في كل مرة كانت تنظر فيها إليه كان يبعد نظره عنها. ذات مرة اقتربت منه بشدة وهي تمر بجواره الأمر الذي فاق طاقته، مما جعله يترك الحفل على الفور.

اكتشف في البيت بطاقة تعريف لصالون تدليك. دسته أليس في جيبه. كان الجانب المطبوع مشطوبًا عليه، والناحية الأخرى عليها رقم هاتف أليس. بالطبع لم يتصل بها. وظل بدلاً من ذلك يفكر طوال اليوم فيما يمكن أن يعني صالون التدليك؟ وهل هذه إشارة مثلا. هل تتوقع منه شيئا لا يمكن أن يلبيه؟ كان منهك فكريًا. وكأنها هجرته حتى قبل أن يعرفا بعضهما بعضًا.

تقابلا في أحد المقاهي صدفة. إكتشفته أليس قبل أن يراها وتحدثت معه. وقبل مرور ثلاثة أشهر كانت قد انتقلت للعيش لدينا. وتخلصت مني أنا.

أعترف أنني لا أحب أليس، لكن إذا كان أخي سعيدًا معها فهذا الأمر جيد جدًا بالنسبة لي. والعداوة بيننا ليست بسببي بل بسببها.

بعد الطعام أرسلتنا إلى الشارع كي ندخن. فهي لا تسمح بتدخين سيجارة واحدة أمام نافذة المطبخ المفتوحة على مصراعيها.

سأل أيكه عندما اقتربنا من الباب: "لكنك ستصعدين معي مرة أخرى، أليس كذلك؟" كل شيء كان مغطى برذاذ مطر سقط للتو من السماء. وصاعدًا من الأرض. لا يزال الجو دافئًا وتوجد رائحة توابل في الهواء.

"لا، أريد العودة إلى المنزل. كي أكتب."

"لا، تعالي"

"أعتقد أنني لست على مايرام مرة أخرى."

أدار أيكه عينيه وأشعل السيجارة التي كان قد لفها في هدوء تام على طاولة المطبخ. على الرغم من أن أليس كانت موجودة في الشقة. ربما نوع من الاحتجاج الصامت. أعطاني أيكه القداحة، تنفست وحاولت تجاهل الشعور السيء في معدتي. كان هناك قطار أنفاق يسير فوق الجسر العالي حيث تندفع عربات صفراء اللون خلف القوس الرمادي المصنوع من الصلب. قطار الخط رقم اثنين المتجه ناحية الغرب.

أستند على حائط المنزل. "في عمر الثمانية سنوات، كنا نلعب بالمكعبات. أليس كذلك؟"

"بالطبع. كم كان جنونًا. لماذا؟"

"عيد ميلاد ابن كونستانتين."

" هل تعرفينه؟"

"لا."

معدتي تقلصت. هل أصابني برد؟

سأل أيكه:" لماذا تريدين إذن أن تقدمي له هدية؟"

" لا أريد على الإطلاق."

" لا أفهم. هل تعتقدين أنني سأكون أبًا صالحًا؟"

"ماذا؟"

ضحك أيكه. " هل اندهشت؟"

مرّ قطار أنفاق مرة أخرى، هذا المرة ناحية الشرق.

"ما معنى هذا؟ رميت السيجارة بعيدًا على الرغم من أنني لم أدخن إلا نصفها. أسمع أصوات قرقرة بمعدتي.

"حسنًا أليس تريد طفلا."

حاولـت أن أتنفـس في هـدوء وبانتظـام مقاومـة الشـعور بالغثيان. "وأنـت؟"

"أسـتطيع أن أتخيـل الأمـر بالفعـل. أم أنـكِ لا ترينـي صالحًـا." غـير مناسـبٍ؟"

كان يجـب أن أتقيـأ. حبهـان وكمـون. بلعـت. "هـراء أنـت صالـح. لكننـي لم أتصـور. أنتـما تعرفـان بعضكـما منـذ عـام واحـد."

" ستتم أليس عامها السادس والثلاثين قريبًا."

"وهذا بالطبع سبب."

"لا تسخري."

" مـاذا عن"يونيفرسـال" مـاذا عـن وظائفنـا؟ إذا مـا تـم بيعنـا وفصلنا؟ كيـف سـترعى طفـلاً عندئذ؟"

مـرة أخـرى كان يجـب علـيّ التقيـؤ، هـذه المـرة صعـد حمـض المعـدة إلى فمـي وأنفـي.

يقول أيكه: "لم أتخيل أنك تقليدية."

"أنـا؟" تتحـدث دائمًـا عـن هـذا الأمـر! "لا تتأخـري باسـتمرار، أختـاه. الأوقـات تتغـير. كـوني حريصـة! يتملكنـي شـعور سـيئ." والآن تأتينـي أنـت عـلى وجـه الخصـوص بحـروب أطفـال؟"

دخـن أيكـه سـيجارته حتـى آخرهـا ثـم دهـس بقيتهـا بعنايـة عـلى الممـشى الرطـب المـليء بالشـقوق. "لا تنفعـلي، يـا أختـاه. نحـن نفكـر في الأمـر فحسـب. وحتـى لـو خـسرت الوظيفـة فأنـا جيـد ومـن المؤكـد أننـي سـأجد عمـلاً جديـدًا. عـلاوة عـلى ذلـك فـإن أليـس تسـتطيع التوقـف عـن العمـل لسـنة لأنهـا معلمـة وسـتحصل عـلى إعانـة رعايـة طفـل ثـم تعـود بسـهولة إلى عملهـا."

أسـندت رأسي إلى الخلـف. وغمـر المطـر وجهـي بـبرودة "هـذه الشـائعات -هـل أصبـح ذلـك أكـثر وضوحًـا الآن؟ هـل سـمعت شـيئًا جديـدًا؟"

"ليـس سـوى أن الرجـل سـيصل غـدا. "المسـتثمر" اسـميه "المدمـر". لا يجـب أن نـدع شـخصًا مثـل هـذا يمنعنـا مـن التحكـم في مسـتقبلنا."

أصمت. فيسأل هو بعد فترة: "هل لديكِ سيجارة لي؟"

أقـول لـه وأنـا أناولـه علبتـي: "لم تعتـد تدخـين سـيجارتين الواحـدة تلـو الأخـرى." يبتسـم ويشـعل السـيجارة ويقـول:" الزمـن يتغـير." أشـيح بوجهـي بعيـدًا. يبـدأ الدخـان في التجمـع خلـف جبهتـي في نفـس الوقـت ويتسـلل إلى معـدتي كالـبرق. فاحنـي جـزئي العلـوي للأمـام. وأتقيـأ. يقفـز أيكـه جانبًـا. ويقـول: "اللعنـة أنـت مريضـة بالفعـل."

يغيدني إلى الشقة. فتقابلنا أليس وهي قادمة من المطبخ.

" ما الأمر؟"

" يجب أن تبيت آنّا هنا اليوم."

لوت وجهها وسألت:"هل لأنها ليست على ما يرام؟"

"تقيأت، يا أليس."

" امسكي يدي، يا أختاه"

أسـتند عليهـما معًـا وأنـا أمـر متجهـة إلى الحـمام حيـث أتقيـأ عـدة مـرات. تقـول أليـس: "منظـف الحـمام أسـفل حـوض الغسـيل."

شيء مـا أصـدر صريـرًا. جـذب أيكـه أريكـة النـوم. " حبيبتي، هـل رأيـتِ مـلاءات فـراش الضيـوف؟"

ردت أليـس قائلـة:" إنهـا في سـلة القمامـة. كانـت قديمـة. أعطهـا وسـادتك والمفـرش الكاروهـات الموضـوع فـوق المقعد الكبـير."

"أين توجد الملاءات الكبيرة؟"

"أعلى رف في الخزانة. هل وجدتها؟"

"نعم، شكرًا، سآخذ الزرقاء، اتفقنا؟"

وقفت وغسلت وجهي بماء بارد كالثلج. شعرت أنني على ما يرام الآن.

يدخل أيكه. ويقول: "تستطيعين الاستلقاء في فراشك. سأصنع لك قدحًا من الشاي."

"لا عليك. صرت على ما يرام. أنا ..."

"مستحيل. ستقضين الليل هنا اليوم. بحالتك تلك ليس هذا مزحة. ماذا إذا فقدت وعيك و..."

"... واختنقت بسبب تقيؤك، أعرف، أعرف." كانت أمي تقول هذا دومًا. قلت له: " لكني أفضل الآن بالفعل."

يمسك ذراعي. فأبعد يده.

"سيتسبب ذلك في غضب أليس."

"لا تشغلي بالك بهذا الأمر."

" لم هي سخيفة دائمًا هكذا؟"

"لا تقصد ذلك. إنها تخاف فقط من أن تعودي للإقامة هنا"

"لا يجب أن تقلق من هذا."

"قلت لها هذا أيضًا." يرشدني خلال الممر ويمر بي على المطبخ إلى الغرفة التي كنت أعيش بها في السابق. حيث يوجد المفرش الكاروهات ووسادة على أريكة النوم. بجواره دلو بلاستيك أصفر اللون كنت قد اشتريته ذات مرة في يوم صيفي حار من متجر يبيع الأغراض نظير

يورو واحد. كنا نملأه بالثلج المجروش من محطة الوقود ونضع به زجاجات البيرة.

أجلس على الأريكة. أشعر بصداع خفيف، لكن بدا أن معدتي هدأت. كنت أفضل الذهاب إلى بيتي.

يقول أيكه وقد بدا مثل أمي مرة أخرى:"سأدخل بعض من الهواء النقي سيشعرك هذا بتحسن." يحك مزلاج النافذة. فيصدر صريرًا. ينفتح مصراعا النافذة مصدرين صريرًا. أصوات مألوفة. كم أحببت العيش هنا. يتسلل الصوت الهادىء للمطر. صوت السيارات المارة، همس إطارات السيارات على الأسفلت المبلل. أستنشق هواء الليل العليل المعطر برائحة الرطوبة. أجوب بنظري خلال الغرفة. أرضية الغرفة الفاتحة والجدران العالية المطلية باللون الأبيض. باب صغير يؤدي إلى الممر، باب عريض بمصراعين مزدان بنقوش. لكنه كان مغلقًا.

يجلس أيكه بجواري، يمسح بيده على رأسي. "هل أنت على مايرام؟"

"نعم كل شيء على مايرام. يبدو أن معدتي صارت حساسة بعض الشيء."

أعادت أليس المقاعد ناحية حافة الطاولة في المطبخ. وأصدرت سيقان المقاعد صريرًا على الأرضية. تم وضعت قدر بصوت خشخشة في حوض الغسيل.

وقف أيكه وقال: "ناديني إذا احتجتِ لشيء."

"بالطبع"

يبتسم أيكه، يطفيء النور ويغلق الباب خلفه. أخرج هاتفي الخلوي فأرى رسالة تالية قد وصلتني منك. كتبت: "لقد حزمت لتوي الفرع الخاص بكِ. ألقاك غدًا حبيبتي."

كان الوقت يقترب من منتصف الليل. تتوجه رحلتك إلى برلين في تمام الساعة السادسة والربع. يبدأ أول اجتماع لك في تمام الثامنة.

قلت إنك سوف تظل تعمل طوال اليوم ولن تتمكن من الانتهاء من عملك إلا قرابة السابعة مساءً. ثم سترسل إلي سيارة أجرة كي أتمكن من القدوم إليك. لم تخبرني إلى أين بالتحديد. "سأفاجئك. اخترت المكان بعناية وأنا متأكد أنه سيعجبك."

المهم ألا أكون مريضة غدًا. أغمضت عيناي. تم تشغيل غسالة الأطباق في المطبخ وها هي تسحب مياه بصوت غرغرة. قال أيكه شيئا لم أستطع فهمه. ضحكت أليس. ذهبا معا إلى الحمام. غسلا أسنانهما. ثم قرقر شيء ما. ألا يتبولان بمفردهما أبدًا؟ أصدر ماء المرحاض هديرًا. بعد لحظة غادرا الحمام. أصدرت أرضية الممر أزيزًا عندما مرا بغرفتي. أشعل أحدهما الضوء في غرفة النوم. تسرب ضوء من خلال شقوق مصراع الباب. أصدر الفراش أزيزًا. كانت أليس تهمس بشيء. تمنيت ألا يكونا يمارسان الحب في تلك اللحظة. لكن الفراش أصدر أزيزًا عدة مرات، ثم انطفأ النور.

شعرت بالبرودة. وقفت وأغلقت النافذة. ثمة طرق خلف جبهتي. من الأفضل أن آخذ قرص أسبرين. تسللت إلى الحمام. يحتفظ أيكه بأدويته في الخزانة ذات المرايا المعلقة فوق حوض الغسيل. كانت الخزانة منظمة بشدة ارتص بها كل شيء بدءًا من دواء السعال والانفلونزا وحتى الإسهال. بجوار دواء الأسبرين شريط حبوب منع الحمل الخاص بأليس وعبوتان من القطن. متى كانت آخر مرة جاءتني فيها الدورة الشهرية؟ أتمنى ألا تأتيني الآن خاصة

ونحـن سـنتقابل. أغلقـت الخزانـة ومـلأت مـاء في كـوب غسـل الأسـنان الخـاص بأيكـه وبلعـت قرصـين مـن الأسـبرين. عندمـا عـدت إلى الغرفـة كانـت النافـذة مفتوحـة عـلى مصراعيهـا وأيكـه جالسًـا عـلى أريكـة النـوم. ضحكـت." لا تفعـل ثـورة يـا أخـي، أنـا حقًـا عـلى مـا يـرام."

" أليـس نامـت ويجـب أن أعـرض عليـك أمـرًا." عندئـذ فحسـب شـاهدت جهـاز الـلاب تـوب عـلى ركبتيـه.

" مـا الأمـر؟" جلسـت بجـواره. "حولـت شرائـط أفـلام الخـال جـورج إلى صـورة رقميـة."

" هل تحكي هذا الأمر الآن؟ ماذا بها؟"

"والـد أمنـا - الجـد كارل -ربمـا ...." قطـع أيكـه كلامـه وضغـط عـلى شـفتيه. ثـم فتـح الـلاب تـوب وقـال: " انظـري بنفسـك."

(43)

كان الزوجـان مانتـي يقـودان سـيارة مرسـيدس إي-كلاس فضيـة اللـون، تتميـز بشـكل انسـيابي أملـس ومصابيـح دائريـة وليسـت مربعـة كالمعتـاد. تشـبه سـيارة والـدي القديمـة تمامـا.

قالـت عنهـا جوليـا مانتـي ذات مـرة: "سـيارة ذات إطلالـة ناعمـة. يـا لروعتهـا!"

جلسـتُ متكـورة عـلى المقعـد الخلفـي أرتـدي معطفـي وأربـط الوشـاح بإحـكام حـول رقبتـي.

كنـا نتجـه نحـو بيرشتسـجادن. حيـث كان فالـك قـد التحـق منـذ ثمانيـة أسـابيع بقـوات المشـاة الجبليـة ومـن المفـترض أن يـؤدي بعـد ظهـر الغـد حلـف اليمـين.

تفحصتنـي السـيدة مانتـي في قلـق مجـددا وسـألتني: "كيـف حالـكِ؟ هـل لا زلـت تعانـين مـن الحمـى؟"

ضرب زوجها بقبضته على عجلة القيادة. ارتعدت. "هل فقدت السمع يا جوليا؟ لقد قالت إنها بصحة جيدة وتستطيع فعل ذلك. اتركيها بسلام الآن."

"حسنًا حسنًا يا عزيزي، لا تنفعل هكذا، فلتركز في القيادة."

"لا أستطيع التركيز، وأنتِ تقرقرين مثل الدجاج."

"عذرًا عزيزي، ها قد صمت."

"أتمنى ذلك."

كان الاثنان مخيفين، يصعب تحملهما. كان فالك يقول دائمًا إن والده لم يكن هكذا قبل أن يُودع بالحبس الاحتياطي.

وضعت وجهي بين يدي كي لا ألطخ مقعد السيارة بمستحضرات التجميل، وإلا سيفقد السيد مانتي أعصابه. استخدمت الكثير من مستحضرات التجميل في الصباح على غير العادة. حيث كنت أخشى ألا تصطحبني السيدة مانتي معها إذا ما لاحظت سوء حالتي. إلا أنها قد لاحظت ذلك على الفور. ولكن السيد مانتي نحى كل اعتراضاتها جانبا بحركة يد قائلا: "فالك يرغب في رؤيتها. بعد قضاء ثمانية أسابيع بين نظائره فقط يحتاج الرجل إلى زوجته."

ربما كانت هذه أيضًا إحدى العبارات التي لم يكن يتفوه بها قبل إلقاء القبض عليه.

كانت جبهتي متوهجة.

زُرْتُ بيرشتسجادن ذات مرة مع فالك بالصيف، حيث أهداني تلك الرحلة بمناسبة عيد ميلادي الثامن عشر. مكثنا ببنسيون صغير في حجرة ذات سرير مزدوج واسع وألحفة محشوة بريش النعام. كان هناك صليب معلق فوق الباب، ووُضعت عشبة إبرة الراعي أمام

النافـذة. زُرْنـا "قبـو القائـد"(1)، وخرجنـا في رحـلات إلى بحـيرة هنـترزي، وإلى زالسـبورغ وميونيـخ كذلـك، واسـتمتعنا بالطقـس الرائـع عـلى مـدار الأسـبوع.

كانت السماء تمطر وكنا نتخطى الشاحنات الواحدة تلو الأخرى.

كانـت درجـة الحـرارة في فيسـبادن تتجـاوز الصفـر بالتأكيـد. أمـا هنـا فقـد كان المطـر يتحـول ببـطء إلى بَـرَد، ثـم يبـدأ الثلـج بالهطـول.

حجـز لنـا السـيد مانتـي ببنسـيون يقـع خـارج البلـدة بجـوار الثكنـة مباشرة. لم يكـن هنـاك متاجـر ولا حانـة أو مقهـى. لم يكـن هنـاك سـوى الثكنـة بأضوائهـا اللامعـة والحقـول المغطـاة بالثلـج.

في عيد ميلادي، كنا نسكن في بيرشتسجادن مباشرة.

تناولـت حبوبًـا لعـلاج الحمـى حينـما كنـت في الغرفـة. تمكنـت مـن مشـاهدة الثكنـة مـن خـلال النافـذة الصغـيرة المقسـمة إلى أربعـة أجـزاء. كانـت الثكنـة عبـارة عـن قلعـة رماديـة مهيبـة أراهـا لي فالـك في الصيـف وهـو يشـعر بالترقـب الممـزوج بالفخـر. كان عازمـا عـلى الالتحـاق بوحـدة النخبـة في قـوات المشـاة الجبليـة. لم أكـن أفهـم لمـاذا يـود الالتحـاق بالجيـش وهـو يزعـم أنـه يكـره دولتنـا. كان يـرد متسـائلا مـا إذا كنـت أعلـم مـا هـو الانقـلاب العسـكري.

رفـض ماكسـميليان تأديـة الخدمـة العسـكرية تمامًـا مثـل أخـي الـذي أدى الخدمـة المدنيـة بـدلاً منهـا. لم يكـن ماكسـميليان مضطـرًا لذلـك. إلا أن فالـك كان يزعـم أن ماكسـميليان قـد تـم اسـتبعاده مـن الخدمـة العسـكرية بسـبب معاقـرة الخمـر.

---

(1) التسـمية الدارجـة لـه هـي "قبـو الفوهـرر" وكان هـذا هـو المقـر الخـاص والأخـير لأدولـف هتلـر قبـل سـقوط النظـام النـازي في مايـو 1945 (المترجمة)

في تلك الأثناء لم يكتفِ ماكسميليان بتناول كأس واحد من الخمر وعاد للشرب بكِميات كبيرة، ولكن إذا كان هذا هو سبب استبعاد ماكسميليان من الجيش حقًّا فكان ينبغي أن يُستبعَدَ فالك أيضًا.

خلف الثكنة ارتفعت قمة جبل فاتزمان المغطاة بالضباب، كان فالك يصارع الثلج الآن بالأعلى.

كان يحدثني عبر الهاتف ويقول لي: "هذه القمة هي التحدي الأكبر في نهاية التدريب الأساسي. هي العقبة الأخيرة قبل حلف اليمين. من يخفق في تخطيها لن ينتمي للنخبة."

لم يتوقف الجليد عن الهطول. أعطت السيدة مانتي كلا منا مظلة. بدت مظلة زوجها كشعار مدينة فيسبادن، زرقاء مزينة بورود الزنبق الذهبية. كانت مظلتي رمادية وعليها نجمة فضية. كانت من ضمن الهدايا الدعائية لشركة مرسيدس بينز. أما السيدة مانتي فأمسكت باحدى مظلات الأطفال المصنوعة من البلاستيك الشفاف. سرنا على حقل مغطى بالثلج. على أطراف الحقل كان هناك منصتان خشبيتان. لم يكن هناك أماكن مخصصة للجلوس. لم يكن هناك سوى الناس، المئات منهم. كانوا يقفون في صفوف متدرجة تبدو كالسلالم. عائلات وأصدقاء عُرفاء المستقبل. وضع بعضهم الأعلام على أكتافهم، أعلام باللونين الأزرق والأبيض أو بالألوان الأسود والأحمر والأصفر، وكأنهم في إحدى المباريات التي تقام بين الدول. وآخرون كانوا يرفعون الملصقات والشعارات إلى الأعلى:

نحن نفخر بك، يا مايكل!

ارفع رأسك عاليًا أيها العريف هنشل!

مرحبًا بعودتك جندي المشاة هيسلنج!

يانيك لقد أصبحت الآن رجلا!

أيها الجنود! ألمانيا بحاجة إليكم!

تدافـع الزوجـان مانتـي وسـط الزحـام وصـولًا إلى الصـف الأمامـي واصطحبـاني معهـما.

لم يكـن هنـاك بمنتصـف الحقـل شيء سـوى سـارية العلـم. كسـا السـماء لـون رمـادي فأصبحـت الجبـال بالـكاد مرئيـة. كنـت أتجمـد وأطـأ بقـدم فـوق الأخـرى. لفـت السـيدة مانتـي الشـال حـول رأسـها. كان وجههـا محمـرا، قالـت: "أتمنـى أن يأتـوا سريعًـا، قدمـاي تتجمـدان."

رددت: "وقدماي كذلك."

كان السـيد مانتـي يرتـدي معطفـا خفيفـا ولم يسـتخدم القفـازات أو القبعـة. نفـخ صـدره وتعامـل مـع الـبرد وكأنـه لـن يسـتطيع أن ينـال منـه، متجاهـلًا أنفـه التـي تسـيل.

"يعيـش ابننـا منـذ أسـبوع هنـا في الخـارج ليـل نهـار" أشـار تجـاه الجبـال. "القليـل مـن الجَلَـد لـن يضركـما شيءٌ!"

لم ترد السيدة مانتي، لم تقل حتى: حسنا يا عزيزي.

نُفـخ في الأبـواق ولمعـت الأضـواء الكاشـفة المثبتـة عـلى أطـراف الحقل الأربعـة. انعكـس الضـوء مـن خـلال ندفـات الجليد.

كان الجنـود يرتـدون زيًـا تمويهيًـا يجمـع بـين الألـوان الأزرق والرمادي والأبيـض. ضيقـت عينـي لأبحـث عـن فالـك. رفـع أحـد الجنـود العلـم ووقـف الآخـرون منتصبـي القامـة. ثـم بـدأ الجنـود يغنـون النشـيد الوطنـي. أمسـك السـيد مانتـي بالحاجـز بيديـه، وشـاركهم الغنـاء بصـوت عـال. أزهـر بنـور هـذا الرخـاء أزهـر أيهـا الوطـن الألمـاني. انحنـت السـيدة مانتـي تجاهـي واصطدمـت مظلتهـا بمظلتـي وقالـت: "لا أسـتطيع أن أرى فالـك، هـل عـثرتِ عليـه؟ بالتأكيـد لم يتركـوه بالجبـال." رد زوجهـا متذمـرًا: "توقفـي عـن هـذا الهـراء يـا جوليـا."

شددته من كمه فأزاح يدي بامتعاض.

"أشعر بالبرد، أيمكنني الحصول على مفتاح السيارة رجاء؟"

أعطاني إياه دون أن ينظر إلي.

تدافعت بين الحضور في أثناء نزولي من على المنصة وسرت بالحقل وصولا إلى موقف السيارات مرة أخرى. أنارت مصابيح السيارة الدائرية برقة حينما فتحت الباب. جلست خلف عجلة القيادة وأدرت محرك السيارة ثم أشعلت التدفئة على أعلى درجة.

كان الجندي خاصتي يلف خِرق قماش ملطخة بالدماء حول قدميه. ارتعدت حينما خلع حذائه في البنسيون، انتشرت حينئذ رائحة نتنة في الغرفة.

"تبًا! كيف حدث هذا؟"

عرج في صمت حتى وصل إلى الحمام، خلع زيه الرسمي ثم أخذ حمامًا.

سألته: "ماذا كنتم تفعلون بالأعلى؟"

وضع جبهته على بلاط الحائط البني وترك المياه تنساب على ظهره الضخم العريض الذي يستقر على خصره النحيل. كانت بشرته زيتونية، وأفخاذه مفتولة العضلات، وبدى بطن ساقه مشدودا أكثر مما قبل. أما قدماه فلم أتمكن من رؤيتهما.

غادرت السرير. كان فالك قد وضع خرق القماش داخل حذائه. قمت بإخراجها وفتحت النافذة ووضعتها على حافة النافذة في الثلج. بدأ فالك يغني بصوت جهوري: خانوا آباءنا ونعتوهم بالجناة. إلا أنهم كانوا أفضل الجنود، أفضل الجنود بالحياة. ولكننا لن نخونهم أبدًا لا من أجل الرخاء ولا المال لأنهم كانوا أفضل الجنود... توقف في منتصف الأغنية وبدأ بغناء واحدة جديدة: يسير الجنود عبر البلاد يحملون السلاح بالأياد.

أغلقت النافذة وجلست مرة أخرى على السرير.ضغط فالك على موزع الصابون ورغّى الصابون على رأسه الأصلع تماما وهو يغني: لن نركع أبدا ولن نعتبر العنف التصرف السديد. ألمانيا فوق الجميع وستُبعث الإمبراطورية من جديد.

فجأة لم يعد بوسعي تحمُّل الأمر أكثر من ذلك، فصرخت به: "توقّفْ"

دقق النظر بي وقال: "ما خطبكِ؟"

هززت رأسي، لم أعرف ماذا ينبغي أن أقول، أشار إلي كي أتجه إليه.

"لا، دعني وشأني."

"هيا! لقد افتقدتك كثيرا يا أنّا."

وقفت وذهبت إليه بالحمام، وضع ذراعيه المبللتين حول رقبتي وقبلني. تسللت المياه على ظهري. كان حوض الاستحمام ممتلئًا بالدماء. ارتعدت مذعورة وقلت: "تبًّا! يجب أن تذهب إلى الطبيب فورًا"

ضحك فالك. "يبدو الأمر أسوأ مما هو عليه". أغلق صنبور المياه وخرج من حوض الاستحمام يعرج في الحمام، خلفت قدماه آثار دماء على البلاط.

قلت له مجددًا "يجب أن تذهب إلى الطبيب" أخذ منشفة وانحنى إلى الأمام لتنشيف أصابع قدمه. لوى وجهه قائلًا: آآهٍ! هذا مؤلم" ثم رفع وجهه إلى الأعلى ونظر إليّ قائلًا: "ولكنه ألم من نوع جيد، ألم يشعرني بالفخر، أتفهمين ذلك؟"

"لا، في الواقع لا أفهم ولا أود أن أفهم أيضًا." اعتدل ببطء ثم قال: "ما هذا؟ هل تسكعت مجددًا مع تلك الآفات البشرية؟"

"إذا كنت تقصد إستر ولوسي..."

"حسنًا، سوف يتغير الوضع الآن. لقد انتهت فترة التدريب الأساسي. سأحصل من الآن فصاعدًا على إجازات وسأعود إلى المنزل مجددًا في نهاية كل أسبوع، حينئذ تستطيع تلك الآفات أن تفهم أين..."

"لا تتحدث هكذا عن صديقاتي."

"أتدرين شيئًا؟ إذا كنتِ حقًا تحبينهما هكذا لم لا تدخلينهما إلى النادي الخاص بنا؟ لا! بالطبع لا تريدين فعل ذلك، أعرف هذا، ولكن لِم لا؟ أعتقد أنه قد حان الوقت كي تقرري إلى جانب من ستقفين. وهذا المدعو فايلاند الذي تتجولين معه الآن دائمًا ليس بالشخص المحترم أيضًا."

أخذ يعرج في طريقه إلى المرحاض وهو يستند بيده على الحائط. "هلا تتركينني الآن وحدي من فضلك؟ يجب أن أقضي حاجتي."

حينما لم أظهر أي ردة فعل، نظر إليّ ثم قال: "ماذا هنالك؟ أتودين المشاهدة؟"

قلت: "سأذهب إلى النوم."

"طبعا، ولكن فكري جديًا فيما قلته." ابتسم فجأة ثم قال: "والآن هيا إلى النوم، سآتي إليك في غضون دقيقة."

قضى هناك ما يقرب من الساعة يتأوه ويئن مثل جدي حينما كان يعاني من الإمساك. خرج بعد ذلك من الحمام وهو يعرج. اندس بجواري تحت الغطاء ملتصقًا بي ثم همس إلي: "أحبك وسأظل أحبك دائمًا إلى أن تصيبني طلقة الموت" ثم وضع يديه الكبيرتين الدافئتين على صدري وغفا.

(44)

إنهـا مقابلـة صحفيـة، ربمـا تلـك المقابلـة التـي أخبرتنـي أمـي عنهـا ذات مـرة. بالنظـر إلى الملابـس التـي ترتديهـا أمـي والجـدة لـورا والخـال جـورج في الشريـط فـإن تلـك المقابلـة ترجـع إلى بدايـة السـبعينيات؛ أي بعـد مـرور عـشرة أعـوام كاملـة عـلى هروبهـم.

كانـوا يجلسـون في غرفـة معيشـة جـدتي. اسـتطعت التعـرف عـلى صـورة ميـدان سـوق روسـتوك المعلقـة فـوق الطاولـة، ودولاب الحائـط المصنـوع مـن خشـب البلـوط، الـذي رأيتـه مؤخـرًا في شـقة الخـال جـورج.

جلـس هـو وأمـي عـلى الأريكـة بالصـف الخلفـي، تتقدمهـما جـدتي لـورا بمقعدهـا الضخـم ذي اللـون البيـج. وضعـت قدميهـا بجـوار بعضهـما البعـض بإحـكام وضمـت ركبتيهـا. كانـت ترتـدي بلـوزة ذات ياقـة مغلقـة حتـى الرقبـة، وتنـورة طويلـة مخططـة بمربعـات داكنـة اللـون. أمسـكت باليـد اليمنـى فنجـان قهـوة مـن الخـزف المزيـن بالأزهـار، وباليـسرى طبـق الفنجـان الصغـير. بـدت منتبهـة ومتوتـرة. وجهـت نظرتهـا إلى شـخص مـا

لا أستطيع رؤيته يقف بجوار الكاميرا. كان الرجل، ربما الصحفي، يتحدث بهدوء ورزانة.

لم تكن الشرائط التي قام أيكه بترقيمها معنونة، لم تكن هناك مقدمة ولا خاتمة.

"سيدة هيلر، لقد ولد زوجك عام 1918 في روستوك وكان مهندسًا معماريًا يعمل بهيئة إنشاء الطرق في روستوك. عاش حتى 5 أغسطس 1965 في ألمانيا الشرقية. أما أنتِ فقد ولدتِ عام 1925 بمدينة لوبيك وانتقلتِ بعد الزواج إلى روستوك في صيف عام 1945. في عامي 1946 و1950 ولد أبناؤك جورج وكريستين"

رفعت والدتي ذقنها قليلًا إلى الأعلى حينما ذُكر اسمها، أما خالي فلم يتحرك وجلس متصلبًا بجوارها.

سأل الصحفي: "كيف كانت حياتكم في ألمانيا الشرقية؟"

وضعت لورا فنجان القهوة على الطاولة الجانبية المغطاة بمفرش من الكروشيه. ثم قالت بصوت واضح وثابت بشكل مفاجئ: "عشنا وسط ظروف معيشة بسيطة. كان لدينا أيضًا منزلنا الخاص وعمل زوجي كارل بعد الحرب كأحد عمال الطرق. ولأنه حصل على بطاقة تموين خاصة بالعمال وأخرى للأطفال تمكنا من تحمل نفقات أكثر مقارنة بغيرنا. أحيانًا كان يقطع أيضًا أشجار الشارع وبذلك توفر لدينا دائمًا ما يكفي من الحطب. كنا نُعَدُّ من المحظوظين." وضعت ساقًا فوق الأخرى ثم أنزلتها في الحال ووضعتهما بجوار بعضهما ببعض مجددًا. مسحت بيدها على تنورتها لتفردها ثم قالت: "كانت الحياة اليومية على ما يرام، إلا أن المواد الغذائية لم تكن متوفرة دائمًا بالشكل الكافي، أو الأشياء التي كان الأطفال يحبونها، ولكن والداي كانا يسكنان في مدينة لوبيك ويرسلان إلينا الطرود مما ساعدنا على تخطي

الأوقات العصيبة. بغض النظر عن مساعدتهما كنا نعيش بشكل جيد تماما في الشرق كنا فقط غير راضين عن السياسة هناك"

عقدت أمي ذراعيها أمام صدرها ورفعت ذقنها وكأنها تريد أن تحتج. انسدل شعرها الطويل الغامق بنعومة على كتفي كنزتها الضيقة ذات الياقة المرتفعة. جلس الخال جورج ثابتا لا يتحرك بجوارها.

سألها الصحفي: "إلى جانب نقص المواد الغذائية، ما الظروف السيئة الأخرى التي كنتم تنتقدونها في ألمانيا الشرقية؟"

رفعت لورا ذقنها تمامًا كما فعلت أمي منذ قليل، ولكنها لم تعقد ذراعيها أمام صدرها، بل وضعتهما على مسندي الكرسي وكأنها تود أن تنهض، بدت قدماها وكأنهما تتصارعان مع الأرض.

"مبدئيًا كانت تضايقني تلك الادعاءات المزعجة. لم يكن يُسمح لنا بقول الحقيقة، كنا على علم بما يفعله ستالين والشيوعية في روسيا، ولكن كي نتمكن من البقاء على قيد الحياة في ألمانيا الشرقية كان يجب علينا أن ندعي العكس دائمًا. كنا ننطق فعليًا بعكس ما نفكر به، كانت أفكارنا فقط حرة." هدأت قليلًا وهزت رأسها وكأنها تذكرت شيئًا ما وتتعجب منه. "على الرغم من أنهم كانوا يعلموننا دائمًا بسياسات الحزب، إلا أنها كانت تتغير باستمرار. كان علينا إعادة توجهاتنا مجددا كل يوم. قبل عقد اجتماع عمل ذات مرة قال زوجي لرئيس قسمه مازحًا: 'اقرأ أولًا صحيفة "ألمانيا الجديدة" وإلا ستقول لنا شيئًا معكوسًا. فما قاله الحزب أمس يمكن أن يبدو اليوم بشكل مختلف تمامًا، بعدئذ أُسْتُدعا في الحال واستُجوِبَ بشأن موقفه من ألمانيا الشرقية، وخرج من هذه القصة مجددًا بكدمة زرقاء حول عينه. كان علينا حقًا أن ننتبه دائمًا كي لا نقول شيئًا خاطئًا."

سأل الصحفي: "هل كان هروبكم ناتجًا عن تطورات أوضاع معينة؟"

بدى الاضطراب لأول مرة على وجه جورج وأدار رأسه جانبا.

أجابت لورا: "نعم، يمكنك أن تقول ذلك. لقد امتدت تلك التطورات لسنوات. علاوة على ذلك يجب أن أوضح أننا اعتقدنا بعد نهاية الحرب أن الروس لن يمكثوا أكثر من عشرة أعوام أو خمسة عشر ثم ينسحبوا. لم نفكر أبدًا أن الأمر سينتهي بانقسام ألمانيا. في الواقع لقد تفاجئنا بذلك عام 1961." صمتت لبرهة ثم استأنفت حديثها: "منذ عام 1946 حتى عام 1953 لم يكن يُسمح لي بالسفر إلى ألمانيا الغربية. لم يُسمح لأطفالي بالتعرف على أجدادهم في لوبيك. كان هذا أمر لا يحتمل بالنسبة لي، ولذلك سافرت معهما مرتين -بشكل غير قانوني -عبر الحدود لزيارة والداي. كان الأمر ممكنا حينذاك. ولكن بمجرد موت ستالين عام 1953 اتخذت الأمور منحى آخر. حيث تم أخيرًا إصدار جوازات سفر كي أتمكن من السفر مع الأطفال إلى لوبيك. إلا أن كارل لم يُسمح له بالسفر معنا لأنه كان يعمل لصالح المدينة، أعني أنه كان موظفا بالدولة. كان الأمر مثيرا للسخرية. وحينما ازدادت تعقيدات السفر يوما بعد يوم أرسل كارل شكوى إلى فيلهلم بيك(1). كان كارل يكن له الاحترام والتقدير. إلا أنّ ردًّ بيك لم يقدم لنا سوى العبارات المبتذلة المعتادة "حاربوا من أجل وحدة ألمانيا" في حين أنهم في الواقع لم يرغبوا أبدًا بتحقيق تلك الوحدة" ضحكت لورا. بدا الانفعال مجددًا على وجه جورج وضاقت عيناه. أكان هذا استنكارًا أم حنقًا؟ كان يفضل البقاء في ألمانيا الشرقية ولكن عند هروبهم لم يتجاوز عمره الخمسة عشر عامًا. هل كان مهتما بالسياسة وقتئذ؟ أم أن الأمر يتعلق بما حكته لورا عن والده؟ ألم يعجبه ذلك؟

وضعت أمي ساقًا فوق الأخرى وأخذت تهز قدمها بتوتر.

---

(1) سياسي ألماني شيوعي أصبح أول رئيس لألمانيا الشرقية عام 1949.

استأنفت لورا حديثها وهي تهز رأسها مجددًا: "كان هناك الكثير من الأمور المزعجة، تألفت أسباب الهروب أساسًا من العديد من صغائر الأمور."

اتكأت أمي فجأة على ظهر الأريكة المرتفع وقالت: "شظايا صغيرة غير معدودة. بعضها يمر بك مرور الكرام والبعض الآخر يصبك ويلتصق بك. في مرحلة ما لا تستطيع احتمال الأمر لمدة أطول."

حدق جورج بأمي وكأنه يريد أن يقول شيئًا، إلا أنه أطبق شفتيه ونحى رأسه جانبًا مجددًا. تفحصت لورا جورج وأمي ثم نظرت مجددًا تجاه الكاميرا "معها حق. حتى وإن كانت حينئذ مجرد طفلة وبالتأكيد لا تستطيع أن تتذكر شيئا" قالت ذلك بنبرة لطيفة مستعطفة. ربما لتهدىء من روع جورج.

أغمضت أمي عينيها وأدارت وجهها. "على سبيل المثال كانوا يلقون باللوم دائمًا على الأفراد فيما يتعلق بمشكلات نقص الإمدادات أو تعطيل العمل. ولم يكن يُسمح لنا أن نقول إن الأمر يرجع إلى سوء التخطيط أو نقص إمدادات المواد الخام. كان الفرد دائما هو الذي يدافع عن نفسه وليس الدولة. مما تسبب في شلل حركة كل شيء. اختفت المؤسسات الخاصة ولم تتبقى سوى المؤسسات الحكومية. نحن الألمان -كما يقال -شعب مجتهد، ولكن من الواضح أننا نجتهد فقط في الأمور التي تُدر الربح علينا. لم يعد هناك أي شيء يسير على ما يرام. ساد الخراب. حتى منزلنا. كنا نحتاج بشكل عاجل إلى نوافذ جديدة، ولكن لا! مستحيل! وكأننا كنا نطلب حقيبة من الذهب."

سأل الصحفي: "هل كان هناك سبب مباشر للهرب؟"

"بالطبع كان هناك سبب. ذات يوم استدعا رئيسُ هيئة مجلس الشئون الداخلية زوجي. في البداية حدثوه حديثًا معسولًا، فأبدوا إعجابهم بارتباطه الواضح بوطنه ومساهمته الفعالة في بناء دولتنا

الاشـتراكية، كـما أثنـوا عـلى عملـه. كان كارل رجـلاً عمليًـا يسـتطيع أن يعمـل بيديـه، ولكـن ذلـك لم يكـن كافيًـا. طلبـت الهيئـة مـن كارل أن يكـون مثاليًـا بشـكل أكـبر وأن يؤيـد فكـرة الشـيوعية بـكل جوارحـه، أتعـرف مـا معنـى ذلـك؟ كانـوا يريدونـه أن يتجسـس عـلى أصدقائنـا." وضعـت يدهـا فـوق فمهـا وتركتهـا هنـاك وكأنهـا أرادت أن تمنـع نفسـها مـن استئناف الحديـث "حينـما حـكى لي كارل عـن ذلـك..." توقفـتْ مجددًا وهـزت رأسـها.

سـأل الصحفـي مـرة أخـرى: "مـا رأيـك في الدعايـة التـي اسـتخدمت ضـد الغـرب؟"

أومـأت لـورا برأسـها وبـدت أكـثر ارتياحًـا: "كانـت تلـك الدعايـة مثـيرة للسـخرية. أقـوال سـخيفة للغايـة مكتوبـة في كل مـكان، لم يكـن هنـاك مـن يـدون هـذه الدعايـة سـوى الشـيوعيين القدامـى وأربـاب المصالـح. كانـوا يدّعـون أن ألمانيـا الشرقيـة تبنـي المـدارس بينـما تتخـلى ألمانيـا الغربيـة عـن شـبابها وتهتـم بالتسـليح. وهـو أمـر لا يمكـن أن يصدقـه إلا مـن فقـد صوابـه."

"هل كان هذا رأي زوجك أيضًا؟"

"بالطبع، كان يرى الأمر مثلي تمامًا."

"هل كنتم تعبرون عن نقدكم للدولة على الملأ؟"

"لقـد شـط بـك الفكـر! أقـصى مـا كنـا نسـتطيع فعلـه هـو أن نعـبر عـن رأينـا في محيـط الأصدقـاء، وحتـى حينئـذ كان ينبغـي لنـا توخـي الحـذر وصياغـة الأمـر في هيئـة سـؤال. كان زوجـي عـلى تواصـل مـع أمـن الدولـة بحكـم طبيعـة عملـه. حيـث كان المهندسـون المعماريـون يتلقـون الأوامـر مـن الإدارة المركزيـة بمدينـة روسـتوك وكانـت عمليـة تنفيـذ الأوامر تخضـع للمراقبـة. ذات مـرة كنـت أحـضر دورة تدريبيـة بأحـد المعاهـد عـن كيفيـة اسـتخدام الآلـة الكاتبـة. وكان زوجـي يعلـم أن إحـدى النسـاء

في هـذه الـدورة جاسوسـة. لذلـك راقبتهـا مـن كثـب واكتشـفت أنهـا تجيـد عمـل كل شيء، لم تتمكـن مـن التظاهـر بعكـس ذلـك. مثـال آخـر: كان هنـاك عجـز في أدوات الكتابـة بالمحـال، ولذلـك لم يسـتطع أطفالنـا تقديـم كل الواجبـات المطلوبـة منهـم بالمدرسـة وكان المدرسـون يوبخونهـم. حينـما تطرقـت إلى ذلـك الأمـر في أحـد اجتماعـات أوليـاء الأمـور أوضحـت لي المعلمـة أنـه مـن الأفضـل أن ألتـزم الصمـت الآن. كانـت السـيدة التـي تتـولى مهمـة التجسـس علينـا قـد وصلـت للتـو. كان الأمـر مثـيراً للسـخرية. ولكـن في كل مجموعـة كان هنـاك واحـدة تتلصـص عـلى الآخريـن حتـى في أثنـاء قضـاء العطـلات."

"متى هربتم؟"

"كان ذلك في الخامس من أغسطس عام 1961"

"وكيف بدت استعداداتكم للهرب؟"

هـزت لـورا رأسـها وقالـت: "لم يكـن لدينـا الكثـير مـن الوقـت للاسـتعداد. كانـت ابنتـي قبـل هروبنـا في رحلـة بجزيـرة روجـن. إعتقدنـا أن تلـك الرحلـة سـتبدو في صالحنـا. فمـن يرغـب في الهـروب إلى الغـرب لـن يرسـل أبنـاءه لقضـاء عطلـة مـع منظمـة رواد تيلـمان.(1)" ضحكـت بهـدوء. جلـس خلفهـا أمـي وخـالي جـورج لا يتحـركان مثـل عصفوريـن عـلى سـلك معـدني.

إسـتطردت لـورا: "سـجل زوجـي رحلتنـا إلى برلـين بوصفهـا رحلـة عمـل. حيـث توجـب عليـه شراء بعـض المسـتلزمات مـن هنـاك لأجـل هيئـة إنشـاء الطـرق. وللتمويـه قـام بحجـز غرفـة في بنسـيون كي يتمكـن مـن اصطحابنـا معـه، وودعنـا أصدقاءنـا مدعـين أنهـا رحلـة لقضـاء نهايـة الأسـبوع. تركنـا أمتعتنـا في البنسـيون وركبنـا قطـار الأنفـاق..." رفعـت

---

(1) منظمـة شـبابية تضـم الطـلاب مـن سـن السادسـة وحتـى الرابعـة عشر. سُـميت تيمنـا بزعيـم الحـزب الشـيوعي الألمـاني إرنسـت تيلـمان (المترجمة).

يديها فجأة إلى الأعلى وكأنها تعلن استسلامها ثم قالت: "أخيرا وصلنا إلى الغرب. أحرارًا" تنفست الصعداء. "لقد انزاح الهَمُّ عن كاحلي"

حينما توقفت عن الحديث سألها الصحفي: "توجهتم بعد ذلك للالتحاق بمخيم إيواء "مارينفيلد"، كيف كانت الأوضاع هناك؟"

"كانت هناك حشود غفيرة من البشر بشكل لا يمكن تصوره. وكل يوم كان ينضم إلينا ألفان من المهاجرين. كان الأمر أشبه بتجوال الشعوب! إلا أن الأمور في مارينفيلد كانت منظمة بشكل مثالي. كان يمكن أن تلاحظ على الفور أن هذه الدولة تُسير الأمور بشكل جيد. حتى إنهم قد اهتموا بالبرامج الترفيهية. فكان باستطاعتنا على سبيل المثال الخروج في مجموعات للتجول أو الانضمام إلى جوقة غناء. ولكن حتى في تلك الأثناء كان ينبغي لنا توخي الحذر من عناصر أمن الدولة. حيث كانوا يخطفون الأطفال ليرغموا آباءهم على العودة إلى ألمانيا الشرقية. حينما كنا نخرج في رحلة كنا نسمع دائما النداء: "أيتها الأمهات! تشبثن بصغاركن" على الرغم من أن أطفالي كانوا أكبر سنًا إلا أنني لم أدعهم يغيبون عن ناظري. فمجرد تصور اختفائهم فجأة كان أمرًا مروعًا."

"كيف كان مصير زوجك في مارينفيلد؟"

رفعت كتفيها ثم قالت: "لقد تشددوا تجاهه هناك قليلاً. شأنه شأن باقي موظفي الدولة على الجانب الآخر. حيث كان من ضمنهم العديد من الجواسيس ممن رغبت السلطات بالطبع في التخلص منهم. تم استدعاء كارل مرات عديدة وسؤاله عن صلته بأمن الدولة. وبينما تم السماح لمعظم اللاجئين بمغادرة مخيم الاستقبال بعد فترة وجيزة تم التحفظ علينا هناك لمدة شهر. ولكننا حصلنا في النهاية على التذاكر وسافرنا إلى هامبورج."

"بم شعرتم عند وصولكم؟ كيف كان انطباعكم الأول؟"

"حينـما وصلنـا إلى هامبـورج ذهبنـا مـع الأطفـال إلى حديقـة حيوانـات هاجينبـك لنستنشـق الهـواء. لاحقًـا في اليـوم ذاتـه سـافرنا إلى أقـاربي بمدينـة لوبيـك، لم يكـن هنـاك محافـل استقبال مهيبـة. اسـتقبلونا اسـتقبالًاعاديًا للغايـة وسـكنّا عنـد ابنـة عمـي، ولم نواجـه أي مشـكلات حتـى مـع السـلطات. التحـق الأطفـال بالمدرسـة سريعًـا وعثرت أنـا عـلى الفـور عـلى وظيفـة مسـاعدة طبيـب."

"وزوجك؟"

أومـأت برأسـها بشـدة وقالـت: "نعـم، كان انطباعنـا الأول عـن ألمانيـا الغربيـة في العمـوم إيجابيًـا."

نحّـى جـورج رأسـه جانبًـا ونظـر إلى النافـذة. تنحنـح الصحفـي. مـرت لحظـة صمـت. نظـرت لـورا إليـه بهـدوء ووضـوح. فجـأة انحنـت أمـي إلى الأمـام، ثـم سـقط شـعرها الأملـس الطويـل عـلى وجههـا. لم تنحـه جانبًـا، قالـت وكأنهـا تتحـدث مـن وراء سـتار: "كنـت ألعـب في الشـارع حينـما خـرج مـن المنـزل. تفاجـأت لأنـه لم يتخـط عتبـة البـاب منـذ أيـام، كان يرقـد عـلى السريـر فقـط..."

قاطعتْهـا جـدتي لـورا قائلـة: "تينـا" ولكـن أمـي تابعـت حديثهـا بـإصرار "سـأعود عـلى الفـور. أرغـب فقـط في شراء السـجائر، هـذا مـا قالـه. تـتردد تلـك الكلـمات في أذني حتـى يومنـا هـذا. لـوح لي بيـده وسـار في الشـارع بسرعـة. لم أره مجـددًا." انحنـت لـورا تجـاه الكامـيرا مبتسـمة. تغـير شيء مـا في تصرفاتهـا. أصبحـت أكـثر تحفظـا كـما بـدا لي. ثـم قالـت بلطـف وحـزم معًـا: "يكفـي هـذا! لقـد كنـت ترغـب في معرفـة بعـض المعلومـات عـن هروبنـا والآن حصلـت عـلى قصتـك. انتهـى الأمـر."

تغـيرت نـبرة الصحفـي كذلـك: "لم تكتمـل القصـة بعـد" أجـاب بنفـس الحـزم الـذي أظهرتـه لـورا، لم يعـد رزينًـا ولا حياديًـا. "أحقًـا عـاد زوجـك إلى ألمانيـا الشرقيـة؟"

اعتدلت تمامًا في جلستها ثم سألت: "من قال ذلك؟" نظر إليها جورج وقال بصوت منخفض تمامًا: "كان أبي يعاني من الحنين للوطن" استدارت لورا بقوة: "حنين للوطن؟"

نظر جورج مجددًا إلى النافذة، ثم قال: "كان أبي يرغب في العودة إلى المنزل يا أمي"

"هل فقدتَ صوابك؟ ما الذي تقوله؟"

تدخلت أمي قائلة: "ألا يمكن أن يكون جورج محقًا؟ فكري بالصور! كيف نشرها أبي في كل مكان وكان ينظر إليها دائمًا. انظري هنا! هذا منزلنا، وانظري هناك! هذا شارعنا..."

"لقد فقدتما صوابكما حقًا، كان والدكما رجلًا طيبًا ووالدًا مثاليًا. كان يحبكما ولا بُد أنكما تعرفان ذلك، لم يكن ليتخلى عنا أبدًا، أبدًا."

سألها جورج: "ربما كان قد أخبرك بذلك؟ ولكنك رفضتِ ولم ترغبي بالعودة؟"

"بالطبع لا! لو عدنا لقُبض علينا في الحال. ولكنه لم يقل شيئا ولم يحدث شيء. لقد أراد فقط أن يشتري بعض السجائر بسرعة. تماما كما حكت تينا"

قال جورج بنبرة لاذعة: "كان من المفترض أيضًا ألا يتعدى الأمر مجرد رحلة في نهاية الأسبوع ولكنني وجدت نفسي فجأة مقيمًا هنا في برلين الغربية ولا يُسمح لي بالعودة إلى المنزل" صرخت أمي به: "ما الذي تريده حقًا؟ أن نجد والدنا أم أن تتخلى عنا مثله تمامًا؟ فلتعد إذنْ إلى ألمانيا الشرقية اللعينة، اهرب أنت أيضًا"

"لم يهرب أبي، لقد عاد فقط إلى الوطن."

"أي وطن تقصد؟ هذا البلد الفظيع والنظام العشوائي وتلك المدينة اللعينة؟ ألا ينبغي أن نكون نحن موطنه؟"

صرخ جـورج بهـا قائـلًا: "يـا لـك مـن متغطرسـة! تفكريـن دائمًـا بنفسـك فقـط. تشـعرين بـالألم والهجـران بـدلًا مـن أن تتفهميـه ولـو لمـرة، لـن تتمكنـي بهـذا الشـكل مـن رؤيتـه مجـددًا أبـدًا"، ثـم مَـرّ بهـا مندفعًـا وخـرج مـن الغرفـة. لم تتبعـه الكامـيرا؛ ربمـا كانـت مثبتـة عـلى حامـل. ثـم انغلـق البـاب وكان صـوت الارتطـام مسـموعًا. وضعـت لـورا وجههـا بـين يديهـا، لم يبـدُ صوتهـا متباكيًـا وإنمـا حـادًا: "لِـم تعذبـاني هكـذا؟ أنـا لا أعـرف أيضًـا مـا حـدث، ربمـا أصابـه مكـروه، ليـس هنـاك تفسـير آخـر." وقفـت أمـي ببـطء وذهبـت إلى جـدتي. وضعـت إحـدى يديهـا عـلى كتفهـا وقالـت: "قـولي لي الحقيقـة رجـاءً، أنـا لا أسـتطيع التعايـش مـع هـذا الشـك. أحيانـا أشـعر أننـي لـن أثـق بـأي شـخص أبـدًا، ينخـر الشـك في صـدري باسـتمرار، أحقًـا لا تعلمـين شـيئًا؟ أم أن جـورج محـقٌّ؟ ألم يرغـب أبي حقًّـا في البقـاء معنـا وذهـب إلى هنـاك؟" نظـرت جـدتي لـورا إلى عينيهـا وقالـت بصـوت ثابـت: "تينـا كيـف يمكنـك التفكـير هكـذا بوالـدك؟ لم يكـن ليـتركك أبـدًا، لقـد كنـت حبيبتـه وجنيتـه الصغـيرة وأميرتـه الحالمـة، لقـد كنـت كل شيء بالنسـبة لـه وأنـت تعرفـين ذلـك"

(45)

أخـرج أيكـه قـرص الفيديـو الرقمـي مـن محـرك الأقـراص المضغوطـة وأعطـاه لي ثـم سـألني: "مـا رأيـك؟ هـل عـاد إلى ألمانيـا الشرقيـة أم لم يعـد؟"

"ألم يكن ليُلقى القبض عليه إذا عاد؟"

"بتهمة العودة إلى المنزل؟"

عكـس القـرص صـورة وجهـي، يـا لشـحوبه! كان القـرص يلمـع باللونـين الأزرق والفـضي وأنـا أحركـه بـين يـدي.

سألني أيكه: "ماذا ستصنعين بالفيلم؟ هل ستريه لأمي؟"

"بالطبـع، إذا كانـت ترغـب في مشـاهدته، هـل تتذكـر مـا كان أبي يقولـه لنـا عـن يهـوذا؟"

"أتقصدين قصة العين السحرية؟ وأننا يجب دائمًا أن ننظر أولا..."

"لا، هـذا مـا كانـت تقولـه أمـي. إنهـا قصـة منـذ أيـام طفولتهـا، أعتقد أن جـدي كان يقـول لهـا هـذا دائمًـا. أنـا أقصـد قصـة أبي حينـما كان يخبرنـا أن هنـاك ثلاثـة أنـواع فقـط مـن البـشر. أولًا: القديـس وهـذا نـوع نـادر للغايـة حتـى إن النـاس لا تنتبـه إليـه إلا إذا قابلتـه حقًـا، ثـم بطـرس الـذي كان يختبـئ خوفًـا مـن أن يتتبعـه أحـد. كان ينكـر كل شيء ويتنصـل مـن عقيدتـه وأصدقائـه لأنـه يـود أن يحمـي نفسـه ويبقـى عـلى قيـد الحيـاة. لم يكـن بطـلًا ولكـن الأبطـال -كـما كان أبي يقـول دائمًا-هـم الفئـة الأقـل بيننـا. معظـم النـاس كانـوا سـيتصرفون مثلـه تمامًـا إذا مـروا بظروفـه، فهـذا أمـر بـشري ليـس إلا. أمـا النـوع الـذي يسـتحق الازدراء فهـو النـوع الثالـث يهـوذا الـذي يتحـول بـلا داعٍ إلى خائـن."

سـألني أيكـه: "حسـنًا، لقـد تخـلى جـدي عـن عائلتـه، ولكـن أيجعلـه ذلـك خائنًـا؟"

"لا يمكننـي تحمـل تلـك القصـص" سـحب غلافًـا بلاسـتيكيًا طريًـا مـن أسـفل الحاسـوب وأعطـاني إيـاه: "ضعـي القـرص بداخلـه وإلا سـيخدش. في رأيـي لم يعـد مهـمٌ مـاذا فعـل ولمـاذا. لقـد سـلكت أمـي طريقهـا دونـه وحققـت الكثـير؛ درسـت الطـب وتزوجـت وأنجبتنـا. ربمـا افتقـدت والدهـا ولكـن مـن الواضـح أنهـا لم تكـن بحاجـة إليـه، أتعرفـين شـيئًا؟ دعـك مـن أمـر هـذا الفيلـم لا تخـبري أمـي عنـه."

وضعت القرص بالغلاف ونهضت.

نظر إليّ أيكه مذعورًا: "إلى أين تذهبين؟"

"إلى المنـزل". ارتديـت سـترتي وانصرفـت، شـعرت بالريـاح القويـة تجـذب شـعري بمجـرد خروجـي إلى الشـارع، مـا زالـت تمطـر.

حملـت العلبـة التـي تحتـوي عـلى أغـراض جـورج ونقلتـها إلى المطبخ. كانـت السـماء بالخـارج ترعـد وتـبرق. وكان الجـو بـاردًا فأشـعلت التدفئـة.

طـن هاتفـي. إنهـا رسـالة منـك: "أقـف أمـام البوابـة الآن. سـتقلع طائـرتي حـالاً. وسـأصل برلـين في السـابعة والنصـف."

"انتبه لنفسك في أثناء السفر"

هـذا مـا أرسـله إليـك دائمًـا قبـل رحلاتـك لأنـه يسـعدك، ترسـل إليّ بعـد ذلـك مبـاشرة وجهًـا مبتسـمًا.

"أدخل الآن قمرة القيادة وأجذب مقبض ناقل الحركة نحوي"

"سعيدة لأنني سأراك"

"أنتظـر لقاءنـا أيضًـا بفـارغ الصـبر، سـيبدأ الإقـلاع. سـأغلق هاتفـي الآن"

أخـذت مـن الصنـدوق قطعتـين مـن الخـزف -إحداهـما ذات أذن مكسـورة-ووضعتهما عـلى المكتـب. ثـم أخرجـت لوحـة حائـط ذات لـون أزرق فاتـح رُسـمت عليهـا كنيسـة السـيدة العـذراء بمدينـة روسـتوك. كان هنـاك أيضـا قميـص منظمـة رواد تيلـمان وعلـم ألمانيـا الشرقيـة بألوانـه الثلاثـة الأحمـر والأسـود والأصفـر ورسـمة المطرقـة والدائـرة. بالأسـفل كان هنـاك حافظتـا ملفـات رماديتـان ممتلئتـان عـن آخرهـما. كنـت قـد تصفحتهـما ذات مـرة بعـد وفـاة جـورج، ولم ألـق النظـر عليهـما بعـد ذلك.

ضمـت أول حافظـة مجموعـة مـن وثائـق التأمـين وبعـض كشـوفات حسـاب بنـكي وفواتـير الكهربـاء. معظمهـا مـن الثمانينيـات والتسـعينيات. وجـدت أيضًـا عقـد شراء سـيارة فولكـس فاجـن باسـات مسـتعملة. بالـكاد أسـتطيع أن أتذكرهـا. كان جـورج قـد خردهـا عـام 1933 واحتفـظ بفاتـورة الحسـاب ولم يشـتر لنفسـه واحـدة أخـرى بعـد ذلـك. وفي حاويـة شـفافة كان هنـاك عـشرات مـن السـير الذاتيـة وخطابـات طلـب العمـل مـن التسـعينيات كذلـك. مـن الواضـح أنهـا أُرسـلت إليـه مـرة أخـرى، تصفحتهـا كلهـا.

كان جـورج أمـين مخـازن، سـائق رافعـة شـوكية كـما كانـت أمـي تقـول. تـرك المدرسـة في سـن السـابعة عـشر دون أن يتـم دراسـته، ثـم التحـق بتدريـب مهنـي ليصبـح عامـل بنـاء، ولكنـه سرعـان مـا تركـه أيضًـا. بعـد قضـاء عامـين في أداء الخدمـة في الجيـش الاتحـادي بـدأ العمـل كأحـد عـمال المخـازن في مصنـع ماكينـات بمدينـة لوبيـك واسـتمر بالعمـل هنـاك لمـدة عشريـن عامًـا تقريبًـا.

خلـف السـير الذاتيـة وجـدت خطـاب الاسـتقالة ومجموعـة صغـيرة مـن مقـالات الصحـف المقصوصـة بعنايـة. كانـت المقـالات تتحـدث عـن مصنـع الماكينـات. تـم التخـلي عـن موقـع المصنـع في لوبيـك بعـد حـوالي ثمانـين عامًـا مـن النجـاح بسـبب ارتفـاع الأجـور، ونُقـل إنتـاج المصنـع إلى الخـارج في شرق أوروبـا.

لم تـؤتِ أي مـن خطابـات طلـب العمـل تلـك ثمارهـا. عـاش الخـال جـورج طـوال حياتـه عاطـلا عـن العمـل ومعتمدًا عـلى المعونـة الاجتماعية؛ لم أكـن أعـرف كل هـذا.

وضعـت المسـتندات في أماكنهـا مـرة أخـرى وفتحـت الحافظـة الثانيـة. وجـدت مجـددًا حاويـة شـفافة بهـا تذاكـر دخـول مباريـات نـادي هانـزا روسـتوك وعـشرات مـن تذاكـر القطـارات القديمـة. مـن الواضـح أن خـالي كان يسـافر إلى روسـتوك بشـكل منتظـم منـذ عـام 1992. كان يشـتري العرقسـوس والشـيكولاته وعصـير الليمـون ويحتفـظ بإيصـال الـشراء تمامـا كـما يحتفـظ بتذاكـر القطـار ودخـول المباريـات. كان يعيـش حيـاة رجـل ناضـج في لوبيـك ثـم يتحـول إلى صبـي فـور وصولـه روسـتوك.

ثم وجدت ما كنت أبحث عنه.

بـدأ كل شيء بخطـاب تلقـاه جـدي في لوبيـك في سـبتمبر عـام 1961. أرسـله إليـه رئيـس الهيئـة التـي كان يعمـل بهـا في روسـتوك. رجـل يدعـى فيرنـر دومِلنـج. والـد هانـا. كانـت أمـي تدعـوه دائمـا بالأباراتشـيك.

في خريف عام 1989 حينما ذهبت مع أمي إلى روستوك وقفنا أمام منزل أبويها، تحركت ستارة إحدى النوافذ وفتحت النافذة بمقدار يسير. ثم نظرمنها رجل مسن وحدق بنا، كان هذا الرجل هو فيرنر دوملنج. كان قد اشترى منزل جدي وجدتي بعد هروبهما. كنت أنظر إلى الصور المعلقة على الحائط المغناطيسي.

صورة أمي وهي ترتدي وشاح رواد تيلمان في طريقها إلى معسكر العطلة بجزيرة روجن.

صورة لخالي جورج يقف أمام حظيرة أرانب، وفي الخلفية تبدو ظلال بهو، وباب بنافذة صغيرة، وحائط يتدلى فوقه اللبلاب.

صورة جماعية لحفل بالحديقة. يقف جدي إلى جوار جدتي لورا مع زوجين آخرين أمام شجرة كرز ويضحكون باتجاه الكاميرا. يحيط بهم الأطفال جورج، وأمي مع العمة هانا تمسكن بذراعي بعضهن البعض. نزعت الصورة وقرأت ما كتب جدي خلفها: عيد ميلاد فيرنر.

لم يكن فيرنر دوملنج رئيس جدي بالعمل فقط ولكن صديقه أيضا. من الواضح أن جدي كان قد أرسل إليه من تلقاء نفسه خطابا من مدينة لوبيك. وجاء خطاب دوملنج النابع من القلب ردا عليه: "عزيزي كارل، شكرا لأنك وثقت بي. كنت أتمنى أن تثق بي مبكرا عن ذلك. ولكن لم يفت الأوان بعد. لا زال بإمكانك العودة مرة أخرى. بيتك لم يتغير به شيء ونفتقدك في الهيئة للغاية. نحن نحتاج إليك هنا. أؤكد لك أنك ستحظى بفرصة إثبات كفاءتك هنا وتصحيح خطئك. عد إلى المنزل. مع خالص التحيات. فيرنر."

عقب ذلك خطاب أرسلته النيابة العامة بمدينة روستوك إلى جدتي لورا بتاريخ 17 أكتوبر عام 1961 أي بعد حوالي ثلاثة أسابيع من اختفاء جدي. "السيدة الموقرة هيلر. بناء على استفسارك بتاريخ 9 أكتوبر عام 1961 نود إعلامك أن زوجك بالحبس الاحتياطي

حاليًا. حيث تُجرى معه التحقيقات بسبب انتهاكه الخارق لقانون الاشتراكية. لم يتم إصدار حكم عليه حتى الآن إلا أن التهم قد وجهت إليه بالفعل. توقيع: موللر. المدعي العام"

اختفى بلا أثر؟ لا، كان جدي قابعًا بسجن ألمانيا الشرقية. وقد علمت جدتي لورا بالأمر طوال الوقت منذ البداية، لماذا لم تقل شيئا؟

تصفحت باقي المستندات سريعًا. تصريح الإقامة بألمانيا الغربية الذي تم استخراجه لأجل جدتي وخالي وأمي فقط. الموافقة على السكن باحدى شقق السكن الاجتماعي بلوبيك. ثم رد لجنة تحقيقات المحامين الأحرار ببرلين الغربية. طبقا لهذا الرد فإنه ليس هناك أمل بالحصول على قرار عفو في الوقت الحالي حيث أن المحكوم عليه لا يحصل على قرار عفو إلا إذا قضى نصف مدة عقوبته على الأقل بألمانيا الشرقية.

على الرغم من ذلك استمرت محاولات لورا بلا جدوى. وجدت عشرات النسخ من طلبات المساعدة التي أرسلتها إلى السلطات والساسة والصحفيين. آخر خطاب أرسلته في فبراير عام 1962 أي بعد أربعة أشهر من اعتقال جدي، لماذا لم تتواصل؟ هل فقدت الأمل؟

عثرت بعد ذلك على نسخة من طلب إطلاع على مستندات. كان خالي جورج قد تقدم به إلى أرشيف وثائق جهاز أمن الدولة ببرلين في ديسمبر عام 1993 وبذلك لم يدع للجدة لورا خيارًا آخر. كانت قد وقعت أيضًا على هذا الطلب، وربما كانت قد أعطت جورج حينئذ كل متعلقات جدي التي كانت تحتفظ بها.

رن هاتفي، أنت تجلس الآن بالسيارة الأجرة في طريقك لحضور الاجتماع وترسل لي القبلات.

كانت الساعة الثامنة إلا ربع، في الساعة التاسعة يجب أن أكون بالعمل، نظرت في مستندات القضية التي استلمها جورج في برلين.

كانت أمي تلعب بالشارع. خرج والدها من المنزل لشراء السجائر يوم 27 سبتمبر عام 1961. لم يكن قد مر على هروبهم إلى الغرب أكثر من شهرين. كان يرقد على السرير طوال النهار يحدق بصوره. يرفض تناول الطعام أو مغادرة المنزل. ولكنه بدى الآن مسترخيا، يكاد يكون مبتهجًا. لوح لأمي. شاهدته وهو يسير بالشارع وواصلت اللعب. لعبة القفز التي تسمى الجنة والجحيم. لطالما حكت لنا ذلك. بالنسبة لها اختفى والدها منذ تلك اللحظة، إلا أنه في الواقع كان قد ذهب إلى محطة لوبيك واشترى تذكرة سفر. في الوقت الذي استدعتها جدتي لورا للدخول إلى المنزل لتناول الطعام كان جدي يجلس بالقطار المتجه إلى روستوك، هل حقًا كان يعتقد أنهم سيتركونه يعود دون أن يمسّه سوءٌ؟

على حدود هيرنبورج، أحضره شرطيان من العربة وكبلاه بالأصفاد، ثم رُحِّلَ في عربة نقل إلى جريفسمولن. كان بانتظاره هناك اثنان من موظفي أمن الدولة.

طبقًا لمحضر التحقيقات، صرح جدي بأنه لم يخترق حدود ألمانيا الشرقية، وإنما عاد فقط إلى منزله.

نُقلَ جدي بعدئذٍ من جريفسمولن إلى سجن دائرة روستوك. حُجِزَ هناك بالحبس الانفرادي واسْتجوب مرارًا وتكرارًا. كانت التحقيقات تُجرى معظم الوقت نهارًا، ولكن بعضها تم ليلًا أيضًا.

كلُّ جلسات الاستجواب وُثِّقَتْ بدقة.

اتُهم جدي بالهروب من جمهورية ألمانيا الديمقراطية وكانت عقوبة ذلك هي السجن لمدة ثلاث سنوات، كما اتهم كذلك "بالاستخبار طواعية لصالح وكالة أنباء أجنبية." أي التجسس. كانوا يقصدون بذلك الأقوال التي صرح بها جدي في مخيم إيواء مارينفيلد عن عمله في هيئة إنشاء الطرق. تلك الأقوال توفرت تحت يد النيابة

العامة بروستوك. من ضمن الأقوال التي أُخذت عليه بشكل خاص حديثه عن نقص معدات البناء.

تخلى جدي منذ البداية عن فكرة توكيل محام. وكان يعتذر دائمًا ويطلب الرحمة. أخذ يؤكد لهم: "حينما وصلنا هناك علمت على الفور أننا قد ارتكبنا خطأ، ورغبت بالعودة في الحال إلا أن زوجتي قد منعتني من ذلك."

ضمن ملفات القضية كان هناك أيضًا تقرير موجز عن السجين كارل هيلر المولود في الحادي عشر من نوفمبر عام 1918 بمدينة روستوك: "ليس هناك مآخذ كثيرة على سلوكه العام حتى الآن. ينفذ تعليمات حراس السجن دون اعتراضات، ويحرص على نظافة ونظام الزنزانة. لا يتناقش كثيراً حينما يجتمع مع رفاق العمل ويكتفي بالجلوس في الخلفية. السيد هيلر قارئ جيد لصحافتنا الاشتراكية، إلا أنه لا يظهر اهتمامًا كبيراً بتطور دولتنا الاشتراكية. لا يظهر موقفًا واضحًا وصريحًا تجاه دولتنا. غادرت زوجته وأطفاله ألمانيا الشرقية بشكل غير شرعي في أغسطس عام 1961."

جرت محاكمة جدي في جلسة سرية في فبراير عام 1962 ولم تستمر الجلسة لأكثر من ساعة إلا ربع. وكان الحكم الصادر هو: الحبس عشر سنوات بتهمة الهروب من جمهورية ألمانيا الديمقراطية والتجسس.

في اليوم نفسه، نقلَ جدي في عربة ترحيلات من روستوك إلى برلين هوهينشونهاوزن، لم يكن ليرى المدينة التي نشأ بها مرة أخرى.

تم إرسال مظروف إلى لورا يحتوي على بطاقة إثبات شخصيته وخاتم زواجه.

في العاشر من فبراير عام 1962 شنق جدي نفسه في زنزانته باستخدام ملاءة السرير.

(46)

إذا كان بمقدورنا أن نتخيل أنفسنا في مكان أفضل من المكان الذي نتواجد به حاليا، فلم لا نبقى في هذا المكان إذًا؟

وقفت أمام النافذة أتطلع بالحي. كان المطر ينقر على زجاج النافذة وتسري قطراته كالأنهار الصغيرة عند ارتطامها بالزجاج. كانت السماء رمادية وأخذت هبات الريح المفاجئة تجذب قمم الأشجار.

أشعلت سيجارة. كان طعم الدخان مرًا، بدا وكأنه يدور في معدتي كالدوامات. أطفأت السيجارة وجفلت حينما طن هاتفي. سار اجتماعك على نحو جيد وأنت الآن تتجه لحضور مناقصة مُهمة. "تمني لي التوفيق"

ملأت ماكينة إعداد القهوة وأخذت أنظر إلى القهوة وهي تنساب. لطالما أحببت تلك الرائحة حينما كنت طفلة. قديما كانت جدتي لورا

تطحـن حبـوب القهـوة الطازجـة كل صبـاح وكانـت تضحـك حينـما تـراني آتي مسرعـة لأجلـس بجوارهـا وأشـم الرائحـة وعينـاي مغلقتـان.

انتهيـت مـن إعـداد القهـوة ومـلأت كوبًـا لي، ثـم أخـذت رشـفة فتقيأتهـا عـلى الفـور. اللعنـة! مـا هـذا؟ أفرغـت القهـوة بالحـوض وذهبـت إلى الحـمام. خلعـت ملابـسي وجلسـت بحـوض الاسـتحمام وفتحـت صنبـور الميـاه. مِلْـتُ بـرأسي إلى الـوراء وتركـت الميـاه تنهمـر عـلى وجهـي. شـعرت بهـا تسـيل عـلى رقبتـي وكتفـي وصـدري الجـذاب للغايـة. كانـت بـشرتي سـاخنة تـكاد تكـون محمـرة، وكنـت أشـعر بالحرقـة حـين ألمـس حلـمات صـدري. نظـرت إلى نفـسي في المـرآة المعلقـة فـوق الحـوض. لقـد زاد عـرض أردافي، وبطنـي... وضعـت يـدي عليهـا.

حبلى!

(47)

تقـدم ماكسـميليان بتصاميـم وصـور الجرافيتـي خاصتـه مـن أجـل الالتحـاق بالمعهـد العـالي للفنـون بهامبـورج. في فبرايـر 1998 نجـح في اجتيـاز امتحـان القبـول. عـلى الرغـم مـن أنـه لم يحصـل على شـهادة الدراسـة الثانويـة إلا أنـه سـيدرس التصميـم والفنـون التشـكيلية بـدءا مـن فصـل الخريـف.

التقينـا في المكتبـة كي نحتفـل، كان قـد وزع الجولـة الثالثـة مـن المشروبـات حينـما نـزل والـده عـلى الـدرج الداخـلي: "تحـاول والدتـك الوصـول إليـك منـذ سـاعات، هـل هاتفـك مغلـق؟"

"اه! حقًـا؟ أتـود يـا تـرى أن تهنـأني؟" سـأله ماكسـميليان ثـم صـب لنفسـه كأسًـا آخـر مـن الفـودكا "ظننـت أنهـا لا تهتـم لأمـر هامبـورج"

"يجب أن تذهب إلى المستشفى في الحال، تابيا مريضة."

رفـع ماكسـميليان كتفيـه "إنهـا مريضـة عـلى الـدوام يـا أبي، فهـي تعـاني مـن إدمـان النحافـة وفي وقـت مـا سـوف تـذوب وتتحول إلى هـواء."

قال له السيد برايتلينج "هيا! اذهب الآن"

"طبعًا بالتأكيد، حينما تناديني أمي لمرة واحدة في حياتها سأقفز في الحال." شرب الفودكا وصب كأسًا آخر على الفور.

"اغرب عن وجهي يا أبي؛ فلدي ما أحتفل به، وإذا اتصلت أمي مرة ثانية أخبرها أن تذهب إلى الجحيم."

ماتت تابيا تلك الليلة بسبب التهاب رئوي. كانت تصغرني بعام، كانت قد بلغت للتو عامها السابع عشر.

عدت من المدرسة إلى المنزل ووجدت إعلان الوفاة على منضدة المطبخ. كانت أمي قد قصته من أجلي.

قفزت أمام عيني جملة مطبوعة بحروف كبيرة بارزة: لم تركتينا؟

دخل أيكه. كان يدرس في برلين منذ الخريف وجاء في نهاية الأسبوع فقط للزيارة. أعطيته إعلان الوفاة. تصلب وجهه. "تلك العائلة هي إحدى أغنى العائلات بالمدينة. بحوزتهم كل شيء، ويتركون ابنتهم تموت جوعًا."

قلت له: "كانت تعاني من التهاب رئوي."

"لا أحد يموت من الالتهاب الرئوي إلا إذا كانت صحته ضعيفة بالأساس، حينما قابلت تابيا مؤخرًا في عيد الميلاد المجيد كانت مجرد جلد على عظم."

"هل كنتما على موعد؟" لم أكن قد رأيت تابيا منذ عام على الأقل.

"لا، لقد قابلتها صدفة، ولكني كنت معجبًا بها."

"هل ستحضر تشييع الجنازة؟"

"لا، سأعود إلى برلين"

سافر فالك من بيرشتسجادن لحضور الجنازة. منذ حلف اليمين أخذت مكالماتنا الهاتفية تقل شيئا فشيئا. وحينما كان يعود إلى المنزل في نهاية الأسبوع كنت أخبره معظم الوقت بأنني على موعد مع فايلاند. كنت أقضي لياليَ طويلة أكتب القصص القصيرة على كمبيوتر أبي. حينما كنت أنتهي من كتابة واحدة كنت أذهب للقاء فايلاند في مطعمه المفضل. كنا نراجع القصص هناك جملةً جملةً. وكان بحوزته دائمًا زجاجة سائل مصحح كتابة صغيرة يمسح بها ما لا يعجبه. مرة بعد مرة أصبحت الجمل التي تبقى أكثر من تلك التي تُمحى. كنت مثل المدمنة لا أفضل عمل أي شيء سوى الكتابة. وكان فالك يتشاجر معي دائمًا بسبب ذلك. في النهاية اقترح أن نبتعد عن بعضنا فترة. قلت له عبر الهاتف: "بل يمكننا أن ننفصل في الحال." ولكنه لم يُرد سماع شيء عن هذا "أنتِ حب حياتي ولن يتغير في ذلك شيء، كلٌّ منا يحتاج فقط لاستراحة في الوقت الحالي."

على الرغم من ذلك لم يرغب أي منا في الذهاب إلى الجنازة وحيدًا. اصطحبني فالك من المنزل.

كان الثلج يهطل.

صُدمت حينما رأيت كيف كان مظهره منهكًا. كان وجهه شاحبًا مترهلًا وتدلت من فوق زنار بنطاله بطن صغيرة منتفخة. من الواضح أنه لم يعد يمارس تمارين القوة وأخذ يشرب الجعة بدلًا من ذلك. كانت عينا حمراوتين.

قلت له: "يبدو مظهرك مروعًا، ما الذي أصابك؟"

أجاب: "أنا بخير" وقام بتشغيل مساحات الزجاج ثم سألني: "هل ما زلتِ تقابلين ذلك المدعو فايلاند؟"

ضحكت وقلت: "أنت تجعل الأمر يبدو وكأنني على علاقة به."

"هل أنت على علاقة به؟"

"هـل جننـت؟ نحـن نعمـل معًـا، هـذا كل مـا في الأمـر. إنـه يعلمنـي الكتابـة."

"كنت أظن أننا نتعلمها في المدرسة الابتدائية."

"مضحـك للغايـة" أخرجـت لـه لسـاني، ابتسـم ومـرر ظهـر كفـه عـلى وجنتـي وقـال: "أفتقـدك يـا آنّـا".

لم تُدفـن تابيـا عـلى الطريقـة الكنائسـية. حيـث ألقـى أحـد أصدقـاء العائلـة كلـمات النعـي بـدلًا مـن أن يقـوم قسـيس بذلـك. وُضعـت صـورة كبـيرة لتابيـا أمـام النعـش الأبيـض المزيـن باللـون الفـضي. لم تبـد مريضـة في الصـورة بـل كادت تبـدو مزهـرة. كنـت أفكـر كيـف أنهـا تشـبه العارضـات، لم أفكـر بذلـك أبـدًا وهـي عـلى قيـد الحيـاة.

كانـت صالـة التأبـين ممتلئـة عـن آخرهـا حتـى إن النـاس قـد وقفـوا بجـوار الأبـواب والحوائـط. حاولـت أن أخطـف نظـرة عـلى السـيدة بيكمان-كلاجـن التـي كانـت تجلـس مـع زوجهـا وماكسـميليان في المقدمـة تمامًـا. خـلال كل تلـك السـنوات لم ألتـق بهـا ولـو لمـرة.

تـم تشـغيل جهـاز تسـجيل صـوتي، إنهـا أغنيـة تابيـا المفضلـة، عرفتهـا عـلى الفـور. كان أيكـه أيضًـا يسـتمع إليهـا مـن حـين لآخـر.

Twenty-twenty-twenty four hours to go, I wanna be sedat-
ed, nothin' to do and no where to go-o-oh, I wanna be sedated.
Just get me to the airport, put me on a plane, hurry hurry hurry
.before I go insane

بدأ الناس يتزحزحون على الكراسي بشكل مزعج. سمعت سيدة أمامي تهمس بأذن أخرى تجلس بجوارها: "من الذي قام باختيار هذه الأغنية؟ ياله من ذوق منعدم!"

كان ماكسميليان يهز جسده بتوتر. أم كان يتراقص مع الأغنية؟

Ba-ba-bamp-ba ba-ba-babamp-ba I wanna be sedated

لم يظهر الزوجان بيكمان-كلاجن أية انفعالات. بل جلسا في استقامة تامة يكادا يكونا متجمدان.

تقدم أربعة رجال نحو النعش وقاموا بحمله. وقف السيد بيكمان-كلاجن، كان رجلًا ذا هيئة ضخمة وشعر رمادي كثيف. مد يده إلى زوجته التي نكست رأسها وبدى للحظة أنها تفضل الجلوس. أومأت برأسها ببطء. كانت امرأة طويلة ونحيفة للغاية ذات شعر ناعم أشقر وبشرة شاحبة لا تشوبها شائبة، بدى خصرها نحيلًا في ذلك الزي الأسود الضيق الذي كانت ترتديه. وضع السيد بيكمان-كلاجن معطفًا على كتفيها. أمسكا بيد بعضهما ببعض وتبعا نعش ابنتهما في الطريق إلى المدفن المغطى بالثلج. سار ماكسميليان خلفهما، ترك سترته فأخذتها معي. أدار فالك عينيه باستنكار وقال لي: "يمكنه أن يحضر السترة بنفسه لاحقًا، لن يضيع شيء هنا." كانت السترة متشحمة تفوح منها رائحة عفنة وكان الكُم الأيمن ملطخًا بالألوان، ربما كان ماكسميليان يرسم ليلًا باستخدام رشاش رذاذ الألوان.

كانت عائلة بيكمان-كلاجن تمتلك مقبرة عائلية مغطاة بأحجار الجرانيت الثقيلة، تبدو كسرداب صغير، يجلس أمامه تمثال مرمري ضخم لملاك ينكس رأسه ويضع ذراعيه أمام صدره ويغطي بجناحيه ظهره وكتفيه. كان هناك دلو فضي عند قدميه مليء بالورود البيضاء. قام حاملو النعش بوضعه في حفرة حفرت أمام المقبرة، تم فتح

السور المؤدي إلى السرداب تحت الأرض. كان عبارة عن فجوة سوداء كبيرة يُدفع النعش بها لاحقا.

أخذ السيد بيكمان-كلاجن وردتين: واحدة من أجله والأخرى من أجل زوجته. حدق به ماكسميليان، نحى السيد بيكمان-كلاجن وجهه جانبًا، وترك وردته تسقط فوق النعش. استدار ماكسميليان فجأة وتدافع وسط الحضور مُنحيًا رجلًا كان يحاول أن يوقفه جانبًا، ثم بدأ بالجري.

(48)

يبـدو مناسـبًا لـكل شيء بلونـه الأسـود السـادة... هـذا الحـذاء ذو الرقبـة الصغـيرة مرافـق مثـالي لإطلالـة بسـيطة. .... يبـدو الحـذاء القـوي المصنـوع مـن الجلـد الوحـشي كـما لـو أنـه مربـوط مـن تلقـاء نفسـه. ... يُعـد هـذا الموديـل أحـد الموديـلات الكلاسـيكية بـين الأحذيـة الرياضيـة.

أعمل بجنون، إذ تطير أصابعي فوق لوح مفاتيح الكمبيوتر.

أحذيـة شـبه مقفولـة، أحذيـة بربـاط، أحذيـة بعنـق، أحذيـة بكعـب عـالٍ، صنـادل، شباشـب، أحذيـة مقفولـة بكعـب، أحذيـة بـوت طويلـة تصـل إلى الركبـة، أحذيـة بـوت مطاطيـة، أحذيـة بـوت ضـد الجليـد.

هـذا الحـذاء الريـاضي مـن شـأنه أن يقنعـك بوزنـه الخفيـف وآدائـه الرائـع وأريحيتـه المثاليـة... تصميـم الفينتـاج يضفـي الحيويـة عـلى الحداثـة العمرانيـة. خياطـة زخرفيـة: باللـون الأبيـض، شـكل الكعـب: مسـطح، القفلـة: ربـاط... ربـاط ديـربي، طـرف الحـذاء، قصـة معتدلـة، المـادة الخـام للتغطيـة: جلـد...

فرشة حذاء مرنة للمشي تتواءم مع القدم.

يقول أيكه عندما نتوجه إلى استراحة الغداء: "ما الأمر، هل تأخرتِ ثانيةً؟"

"لقد انتهيت رغم كل ذلك."

يرمقني بنظرة لتبدأ مباراتنا اليومية في الرهان: "كم لديكِ؟"

أبتسم وأقول: "تسعون."

يحدق في ويقول: "كيف تمكنتِ من ذلك؟" ثم يضع الطاقية المثبتة بمعطفه على رأسه ويبقي الباب مفتوحًا لأجلي ويضيف قائلًا: أنا جمعت أقل منك بإحدى عشرة قطعة، رغم أنني كنت دقيقًا في موعدي. ياله من أمر سخيف، وعليه يكون طعام الغداء على حسابي أنا."

تنهمر الأمطار بغزارة ونحن نسير عبر الفناء.

"لا أريد أن آكل أي شيء."

ينظر أيكه من أسفل طاقيته ويسألني: "أما زلتِ مريضة؟"

"أنا حامل."

يظل واقفًا وقال: "ماذا؟ أنت تسخرين مني." ثم يسحبني تحت مدخل أحد الأبواب كي نحتمي من المطر ويقول: "أنت جادة إذن، هل الطفل من كونستانتين؟ يا إلهي! يا أختي الصغيرة، يالها من أشياء تفعلينها!"

"لقد وقع الأمر فحسب."

فجأة بدأ أيكه بالضحك: "سأصبح خالًا" وأمال رأسه للخلف ومسح بيده على وجهه وقال: "لقد نضجت أختي الصغيرة."

"لا أشعر بهذا على الإطلاق."

"دعيني أنا أيضًا أعتني بالصغير، هل هو صبي أم أنها فتاة؟"

"لا أعرف بعد."

"هل أعلمتِ أمي أو أبي بالأمر؟ هل يعرف كونستانتين؟"

"سأراه مساءَ اليوم."

"هـذا يعنـي أننـي أول مـن عـرف؟ يـا إلهـي، يـا أختـي!" يعانقنـي ويقـول: "كـم أنـا سـعيد لأجلـك، لا، بـل لأجلكـما. كـم أنـا سـعيد!"

أقول له: "لا أستطيع إدراك الأمر حتى الآن."

(49)

"يجب أن نبحث عنه يا فالك."

توقفنا عند موقف السيارات الخاص بمنطقة المقابر. لم تعد سيارة ماكسميليان الرياضية المكشوفة موجودة. عانقت سترته فشعرت على الفور بتلك الرائحة العفنة ثانيةً، كما لو كان ماكسميليان ينام وهو يرتدي تلك السترة.

نظر فالك إليّ.

فقلت له: "هيا يارجل! إنه صديقك أنت أيضًا. دعنا نتوجه أولاً إلى متجر الكتب."

"هذا عبث! إنه لن يرغب بالتأكيد في الاختباء لدى أبيه، بل سوف يختفي في أي مكان آخر."

وعليه أخذنا نبحث في الحانات والبارات، الأمر الذي لم يستغرق طويلاً لأن مدينة فيسبادن لا تضم الكثير منها تفتح أبوابها فترة الظهيرة. وبعدها قدت فالك ورائي إلى كل الأماكن التي كان ماكسميليان

يذهب إليها لتعاطي الخمر. تحركنا بالسيارة ببطء بمحاذاة جسر السكك الحديدية وقطعنا ساحة فناء المذبح السابق الذي تحول في غضون ذلك إلى مركز ثقافي. بحثت أولاً في نفق مشاة ثم توجهنا إلى الطريق السريع. كنت أصيح عند كل جسر قائلة: "لا أستطيع أن أرى شيئًا فلتقود ببطء أكثر!"

"يا إلهي! لا يوجد هنا حدود للسرعة يا أنّا. إذا توقفت فجأة ستصطدم بنا السيارت المسرعة القادمة من الخلف!"

"ما عليك سوى القيادة بشيء من البطء. هاك، انظر، ها هي واحدة من رسوماته على الجدران."

"كم هذا قبيح!"

حينها كنا قد تجاوزنا الجسر فقلت له: "فلتستدير لتعود أدراجك بالسيارة!"

زمجر فالك وقال: "هذا طريق سريع. فضلاً عن أن برايتلينج لابد وأن يكون مختلاً كي يلطخ ممتلكات الحكومة هكذا في وضح النهار."

"لكنه لطالما أحب رسومات الجدران أو الجرافيتي الذي يصنعه. لذا فهو يعود إليه مرارًا وتكرارًا، كي يراه ثانية. فقد فعلنا ذلك معًا كثيرًا."

"يبدو هذا الشئ شاذ للغاية."

صرخت فيه وقلت: "أنت ليس لديك أدنى فكرة. أتعرف شيئًا؟ دعني أنزل في أي مكان، كي أواصل البحث عنه وحدي."

خبط فالك بيده على مقود السيارة وقال: "أبدًا!" ثم ناولني الهاتف المحمول وقال: "اتصلي به مرة أخر. وإذا لم يرد سنعود إلى المدينة لنكرر محاولة البحث في الحانات والبارات."

كان هاتف ماكسميليان المحمول مغلقًا كما لم يرد أحد على هاتف بيته سوى جهاز المجيب الآلي الذي صدرت عنه رسالة تقول بأن الأسرة في حالة حزن شديد وحداد وتشكر جميع شركاء العمل والزبائن والأصدقاء على رسائل التعازي الكثيرة وأن موعد الدفن سيكون في الساعة الحادية عشر عند المقابر الجنوبية.

إلا أن السيد برايتلينج رفع السماعة وأفاد بأنه لم ير ماكسميليان، ثم أضاف بصوت كله مرارة أن ابنه لو كان قد جاءه لأرسله إلى البيت على الفور. حاولت البحث عن ماكسميليان لدى ميتسي ورودي وكوبرا، وكل من خطر ببالي. وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته.

تسمم الجو بيني وبين فالك، وفي النهاية حل الظلام، فقال فالك: يكفي هذا. سنعود أدراجنا وسوف يظهر برايتلينج ثانيةً. فهو يفعل ذلك كثيرًا. ربما يكون ثملاً للغاية. أنا لم يعد لدي أية رغبة في مواصلة البحث عنه."

"فلتقلني إلى البيت إذن!"

"ماذا؟ بعد هذه الأحداث ستأتين معي إلى البيت."

فكرت في نفسي أنني أحتاج إلى استراحة من العلاقة وقلت: "ليس اليوم."

أخرج فالك شريط كاسيت من درج تابلوه السيارة ودسه في جهاز التسجيل. صدرت على الفور موسيقى هادرة لأغنية تقول: بلى، كانوا أفضل الجنود، أفضل جنود العالم. ونحن لن نخونهم أبدًا، ليس لأجل الرخاء والمال. لأنهم كانوا أفضل الجنود...أغلقت جهاز التسجيل. رفع فالك يده ثم أعادها على مقود السيارة مرة أخرى.

بدأت الشمس تشرق وأخذت بعض ندفات الجليد الصغيرة تتراقص أمام ضوء كشاف السيارة، بينما كانت تذوب على الفور على المساحات.

توقفنـا أمـام بيتـي، وقـد حـل الظـلام ثانيـة في تلـك الأثنـاء. لم ينظـر فالـك إليّ، أخـذت معـي سـترة ماكسـميليان وترجلـت مـن السـيارة؛ فشـغّل الموسـيقى مـرة أخـرى وانطلـق مسرعًـا.

كان أبي يجلـس في غرفـة المكتـب عـلى جهـاز الكمبيوتـر، بينـما لم تكـن أمـي بالبيـت. كنـت أتمنـى أن تعيرني سـيارتها السـتروين.

صاح أبي من وراء مكتبه: "كيف كانت مراسم الدفن؟"

"لا بـأس بهـا." لم يكـن هنـاك أي مغـزى مـن أن أطلـب منـه إعـارتي سـيارته المرسـيدس، فهـو لـن يعطينـي إياهـا؛ لأني اسـتخرجت لتـوي رخصة القيـادة.

كان أحـد أبـواب خزانـة الردهـة مواربًـا وقـد عُلـق فوقـه معطـف أبي. تحسسـت جيـب المعطـف حيـث يضـع أبي مفاتيحـه دائمًـا، وتسـللت خـارج البيـت، ثـم فتحـت المـرآب وأخرجـت السـيارة منـه. كان الجليـد يصـدر أصـوات خشخشـة أسـفل الإطـارات.

توجهـت ثانيـة إلى الحـارة الضيقـة بالمدينـة القديمـة حيـث متجـر كتـب آل برايتلينـج. كانـت البوابـة الحديديـة المنزلقـة مسـدلة أمـام فاترينـة العـرض، كـما كانـت اللافتـة معلقـة عـلى الناحيـة التـي تفيـد بـأن المتجـر "مغلـق". كان كل شيء مظلـمًا بالداخـل، ولكنـي كنـت متأكـدة أن ماكسـميليان سـيظهر هنـا؛ آجـلًا أو عاجـلًا، فهـو ليـس لديـه مـكان آخـر يذهـب إليـه.

انحرفـت عنـد الناصيـة وقـدت السـيارة نحـو الكنيسـة الكائنـة في ميـدان السـوق. سـمقت أبراجهـا الرفيعـة المضيئـة باللـون الأحمـر عاليًـا في عنـان سـماء الليـل. وبـدت تحتهـا أشـجار الدلـب العاريـة مـن الأوراق حيـث اتخـذت قممهـا شـكل كـف اليـد المسـتدير إلى أعـلى وقـد أطبـق على الأصابـع الصغـيرة. كانـت هنـاك ندفـات جليـد متناهيـة الصغـر تتطايـر في الهـواء. ومـا أن تلمـس الأرض حتـى تـذوب وتبـدو وكأنهـا عـاودت التجمـد

ثانيةً. لم يكن الجليد يغطي وسط المدينة بأكملها ولكن الشوارع رغم ذلك كانت ملساء مثل المرآة من الجليد الذي يفترشها. لذا تشبثت بعجلة القيادة، إلا أن السيارة المرسيدس القديمة كانت تندفع للأمام مثل الفهد، وأخذ الجليد يتكسر تحتها من فرط ثقلها.

دقت أجراس ساعة الكنيسة لتعلن حلول منتصف الليل.

عدت مرة أخرى إلى متجر الكتب. كانت الأضواء الزرقاء تومض أعلى الشقة الكائنة فوق المتجر. لا يزال السيد برايتلينج يشاهد التلفاز. توقفت هناك وترجلت من السيارة ثم ذهبت صوب نافذة العرض. أخذت أتلصص من وراءها وطرقت على الزجاج. لا، لم يكن هناك أحد فعلاً. أين هو ماكسميليان؟ إنه لا يرتدي سترته حتى. ربما يكون يتجول بسيارته في مكان ما. يهيم على وجهه بلا هدف. لطالما فعلنا ذلك من قبل. أم لعل فالك محقًا وأن ماكسميليان أفرط في الشراب في حانة ما؟ هل ينبغي أن أعاود البحث في الحانات ثانيةً؟

كان هناك باب آخر يؤدي إلى البيت بجوار المتجر، أدرت المقبض وفتحت الباب. داهمتني على الفور رائحة عفنة ورطبة من الردهة. الأنوار لا تعمل، تحسست طريقي إلى الأمام، يمينًا صندوق البريد. صعدت الدرج. يسارًا الباب المؤدي إلى المطبخ الصغير. هززت مقبض الباب، إنه موصد. في الخلف مدخل القبو. نظرت بأسفل. تسلل ضوء خافت من أسفل عقب الباب.

جلس ماكسميليان مستندًا بظهره على الحائط الخرساني. لايزال يرتدي القميص الأبيض الذي كان يرتديه في أثناء مراسم الدفن. كانت عيناه مغمضتين وشفتاه مكسوتين باللون الأزرق. افترش الورق ساقيه الممدتين، لا بل صفحات كتاب هي التي غطت كذلك الأرضية كلها. يبدو أنه حاول الاحتماء من البرد بهذه الطريقة.

توقفت أنفاسي بلونها الأبيض في الهواء.

استدرت وركضت إلى أعلى وأخذت أطرق باب شقة السيد برايتلنج بقوة حتى فتح الباب وهو يتثاءب. "لقد قلت أنه ليس..."

"إنه بأسفل! فلتأتِ معي!" ركض السيد برايتلنج خلفي، إلا أنه توقف فجأة أمام مدخل القبو وقال: "ما الذي حدث هنا؟ ماذا فعلت بكتبي؟ ماكسميليان!" أسرع نحو أحد أرفف الكتب وأمسك بغلاف كتاب ممزق فصدرت عنه صيحة فزع. وتوجه بعدها إلى ابنه وأطبق على كتفيه وأخذ يهزه وقال: "لماذا تفعل ذلك؟ هذا الهراء! ماذا بك؟ هل أنت ثمل أم ماذا؟ افتح عينيك، هيا انظر إليّ!"

فجأة تأوه ماكسميليان، ورمش بعينيه. حينئذ شعرت بالارتياح لدرجة أن الدموع انهمرت من عيني. رفع السيد برايتلنج يديه عن ابنه وارتد خطوة للخلف، نظر ماكسميليان إليه عاليًا وقال: "أبي!"

حدق به السيد برايتلنج.

أخذتِ الأوراق تخشخش أسفل قدميه.

"لماذا فعلت ذلك؟"

"سرت رعشة في جسد ماكسميليان وقال: "لم أعرف إلى أين أذهب." وبدأت أسنانه تصطك ببعضها. أخذ السيد برايتلنج ينظر حوله في المخزن ويتفقد الأرفف بعينيه وقال: "كيف سمحت لنفسك بالعبث بكتبي؟" ثم عاد بنظره إلى ماكسميليان الذي كان جسده كله يرتعد وسأله: "هل تحتاج إلى طبيب؟"

"لا أعتقد ذلك."

"فلتغرب عن وجهي إذن، لقد تجاوزت كل الحدود هذه المرة، فأنا لا أريد أن أراك ثانية أبدًا."

تمكـن ماكسـيمليان بالـكاد مـن الوقـوف عـلى قدميـه. فسـندته أنـا حتـى جلـس عـلى المقعـد المجـاور لي بالسـيارة، وسـاعدته كي يرتـدي سـترته وغطيتـه كذلـك بمعطفـي. التفـت ماكسـميليان برأسـه نحـوي وحـاول أن يبتسـم وقـال: "إننـي لسـت ثمـلاً حتـى."

ركبـت السـيارة وأدرت المحـرك وشـغلت التدفئـة عـلى أقـصى درجـة وسـألته: "لمـاذا لم تـأتِ إلي؟"

سرت الرعشـة بجسـدة مـرة أخـرى. "تلـك الكتـب اللعينـة." همـس بهـا وسـند رأسـه عـلى نافـذة السـيارة وسـألني قائـلاً: "ألا زلـتِ تكتبـين؟"

تطايرت ندفات الجليد أمام زجاج السيارة.

سألته: "إلى أين تريد الذهاب؟"

قال بصوت واهن: "فلتأخذيني إلى البيت."

نظرت إليه.

كان قد أغلق عينيه.

(50)

دق جـرس البـاب، وصلـت السـيارة الأجـرة. أسرعـت بارتـداء معطفـي وعلقـت حقيبـة يـدي عـلى كتفـي ودسسـت بهـا هاتفـي المحمـول. هـل جميـع النوافـذ مغلقـة؟ أطفـأت الأنـوار وأغلقـت بـاب الشـقة خلفـي ثـم ألقيـت بالمفتـاح في الحقيبـة.

أقلتنـي السـيارة إلى فنـدق عنـد حديقـة الحيـوان. جذب عامـل البوابة البـاب ليفتحـه، أو أظـن أنـه يطلقـون عليه مسـمى بـاب الأوتوموبيل.

"هل معكِ حقائب؟"

أقول له: "لا أحمل سوى نفسي."

يبتسـم عامـل البوابـة بسـعادة، يخـرج مـن الفنـدق أربـع سـيدات منتقبـات ليصعـدن عـلى مـتن سـيارة ليموزيـن كبـيرة الحجـم.

تقـول موظفـة مكتـب الاسـتقبال بعـد أن اتصلـت بـك لتخـبرك بزيـارتي: "حجـرة رقـم 802." ثـم تدلنـي إلى طريـق المصعـد.

بهو الفندق تغلب عليه درجات البني والذهبي يتوسطه سلم مفتوح مكسو بالرخام وتحيط به أعمدة من الرخام. في كل مكان تصطف مقاعد كبيرة مغطاة بالحرير وموائد شاي صغيرة ومزهريات وأصص زهور. إحياءً للزمن القديم، ربما تكون فترة العشرينيات الذهبية هي المقصودة. بينما الفندق نفسه لم يمر على وجوده عشر سنوات.

يخرج من المصعد مجموعة من الأمريكان يرتدون بدلات وفساتين سهرة وأحذية مريحة؛ أنا الوحيدة التي تركب المصعد.

هناك ملصق معلق بين مرآتين لهما إطار ذهبي مصور عليه: رجل وسيم وراقي يستلقي بين جبال من الرغو في مغطس الحمام ويوجه مسدس ماء نحو موظفة الفندق. يدها وزيها بللهما الماء. وقد رفعت يديها عاليًا وهي تضحك. بينما كُتب أسفل الصورة: نحن نحقق لك أكثر أمنياتك غرابة.

كنت قد وضعت فردة حذاء لتمنع الباب من الانغلاق، فنحيتها أنا جانبًا وأغلقت الباب ورائي.

تنادي أنت قائلاً: "ضعيها في الخزانة وحسب."

جدران الحجرة الكبيرة للغاية مغطاة بالخشب وبساط الأرضية مزركش باللون الأسود، تطل النوافذ على حديقة الحيوان، يذكرني الأثاث بغرفة معيشة أجدادي في قرية زيركسدورف.

أنت ترتدي بدلة رياضية وسترة بغطاء رأس، يبدو أنك حلقت ذقنك لتوّك وسرّحت شعرك للخلف في خصلات متجمعة. على شكل أسلاك نحاسية. ترتدي نظارتك التي لا إطار لها وتوجه نظرك إلى جهاز اللاب توب. "سأوافيكِ على الفور. هناك شيء يجب أن أنهيه أولاً."

يبدو الجهاز شديد الصغر بدرجة مضحكة على المائدة الضخمة. تغطي الأوراق والمستندات الطاولة، إلا أن الغرفة مرتبة للغاية بخلاف ذلك، كما لو أنك لم تنتقل إليها بعد على الإطلاق.

تقول أنت: "اجلسي. هل يعجبكِ الفندق؟"

أقول وأنا واقفة: "قديم الطراز إلى حد ما."

تنظر عاليًا وتقول: "هل تعتقدين ذلك؟ أتعرفين لماذا اخترت هذا الفندق؟"

"لماذا؟"

"حجرة المدخنون هنا اسمها نادي المحترمين." أبتسم.

تقول وأنت تعاود النظر إلى شاشة جهاز اللابتوب: "كنت أتمنى أن يعجبك."

أجلس على حافة الفراش. قرابة الشهرين الآن لم أرك فيها سوى عبر برنامج سكايب على الإنترنت. بدا لي الأمر وكأنك كنت أقرب لي حينها عما هو الحال الآن.

تقول وأنت تغلق اللاب توب وتزيح الأوراق لتجمعها في كومة واحدة: "لديهم هنا مطعم مُعتبر للغاية. لقد حجزت لنا طاولة وطلبت زجاجة شمبانيا مثلجة. لأننا لدينا مناسبة لنحتفل بها."

"ما هي؟"

عندئذ تنهض وتفرد ذراعيك وأنت مبتسم. لأرتمي أنا بينهما بكل سعادة. ألتصق بك. رائحة عطر الليمون على بشرتك! تقبلني، فأشعر بمذاق النبيذ وقليل من دخان السجائر. تمر بيديك بين شعري وتهمس إليّ قائلًا: "لقد اشتريتكم اليوم."

أقول وأنا مشدوهة: "ماذا؟"

تضـع يديـك وراء عنقـي وتنظـر إلي في عينـي وتقـول: " أحذيـة يونيفرسـال. صحيـح أن وضعكـم المـالي ليـس جيـدًا ولكننـي سـأعيدكم للمقدمـة ثانيـة." تبتسـم بشـماتة وتضـع جبهتـك عـلى جبهتـي وتقـول: "أنـا الآن رئيسـك في العمـل. مـا رأيـكِ؟"

"كونستانتين، يجب أن أقول لك شيئًا."

تتطلـع إليّ وتقـول: "يالـه مـن أمـر جلـل، ولكـن هـذه الأشـياء تحـدث." ثـم تصطحـب معـك إلى الحـمام القميـص النظيـف والبنطـال الذيـن كانـا معلقـين عـلى مسـند الكـرسي، وتغلـق البـاب وراءك لتبـدل ملابسـك اسـتعدادًا لتنـاول الطعـام.

نجلـس أخـيراً في مطعـم الفنـدق عـلى مائـدة بيضاويـة الشـكل عليهـا مفـرش أبيـض مزركـش بالخيـوط الفضيـة. لا يجلـس هنـاك عنـد ديكـور النافـذة سـوى ثلاثـة مـن رجـال الأعـمال أخـذوا يتحدثـون بصـوت خافـت.

هنـاك بجانبـك وعـاء ثلـج بداخلـه زجاجـة شـامبانيا، بينـما تتوسـطنا باقـة مـن الزهـور وأوراق الشـجر الخـضراء الزاهيـة والـورود ذات اللـون البرتقـالي الفاتـح وزهـور الليلـك البيضـاء التـي يفـوح منهـا عطـر حلـو الرائحـة. يقـترب النـادل فتشـير لـه بيـدك غاضبًـا حتـى يتراجـع للخلـف ثانيـةً.

تسألني: "هل ذهبتِ إلى الطبيب؟"

"لقد حددوا لي موعدًا الأسبوع القادم."

تهـز رأسـك وتقـول: "لابـد أن تسرعـي في ذلـك." ثـم تقـف وتقـول: "أتعرفـين، سـأتصل بجينـي."

"ومن هي؟"

كنـت تمسـك الهاتـف بيـدك. "شريكـة عمـل. تعرفينهـا بالفعـل. كانـت في الحانـة أيضًـا آنـذاك. زوجهـا لديـه عيـادة في منطقـة جـسر كـودام.

"سـأعود عـلى الفـور." قلتهـا لي وأنـت تسـتأذن للخـروج كي تجـري مكالمـة تليفونيـة في هـدوء.

هنـاك حـوض أسـماك ذو إضـاءة خافتـة عنـد البـاب، تلمـع داخلـه أسـماك كركـدن البحـر الحمـراء الملفوفـة زبانيهـا بشريـط لاصـق أسـود اللـون. تعيـش أسـماك كركـدن البحـر طويـلاً مثـل الأفيـال، أي أنهـا تصبـع طاعنـة في السـن. إذا تركوهـا تعيـش. لا أسـتطيع أن أشـيح ببـصري عـن زبـاني الكركـدن. أشـعر بدغغـة في بطنـي، أشـعر بالغثيـان.

تعـود ثانيـة وتجلـس. "لقـد نجحـت. موعـدك تحـدد بالفعـل ليكـون غـدًا في الثامنـة."

"هل ستأتي معي؟"

"لا أسـتطيع، فأنـا مرتبـط بموعـد آخـر لا يمكننـي تأجيلـه." تزيـح باقـة الزهـور جانبًـا لتمسـك بيـدي وتضيـف قائـلًا: "ولكـن إذا أفلـح كل شيء سـأمر لأقلـك بعدهـا."

أسألك: "ماذا سنفعل الآن؟"

تبتسـم وتقـول: "قبـل كل شيء سـنأكل." ثـم تلـوح للنـادل وأنـت لم تقـرأ قائمـة الطعـام بعـد.

يأتي النادل إلى الطاولة ويسأل: "هل اخترتما ما ترغبان في تناوله؟"

ترد أنت وتقول: "نعم، سنأخذ كركدن البحر."

"أنا لن أتناوله."

لا تكلـف نفسـك عنـاءَ النظـر إليّ: "بـلى سـتأكلينه، يجـب أن تجربيـه، إنـه طـازج للغايـة." ثـم تمسـك بقائمـة النبيـذ.

أقول: "إنهم يلقون بها حية في الماء المغلي."

تفتـح قائمـة النبيـذ وتقـول: "إذا جربـتِ لحمهـا ذات مرة سـتعرفين أن الأمـر يسـتحق. لقـد طبختهـا بنفـسي. إنهـا حيوانـات قشريـة، أي لا تلحـظ شـيئًا عـلى الإطـلاق. ترتعـد للحظـة ثـم تمـوت."

مـرة أخـرى هـذا الشـعور الغريـب في بطنـي: "رجـاءً ياكونسـتانتين لا تقـول ذلـك ثانيـةً؛ كـم هـذا بشـع."

(51)

تـؤدي أغلـب الشـوارع مـن وسـط مدينـة فيسـبادن صـوب الحـي السـكني الـذي يقـع في مـكان عـالٍ. أقـود السـيارة مرورًا بشـارع بيرشـتادتر الـذي كان الجليـد منثـور بـه قليـلًا في البدايـة، ثـم أصبـح جليـدًا كثيفًـا فـوق أسـطح المنـازل. مـا أن عرجـت عـلى الحـي الأمريـكي تأرجحـت السـيارة المرسـيدس القديمـة قليـلاً ثـم ارتـدت إلى حـارة السـير مـن تلقـاء نفسـها. نظـرت نحـو ماكسـميليان فوجدتـه نائمًـا. فانحرفـت في شـارع جـراف فـون جـيرلاخ لتصعـد السـيارة الجبـل عاليًـا كـما لـو كان هنـاك مـن يشـدها بحبـل خفـي. مـررت بمقابـر زونينبـيرج. ويسـارًا عنـد التقاطـع التـالي. كان الشـارع عنـد مفـترق الطـرق يكسـوه الجليـد الكثيـف. توقفـت عنـد بوابـة بيكـمان - كلاجنـز، ولامسـت يـد ماكسـميليان، التـي كانـت بـاردة وقلـت لـه: "لقـد وصلنـا."

فرد وعيناه مغلقتان: "أعرف."

"هل أدق الجرس؟"

نظـر لأعـلى وقـال: "لا، أخرجينـي مـن هنـا، سـأدخل وحـدي." ثـم وضـع يـده عـلى بـاب السـيارة وفتحـه، أخـرج قدمًـا وهـو متيبـس، وتبعتها القـدم الثانيـة. التفـت إليّ وقـال: "أتعرفـين؟"

"ماذا؟"

"لن أُقبلك الآن ثانية وإلا ستموتين."

اتخذت عيناه درجة اللون البني الشبيهة بلون العسل.

"أنت لم تُقبلني أبدًا يا ماكسميليان."

ابتسـم وأومـأ كـما لـو أنـه يُومـئ لنفسـه وقـال: "لطالمـا أحببـت هـذه الحكايـة الخياليـة، يكـبر الجميـع ويصبـح كل شيء عـلى مـا يـرام." ثـم ترجـل مـن السـيارة، وأغلـق البـاب برفـق وسـار بخطـى غـيرِ واثقـة نحـو البوابـة. التـي ظلـت تتأرجـح كـما لـو هنـاك شـبح يحركـه بيـده، ثـم انغلقـت وراءه.

انطلقـت في طريـق العـودة مـن الشـارع الـذي كان منحـدرًا لأسـفل. اسـتطعت أن أرى بـرج قلعـة زونينبـيرج المـضيء مـن مـن فـوق قمـم الأشـجار وأسـقف الجملـون. مثلـما كنـت أراه قديمًـا مـن حجـرة الفصـل في المدرسـة.

كان طريقنـا القديـم إلى المدرسـة يمـر بنـا أمـام الفيـلات والحدائـق الكـبرى؛ بمـرج بـه تليفـون يسـتخدم بالعملـة وأريكـة خشـبية تمتـد أمامهـا الرؤيـة حيـث المدينـة بأكملهـا. وعـلى بعـد مـتر واحـد مـن الأريكـة الخشـبية هنـاك منحـدر شـديد، اعتدنـا ونحـن أطفـال أن نطلـق عليـه هُـوة الشـيطان. ازداد الشـارع ضيقًـا خلـف المنحنـى التـالي، إذ تجمعـت البيـوت المزينـة بالخشـب واقتربـت مـن الشـارع. حتـى أن أبوابهـا كانـت تنفتـح عـلى الرصيـف مبـاشرةً.

هنا كانت المدرسة. تفوقها القلعة طولًا.

فناء المدرسة، السور المنخفض المحيط به، صالة الجمباز، الملعب الرياضي. انتهى الشارع عند حارة سد، وعندما انحرفت طقطق الجليد أسفل إطارات السيارة التي انزلقت فتمايلت السيارة، بدت نوافذ المدرسة أشبه بالمرايا السوداء.

ضغطت على الوقود وارتددت للخلف، لم أرغب سوى في العودة إلى البيت، إلى فراشي الوثير، أسفل السقف المائل، حيث تصاعد الجليد دائريًا لأعلى.

فناء المدرسة، القلعة، البيوت المزينة بالخشب. ضغطت على المكابح. المنحنى. انحرفت السيارة وطارت فوق الرصيف وانزلقت في المرج حتى اصطدمت بالأريكة الخشبية التي سقطت بطول المنحدر. استدارت السيارة، فانزلقت الإطارات الخلفية. انحشرت في مقعدي. وانفتح غطاء الرادياتير. رأيت النجم الفضي يلمع فوقي. بدا كل شيء وكأنه قد تجمد للحظة، ثم انقلبت السيارة.

انحشر الباب فتسللت من النافذة الجانبية المهشمة، حتى أن شظايا الزجاج انغرست في لحم يدي. آلمني قفصي الصدري مع كل نفس. وظلت أفرع الشجر تتهاوى تجاهي. كما تهاوى الجليد فوقي. كانت السيارة المرسيدس مقلوبة وسقفها إلى أسفل وعجلاتها مستمرة بالدوران، بينما وأغطية الإطارات المعدنية تلمع. تصاعد الدخان من رادياتير السيارة المهشم. تسللت جاثية كي أصعد نحو المرج وبقيت لحظة مستلقية على بطني وسط الجليد. ثم نهضت بسرعة وأخذت أركض.

كانوا جميعًا نيامًا، حتى أمي. ظللت أدق جرس الباب دون هوادة حتى سمعت أخيراً وقع أقدام تقترب من ردهة البيت. فتح أبي الباب وسألني: "هل نسيتِ مفتاحك؟" ثم اتسعت عيناه من فرط الدهشة وقال: "ماذا حل بكِ؟"

"أبي، سيارتك، لقد وقع لي حادث."

أطبق على كتفي وقال: "أنّا، هل أصابك شيء؟"

"لا، ليس بي شيء، ولكن السيارة..."

جذبني بين ذراعيه وطوقني.

نظر فايلاند عاليًا، كنا نجلس عند النافذة في مقهانا المفضل. خلع نظارته الصغيرة وطوى ذراعيها الواحد تلو الآخر ثم دس النظارة في جيب سترته وقال: "فلتلغي النهاية لتصبح قصة جيدة، دعي السيارة تنقلب لتكن تلك النهاية."

لطالما كان يطلب مني دائمًا أن أزيد قصصي حدة، وأبتعد عن الأمور الزائدة عن الحد-أو كما يقول إعمال المشرط.

عندما كنت أحكي لجدي عن ذلك كان ينفعل بشدة ويقول: كنت أحكي قصصي دائمًا كما حدثت تمامًا. فلا صلاح لكِ إلا إذا التزمتِ بالحقيقة والحياة الفعلية، ألا يعرف هذا الرجل أن الكتابة تعني التوثيق؟"

إلا أنني ألغيت النهاية رغم ذلك وفزت بالجائزة الرئيسة في إحدى مسابقات الكتابة نظير هذه النسخة: لا سيما سمينار في عطلة نهاية الأسبوع مع كُتّاب آخرين من الشباب وألف مارك نقدًا. كنت أريد أن أعطيها لأبي لتعويض جزء صغير من خسارته في السيارة. فقد كان التأمين يشمله هو وأمي فقط ولا يشمل تغطية نفقات حادث تتسبب فيه قائدة سيارة مبتدئة.

لم يُرِد أبي أن يأخذ النقود وقال: "فلتوفريها لأجل لايبزيج." لأنني من المفترض أن أبدأ دراسة القانون هناك خلال أسابيع.

اشتريت جهاز كمبيوتر وكتبت أولى رواياتي.

(52)

طبيب أمراض النساء والتوليد رجل قصير القامة وأصلع ولديه تجعيدة غائرة في جبهته. يرتدي نظارة نظر عصرية وبنطالًا لونه كاكي وقميصًا لبنيًا فاتحًا، أسفل معطف الأطباء مفتوح الأزرار.

"والآن لا تتشنجي!" قالها لي وهو يضع المادة الهلامية على مجس جهاز السونار ليمرره على المهبل لدي. نظر إلى الشاشة التي أدارها بعيدًا عني، فلم أعد أرى سوى الغطاء الرمادي حاد الزوايا الذي ينبعث من فتحات التهوية به دفء جاف تجاهي. دفع الطبيب المجس أعمق، قال وهو ينظر بتركيز على الشاشة: "فلتبقي مسترخية." ثم أومأ وقال: "الأسبوع السابع أو الثامن؛ آن الأوان."

اعتدلت في جلستي قدر المستطاع مع مراعاة ساقاي الملطختين بالهلام، فانزلق المجس قليلاً ليخرج من فتحة المهبل. فأعاده الطبيب مكانه ثانيةً. ياله من ألم حارق، تشبثت بمساند الذراعين وسألته: "هل لي أن أرى أنا أيضًا؟"

نظر إلي وقال: "هل أنت متأكدة من أنك ترغبين في ذلك؟

"ولِمَ لا؟"

أدار الشاشة ناحيتي. رأيت بقعًا بيضاء دائرية الشكل تشبه ندفات الجليد، بداخلها نقطة نابضة؛ قلب طفلي.

أخرج الطبيب مجس السونار ومسحه بمنديل ورقي وقال: "يمكنك ارتداء ملابسك الآن." ثم توجه صوب مكتبه وقال: "سوف تعطيك مُساعدتي عنوان مكان ستحصلين فيه على استمارة استشارة. يتعين عليكِ الذهاب إلى هناك بنفسك للأسف وفق التعليمات. لكنهم ينجزون الأمر بسرعة. كما ينبغي أن تحددي موعدًا لدى مكتب الاستقبال لأجل عملية الإجهاض فالحجز لدينا كاملٌ إلى حد كبير."

اعتدلت في جلستي تمامًا وأنا أشعر بحرقان في مهبلي الذي خرجت منه بقايا السائل الهلامي، وقلت: "إجهاض؟ لماذا؟ هل الطفل ليس على ما يُرام، هل هو مريض؟"

تعجب الطبيب وقال: "كيف مريض؟ لا. ولكن ألم تكن رغبتك... لقد قيل لي..." ثم خلع نظارته ووضعها أمامه على المكتب وفرك عينيه: "هل يعني ذلك أنكِ تنوين الاحتفاظ بالطفل؟"

غادرت عيادة الطبيب ونزلت الدرج وفتحت الباب ثم خرجت إلى الشارع. في هذه اللحظة توقفت سيارة أجرة عند الرصيف لتترجل أنت منها مبتسمًا وتقول: "لقد نجحت في الوصول. هل انتهيتِ؟ دعينا إذن نذهب من هنا. هناك مقهى قريب."

"أنت تريد قتل طفلي."

تنظر إليّ مندهشًا وتقول: "أنّا، ماذا تقولين؟" ثم تقترب مني، تقترب بشدة وتطوقني بذراعيك ثم تجذبني إليك وتقول: "كم هذا قاسيًا، لا تقولي هذا ثانية."

"لكن الطبيب..." لم أتمكن من نطق هذا الكلام مرة أخرى، غص حلقي .

وضعت وجنتك على شعري وأخذت تداعب عنقي من الخلف، وقلت برقة: "سوف يصبح كل شيء على ما يرام. حتى وإن آلمك ذلك قليلاً الآن فلن يمكنك الاحتفاظ بالطفل. أنت نفسك تعرفين ذلك جيدًا. أنت في حاجة إلى حريتك، إذ أنك تعيشين دون قيود وليس لديك وظيفة ثابتة. كيف يمكنك ذلك؟ لا أحد يربي طفلاً هكذا. هذا مستحيل، بل وتصرف غير مسئول. بالطبع سوف أرافقك وأمسك بيدك وأساعدك في اتخاذ القرار. وبعدها سأقتنص عدة أيام كي آخذ إجازة نقضيها معًا لنسافر إلى أي مكان دافئ. فقط نحن الاثنان."

لم أتمكن من مواصلة الحديث، كان حلقي يحرقني وقفصي الصدري يؤلمني، كما لو كنت على وشك الانفجار.

"أنا؟"

همست قائلة: "لا أستطيع."

عندئذ أطبقت على ذراعي بشدة وأبعدتني عنك قليلاً ونظرت إلي في عيني وقلت: "أنّا فلتتحلي بالمنطق. أنا مريض. تعرفين ذلك. طفل - لن أعيش كي أربيه ولن أقوى على أن أتقيد هكذا مرة أخرى. رجاءًا لا تفعلي هذا بي."

"لقد رأيت قلبه ينبض ياكونستانتين."

لا اتصال تليفوني واحد، لا رسالة أو خبر. حساب الاتصالات سكايب دائمًا مغلق. فقط عندما أبحث عن اسمك على محرك البحث جوجل أرى في الرسائل أنك تبيع "أحذية يونيفرسال."

ثم يصلني خطاب من قسم شئون العاملين مفاده كالتالي: "كما تعرفين تتجه شركة "أحذية يونيفرسال" وجهة جديدة تمامًا. ونحن

ندرك في هذا الإطار أهمية إعادة الهيكلة داخل الشركة، ويؤسفنا أننا لن نستطيع أن نستمر في تعيينك موظفة لدينا. لذا نشكرك على التعاون الجيد ونتمنى لكِ النجاح في المستقبل."

يقول أيكه: "يفصلونك لأنك حامل، يمكنك مقاضاتهم لهذا السبب، وكيف ستحصلين على عمل آخر في وجود طفل؟ سينتهي بكِ المطاف إلى مكتب الشئون الاجتماعية، ثم ستضطرين لترك الشقة هنا، إنهم في غاية القسوة - صديق لي كانوا كذلك قد... سأجلب لكِ محاميًا."

أقول له: "أنا أعمل بشكل مستقل، تعرف ذلك جيدًا، أي أنني لا أخضع لحماية ما. يستطيعون سحب أي تكليف مني وقتما شاءوا، أي كان السبب."

يحدق أيكه في ويقول: "وماذا أنت فاعلة الآن؟ كيف ستدفعين إيجار الشقة الشهر القادم؟ وماذا عن تأمينك الصحي؟ ستنجبين طفلاً. يجب أن تطعميه. أنت تحتاجين عملاً."

إلا أن كونستانتين يتصل بي في مساء نفس اليوم. للمرة الأولى منذ أن افترقنا أمام عيادة الطبيب. يصدر الهاتف المحمول طنينًا فأرى اسمه يضيء على شاشته.

يقول: "إنه أنا."

"أعرف."

"أفكر فيكِ كثيراً. كيف حالكِ؟"

"أصدقك. لا أشعر بالغثيان الآن إلا عند تناول الطعام. فأنا الآن في الأسبوع العاشر. سأذهب بعد غد إلى الطبيبة لعمل سونار."

"هل وصلك خطاب الاستغناء من العمل؟"

"هل تتصل لهذا السبب؟"

"أتمنى ألا تكوني قد شعرتِ بالفزع بسبب ذلك."

أصمت.

يـردف قائـلًا: "بالطبـع يمكننـا إعـادة تشـغيلك مـرة أخـرى؛ فأنـت تكتبـين جيـدًا ونصوصـك تعجبنـي. أتخيـل أنـك سـتترقين سريعًـا معنـا، إن عقـدك أمامـي الآن، فلتتخـذي القـرار."

وظيفة ثابتة في مقابل الإجهاض.

"هذا عرض سخي للغاية يا أنّا. أرجو ألا ترفضينه."

"أنت لم تنصت لما قلت يا كونستانتين."

بعـد نصـف سـاعة أخـبرني برسـالة نصيـة عـلى الهاتـف أنـه يشـك في أبوتـه لهـذا الطفـل ويتوقـع منـي أن أرتـب موعـدًا في معمـل جينـات وأن أجـري اختبـار أبـوة بعـد الـولادة مبـاشرة.

وأخـبرني في رسـالة لاحقـة أنـه لـن يشـارك في دفـع مصاريـف إعاشـة الطفـل - في حالـة ثبـوت أبوتـه لـه - بـكل أسـف. لأنـه اضطـر للاسـتدانة عنـد شراء "أحذيـة يونيفرسـال" وأصبـح الآن رجـلاً فقـيراً. لـذا يمكننـي التوجـه إلى مكتـب الشـئون الاجتماعيـة.

أمـا الرسـالة الثالثـة فقـد وصلتنـي بعـد منتصـف الليـل بوقـت قصـير: "لا ترتكبـي خطـأ، يـا أنّـا. فلتجهـضي الطفـل. ليـس أمامـك خيـار آخـر."

أشـعر وكأنـه يلـف حبـلاً حـول عنقـي ويشـده. يجـب أن أضـع أصبعـي تحتـه وأحلـه بطريقـة مـا كي أتنفـس أنـا وطفـلي. ولكـن كيـف؟ لا أعـرف.

أضـع الهاتـف المحمـول عـلى مكتبـي وأنهـض. يجـب أن أخـرج مـن هنـا. أشـعر بالـدوار. أترنـح قليـلاً، أشـعر بشـد خفيـف في بطنـي. ربمـا أصـاب بالغثيـان الآن. سيان، لا أطيـق البقـاء في الشـقة. سـتتحسـن حالتـي عندمـا أخـرج. أرتـدي معطفـي وحـذائي. عندمـا أنحنـي كي أغلـق سوسـتة

الحذاء تنتابني قشعريرة. يرتعد جسدي. لماذا أشعر بالبرودة فجأة؟ تزداد تقلصات بطني. طفلي. ينساب شيء دافئ ومبلل من بين سروالي الداخلي والبنطال الجينز. لا، أرجو ألا يصيب طفلي شيء، لا أريد أن أخسره.

أستلقي في غرفة دون نوافذ. رغم أنها دافئة وخانقة إلا أنني أشعر بالبرودة ويرتعد جسدي بأكمله. ولكني يجب أن أبقى هادئة وأتنفس بانتظام وعمق. كي يحصل الطفل على الأكسجين، على حد قول الطبيبة. التي تقف عند نهاية السير وتتحدث بصوت عالٍ وبسرعة: "ستبقين في الفراش لا محالة. ممنوع أي إجهاد جسدي. عليكِ أن تتفادي كل شيء من شأنه أن يثير أعصابك أو يثقل عليكِ. دعي صديقك أو زوجك يرعاكِ. واتصلي على الفور بطبيب الطوارىء إذا أصابك النزيف مرة أخرى." تخلع الطبيبة القفاز الذي ترتديه في يد واحدة وتلقي به في سلة المهملات. "لا يمكنك فعل ما هو أكثر من ذلك في تلك المرحلة المبكرة من الحمل للأسف." تقطب جبينها وتضغط شفتيها معًا وتومىء بحسم ثم تدون شيئًا في الورق المثبت بالسرير وتومىء ثانية وتقول: "تشبثي به. حاولي أن تتشبثي به."

(53)

كانـت أمـي معـي في الصالـة الدائريـة. لن أنـسى مطلقًا كيف أمسـكت بيـدي بقـوة ودفء، كـما لـن أنـسى وقـع صوتهـا الهـادئ والواثـق. حيـث قالـت: "أنـت تبلـين بـلاءًا حسـنًا. كـدتِ تنجحـين. سرعـان مـا سـيأتي يـا أنّـا."

إنهـا لم تعـد تريـد أن تعـرف أي شيء عـن والدهـا منـذ أن اختفـى. كـما أنهـا لم ترغـب في مشـاهدة ملفـات القضيـة والفيلـم.

أهدتنـي كتـاب الحواديـت والأسـاطير خاصتهـا بمناسـبة ميـلاد لـوكاس. كثـيرًا مـا يكـون مـن الأفضـل روايـة الحكايـة هكـذا وليـس كـما كانـت.

النوافـذ مفتوحـة عـلى آخرهـا. مـا أن يسـتغرق لـوكاس في النـوم حتـى أذهـب إلى المطبـخ لأجلـس أمـام مكتبـي. أستنشـق بعمـق نفحـات الصيـف التـي تهـب داخـل البيـت نحـوي. أنصـت إلى الأصـوات الغريبـة، إلى الضحـكات البعيـدة.

أكتب..

في بعض الليالي أتوق فجأة إلى الخروج في الهواء الطلق، وأتخيل نفسي وأنا أغادر للحظة باب البيت وليس الشقة فقط، وأتخيل نفسي كيف أطأ الشارع وأتنفس الهواء ثم أميل برأسي إلى الخلف وأشعر بدفء شعري في ظهري وأنظر عاليًا إلى السماء. لا أريد سوى النزول إلى الشارع والدوران حول المربع السكني أو العدو كي أعود إلى البيت في لمح البصر كي لا أترك لوكاس وحده لبضع دقائق من دوني في الشقة، في حال إذا استيقظ فجأة من نومه. لم يكن ليلحظ غيابي مطلقًا، حتى وإن استيقظ بينما أركض مثل البرق حول المربع السكني - أستنشق الهواء وأستطلع الأمور وأشم وأعدو ثم أعود مرة أخرى وأصعد الدرج بخطوات واسعة، أفتح الباب وأقف أمام سرير لوكاس حتى قبل أن يبدأ في الصراخ، يغمز لي لتوه بعينه، وأنا ربما أتغيب نفس هذه المدة القصيرة في دورة المياة، وهو لن يستطيع أن يعرف ولم يكن لينقصه شيء-ولكني لن أتركه وحده في الشقة أبدًا، ولا حتى دقيقة واحدة.

أستيقظ وأذهب للاطمئنان عليه. هاهو ينام وقد ضم ذراعيه ووضع كفيه الصغيرين على وجنتيه. يرتعد إصبعه الإبهام قليلاً وما لبث أن دسه في فمه وراح يلعقه مصدرًا صوت منخفض.

لوكاس ليس طفل يسهل اصطحابه إلى أي مكان؛ فهو يبدأ في المللمة عندما يحين موعد نومه. كما أنه لا ينام بسلاسة في عربة الأطفال؛ إذ يرغب في العودة إلى البيت. وهو ليس طفل يمكنك وضعه على بطنك أم صدرك أو تعليقه ورفعه بحمالة الأطفال لتأخذه معك إلى مطعم مفتوح لتناول الجعة، أو دار سينما مفتوحة أو حتى إلى المرعى الكائن خلف البيت. إذا صدقنا أعمدة إرشادات الآباء التي لا أريد أن أقرأها حقًا ولكني أقرأها رغم ذلك، فإن لوكاس وفقًا لها يُعد طفل لا يجد الراحة إلا إذا كان كل شيء تمامًا مثلما يعرفه، أي

عندما أحافظ على الطقوس: إطعام، ابتسام، غسيل، تغيير حفاظات، أغنية النوم، صلوات المساء، قبلة على اليدين الليّنتين الممتلئتين وكعبي القدم، دغدغة البطن، المصباح الذي يلتف في شكل خط ويلقي على الحائط بظلال لشخوص الأساطير بألوان الباستيل.

أكاد لا أحتاج للنوم، إذ أغفو فقط أثناء النهار بينما أرضعه وأنا جالسة على الكرسي الهزاز.

إلى جانبي كتاب الأساطير. أصبح لون كلمات الإهداء داخله باهت لدرجةٍ تجعل من قراءتها أمرًا يكاد يكون غير ممكن.

أكتب....

أتوجه بالشكر على دعمي في أثناء كتابة هذه الرواية إلى كل من:

الدكتور ديتر بيتس وإليزابيث أبندروت وهارتموت هولتس أبفل، وسوزانه ليفالتر وتوماس هورليمان وكاتيا أوسكامب. وكذلك إلى وزارة هيسن للعلوم والفنون وبنك هيسن للاقتصاد والبنية التحتية، ومجلس هيسن للأدب وبيت فيسبادن للأدب، فيلا كليمينتينا، ومنتدى هيسن الأدبي في برج موسون وقصر أوريون.

إلا أن خالص شكري أخصُّ به مُحرِّرَ الرواية "ألبان نيكولاي هيربست".

نبذة عن المؤلفة

ريكاردا يونجه

ولـدت عـام 1979 في مدينـة فيسـبادن الألمانيـة وتخرجـت مـن معهـد الأدب الألمـاني في مدينـة لايبزيـج، ثـم درسـت اللاهـوت الإنجيـلي في فرانكفـورت. حصلـت يونجـه عـام 2003علـى جائـزة جريملزهـاوزن التشـجيعية نظـير باكـورة أعمالهـا، لاسـيما روايـة "الخيـط الفـضي". وفي عـام 2005 صـدرت روايتهـا "بلـد ليـس بالغريـب" والتـي فـازت عنهـا بجائـزة جيـورج كونيـل. كـما صـدرت لهـا عـام 2008 روايـة "قصـة جميلـة"، وعـام 2010 روايـة "امـرأة غريبـة". أمـا روايـة "آخـر الأيـام الدافئـة فقـد صـدرت عـام 2014. وكانـت ريـكاردا يونجـه قـد حصلـت عـام 2013 عـلى جائـزة روبـرت جيرنهـاردت. وهـي تعيـش مـع أسرتهـا بـين برلـين وفرانكفورت.

نبذة عن المترجمة

د.علا عادل

درسـت اللغـة الألمانيـة وآدابهـا بكليـة الألسـن جامعـة عـين شـمس حيـث تعمـل حاليًـا أسـتاذًا بالقسـم ، وهـي مترجمـة تحريريـة وفوريـة لـدى العديـد مـن المؤسسـات الناطقـة بالألمانيـة وعديـد مـن دور النـشر العربيـة والألمانيـة. ترجمـت أكـثر مـن ثلاثـين كتابًـا مـن الألمانيـة إلى العربيـة والعكـس، واختـيرت عضـو لجنـة تحكيـم جائـزة الترجمـة مـن الألمانيـة إلى العربيـة التـي أطلقهـا معهـد جوتـة لثـلاث دورات عـلى التـوالي وعضـو لجنـة تحكيـم جائـزة الترجمـة بالمركـز القومـي للترجمـة ومنسـق لبعـض المشروعـات في حقـل الترجمـة إضافـة إلى نشـاطها في تنظيـم دورات لتأهيـل المترجمـين الشـباب للمنتـدي الثقـافي النمسـاوي وإدارة حلقـات نقاشـية وقـراءات أدبيـة مـع كبـار الأدبـاء الألمـان والسـويسريين والعـرب.

قصة حب عائلية، لكنها بالأساس قصة عائلة فرقها جدار برلين.

تبحث آنّا ذو التسعة وعشرين عامًا عن جدها الذي هرب إلى ألمانيا الشرقية عام ١٩٦١ واختفى بعدها مباشرة. تجد آنّا في بحثها حبها الحقيقي قبل أن تتكشف قصة جدها وتغير حياتها تمامًا.

كيف أثّر جدار برلين وانهياره على جيل بأكمله اجتماعيًا ونفسيًا. وكيف بدأت تلك التحولات الثورة الاجتماعية في ألمانيا. هي قصة بانورامية لتاريخ ألمانيا الاجتماعي الحديث منذ الخمسينات إلى الآن. قصة عن الحب والخيانة، عن الوطن والغربة، وعن سؤال الحرية: هل نبقى أم نرحل؟!..

"الرواية الأكثر مبيعًا في ألمانيا"

جريدة BILD

"قصة حزن بين ألمانيا وألمانيا!.. مسارات الأطفال هي الأقوى"

Regula Freuler, NZZ

"السياسة لها تأثيرها على الحياة الخاصة للعائلات. يمكن أن تدمر الأسرة أحيانًا. تجعل ريكاردا يونجة هذا واضحًا تمامًا في روايتها"

Michael Reinartz, WDR2







